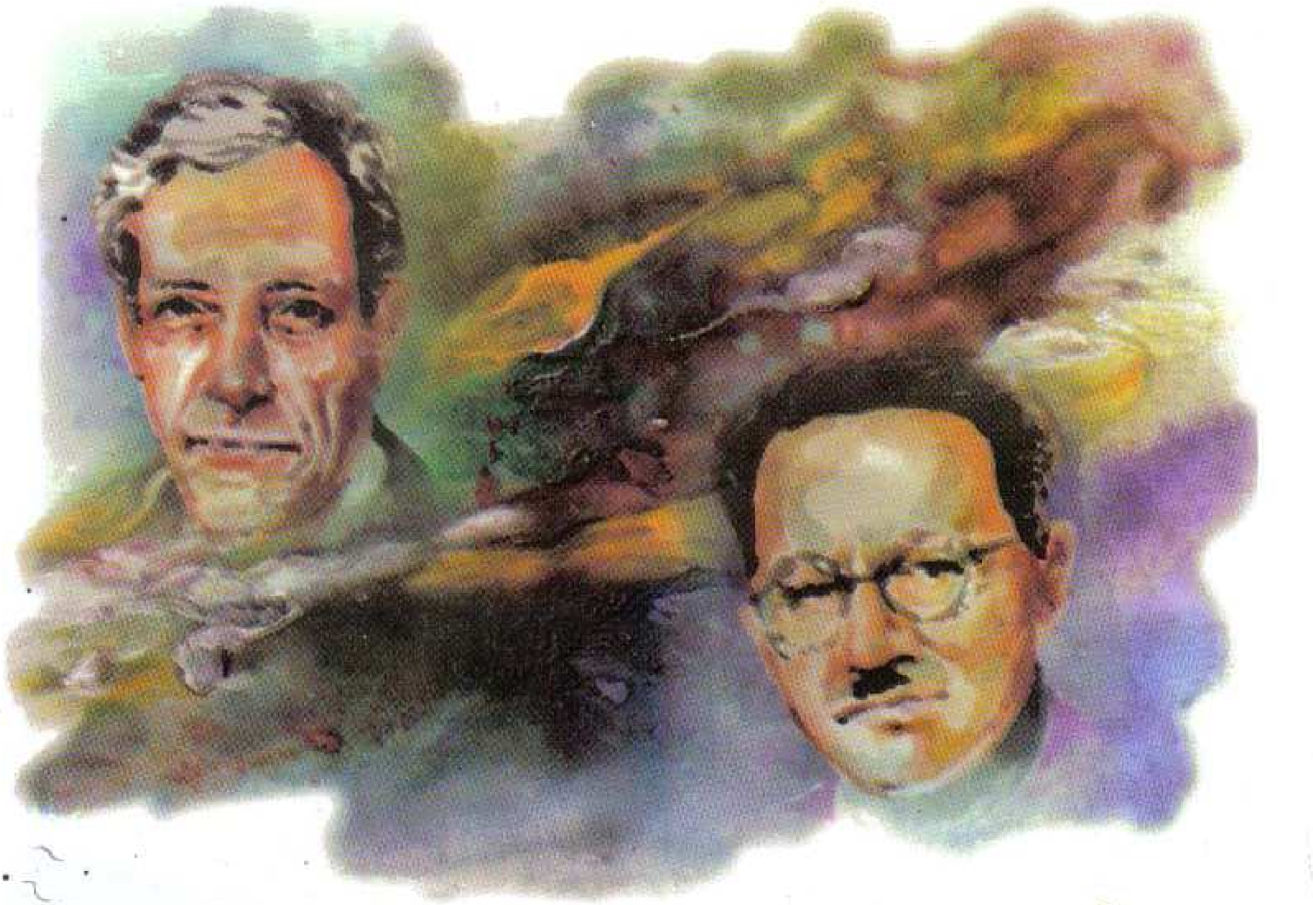
12

الدكتور عبد الله ركيبي

دراسات في الفكر والثقافة

الفرانكفونية مشرقا ومغربا



الأعمال الكاملة

DKA
دار الكتاب العربي



الدكتور عبد الله ركيبي

هو عبد الله خليفة ركيبي من مواليد الجرة عام 1928م ولاية بسكرة.
زاول تعليمه الابتدائي بمسقط رأسه والمتوسط والثانوي في تونس أما تعليمه الجامعي والعالي فكان بجامعة القاهرة.
تحصل على شهادتي الأهلية والتحصيل من الزيتونة بتونس وشهادات الليسانس والماجستير والدكتوراه من جامعة القاهرة "كلية الآداب-قسم اللغة العربية".
اعتقلته السلطات الفرنسية في معتقل (آفلو) بولاية الأغواط سنة 1956م.
ثم فرضت عليه الإقامة الجبرية في مدينة بسكرة ولكنه فر منها ليلتحق بجبل الأوراس معقل الثورة.
أرسله جيش التحرير الوطني إلى تونس ومنها أرسلته الحكومة المؤقتة في بعثة علمية إلى القاهرة سنة 1960م.
بدأ التدريس سنة 1967م بجامعة الجزائر "كلية الآداب" قسم اللغة العربية وترقى في سلك التدريس حتى أصبح أستاذ كرسي للأدب العربي الحديث.
أشرف على البحث العلمي بالقسم المذكور لمدة ثلاث سنوات وبقي عضوا في مجلس البحث العلمي حتى تقاعد الجامعة.
تخرج على يديه طلبة من الجزائر وأقطار عربية أخرى بالماجستير والدكتوراه وناقش العديد من الأطروحات بجامعة الجزائر ودمشق وحلب وغيرها.
حاز على العديد من الجوائز والشهادات التقديرية.
ترأس مجلة "الفكر العربي" التي أسسها مثقفون جزائريون بعد الاستقلال سنة 1965م.
ترأس لجنة الفكر والثقافة بحزب جبهة التحرير الوطني.
أسهم في تأسيس اتحاد الكتاب الجزائريين.
له مؤلفات كثيرة في الأدب والفكر والثقافة.

د. عبد الله ركيبي

الفرانكوفونية
مشرقاً ومغرباً

دار الكتاب العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الكتاب	الفرانكفونية مشرقاً ومغرباً
اسم المؤلف	عبد الله ركيبي
تصميم الغلاف	لويزة الحسين
التصميم الفني	دار الكتاب العربي

دار الكتاب العربي
للطباعة النشر والتوزيع
حي العناصر عمارة 309 رقم 03 القبة- الجزائر
الهاتف/فاكس: 021 31 44 51
الجوال: 0770 91.77.73

الإيداع القانوني: 3269-2009 المكتبة الوطنية
ردمك: 978-9947-833-61-2

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة في إطار الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب

بسم الله الرحمن الرحيم

(وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)

سورة هود، من الآية 88

مقدمة

إن فكرة الكتابة في موضوع هذه الدراسة كانت قد راودتني منذ سنوات خلت، ولكن إلحاحها على نفسي ازداد بعد أحداث أكتوبر 1988 في الجزائر وما فجرته من ظواهر وأثارته من قضايا تتصل بالسياسة والفكر والثقافة والأدب، وتعالت الأصوات تنادي بالديمقراطية والتعددية الحزبية بعد أن سيطر حزب جبهة التحرير على مقاليد الحكم والحياة غداة الاستقلال، هذا الحزب الذي قاد كفاح الشعب الجزائري أثناء ثورة نوفمبر الجيدة...كما ارتفعت الحناجر في كل مكان من أرض الوطن تطالب بالمزيد من الحرية والعدالة الاجتماعية وظهرت الشعارات التي تدعو إلى احترام حقوق الإنسان.

وحين بدأ تطبيق نظام التعددية عاد الحديث بقوة عن النهضة والطرق التي تساعدنا على التقدم والخروج من التخلف بعد أن انتهت تجربة قادها حزب جبهة التحرير الوطني سنوات طويلة، وكثر الكلام عن مكانة اللغة العربية في هذه المرحلة الجديدة، وظهرت نعرات قبلية وجهوية ولغوية متعصبة وبدت الإقليمية بصورة سافرة غير معهود.

كنت أتأمل هذا كله وأتأمل ما يجري في جناحي الأمة العربية وأتابع الاجتهادات المختلفة والشعارات "**الوحدوية**" التي رفعها أصحابها هنا وهناك، كل يدعي أن رأيه هو الأسلم لتحقيق التنمية والوحدة والتحرر من الضعف والتشتت والنفوذ الأجنبي.

ولكن المشكلة التي واجهتني في الكتابة عن "**الفرانكوفونية**" ودورها في المشرق والمغرب العربيين، أنني لم أعثر على أية دراسة تتناول هذا المجال بصورة يمكنها أن تساعدني على الإلمام بالموضوع أو تصور منهج معين لتناوله، وإن وجدت مقالات تتحدث عن الفرانكوفونية من زاوية خاصة، أما الموازنة أو المقارنة بين ملامحها في المنطقتين فلم أعثر على شيء تطمئن إليه نفس الدارس الذي يتوخى الحقيقة مجردة من الملابسات الخارجة عنها، وقررت أن أخوض

هذه التجربة لعلني أمهد الطريق لمن يرغب في التوسع والبحث من المهتمين بالأدب والثقافة والفكر في المغرب والمشرق معا.

والواقع أنني كلما قرأت كتابات تعالج القضايا التي تتصل بالعروبة واللغة والوحدة زادت قناعتي بما أقدمت عليه وتملكني هاجس المحاولة للإسهام بالرأي والتحليل والاستنتاج فيما يتصل بالقضايا التي أرقت المثقفين مشرقا ومغربا وخاصة تلك التي تتعلق بالثقافة وبالأصالة والمعاصرة، وكنت لا شعوريا أقارن بين جناحي الأمة كلما تعلق الأمر بوضع الثقافة العربية.

وانثالت على ذهني أسئلة كثيرة ترتبط بدور الفرانكوفونية وكذلك بدور اللغة والثقافة "الأنجلوسكسونية" وهل خدمتا الثقافة العربية:وإلى أي حد؟؟ وهل أفادت منهما أي من الثقافتين بنفس المستوى؟ ثم هل الفرانكوفونية في المغرب العربي خاصة قد أفادت أو أثرت الثقافة العربية أم أنها أغنت الثقافة التي تكتب باللغة الفرنسية والإبداع الذي يصدر بها؟؟ ولماذا **"يستميت"** ذوو الثقافة الفرانكوفونية عندنا – أي في المغرب العربي في الدفاع عن الفرنسية وبانفعال زائد في أحيان كثيرة؟؟! ولماذا يكون حديثهم عن العربية والدفاع عنها حين يثار موضوع التعريب يبدو مجرد عاطفة أقرب إلى الرثاء منها إلى الدفاع الحار الصادق عنها والعمل على ترقيتها ونشرها في مختلف مجالات الحياة؟!!

وبالطبع عندما تثار هذه الأسئلة وغيرها نجد أنفسنا مجبرين على الحديث عن التاريخ والحضارة والفكر والسياسة والأدب والثقافة، لأننا نتحدث عن الإنسان ونوازعه المادية والروحية وعن مصالحة ومثله، وعن القضايا التي تمس حياته وحياة الأجيال القادمة، فهي إذن قضايا قديمة جديدة.

وهذه الدراسة تحاول أن تجيب عن هذه الأسئلة الكثيرة التي تتعلق بالموضوع أو عن بعضها على الأقل ومن منظور موضوعي بحت لا يخضع لتحزب أو غرض أو أفكار مسبقة، وهدف صاحبها هو الإسهام في الحوار الدائر – مشرقاً ومغرباً – حول المحاور التي لها صلة بتعريب الفكر واللغة وعروبة الهوية وأصالة المعتقد ووحدة الأمة وما يتفرع عن كله ويجسد حياتنا في الأزمنة

الثلاثة التي بها يتحقق وجودنا وتتشكل ملامح مجتمعنا الذي نصبو إليه ونعمل على تحقيقه.

وإذا كانت الأجيال السابقة قد خاضت في مثل هذه القضايا وأعطت رأيها في الحل، صائباً أو لا، صحيحاً أم غير صحيح، فإننا اليوم حين نثيرها نجد بين أيدينا مستجدات طرأت على حياتنا تدفعنا إلى التفكير وإعادة النظر والبحث عن الجادة الصحيحة التي تجنّبنا السير في « نفق»طال ظلامه!!

فالفرانكوفونية التي نتحدث عنها اليوم بوصفها لغة وفكراً وثقافة، ليست جديدة من حيث الجذور والأصول والتاريخ، فقد ناقشها الآباء والأجداد واجتهدوا في آرائهم حولها وحول فائدتها حسب ظروفهم ونظرتهم ووضعهم الثقافي والسياسي، ولكن الجديد في عصرنا هو النظرة إليها الآن ومستقبلاً وحكمنا على دورها في حياتنا الثقافية خاصة وقد تحررت أوطاننا بعد عبودية طويلة، ومن ثمة فإنه من المفروض أن تتغير النظرة إليها، فهل ذلك فعلاً؟؟ وإلى أي مستوى؟؟

أعتقد أن الإجابة عن مثل هذه الأسئلة هي لب الأمر، لأن الفرانكوفونية اليوم أصبحت قوة فكرية ولغوية وثقافية بل وسياسية واقتصادية بعد أن تقلص ظلها«العسكري» الرسم، وبرزت في ثوب جديد وبتنظير مختلف عن السابق وكشفت عن أنيابها التي غلفتها بقشرة من ذهب مصطنع براق ولكنه مضلل خادع. فإذا كانت – في الماضي – قد وقفت ضد العروبة والوحدة وضد العربية، وبالأخص في الأقطار التي انتشرت فيها بقوة الاحتلال والإدارة والسيطرة الاستعمارية، فإنها في هذه المرحلة قد ساعد على انتشارها تخطيط محكم وظروف أصبح الصراع فيها حضارياً ثقافياً لا مادياً عسكرياً. ومن ثمة فإن لهجتها تغيرت وتكاثرت فئة الداعين إليها بعد أن كانت قليلة فيما مضى.

ويكفي أن ننظر إلى المناخ العام في الزمن الماضي لنتأكد من أن المثقفين بها كانوا قلة بالقياس إلى شريحة المثقفين بالعربية وإلى معظم أفراد الشعب، أما الآن فقد تغير الوضع وبدأت عداوتها للعروبة والوحدة سافرة ولم يعد يتستّر

دعاتها، ولا سيما في الجزائر، بل أماطوا اللثام عن وجوههم باستثناء **«قلة»** سنتحدث عنها في حينه، كما أن المنطلقات اختلفت بين القديم والجديد لدى أنصارها والمدافعين عنها.

فقبل أحداث أكتوبر كانت هذه **«الشريحة»** المعادية تتحدث عن اللغة الفرنسية بأسلوب هادئ، كما أنها تنقد صعوبة العربية بشيء من الموضوعية أو على الأقل بلهجة متزنة وإن صحبها انفعال أحياناً، بينما اليوم نراها تصرخ بملء فمها ودون مداراة أو موارية فتهاجم هويتنا ولغتنا وحضارتنا في كتاباتها ومحاضراتها وأحاديثها تحت أسماء كثيرة وعناوين مزيفة أقلها شعار: **«الكونية»** و**«العالمية»** وتسخر من الفكر القومي والهوية العربية الإسلامية... وينسى هؤلاء إن الذين حكموا الجزائر وسيروا دواليب الدولة بعد الاستقلال لا فيها وحدها بل في المغرب العربي بوجه عام ليسوا العروبيين في الغالب، وإذا فإن فشل التنمية الثقافية والاقتصادية والاجتماعية يعود إلى الفكر الفرانكوفوني سياسة ونموذجا.

ويتفق الفرانكوفونيون – مشرقا ومغربا، قدماء وجدداً – في آن التخلف الذي نعاني منه راجع إلى تشبثنا بالماضي ورفضنا للحضارة الغربية وعلومها، وهو الاتهام نفسه الذي حاول الفرنسيون أن يزرعوه في منطقتنا منذ احتلالهم لبلداننا حتى خروجهم منها، بل وحتى الآن، في حين ينسى الجميع أن أسباب هذا التخلف هي عوامل خارجية فرضت على شعوبنا ولا تمت إلى الثقافة العربية أو الحضارية التي تنتمي إليها بسبب من الأسباب.

ولعل اعتداء الغرب أخيراً على العراق بقيادة أمريكا ومساندة الصهيونية ومشاركتها يظهر أن **«التخلف»** فرض علينا بالقوة العسكرية تحت الاحتلال واليوم تستخدم القوة نفسها بأساليب عدة للإبقاء عليه والمنطق لم يتغير! ونحن نعرف أن فرنسا **«الفرانكوفونية»** قامت بدور بارز في هذا الاعتداء وسخرت له كل ما تملك من تقنية وإعلام ودعاية، والذي حمل هذا في صواريخه وأسلحته

كتب عليه بلغتها ونفذته ثقافتها وفكرها في قتل أبناء الشعب العراقي الشقيق مع بقية الحلفاء وحصد أرواح الأبرياء بالقنابل والصواريخ وأدوات الدمار.

ولا شك أننا – لسوء الحظ – سنعيش مرحلة ما بعد هذه الحرب وسنرى آثارها المدمرة التي بدأت بالفعل على الفكر الوحدوي وعلى الأوضاع الاقتصادية والسياسية والثقافية، وربما تفتح مجالا جديدا للفكر الفرانكوفوني – مشرقاً ومغرباً – كي تعود النغمة من جديد وتتكرر المعزوفات المألوفة بألحان جديدة وإن كانت لمؤلف واحد! وسنسمع أصواتاً تدعو الأمة العربية إلى التعقل وتعمل على **«تهدئة»** النفوس وضبط الأعصاب، وسيكون في المقدمة **«جوق»** الفرانكوفونية سواء من أصحابها الأصليين أم من المتبنين لها.

لكن هذه الحرب الفظيعة التي فرضت على الشعب العراقي وعلى الأمة العربية قد برهنت مرة أخرى أن العلم ليس حكراً على الغرب بما فيه فرنسا التي أسفرت عن عداوتها المعهودة لأمتنا ولحضارتنا، وأن العرب ليسو قابلين للتخلف والاحتلال، كما وأن الضجة المفتعلة التي تعالت منذ أسابيع تندد بالجزائر ومحاولتها في مجال الذرة لا تحول بيننا وبين التقدم حتى ولو هددت واشنطن وباريس وقرعتا الطبول وتوعدتا بالويل والثبور. فقد مرّ عصر الخوف من الإرهاب الغربي وعصاه الغليظة!!

وهذه الفصول التي كتب بعضها قبل حرب الخليج وبعضها الآخر بعدها ليست موقفا ضد الثقافة الأجنبية – ومنها الفرنسية. ولكنها وقفة مع الذات نعرف أنفسنا وواقعنا ومكانتنا في هذا العالم الذي لن يتوقف فيه الصراع من أجل الحق والخير والعدل ومن أجل الحرية والمستقبل الأفضل.

ومن ثمة فإن المنهج الذي اعتمده هو المنهج التاريخي مضافاً إليه تحليل الواقع والمقارنة بين بيئات أو فترات أو ظروف وحتى الأشخاص، ونقد هذا كله بروح عملية موضوعية حسب النصوص والوثائق، وليس الغرض هو رفض **«الفرانكوفونية»** جملة وتفصيلا، ولكن تبيان دورها في ثقافتنا، إيجابا أو سلباً.

وهناك قسم أخر من هذا البحث خاص بالتطبيق وضرب المثل من خلال كتابات نموذجيين مختلفين من المفكرين: أحدهما من المشرق والثاني من المغرب ونظرة كل منهما إلى اللغة والثقافة وما يدور في دائرتيهما. وهذه المقارنة أو الموازنة طريفة في حد ذاتها كما أنها تنبئ عن شخصية كل منهما وتأثير الثقافة الفرنسية فيها ومدى الاستفادة منها أو تسخيرها لخدمة العربية أو العكس.

على أن إهتمامي كما ذكرت – انصب على الفرانكوفونية عندنا أو في أقطار عربية أخرى، دون أن أهمل الحديث عن الثقافة **«الأنجولوفونية»** ودورها في النهضة الثقافية العربية، وإن عنيت بالأولى لأن أثرها في المغرب العربي أقوى وأشد من حيث الدعوة والدعاة في الماضي والحاضر من حيث تراثها اللغوي والأدبي والثقافي، ثم – وهذا هو الأهم – أنها تضرب بجذورها في منطقتنا وترى فيها مجالاً سياسياً حيوياً وبيئة هامة إقتصادياً وثقافياً لها ولمصالحها، لأنها تعيش في الضفة الأخرى من حولنا إلى جانب المصالح الأخرى المتشابكة والعناصر التي تدعونا إلى التأثر والتأثير.

وبعد، فأنا أكتب هذه المقدمة ولم يبق سوى أسابيع قليلة لاحتفالنا بالذكرى السابعة والثلاثين لثورة نوفمبر العظيمة وعيوننا تتجه إليها وقلوبنا تهفو إلى مثلها وأيامها وأمجادها، وعقولنا تفكر فيما بقي منها...من تراثها وقيمها وعظمتها، ونفوسنا تحن إلى المبادئ التي غرستها فينا وما ألهمتنا من معاني النضال والحرية والتضحية من أجل الكرامة والشرف، وكانت فخراً للأمة العربية مثلما هي الثورة الفلسطينية التي تمثل تحدياً للصهيونية ودفاعاً عن الأرض والوطن، ومثلما ضحى الشعب العراقي الشقيق من أجل كرامة العرب في حربه الأخيرة ومثلما ناضل الشرفاء العرب في كل مكان من أجل الوحدة والمصير الواحد.

الجزائر سبتمبر 1991

د...عبد الله ركيبي

الباب الأول

الفرانكوفونية
بين السياسة والثقافة والأدب

الفصل الأول: بين الفرانكوفونية والأنجلوسكسونية

حين فكرت في الكتابة عن الفرانكوفونية لم يكن يدور بخلدي أن أقوم بمقارنة بين الثقافتين الفرنسية والإنجليزية أو غيرهما، ولا بين الاستعمار الفرنسي وملامحه وبين الاستعمار الإنجليزي وأسلوبه، ولا كان هدفي المفاضلة بين الفكر الفرنسي والفكر الإنجليزي، كذلك ليس من اهتمامي المقارنة بين الأمتين الفرنسية والإنجليزية وعلاقتهما بالمستعمرات ومنها الأقطار العربية، فهذه كلها من اختصاص المؤرخين والسياسيين وعلماء الاجتماع فيما اعتقده. وإذا كنت أشير أحياناً إلى أمور تتصل بما ذكرت فذلك من قبيل الاضطراري، لأن ما شغلني طويلاً ودفعني إلى التأمل هو هذا المناخ الثقافي العام الذي تعيشه ثقافتنا العربية اليوم، والموقف من اللغة العربية بشكل خاص وفي منطقة المغرب العربي بوجه أخص.

والظاهرة التي تحتاج إلى تفسير مقنع وهي ملفتة للنظر لكل من يهتم بالثقافة العربية ودورها في حياة الفرد والمجتمع في هذه الدائرة التي ننتمي إليها إقليمياً وجغرافياً على الأقل، هي أننا مازلنا نناقش قضايا ناقشها أجدادنا منذ بداية هذا القرن وتحدثوا عنها بصورة مستفيضة وحددوا موقفهم منها، سواء من ينتمي منهم إلى الثقافة العربية أم إلى الثقافة الفرنسية، فمازلنا نختلف حول **«اللغة»** ولكن بصورة أشد ونختلف حول صلاحية العربية وقدرتها على التعبير عن العصر ومستجداته. بل أكثر من هذا نختلف حول مفهوم اللغة الوطنية، هل هي العربية أم غيرها؟؟!

ورغم أننا تحررنا من الاستعمار الفرنسي السياسي والعسكري، في حين أن أجدادنا كانوا يرزحون تحت وطأة هذا الاستعمار بكل ألوانه، رغم هذا فإن عقولاً مازلت ترسف في قيد الاستعمار الفكري والثقافي واللغوي ولم تستيقظ بعد من تأثيره إن لم نقل تخديره وكأنها مسحورة به لا ترى الأشياء إلاّ من منظاره الذي وضعه على عيون أصحابها فلا يستطيعون رؤية الحياة بدونه.

ويزيد من مأساتنا أن ما نختلف فيه اليوم في هذه البقعة قد فرغ منه أشقاؤنا في المشرق العربي منذ أكثر من نصف قرن، سواء منهم من خضع للاستعمار الفرنسي أم الانجليزي ولا أذكر الاستعمار الإيطالي في ليبيا فقد تحررت من تأثيره تماماً بعد قيام الفاتح من سبتمبر العربية كذلك لا نذكر الأقطار العربية في المشرق التي لم تتعرض لأي نوع من الاستعمار الغربي وإن تعرضت لحكم الأتراك الذي حاول تتريك اللغة كما فعل في كثير من البلدان التي حكمها تحت شعار الإسلام، أو حكمت بطرق وأساليب أخرى باسم العائلة أو القبيلة أو بالوارثة أو باسم الدين أو باسم تلك كلها. فهؤلاء جميعاً لا يناقشون القضية من زاوية واحدة ولكن يناقشونها من حيث أنها تحتاج إلى وسائل حديثة تعمل على نهضتها ووقوفها في صف اللغات الحيّة المتطورة، أما الشك فيها وفي قدرتها فهو من الأمور المحسومة هناك في حين أنه لم يحسم في منطقتنا وخاصة عندنا في الجزائر بحيث رجع وضعها إلى نقطة الصفر لدى طائفة من المثقفين والسياسيين وبعض الكتاب والأدباء.

على أنني حين أحاول أن أرسم صورة معينة للون من ألوان الاستعمار، فإنني في واقع الأمر لا أفرّق بين استعمار وآخر، إنجليزياً كان أم فرنسياً أم صهيونياً أم إيطالياً أم إسبانياً أم برتغالياً أم ألمانياً، فكلها أنواع تمثل الحكم والسيطرة والاستغلال والتسلط واضطهاد الإنسان وكلها مرفوضة مهما حملت من شعارات أو تسترت تحت عناوين معينة، لأنها في آخر المطاف تقف ضد حرية البشر وضد حق الإنسان في الحياة الحرة الكريمة.

ولست معنياً في هذه الدراسة بأشكال الاستعمار وأجناسه وأهدافه أو طرقه في الحكم، مباشراً كان أم غير مباشر، فهو شؤم كله ما دام يسلب الإنسان أعز شيء في الوجود ألا وهو الإحساس بالكرامة الآدمية وشعوره بإنسانيته. ولكن ما يعنيني هنا هو تأثير هذا الاستعمار الفكري والثقافي واللغوي في فئة معينة تعيش في أقطار ما اصطلحنا على تسميته بالمغرب العربي.

والأمر الذي يثير الدهشة حقاً هو تشبث الفرانكوفونيين في هذه البلدان باللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية – خاصة في الجزائر– مما لا نجد له مثيلاً في أقطار عربية أخرى مثل أقطار المشرق العربي، وأنا لا أفرق بين الجناحين كما ذكر المفكر العربي «**حسن حنفي**» الذي يرى: «**إن المغرب والمشرق ليسا معطيين أوليين أو وحدتين ذاتيتين متباينتين بل هما جناحان لعالم واحد هو العالم العربي...**» [1].

وهنا يخطر في الذهن سؤال آخر عكس هذا تماماً هو : لماذا لا يتشبث المثقفون بالإنجليزية والذين عرفوا بـ«**الأنجلوسكسون**» باللغة الإنجليزية ويدافعون عنها بنفس القدر الذي نلحظه لدى الفرانكوفونيين عندنا؟ فهل هذا راجع إلى نوع الاستعمار؟ وهل تغلغلت الفرنسية في بيئة المغرب العربي إلى درجة أنها أضعفت الإحساس باللغة القومية؟ وهل هناك عوامل أخرى ظاهرة أم خفية جعلت النظرة إلى اللغة تختلف بين هؤلاء وأولئك؟

وإذا كنا قبل اليوم نناقش قضية اللغة من زوايا مختلفة دون أن نبحث عن جذور المشكلة، فإن الوقت قد حان لنقول الحقيقة بنوع من التفصيل والتعليل الذي يساعدنا على فهم بعض الظواهر الاجتماعية التي تتصل بالثقافة واللغة بعيداً عن العواطف والاتهامات وبدلاً من الفعل ورد الفعل. ولابد أن نغوص في أعماق الواقع حتى نصل إلى حكم نطمئن إليه ونتجاوز هذه المرحلة التي طالت وتشابكت فروعها وغاب حديث العقل فيها إلى درجة أننا تركنا الجوهر، وهو تطور العربية، إلى العرض وهو التشكيك فيها وفي حياتنا نفسها. فإخوتنا في المشرق تجاوزوا هذه الحالة«**البيزنطية**» وذهبوا يؤلفون بلغتهم العربية التي هي لغتنا نحن أيضاً، بينما مازلنا نحن في المغرب العربي أو مازال كثير منا يناقش، هل نكتب بها أم باللغة الأجنبية أي الفرنسية؟؟!

---

[1] حوار المشرق – حسن حنفي، محمد الجابري – دار توبقال للنشر – المغرب ط **1** سنة **1990** ص **54** .

وأشقاؤنا في المشرق العربي يستغربون تعصب البعض منا للدفاع عن الفرنسية، حديثاً وكتابة وقراءة، ودفاعهم عنها أكثر من دفاعهم عن لغتهم القومية، ويندهشون حقاً من هذا الحماس الزائد للدفاع عن الفكر الفرانكوفوني، ويحتارون مثلنا – نحن الذين نقدس لغتنا الوطنية، اللغة العربية ونقدس ثقافتنا القومية – نحتار جميعا من هذا الموقف الذي يصعب أن نجد له نظيراً في الأقطار العربية الأخرى (**المشرقية**) التي ابتليت بالإستعمار الغربي، ونحتار في تعليل هذه الظاهرة تعليلاً علمياً..فهل دوافعها مصلحية آنية؟ هل سببها التكوين، هل الأمر يعود إلى الأشخاص وأمزجتهم؟ وهل تختلف اللغات في التأثير والسيطرة على العقول بحيث إن بعضها يشلّ التفكير شللاً تاماً؟؟ وهل جنس الاستعمار له دخل في ذلك؟؟

لو واصلنا الأسئلة لما توقفنا عند حد..فالسؤال يثير سؤالاً إلى ما لا نهاية، وكل هذه الأسئلة تبحث عن أجوبة مقنعة، ولابد أن نلتمسها في معان كثيرة تتصل بالماضي وقد تربط بالحاضر وبالطبع تنسحب على المستقبل أيضاً، وهذه هي الخطورة التي ستحدث زلزالاً في الأجيال القادمة إن لم نتدارك الأمر ونضع حذاً للمهاترات والبلبلة التي تعصف بما تبقى من قيم ومآثر الأسلاف.

ودون أفكار مسبقة ولا بحث عن مبررات للظاهرة التي سبقت الإشارة إليها، فإن المطلوب هو أن نحلل معطيات هذه الظاهرة ونترك **«التعصب»** الذي أصبح يتحكم في حوارنا ومناقشاتنا كلما تعلق الأمر باللغة والثقافة، والمهم أن نحلل الظروف التي أدت إلى استمرار هذا الوضع الغريب بعد استقلال أقطار المغرب العربي ونحدد المرجع الذي يجعل هذا يدافع عن العربية بوصفها لغة قوية لا سواها، ويعتبر الإنجليزية أو الفرنسية أو غيرهما لغات أجنبية تتساوى في قيمتها أو في وضعها وتجعل آخرين يتشككون في العربية وقيمتها وينتقون الفرنسية وحدها من بين اللغات الأجنبية في العالم!!

وفي تقدير أن الأمر هنا يحتاج إلى إعادة القول في جوهر الموضوع ألا وهو تأثير الاستعمار، ومع هذا ورغم أنني لا أفرق بين شكل الاستعمار أو لونه كما

ذكرت سابقاً فإن الأساليب تختلف وإن كان الهدف واحداً وهو استغلال الإنسان، وهو بالطبع الإنسان العربي في موضوعنا.

وقد لاحظ هذا الاختلاف باحثون قبلي وفرقوا بين طريقة الاستعمار الإنجليزي في الحكم وبين طريقة المستعمرين الفرنسيين في سيطرتهم واستغلالهم للشعوب المغلوبة على أمرها. والمعروف أن الإنجليز يميلون بطبعهم إلى المساومة والمهادنة وإلى التقليل من الخسارة ما أمكن، واهتمامهم ينصب على الربح المادي أساساً نظراً لفلسفتهم الذرائعية المعروفة من ناحية وإلى مزاجهم الهادئ من ناحية أخرى فهم لا يستخدمون القوة من بداية الأمر يلجأون إليها حين لايجدون مناصا من استخدامها، ونجد هذا حتى في لغتهم التي تبتعد عن الحسم والقطع والجزم وتميل إلى الشك والحذر والتحفظ مثل قولهم: أظن، أعتقد، ربما، أتصور...إلى آخر التعابير التي تتجنب التأكيد حتى إنه يصعب وأنت تتحدث معهم أو إليهم وحتى وهم يتحدثون مع بعضهم البعض أن تخرج بحكم نهائي قاطع لا يقبل المناقشة.

وبالطبع فإن هذا الأسلوب في التفكير والتعبير وهذا الاتزان في الأحكام، انعكس في نظرتهم وسلوكهم الاستعماري. فنجد اهتمامهم بالتجارة والمردود المادي أساساً ثم الجانب الثقافي واللغوي والفكري وغيره بعد ذلك. فهم لا يرفضون لغتهم بقوة القانون والقوة المادية العسكرية، وإنما ينشرونها بأساليب مختلفة فيها إغراء ومراوغة وتبيان لفائدتها ومنفعتها لمن يستخدمها في حياته الخاصة بالنسبة للفرد والعامة وبالنسبة للشعوب التي ابتليت باستعمارهم. وهم لا يغضبون عندما يجدونك لا تعرف لغتهم بل يبحثون لك عن مبرر حتى لا يجرحوا إحساسك ولا يشعرونك بالنقص رغم أنهم يعرفون أن لغتهم أصبحت هي اللغة الأولى في العالم بعد أن فرضتها أمريكا بواسطة القوة المادية والتقنية والسيطرة الفكرية والعلمية... ولعل موازنة الشاعر «**عاطف يونس**» بين أساليب الفرنسيين في محاربتهم للعربية وبين الإنجليز توضح ما أقول فهو يرى أن الفرنسي يهجم على العربية ويحاول اجتثاثها من جذورها نهائيا بينما الإنجليزي

يناور ويحاول ويقول بالنص: «...وإنما (يقصد الإنجليز) راحوا **ينفرون أبناءها منها بتعقيد برامجها وتكثيف مقرراتها وتشويه كتبها المدرسية بينما كانوا يمنهجون تعليم لغتهم ويستعملون وسائل الجذب والتشويق...»** [1]

وسواء كان أسلوبهم هذا يدل على مزاج أو ذكاء فإنه يدل أولا على طبيعة خاصة عرف بها الإنجليز على عكس ما عرف عن المحتلين الفرنسيين. فاستعمارهم يصدر في تصوره وموقفه عن الإحساس بالتفوق والتضخم، الأمر الذي كوّن ما يمكن أن يسمّى **«مزاج العنف»**. وقد عرفناه نحن الجزائريين في أعنف صورة وأشرس مظاهره، فهو لايكتفي بالإستغلال وامتصاص العرق والدم، ولكنه يعمل على ابتلاع شخصية الشعوب التي احتلها، يبتلع ثقافتها، تاريخها، لغتها، كيانها وذاتيتها. فهو لا يركز على الجانب المادي وحده بل أيضاً وأساسا على الجانب الفكري والثقافي، لأنه يشعر – أعني المحتل لفرنسي – بأنه من طينة أخرى غير طينة الذين احتلتهم وسيطر على مقدراتهم. ووسيلة للإبتلاع هي القوة والبطش فلا إرادة للآخرين مع إرادته.

وهذا المزاج المعقد العنيف دفع المستعمرين الفرنسيين إلى تجاهل الآخرين، واقعاً وتاريخاً وثقافة، وحال بينهم وبين أن ينظروا إلى الشعوب الأخرى نظرة فيها إنسانية، بل إنهم نظروا إلى أنفسهم وكأنهم مدار الكون الذي ينبغي أن يتجه إليه كل من أراد أن يتقدم أو يتعلم أو يقتبس!!

وهذا ما تؤكده حتى لغتهم، ففيها ما يوحي بالقطع والجزم والتوكيد والتميز، لذلك فإن ثقافتهم تهيمن على من من يندمج فيها وتطغى على تفكيره وإحساسه إلا القليل النادر. والذين تعلموا في المدارس الفرنسية يعرفون أن تاريخ العالم هو تاريخ فرنسا وثورتها ولا شيء بعدها! وزاد من هذا المزاج قيام هذه الثورة الفرنسية التي وإن حررت الأنسان الفرنسي وقدمت مبادئ علياً للإنسان، فإنها في الوقت نفسه أضافت لمزاج أصحابها – كما أشرت – **«عنجهية»** جديدة!!

---

[1] المجاهد الأسبوعية – **1** جانفي **1988**.

ثم هناك الفتوحات الكثيرة – وخاصة ما قام به نابليون – فقد أضافت لهذا المزاج تصوراً آخر فضلا عن استعمار عشرات البلدان في قارات كثيرة. فإن أضفنا إلى كل ذلك المستوى الحضاري الذي حققه الفرد والمجتمع، أدركنا لماذا يتميز هذا المزاج بالهيمنة وحب الظهور والتسلط والتميز...

ولا أظن أن هناك شعباً من الشعوب – إلا القليل – يتعصب للغة وثقافته مثلما يفعل الفرنسيون وهذا حقهم، ولكنهم يبالغون في الحق إلى درجة أن تصبح لغتهم فوق اللغات جميعها حتى مع يسألك مباشرة: **«هل تعرف الفرنسية؟»** فإن أجبت بالإيجاب انفرجت أساريره وإن حدث العكس فإنك تحس بغيظ مكتوم وكأنه يقول في نفسه: **«كيف لا يعرف لغتنا الجميلة!!»**

ولقد تعرض جزائريون كثيرون للسخرية والإهانة لأنهم أجابو على السؤال بالنفي. بل إن بعضهم تعرض للضرب والحجز بعد الاستقلال مباشرة، لأنه لم يكن يعرف الفرنسية ولم يتعلمها في الجزائر. ونعرف أن أبناء الفلاحين والعمال وغيرهم لم تتح لهم فرصة تعلم الفرنسية قبل الاستقلال. وأمثال هذه الواقعة التي ذكرتها تحدثت عنها الصحافة وقتها، ذلك أنّ **«المزاج»** الذي تحدثت عنه يحمّل الآخرين المسؤولية، مسؤولية«التجهيل» المتعمد للجزائريين بحيث وصلت نسبة انتشار الأمية إلى تسعين بالمائة في سنوات الاحتلال الأخيرة!!

ولعل أصدق تصوير لأنواع الاستعمار وأمزجة أصحابه سواء من الفرنسيين أم من الإنجليز أم من الأسبان ما أورده المناضل المغربي **«المهدي بنونه»** في كتابه **(المغرب...السنوات الحرجة)** على لسان قنصل اسبانيا في **«تطوان»** في بداية القرن واسمه **«لوييز فيرير»** حين سئل: ماذا يحدث إذا للمغرب احتله إحدى الدول الثلاث؟ فأجاب: **«يرجح أن تحتل المغرب بريطانيا أو فرنسا وإذا قدر واحتلته بريطانيا فإنها ستحلبه كالبقرة حتى آخر نقطة، أما فرنسا فلن تصبر حتى ينزل الحليب إلى ضرع البقرة ولكنها ستحاول ذبحها وأكل لحمها...!!»** [1].

---

[1] النص نقلته جريدة الشعب بتاريخ 26 فيفري 1990 وهو مأخوذ من الكتاب المذكور.

ولو أردنا أن نرسم صورة أخرى لقلنا أن الاستعمار الفرنسي يشبه الحية الرقطاء التي تطلق سمومها على ضحيتها، ثم تشرع في قضمها وهي تسمع صراخها وأنينها وتشاهد آلامها ودماءها، في حين أن الاستعمار البريطاني يشبه السارق الذي يتوارى عن الأنظار بعد أن يأخذ ما يحتاج إليه، أما الإيطالي فإنه يرفع ضحيته إلى أعلى نقطة في الفضاء ثم يلقي بها وهو يقفز فرحا مثل الطفل حين يحطم لعبته!!

وعندما سئل الدبلوماسي السابق أيضا: **«ماذا يحدث إذن لو احتلت إسبانيا المغرب؟»** أجاب :**«هذا أمر ليس مستبعداً»** ثم أشار إلى **(إثنين)** من الحمّالين كانا يجلسان على مقربة منهم وقال: أنتم ترون، هناك أمام المقهى إثنين من الحمالين يجلسان القرفصاء ويحتسيان الشاي من كأس واحدة ويدخنان من **«سبسي»** واحد، فإذا إفترضنا أن ثالثاً قد شاركهما سيكون وإذا احتلينا المغرب سنعيش وسط الشعب كجزء منه ولن ننزع إلى السيطرة كالفرنسيين [1].

فحكم هذا الدبلوماسي الإسباني يلخص نفسية المستعمرين الذين حكموا من منطقة المغرب العربي بل الوطن العربي مشرقاً ومغرباً، وهي نفسية – كما سبق وقلت – عرفناها جيداً وخبرنا أصحابها ودوافعهم ومطامعهم، ولكن هذا الدبلوماسي لم يقل لماذا يستعمرون هذه البلدان؟؟ وهل الاستعمار الإسباني مختلف عن الآخرين لأنه تأثر بالحضارة العربية الإسلامية مثلاً؟ ثم ما سبب اختلاف المزاج لدى هؤلاء جميعاً رغم أن منهم من وجد على حوض البحر الأبيض المتوسط ومن كان بعيداً عنه؟؟

ربما يصح القول أن الفرنسيين ظلوا حاقدين على العرب عامة بسبب الحروب الصليبيّة، وعلى أبناء المغرب العربي خاصة بسبب مقاومة السكان لاستعمارهم مقاومة مستمرة وعنيدة، كما أنه يرجع أيضاً إلى تأثر الفرنسيين

---

[1] المرجع نفسه.

بالكنيسة وتعاليمها. لهذه الأسباب بقت النظرة العنصرية في أوساط الفرنسيين تجاه أبناء المغرب العربي حتى يومنا هذا.

ويواصل المناضل المغربي «بنونة» المفاضلة بين استعمار وآخر فيشير إلى أن الفرنسيين كانوا يصادرون الأراضي المغربية بالقوة من أصحابها — وهو ما فعلوه أيضاً في الجزائر وتونس. ويقول عن الأسبان مانصه: **«فقد كانوا يتمتعون بالنخوة وهذه حقيقة، واعتبروا الاستيلاء على أراضي الغير لصوصية لذلك أحجموا عن القيام بما قام به الفرنسيون في منطقة المحمية الفرنسية»** [1] [2].

ولا داعي لأن نعيد إلى الأذهان ما فعله المحتلون الفرنسيون في الجزائر وأعمالهم الفظيعة منذ احتلالهم لبلادنا حتى خروجهم منها في مختلف المجالات المادية والاقتصادية والثقافية والسياسية، ويكفي أنهم اعتبرونا فرنسيين وأن الجزائر قطعة من فرنسا وجزء لا يتجزأ منها، وهذا لم يحدث إلا نادراً في التاريخ العالمي.

إن روح العنصرية هذه تبدأ من التربية الأولى، تغرس في الأطفال الصغار فتنشأ معهم وتكبر مع الزمن بحيث تسري في اللاشعور . ولقد شاهدت بنفسي — كما شاهد غيري — كيف ينزع هذا الإحساس بالحقد والتعالي في نفوس أبنائهم، كان ذلك في شهر جويلية من عام 1904، أي قبل ثورة بقليل في المدينة **«سانديزي»**، وكان معي الأخ الشهيد **«عمار بن سعيد»** وإخوة آخرون. وفجأة سمعنا إمرأة تغلق الباب بعنف على أطفالها وصوتها يعلو قائلة: **«احذروا أهل شمال إفريقيا وخاصة الجزائريين»**

Attention les nords Aficains surtout les algeriens

وتعجبا وقتها من هذا الحقد الذي لا مبرر له، ولن نشير من قريب وبعيد إلى أنواع العنصرية والشوفينية التي يعرفها العام والخاص . ومن المفارقات

---

[1] المرجع نفسه.

[2] يقول الأستاذ صلاح العقاد: «فإسبانيا في استعمارها لجزء من المغرب لم تحارب الثقافة العربية بنفس الشدة ولم تسعى للتفريق بين عنصري السكان»، «المغرب العربي»- صلاح العقاد — مكتبة الأنجلو المصرية1962 ص :386- 391.

العجيبة أن ثورتهم تدعو إلى المساواة والأخوة والحرية، والملفت للنظر حقاً أنهم بعد خروجهم من أقطار المغرب العربي بعد كفاح مرير يتعجبون ولا يكادون يفهمون عداءنا لاستعمارهم، فنحن لا نعادي الشعب الفرنسي بكامله ولكن نرفض طغيانهم وظلمهم وسياستهم المهيمنة!!.

والنظرة الإستلائية هذه والمبالغة فيها، تدفعهم إلى تجاهل شعور الآخرين من أبناء هذه المنطقة. بل إنهم يطلبون منا أن ننسى وحشيتهم، وأكثر من هذا أن ننوه بعظمتهم وعظمة ثورتهم، فنحن بالنسبة إليهم مجرد **«مجال حيوي»** لنفوذهم وسيطرتهم الثقافية والسياسية والاقتصادية. وهم يختلفون في ذلك عن الآخرين الذين احتلوا أقطار عربية أخرى، لأن هؤلاء إذا زاروا بلداً سبق لهم احتلاله وأثير أمامهم ما اقترفوه من مظالم يشعرون بالخجل، بينما الذين احتلوا بلادنا حين يزورنا أحدهم يتصرف وكأنه في بلده وكأنه منازل سيداً ويبدوا هذا بجلاء في سلوك من عرفوا **«بالأقدام السوداء»**.

ونحن حين نذكر هذا إنما نحلل الدوافع والملابسات التي تعبر عن موقف ما تجاه قضايا كثيرة تتصل بالواقع العربي في المشرق والمغرب العربيين لأن هذا ينير لنا الطريق إذا عرضنا للظروف الثقافية في المنطقتين والملامح التي تتشابه هنا وتختلف هناك رغم أنها ثقافة واحدة تعبر عنها لغة واحدة وإن اختلفت أوضاعها من منطقة إلى أخرى.

وإذا رصدن الملامح التي تتشابه فيها الفرانكفونية أو تختلف بين الجناحين فإن هذا يقتضي التمييز بين مظهرين لها:

الأول: الفرانكوفونية التي جاءت بواسطة الإحتلال.

الثاني: تلك التي تحققت بواسطة التعليم والبعثات.

فيما يتصل بالجانب الأول، فنحن نعرف أن سوريا ولبنان قد احتلتهما فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة، وحاولت أن تنزع لغتها وثقافتها كما فعلت في المغرب العربي، واستخدمت أساليب كثيرة مثلما فعلت عندنا. فإلى جانب القوة العسكرية استعانت بالإرساليات والمعاهد والمبشرين، وإذا كانت

قد وجدت تربة صالحة في لبنان بواسطة المارونيين الذين احتلموا بفرنسا منذ الماضي الحضاري الذي كانت عاصمة له أكثر من قرن وكذلك للدور البارز الذي قام به المفكر العربي الوحدوي **«ساطع الحصري»** الذي اتخذ قراراً ثورياً يوم أشرف على التربية والتعليم في سوريا وجعل الإنجليزية هي اللغة التالية بعد العربية، وقام بتعريب مراحل التعليم المختلفة حتى أصبحت سوريا رائدا في التعريب في مختلف مجالات المعرفة والعلوم، إنسانية كانت أم دقيقة..يضاف إلى دور مفكر آخر هو **«زكي الأرسوزي»**، فضلا عن دعاة الفكر العروبي من بعثيين وناصريين وقوميين عرب آخرين، كل هؤلاء أسهموا في توحيد المسار الثقافي العربي في الشام مع غيرهم ممن ثقفوا ثقافة أنجلوسكسونية.

أما الدراسات والبعثات إلى جامعات الفرنسية فإن تأثرها بالفكر الفرانكوفوني كان محدودا، لأن تكوينها في الشام كان أساسا بالعربية، اللغة الأم، فالباحث يستوعب أولا ثقافة العربية ثم تأتي دراسته بالفرنسية بغرض الفائدة والإطلاع على المناهج الجديدة والأساليب المختلفة والمدارس المتعددة، ولذا يكون الإعتزاز أولا باللغة القومية أما الفرنسية فهي لغة ثانية أجنبية، فرع لا أصل.

ورغم أن الفرانكوفونية في لبنان تختلف عنها في سوريا، فإنها لم تصل إلى المستوى الذي حققته في المغرب العربي، وكان المفروض أن تكون أقوى وأكثر إنتشاراً وتأثيراً في هذا البلد العربي الشقيق لظروفه المعروفة، مثل كثرة الطوائف واختلاف الأديان وارتباط مصالح فئات كثيرة بفرنسا، إلى جانب الفكر الإقليمي الإنعزالي الذي تنكر لعروبته واندمج في الفكر الفرانكوفوني خاصة وأن هناك سياسيين تزعموا الدعوة إلى هذه الفكرة مثل **«شارل الحلو»** وغيره من زعماء الفرانكوفونية كتاباً ومثقفين وساسة، قلت رغم هذا كله فإن الفرانكوفونية لم تسيطر على المناخ الأدبي والثقافي هناك كما حدث في المغرب العربي، بحيث لم تنتشر الكتابة بها مثلما هو الشأن في منطقتنا، بل حتى الذين ارتبطوا بها يكتبون بالعربية، وتعليل هذا يبدو في أنهم

لو كتبوا بها لما وجدوا قارئاً لانتاجهم. يؤكد هذا الحكم أن الذين رفعوا شعار الحداثة في لبنان من خلال مجلة «**شعر**» وكتبوا وروجوا لما يسمي بقصيدة النثر، لم يكتبوا بالفرنسية بل ترجمت أشعارهم إليها من العربية. فهم لم يرفضوا لغتهم، بل دافعوا عنها وعن تراثها لأنه تراثهم، ولو أنهم وقفوا ضد الجمود في صيغها وتحرروا من قيود كثيرة تتصل بالشعر وتقيد في رأيهم حرية الشاعر والأديب.

أما الذين ذهبوا منهم إلى الدراسة في الجامعات الفرنسية ليحضروا رسائل جامعية – وهو كثيرون في لبنان – فإنهم نظروا إلى الفرنسية باعتبارها لغة أدب وعلم وفن تساعدهم على توسيع معارفهم وتعميق تجاربهم، وتمكنهم من التجديد منهجاً ورؤية وأسلوباً وظلوا أوفيا – أو على الأقل الأغلبية الساحقة منهم – للعربية تأليفاً ودراسة وتعبيراً. ونحن نعرف مدى دفاعهم عنها وعن أدبها وثقافتها وتراثها، بل وأسهموا في نشره وتحقيقه والمنافحة عنه وعن العروبة وحضارتها سواء كانوا مسيحيين أم مسلمين، ما عدا تلك الفئة القليلة التي اندمجت في الثقافة الفرنسية كما أشرنا.

وعلى العموم فإن موقف المثقفين الشوام تجاه العربية يشبه إلى حد كبير موقف المثقفين بالإنجليزية الذين درسوها في أقطارهم مثل العراق والأردن أو مصر والسودان واليمن أو غيرهما، أو ذهبوا إلى بريطانيا أو أمريكا ووصلوا تعليمهم في الجامعات هناك وتخصصوا في علوم كثيرة، فهم بدورهم لم يتنكروا للعربية أو ينتقصوا منها ومن ثقافتها، بل حاولوا إغناءها بالتأليف وبالترجمة معاً. ويمكن أن نضرب أمثلة كثيرة للأدباء العرب ممن كتبوا بلغات أجنبية دون أن يرفضوا الكتابة بالعربية أو يهاجموها، والأمر ينسحب أيضاً على من تعلموا الألمانية أو الأسبانية أو الروسية وغيرها، فهم جميعاً ألفوا بغرض تطوير هذه اللغة – أي العربية – وإثرائها بفكر جديد كان إسهاماً حقيقياً في التجربة الثقافية المعاصرة.

نخلص من هذا إلى أن الفرانكوفونية رغم أنها وجدت لها مجالاً في المشرق العربي، إلا أن المثقفين هناك نظروا إلى الفرنسية نظرة مناقضة لنظرة أمثالهم في المغرب العربي.

فأولئك اعتبروها لغة أجنبية تحمل ثقافة يمكن الاستفادة منها، بينما عندنا اندمجوا فيها إلى درجة اختفت معها النظرة المحايدة الموضوعية لأن شعورهم بتفوقها جعلهم يدافعون عنها بانفعال أكثر مما يدافعون عن لغتهم القومية.

وفي اعتقادي أن ذلك سببه التكوين منذ البداية، فالفرانكوفونيون في المغرب العربي أو كثير منهم لم تترسخ أقدامهم في العربية عندما أتيح لهم الالتحاق بالمدرسة. وحتى أولئك الذين أخذوا قليلاً منها في بيئاتهم الخاصة تركوها فيما بعد واندمجوا في الفرنسية تماماً ونسوا لغتهم القومية. وبحكم السن والزمن والظروف، أصبحت الفرنسية هي لغتهم الأولى ومن ثمة فعذرهم واضح، إن كان الجهل بالشيء يعتبر عذراً مقبولاً، بينما أمثالهم في المشرق العربي كانت ظروفهم مختلفة تماماً كما أوضحنا من قبل فاستيعابهم للغة الأجنبية – سواء الفرنسية أم غيرها – جعلهم يتحكمون فيها ولا تتحكم هي فيهم، وطنوها ولم يتوطنوا فيها، أدمجوها في ثقافتهم ولم يندمجوا فيها، طوعوها ولم تطوعهم، عجنوها ولم تحرقهم!!

وبالمقابل فإن الفرانكوفونيين في منطقة المغرب العربي – إلا النادر الذي لا يقاس عليه – قد تشربوا هذه اللغة فأغرقتهم في لجتها، ومن النادر أن تقرأ لواحد منهم رأياً يعتز فيه بالعربية مثل المشارقة الذين يفخرون بأنهم يتغنون بالعربية ويؤلفون بها مع إتقانهم للغات الأجنبية، والأمثلة كثيرة فالعقاد مثلاً كان يعتز بلقب **«كاتب العربية الأكبر»** ومثله طه حسين الذي لقب بـ **«عميد الأدب العربي»**. فإذا ذكر اسمه ذكر معه هذا اللقب، ومثلهما نجيب محفوظ أو زكي نجيب محمود أو سهير القلماوي أو شكري عياد وحتى لويس عوض الذي كان أستاذاً في الأدب الإنجليزي ولكن جل كتاباته بالعربية. والمقام لا يسمح

بعرض آرائهم عن العربية ودفاعهم عنها... يكفي فقط أن نقول إن الواحد منهم، سواء من درسنا عليهم في جامعة القاهرة أو من التقينا بهم في مناسبات أدبية أو ثقافية، كان لا ينطق كلمة أنجليزية واحدة سواء أثناء المحاضرات أم في الحديث العادي، إلا إذا كان الأمر يتطلب الإشارة إلى مرجع ما أو مصطلح مثلاً حتى ليشك المرء أحياناً في معرفتهم للغات الأجنبية، وطوال السنوات التي درست فيها بقسم اللغة العربية في كلية الآداب لم أسمع أستاذا ممن كانوا يلقون محاضراتهم علينا مثل سهير القلماوي أو شكري عياد أو عبد الحميد يونس أو المرحوم عبد المحسن بدر وغيرهم أو ممن التقينا بهم في ظروف أدبية من مختلف الأقطار العربية أمثال عبد القادر القط، محمود أمين العالم، رجاء النقاش وآخرين من العراق وما أكثر الذين تخرجوا من الجامعات الإنجليزية والأمريكية، ومع هذا حين تتاح لك فرصة الحديث إليهم لا تسمع منهم سوى الحديث عن العربية والتنويه بها، وكذلك الذين درسوا في إسبانيا وتتلمذنا عليهم مثل المرحوم عبد العزيز الأهواني، والشيء نفسه نلمسه في المثقفين الفلسطينيين والأردنيين الذين أتقنوا الإنجليزية تماماً وألفوا بها ويصعب ذكرهم لكثرتهم وهذا أمر جدير بالتقدير والاحترام.

على أنني سأذكر مثلاً واحداً حياً عايشته عن قرب لأنه لفت نظري بصورة ساطعة، فأثناء دراستي وتحضير رسالتي الماجستير والدكتوراه تحت إشراف الدكتورة سهير القلماوي، لم تخطيء ولو مرة واحدة فتنطق بالإنجليزية في حديثها ومناقشتها لي وللآخرين حتى التقيت بها في مؤتمر كتاب آسيا وإفريقيا في مانيلا عام **1975**، حيث مثلت الجزائر في هذا المؤتمر وكانت ضمن الوفد المصري، وترأست إحدى الجلسات وفاجأت الجميع بإنجليزية متدفقة تنبئ عن فصاحة وتمكّن لفت نظر الحاضرين جميعاً، ولما سألتها قالت بأنها لم تدرس العربية إلا بعد شهادة البكالوريا أما قبلها فكانت دراستها بالإنجليزية والفرنسية، والفضل في ذلك يعود إلى تشجيع أستاذها الدكتور طه حسين الذي أشرف على رسالتها للدكتوراه وشجعها على الاتجاه للأدب

الحديث بدلاً من الطب، ودفاعها عن العربية معروف للعام والخاص مثل دفاعها عن الأدب العربي والثقافة العربية.

وهناك مجال يلتقي فيه الفرانكوفونيون في منطقتنا وفي المشرق مع تفاوت أو اختلاف في الرؤية وأعني به الدعوة إلى العامية، فالإقليميون الفرانكوفونيون في المشرق العربي وخاصة في مصر، دعوا إلى الكتابة بالعامية ولكن ذلك كان إنطلاقاً من إقليمية صرفة مثلهم مثل من نادى بها في المغرب العربي منذ اوائل هذا القرن، ولكن المنطلق هو أن كتابة الأدب بلغة لا يفهمها الشعب أمر لا قيمة له، ثم إن العربية – في نظرهم – هي لغة العرب وهم مصريون أو لبنانيون أو غير ذلك!!.

كان هؤلاء يبحثون عن حل لمشكلة الكتابة وحاولوا أن يجدوا طريقاً ثالثاً بين الفصحى والعامية، ومع هذا لم يحققوا نتيجة تذكر. وحتى توفيق الحكيم وحسين فوزي وأضرابهما كتبوا بعربية فصحى معربة في كثير من الأحيان وكلاهما تخرج من الجامعات الفرنسية ويرفض فكرة العروبة.

وقد انتشرت هذه الدعوة في المغرب العربي، وخاصة في تونس، في سنوات ما قبل الاستقلال وبعده جرياً وراء الفكرة التي ذهب أصحابها إلى المطالبة بأدب تونسي محلي إقليمي، وفي هذا الصدد يشير المفكر العربي محمد هشام بوقمرة، إلى وجود بعض الأدباء في تونس يدعون إلى الكتابة بالعامية: **«ويعتبر هذا الطرف أن الأدباء التونسيين الذين يكتبون بالفصحى إنما يكتبون بلغة غير لغتهم كما لو كانت الفرنسية مثلاً وأنهم يخضعون أنفسهم لتقاليد وأغلال تبعد بهم عن الصدق والعفوية والبلاغة الحقيقية التي لا نجدها إلا في الأدب العالمي »** [1].

على أنه من إتمام القول في هذا المنحى أن نعرض لآراء بعض المفكرين والمثقفين المشارقة فيما يخص العربية والدارجة، فالعقاد يقول: **«إن في كل أمة**

---

[1] «القضية اللغوية في تونس» - محمد هشام بوقمرة ج 1- الشركة التونسية للتوزيع 1985 ص : 173- 175 .

والرد على هذه الدعوات كلها – كما يراه هذا الناقد العربي هو: **«تكوين الدولة العربية الواحدة، هذه الدولة التي ستكون أساساً لحضارة عربية قوية، وهذه الدولة وحدها هي الرد الحاسم على التخلف الذي تعانيه الأمة العربية...»** [1].

وكان يمكن للأدباء والشعراء المهجريين مثلاً أن يقفوا موقفاً مماثلاً لدعاة الأدب الإقليمي أو الكتابة بالعامية نظرا لأنهم ثقفوا ثقافة أجنبية، إنجليزية أو فرنسية أو روسية، ولكن ما حدثهو العكس فهم لم يندمجوا في ثقافة الغرب وينسوا جذورهم وانتماءهم الأصيل، لذلك انصبت دعوتهم على تطوير اللغة وأساليبها وعملوا على أن تكون مرنة قادرة على التعبير عن مشاعرهم ونقل العلوم في سهولة ويسر وهاجموا الجمود الذي عانت منه العربية لأنهم لا يتشككون في قدرتها ولا يطالبون ببديل عنها حرفاً أو لغة أخرى. **«فميخائيل نعيمة»** مثلاً ينظر إلى اللغة نظرته إلى الكائن الحي ينزع عنه ما لا يتماشى والواقع فيقول : **«إن اللغة التي هي مظهر من مظاهر الحياة لا تخضع إلا لقوانين الحياة، فهي تنتقي المناسب وتحتفظ من المناسب بالأنسب في كل حالة من حالاتها، وكالشجرة تبدل أغصانها اليابسة بأغصان خضراء وأوراقها الميتة بأوراق حية...»** [2].

هنا نلحظ الفرق في النظر إلى اللغة، فالأقليميون المتعصبون – إلا النادر منهم – رفضوا العربية وحتى الحرف العربي، بينما الكتاب الأصلاء أمثال **«العقاد» «وطه حسين» «ونعيمة»** وأمثالهم بحثوا عن الطرق التي يمكن أن تساعد على تطوير اللغة والثقافة العربية ورفضوا بشدة دعاة الأدب الإقليمي ودعاة العامية أو دعاة الحرف اللاتيني، وهؤلاء مثل كثيرين من أدباء المغرب العربي الذين دافعوا عن العربية وما زالوا وموقفهم هو نفس موقف زملائهم في المشرق العربي.

---

[1] المصدر نفسه ص: 70 .

[2] الغربال – مخائيل نعيمة- دار صادر بيروت 1964 ص: 96 .

ويمكن أن نضيف عاملاً مهما يساعدنا على فهم الفرق بين الفرانكوفونيين في المنطقتين، وأعني به دور السياسيين، فالذين تأثروا بالفكر الفرنسي من أشقائنا الساسة درسوا العربية وأتقنوها، وكتاباتهم عن الثقافة الفرنسية كانت بالعربية، اما في منطقتنا فالساسة في مجملهم تأثروا بنفس الأفكار التي تدعو إلى الحرية والفكر الليبرالي الغربي، ولكن تعبيرهم عن ذلك كان بلغة المستعمر. صحيح أن بعضهم مثل **«علال الفاسي»** أو **«بورقيبة»** كان يخاطبان الجماهير بالعربية، الفصحى لدى الأول والدارجة لدى الثاني مثل **«مصالي الحاج»** أيضاً.

ولكن كثيرا من ساسة الأقطار المغربية مثل **«فرحات عباس»** ودعاة الإدماج أمثال **«بن جلول»** وغيرهما كانوا يكتبون أو يتحدثون أو يخاطبون المواطنين بالفرنسية، رغم أن الجماهير كانت أمية ولا تعرف الفرنسية، في حين أن ساسة المشرق كما أشرنا لا يخاطبون الناس إلا بالعربية لأنهم لو خاطبوهم بلغة أجنبية كيفما كانت لا نفض الناس من حولهم.

وربما يعزى هذا إلى أن الفرد في المغرب العربي، مثقفاً أو غيره، سريع التأثر بالثقافة الفرنسية وسريع التحدث بها حتى ولو كان لا يعرف حرفاً منها قراءة وكتابة، ولا يشعر بالحرج إذا تحدث بها أو مزج بينها وبين الدارجة أو الفصحى المعربة، وقد لا يحس بنقص وهو يخلط بين الكلمات والتعابير التي تتدخل فيها اللهجات أو اللغات المتعددة... والأمر في المشرق العربي على العكس من هذا ولعل أيضاً للتربية العائلية دخل في ذلك، فكثير من الفرانكوفونيين يتحدثون مع أبنائهم بالفرنسية كما يتحاور بها الناس في الشارع بلا أي كابح أو قيد. وربما يدل هذا على شعور ما بالتفوق وتقليد الأجنبي، لكن أشقاءنا في المشرق لا يخاطبون أبنائهم بلغة أجنبية إلا في حدود ضيقة جداً ولدى فئة مستلبة فكرياً وثقافياً لا تمثل ظاهرة عامة، بينما في المغرب العربي وخاصة في العواصم التي خضعت للإستعمار الفرنسي أصبح الأمر عادياً ومألوفاً!!.

وغالباً نبرر هذا الوضع بالإستعمار وآثاره، وتلك ثغلة نلجأ إليها حين نعجز عن تفسير الظاهرة تفسيراً علمياً أو منطقياً، فالأقطار العربية في المشرق عانت هي الأخرى من الإستعمار مثلنا، وكان المفروض أن يكون رد الفعل في أقطارنا هو رفض الإحتلال وما يتبه أو يرتبط به شتى النواحي لفترة تطول وتقصر، ولكن هذا راجع إلى ضعف المقاومة لمخلفات الإستعمار؟؟ وهل أسهمنا فيه بالنسيان وترك الأمور تسير على عواهنها؟ وما هي مسؤولية الأجيال المتعاقبة في هذا الوضع؟؟

قد تكون الإجابة سهلة – كما تعودنا – بأن نلقي المسؤولية على **«ابن خلدون»** الذي أوجد لنا المبرر لنتشبث به كلما وجدنا أنفسنا نواجه وضعا شاذا مثل كلما وجدنا أنفسنا نواجه وضعاً شاذاً مثل وضع اللغة والثقافة بعد استقلال هذه البلدان فتقول معه : المغلوب يقلد الغالب أو الضعيف يقتفي. أثر القوي. وإذا كان هذا يصح على فئة محدودة في المشرق العربي فلماذا يشمل فئة كبيرة بل فئات في **«أقطارنا المغربية»**. وإذا صح هذا بالنسبة للجيل الذي عاش تحت الإحتلال فكيف يصح على جيل الحرية والتحرر والإستقلال؟؟!

وإذن فنحن نحتاج إلى دراسة علمية، نفسية وإجتماعية وسياسية لنعرف بالضبط ماذا حدث، وهل عادة التقليد عندنا أسرع منها عند أشقاءنا في المشرق؟؟ ولكن الجواب بالإيجاب قد لا يكون دقيقاً لأن المنطقة عرفت بالتمرد وعدم الخضوع بل وبالثورة والسخط على الظلم وعلى التحكم كما عرف سكانها بانفعالهم السريع ورفضهم لما يفرض عليهم بالقوة؟!

فالمهتمون بالإجتماع في المنطقة لم يولوا عناية تذكر لهطه الظواهر وتحليل الظروف والملامح والجذور والمؤثرات، ولم نستخدم الإحصائيات التي تساعدنا على الوصول إلى الجواب المقنع، ثم إن هذه الظاهرة تبدوا حقاً سلبية إلا أن ظواهر أخرى إيجابية تمحو الأخرى وتغطي عليها بل وتدفعها إلى نقطة باهتة خاصة حين يتصل الأمر بكرامة الوطن والأمة.

ولنا في تجربة العراق علمياً وحربياً مثل ساطع، فقد تجندت الأجيال للوقوف بجانب العراق أثناء الإعتداء عليه فيما سمي بحرب الخليج كما أن تجربته العلمية أعطت مثلاً دعَّم إيمان الناس بالعربية وقدرتها على خوض غمار التقنية بها بجناح، وهذه التجربة ستغير من مفاهيم كثيرين سواء منهم **«الفرانكوفونيون»** أم **«الأنجلوسكسونيون»** فقد برهنت العربية والعقل العربي على الصمود والمقاومة وبرهن الفكر العربي على إمكانية أن يحتل مكانته في العالم.

وفي تقديري إن أولئك الذين وقفوا ضد التعريب في المشرق العربي أو في المغرب العربي وخاصة في الجانب العلمي، قد يراجعون مواقفهم أو يخففون من حدة انفعالهم تجاه العربية وتجاه تعريب الطب والعلوم الأخرى، ومع هذا فأنا أدرك أن المقاومة ستستمر لأن تغيير القناعات وتبديل الأفكار الراسخة المسبقة من الصعوبة بمكان . ثم إن هناك فئة من الناس في المشرق والمغرب معاً ليست مستعدة لأن تقتنع حتى ولو أشرقت الشمس من الغرب فهي لاتلقي السلاح وتعود إلى الصواب، لأنها تصدر في عدائها للعربية عن أمور بعيدة عن المنطق والموضوعية والنظرة العلمية ولن تقتنع بأية حجة ولو أصبحت لدى العرب الصواريخ العابرة القارات!!.

ولا يدور بخلدي هنا أبداً الإنتقاص من أية لغة أو ثقافة أجنبية فضلاً عن رفضها والتقليل من قيمتها، فلن أستطيع ذلك حتى لو أردت لأننا نعيش في عالم سمته الأساسية هي التنوع في كل شيء، عالم أصبح موحد الحضارة ونحن جزء منه بلا شك، ولكن ليس على حسابنا أو حساب لغتنا وثقافتنا وهويتنا، وهذا هو الفرق بيننا وبين أولئك الذين يعمدون إلى إلغاء الفروق بين **«الهويات»** أو يحاولون دمجنا في هوية الآخرين تحت هذا الشعار أو ذاك.

ويبقى أن نشير إلى أن الوقت الذي يبدده دعاة الفرانكوفونية أو الأنجلوفونية ويهدرونه في الدفاع عنهما وعن الحضارة الغربية، هذا الوقت أليس من الأجدر بهم والأجدى لهم وللأمة العربية لو قضوه في العمل على ترقية العربية

ونشرها وإذاعتها بين الجماهير؟! وإذا كنت قد حاولت أن أوازن بين ظروف الثقافة العربية، بين المشرق والمغرب العربيين، كما رسمت صورة للفرانكوفونية في الجناحين فإنه لا يفوتني أن أذكر أن الفرانكوفونية في المشرق قد خدمت الأدب العربي والثقافة العربية على وجه العموم وذلك بالتأليف من وإلى العربية، يستوي في ذلك الشام ومصر والعراق وبقيت أقطار المشرق العربي، أما الفرانكوفونيون عندنا في المغرب العربي فإسهامهم كان النصيب الأكبر فيه للثقافة الفرنسية، لأنهم كتبوا بلغتها لا باللغة العربية ولم يترجموا إلا قليلاً إليها ومنها، قد يكون إحساسهم بالتحدي دفعهم إلى الكتابة بلغة الفرنسيين المستعمرين أو لأن شعورهم الخفي بأنهم لا مكانة لهم إذا لم يكتبوا بها، وربما لجهلهم بلغتهم القومية...وهذا الحكم لا ينبغي أن على إطلاقه فهناك صفوة محدودة من مزدوجي الثقافة – خاصة في تونس والمغرب – قد ملأت فراغاً قليلاً فيما ذكرنا ولكن عاقتها عوامل سياسية وثقافية ومادية عن القيام بدور بارز كما تم في المشرق، أما في الجزائر فوضعها أسوأ من غيرها في المنطقة لأن الفرانكوفونيين عندنا ألفوا بالفرنسية ولم يحاولوا أن يتعلموا العربية، ومن يعرفها منهم لم يكتب بها إلا نادراً لأساليب عديدة كما سيتضح في محله من هذا البحث.

الفصل الثاني: الفرانكوفونية: نشأتها وتطورها

كثيرا ما رددنا ومازلنا نردد الحديث عن **«الفرانكوفونية»** دون أن نكلف أنفسنا مشقة البحث عن نشأة هذه الكلمة وجذورها وتطورها ولم نحدد مفهومها – منذ ظهورها بداية، ثم بعد أن دخلت في الإستعمال وأصبحت تعبيراً متداولاً فأضيفت إليه معاني أخرى غير التي وضعت له في الأصل لأن الكلمات كما هو معروف تتطور بتطور الظروف والأحوال والأشخاص الذين يستخدمونها والأهداف التي يقصدون إليها كما أنها تتجمد وتفقد حيويتها إذا بقيت في القواميس ولم تجد من ينفض عنها الغبار.

فماذا يقصد بمصطلح **«الفرانكوفونية» «FRANCOPHONIE»** وهل له معنى واحد محدد أم له أكثر من معنى؟ وهل هو مصطلح يحوي فكراً ثقافيا ولغوياً أم يتعدى ذلك إلى أفكارنا وقضايا أخرى تتصل بالسياسة والإقتصاد؟؟ وهل يحمل في طياته نظرة للكون والحياة؟ وإذا كان قد تطور فيما هي أسباب هذا التطور ودوافعه؟؟.

هذه الأسئلة وغيرها تتطلب منا الإجابة عنها ثم تحديد موقفنا من هذه القضية وكيف نفهمها وكيف يفهمها أصحابها ومن دار في فلكهم؟؟.

ومن البداية ننبه إلى أننا لا نقف ضد **«الفرانكوفونية»** إذا كان هدفها هو الإسهام في الثقافة العالمية لا السيطرة الثقافية أو السياسية أو الإقتصادية، وسأحاول أن أعتمد على مراجع أساسية في تحديد هذا كله ومنها كتاب من سلسلة: **«ماذا أعرف» Que sais-je ؟** بعنوان: **«الفرانكوفونية»** المألفة: قزافيي دينو XAVIER وهو إلى جانب أنه من الرسميين في الحكومة الفرنسية فهو أيضا رئيس اللجنة الخاصة **«الفرانكوفونية»**، فهو إذن مؤهل للحديث عن مفهومها – فكراً ومحتوى وهدفاً – كما أن هناك مراجع أخرى قد تساعدنا استشفاف المعنى المقصود والفكرة التي تحرك أصحابها سواء كانوا من الرسمين أم من

المثقفين وسواء كانوا في البلد الأصلي أي فرنسا أم الأقطار الأخرى التي تتحدث الفرنسية.

في مقدمة الكتاب المشار إليه يوضح المؤلف أن هذا المصطلح أو هذه اللفظة لم تكن في الستينات واقعاً مسلماً به كما هو الأمر في الثمانينات وهو العقد الذي: «**شقت فيه طريقها وتجاوزت مستوى المشروع، إنها حقيقة...**» [1].

طبعاً هو ينفي عنها أغراضاً أخرى غير التي تجسدها هذه الكلمة، ورأيه بالطبع مغلف بالبراءة، يسوقه في حيادية تحاول أن تتخذ الموضوعية طريقاً للإقناع. فهو يورد النص الذي ناقشه البرلمان الفرنسي ووافق عليه وهو أن: «**اللغة الفرنسية والثقافة والحضارة الفرنسية ملك كل العائلات الروحية والسياسية لبلادنا وبلدان أخرى تستخدم لغتنا. فاللغة الفرنسية واسطة وليست توسعية**" [2].

وهو لا يكتفي بهذا النص لأنه فرنسي قد لا يقتنع به من لا يشاركه هذه القناعة، فيستشهد بتعبير الشاعر السينغالي الفرانكوفوني «**ليوبولد سنغور**» وهو من دعاة «**حوار الثقافات**» أي أن «**الفرانكوفونية**» بهذا المعنى تكزن كما يقول المؤلف: «**أداة للتفاهم المتبادل والتضامن من بين الشعوب**» [3].

ومن البداية ينفي عنها صفة السياسة أو الطابع السياسي فيركز على الجانب الثقافي وعلى المصالح المشتركة لمن يرتبطون بها، كما ينفي عنها أيضاً صفة المذهبية (**الأيديولوجية**) والأمبريالية والعنصرية والإستعمارية ولكنه يرى فيها حالة: «**تبني التضامن الثقافي والأخلاقي وكذلك الإقتصادي والإجتماعي كما تفرضها متطلبات اليوم...**» [4].

---

[1] الفرانكوفونية - سلسلة «ماذا أعرف؟» قزافيي دينو – مطبوعات الصحافة الجامعية باريس ص: 5 - 1983 .

[2] المصدر نفسه ص:5 .

[3] المصدر نفسه ص: 6 .

[4] المصدر نفسه ص: 6 .

في هذه المقدمة الموجزة يحاول «**دينو**» أن يؤكد لنا أن «**الفرانكوفونية**» هدفها إنساني بحت وأنها تسعى إلى خدمة من ينضوون تحت لوائها ويعملون على نشرها، ولكنه لا يجيب عن عن سؤال هام يخطر ببالنا وهو: كيف يكون التساوي بين الجميع وكيف يكون الأمر لفائدتهم إذا كان بعض من انظم إلى «**الفرانكوفونية**» لا يملك لغة وطنية رسمية كسينغور مثلاً؟! وكيف يصح هذا التضامن إذا كان هناك طرف قوي وآخر ضعيف في كل ما ذكر من ميادين؟!

هو لا يجيب عن هذا ولكنه يبثه في ثنايا الكتاب ويوعز به ثوب المصلحة أو التاريخ أو مسايرة العصر وما إلى هذا بسبيل، كما سيتضح ذلك عند استعراضنا للغايات والأهداف وللذين شاركوا في إبراز «**الفرانكوفونية**» ككتلة لها برنامجها ووسائلها وأهدافها ودعاتها، فكراً وسياسة ولغة وثقافة.

والآن، بعد تحديد الهدف من خلال نظرة المؤلف فإننا مضطرون إلى تتبع نشأة الكلمة، وأول من أطلقها. من أطلقها. إنه الجغرافي الفرنسي «**ريكلوس» Reclus (1837–1916)**، فهو الذي أعطاها الصبغة اللغوية حسب الجغرافيا التي تنتشر فيها اللغة الفرنسية ولا سيما فرنسا «**شمال افريقيا**»، ولعل هذه الفكرة أثارت فيه النزوع إلى دراسة سكان الكرة الأرضية حسب «**وظيفة اللغة التي يتكلمونها في عائلاتهم أو في علاقتهم الإجتماعية**» [1].

وقد حدد هذا الجغرافي مفهوم الفرانكوفونية كما يلي: «**مجموعة السكان الذين يتكلمون الفرنسية**» [2]. وكان ذلك تقريباً في الثلث الأخير من القرن الماضي، فهي من هذه الناحية ترتبط بالجغرافيا وباللغة وعلاقة السكان بهما، فاللسان هنا يحدد مفهومها إلى جانب ترتبط بالجغرافيا أن تكون عامل توحيد بالنسبة لمناطق متباعدة تفصل بينهما فواصل طبيعية كفرنسا «**وشمال افريقيا**» الذي وضعه في كتابه ضمن منطقة «**الفرانكوفونية**»، خاصة إذا

---

[1] المصدر نفسه ص: **8** .

[2] المصدر نفسه ص: **8** .

عرفنا أن اللغة الفرنسية في القرن الماضي لم تنتشر تماماً لأن الجزائريين رفضوها وقاوموها، والإحصائيات الرسمية تثبت ذلك. أما تونس والمغرب فلم تكون تحت طائلة الإستعمار الفرنسي حين ظهر المصطلح.

ربما كان حماس هذا الجغرافي – كما يقول صاحب الكتاب – بأنه كان جمهورياً وطنياً وأن اللغة الفرنسية كانت في إعتقاده أداة للأفكار الحرة **«رمزاً يلخص التضامن الإنساني»** [1]، ولكن ألا يكون هذا الحماس والإنفعال والدعوة **«الفرانكوفونية»** هو دعوة إلى نشرها على نطاق واسع بمختلف السبل، وهنا يصبح لا فرق بينه وبين المستعمرين من أبناء جنسه الذين حاولوا نشرها بالقوة؟ هذا السؤال يطرأ على الذهن لأن هذا العلم **«الوطني»** لم يشر من قريب أو من بعيد إلى لغة السكان الأصليين وهي اللغة العربية فهل هذا نسيان منه أم تناسي؟!!!

ثم أن السيد كزافيي يذكر أن **«الفرانكوفونية»** مصطلحاً وفكرة توقفت أو **«اختفت من ضمير الجماعي ومن الكتابات»**، باختفاء الجغرافي الفرنسي ثم عادت إلى **«الظهور في نوفمبر 1962 في العدد الخاص لمجلة (إسبري) ESPRIT تحت عنوان : الفرنسية في العالم»** [2]، وقد شارك في ظهورها مرة أخرى كتاب مرموقون من جنسيات عديدة، بعضهم أتيح لهم أن يلعب دوراً سياسياً مثل: **«كميل بورنكيل، فوجنهايم، سنغور، بيير – هنري سمون، نوردوم، سيهانوك، جان بيولوران وجاك مارك ليجي»** [3].

وطبعاً كان الفضل الأكبر في إبراز هذه الدعوة للشاعر الإفريقي **«سنغور»** بحيث وسع من مفهومها وأعطاها حضوراً عالمياً بشعره وبمواقفه، ورغم هذا فإنها لم تدخل إلى القواميس إلا مؤخراً ولم تستقر أيضاً في ضمير الأفراد إلا فيما بعد.

---

[1] المصدر نفسه ص: 9 .

[2] المصدر نفسه ص: 9 .

[3] المصدر نفسه ص: 9 .

على أن المؤلف لا يعلل إختفاء اللفظة وبقاءها خارج القواميس وخارج دائرة الإستعمال، بحيث لم تصبح فكرة ثابتة إلا في الستينات وما بعدها. ويبدوا أنه تحرج من هذا التعليل لأن الفترة التي توقفت فيها هذه الكلمة هي فترة الإستعمار الفرنسي. إذن فنشر اللغة الفرنسية كان بالقوة وأنه لا خوف على الثقافة وعلى اللغة تحت سياط القمع والإرهاب لأن المدفع والبندقية والسجن تحميها. أما وقد تحررت الشعوب من عسف الإستعمار الفرنسي فكان لابد أن ينفض الغبار عن هذه اللفظة وأن ينفخ أصحابها فيها الحياة من جديد كي تحيا في العقول والضمائر وفي وسائل الثقافة والتعليم .

وأعتقد جازماً أن عودتها في التاريخ الذي استقلت فيه الجزائر (1962) هو العامل الرئيسي في إحيائها والإحتفاء بها، لأن هذا القطر الذي أعتبر فيما مضى جزءاً من فرنسا – يمثل التجربة العميقة والضخمة في **«فرنسة»** شعب آخر بالقوة . وما دام قد ثار على كافة القيود التي قيدته من قبل ومنها اللغة فإنه لابد من البحث عن أسلوب جديد لإبقاء الفرنسية وتشجيعها، فلم يكن هناك أفضل من **«سنغور»** وأضرابه لتصبح الحجة بهم قوية، فهم ليسو ا أصلاً فرنسيين(!!).

وهكذا بدأ العمل بجدية وتخطيط وتنفيذ من المحركين الأساسيين مع تغطية هدفهم بوجوه كثيرة بعضها عربي والبعض إفريقي أو آسيوي أو غيرهم من أقطار وقارات أخرى لتصبح – كما أشرت – لهذا العمل **«مصداقيته»** بينما هناك الوجه الحقيقي الذي سيظهر فيما بعد.

وهناك كاتب آخر هو **«لويس جان كالفي» «Luis jean Calvet»** في كتابه :

«اللسانيات والإستعمار" «Linguistique et Colonialisme»يذكر أن ظهور **«الفرانكوفونية»** وانتشارها كمصطلح بدأ يترسخ إبتداء من 1964 ويشير إلى دور **«بورقيبة وسنغور»** في العمل على إبراز هذه الفكرة إلى الوجود

بمشاركة حوالي 25 رئيس دولة حين أسسوا سنة 1970 وكالة للتعاون الثقافي [1].

إذن المصطلح ظهر في القرن الماضي ثم عاد للظهور في هذا القرن وبدأ يتطور شيئاً فشيئاً حتى عام 1968 عندما ظهر في قاموس **(لوكيد)** الذي أعطى **«للفرانكوفونية»** معنى أكثر تحديداً من السابق **«تجاوز بذلك المؤسسين خاصة سنغور وبورقيبة»** [2].

على أية حال المؤلف يستعرض في كتابه تطور الكلمة عبر الموسوعات والقواميس ويتحدث عن معناه ومفهومها ويستخلص من هذا أن اللفظة تعبر عن توجهين أو نسقين أساسيين: **«القبول بأن تكون فرانكوفونيا، أو الرضى بالتجمع الذي تكونه الشعوب الناطقة بالفرنسية، وهذا الوجه – أي الثاني – يعطي ثراء لمحتوى هذه الكلمة التي جرت على السنة الساسة والمثقفين وفي الصحافة قبل أن تحدد القواميس والموسوعات محتواه وصفته»** [3].

ومن ثمة كما يرى المؤلف فإن المصطلح وجد طريقة إلى الناطقين بالفرنسية أياً كان جنسهم أو لغتهم وبدأ في الذيوع والإنتشار، ولم يبق في الدائرة التي سبق فيها القول بل تطور مع الزمن ومع الظروف واتخذ هذا التطور عدة اتجاهات حتى إن **«صحافياً من جريدة «لوموند» وصفه بالمصطلح السحري»** [4].

ومن هنا انتشر الجدل واحتد حول المصطلح وكيف يحقق أهدافه وماهي الأساليب والطرق التي يمكن بها نشر اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية حتى إن بعضهم طالب بتأسيس **«كومونويلث فرنسي»** على غرار الكومونولث البريطاني

---

[1] اللسانيات والإستعمار – لويس جان كالفي دار بايوت للنشر باريس **1979** ص: **205 – 206** .

[2] الفرانكوفونية – فزاي دينو – ص: **10** .

[3] المصدر نفسه ص:10 .

[4] المصدر نفسه ص:**11** .

المعروف. وقد اعترض المؤلف على هذا الرأي لأنه يجعل من الفرانكوفونية نظاماً هرمياً، فالكومونويلث الإنجليزي لم يؤسس على اللغة الإنجليزية، وهو يريد للمصطلح أن يكون «**بيتاً يجد فيه كل فرد أو جماعة أو دولة ما يلائم الجميع، أي يحتاج إلى مرونة ويسمح بالتميز والخصوصية**»[1].

والمؤلف يفضل استخدام مصطلح «**لا فرانسيتي Francité**» لأنه يحتوي على مفهوم الحضارة الفرنسية، ففي رأيه أن «**الفرانكوفونية**» بمحتواها العادي أي اللغوي اللساني موجودة في الواقع ولا تحتاج إلى تجمع، المهم هو كيف تصبح «**منظمة**» تبحث عن حلول للمشاكل وتستجيب للنوازع «**الروحية**» لدى معتنقيها كي تصبح تعبيراً عن روح الحضارة الفرنسية أو «**روح الثقافة الفرنسية**»، وهذا المفهوم نجده لدى سنغور.

بعد ذلك يستعرض كيف تنوعت المفاهيم في المصطلح الأمر الذي أكسبه نوعاً من الثراء بحيث أغنى الفكر الفرانكوفوني، منها ما يتصل بالجانب اللساني ومنها ما يتصل بالجغرافيا ومنها ما يتصل بالجانب العاطفي الروحي والمؤسساتي، ويعيد إلى الأذهان الفرق بين «**فرانكوفوني**» **Francophonie** و«**فرانكوفيلي**» **Francophilie**، ولكنه يتجنب الحديث عن هذا الأخير ويحيله إلى علماء اللسانيات لأنه يدخله في عالم السياسة وهذا بالطبع يحرجه لأن مفهوم «**الفرانكوفيلي**» يعني «**الولاء السياسي لفرنسا فضلاً عن الإرتباط بها فكراً وثقافة ولغة**»!!.

ثم يناقش مفهوم الفرانكوفونية من حيث الجغرافيا فيقول – مثل القواميس والموسوعات – بأنها المجموعة التي تتحدث اللغة الفرنسية مثل فرنسا، بلجيكا، كندا (**الكيبيك**)، سويسرا، أفريقيا وجزر الأنتيل وغيرها... ويفيض في الحديث عن الشعوب التي لها لغات أو تلك التي لها لهجات فقط، بالنسبة للأولى تكون الفرنسية لغة اتصال وثقافة وحوار بينما في الثانية تكون لغة

---

[1] المصدر نفسه ص:**11** .

أساسية تعوض اللغة الأم، أي تكون هي اللسان الرسمي والعاطفي والثقافي للفرد، هذا ما نفهمه من حديثه وإن كان يغلقه بألفاظ غامضة براقة.

وحتى يقنع المتشككين في انتشار الفرنسية على نطاق واسع وفي عالميتها يضرب المثل باللغة الألمانية، لأن الشيء الهام في رأية ليس حديث ملايين الناس بلغة ما بل ذيوعها وانتشارها، غير أنه لا يبين لماذا انتشرت الفرنسية وبقيت الألمانية محدودة الإنتشار؟؟! ذلك أنه يعرف جيداً أن الإستعمار هو العامل القومي في انتشار الفرنسية فألمانيا لم يكن لها مستعمرات في القارات هنا وهناك فرضت عليها لغتها بالحديد والنار أو بوسائل أخرى كثيرة لا داعي لذكرها فهي معروفة للجميع.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى يعتبرها رابطة عاطفية وروحية بين من يتكلمون بها أفراداً وجماعات، فهم يتفقون في النظرة ويؤمنون بالقيم نفسها، فهي من هذا الجانب قاسم مشترك بين الجمع يكاد يستوي فيه الأصيل مع الدخيل. وفي هذا الإطار يعرض لآراء كثير من الساسة الفرنسين ومن الكتاب، يستشهد مثلاً بأقوال **«بومبيدو»** عندما كان رئيساً للجمهورية وكذلك **«ديستان»**. فهي عند الأول، بالإضافة إلى ما سبق ذكره، تهدف إلى خلق تجمع للمصالح الإقتصادية والسياسية ويربط بين الجميع رباط لغوي وثقافي وعاطفي أيضاً، وهذا التفسير يصادف هوى في نفس المؤلف لأنه يساير رأيه ونظرته للمستقبل إذ يجمع بين المادة والعاطفة، بين المصلحة والثقافة رغم أنه لا يصرح بذلك بل يكتفي باعتبار ذلك تطوراً في المفهوم **«الفرانكوفونية»**، فهو يغنيها ويعطيها محتوى إقتصادياً يتماشى وروح العصر ومتطلبات المستقبل، وهذا التحديد والتأييد الذي يصدر عن رجل رسمي إنما هو بمثابة رد على الذين يقولون بأنها مجرد لغة أو ثقافة عالمية بلا مصالح معينة أو نفوذ معين.

ولا يمل المؤلف من الإشارة إلى **«سنغور»** الذي يعتبر الفرنسية لا مجرد لغة فن وثقافة وعاطفة فحسب ولا لغة حضارة فحسب، بل تصلح لأن تكون لغة

وطنية لمجموعة ما أو عمل، ولا ننسى أن هذا الشاعر الإفريقي قد **«تغنى بإيمانه باللغة الفرنسية وبالفرانكوفونية»** [1].

وربما كان هذا الشاهد من شخص لا يملك لغة وطنية لا يعد حجة مقنعة أو مبرراً لما سبق ذكره، فكان لا بد من شاهد آخر من أبناء المغرب العربي وهو رئيس جمهورية في ذلك الوقت وأعني به **«بورقيبة»**. فرأيه الذي ذكره في خطاب رسمي ألقاه في شهر ديسمبر 1965 وأشاد فيه بالفرنسية: **«إن اللغة رباط قوي للقرابة تتجاوز بقية الروابط الأيديولوجية، فالفرنسية بالنسبة لكم ولنا تكمل تراثنا الثقافي المشترك فتغني فرنسيتنا وتعكس علمنا وتسهم في بناء مستقبلنا الثقافي وتعمل على تكوين رجال بأتم معنى الكلمة يشاركون في مجموعة الأمم الحرة»** [2].

فهذا الحاكم العربي الذي اعتبر الفرنسية لغته دفع المؤلف إلى الفخر به محاولاً تبرير رأيه وتغطية موقفه السياسي، معتبراً كلامه من النوع الفلسفي الذي تشربه من الأفكار العظيمة للثورة الفرنسية! ولا يجسم نفسه مشقة القول أو حتى مجرد الإشارة إلى أن مثل هذا الحاكم له **«لغة قومية»** وبلده حر مستقل له حضارته وثقافته الخاصة، بل يتحدث عنه وكأنه لا انتماء له إلا لهؤلاء الذين ينوه بهم وبلغتهم!!

وكما أشرت فقد وجد صاحب الكتاب في رجل كهذا حجة دامغة مثلما وجدها في **«سنغور»** الذي ينقل لنا آراءه باستمرار، مثل هذا الرأي الذي ساقه في خطبة له أثناء زيارته للكونغو – كينشاسا عام 1969 إذ قال: **«إن اللغة الفرنسية بالنسبة لنا هي أداة ثمينة للإتصال بالخارج ومعرفة الآخرين»** [3].

---

[1] المصدر نفسه ص:17 .

[2] المصدر نفسه ص:17 .

[3] المصدر نفسه ص: 18 . (في الواقع هذا الرأي لسنغور يعد معتدلاً جداً بالنسبة لرؤيته الفرانكوفونية وربما وجوده في هذا البلد الأفريقي هو الذي أملى عليه ذلك حتى يظهر بأنه=

ويواصل المؤلف حديثه عن الفرانكوفونية بوصفها **«مؤسسة»** ويعني بها الجمعيات والمنظمات العامة والخاصة التي يمكن أن تتوسع وتتعاون مع بعضها البعض. ويحاول أن يجعل من اللغة الفرنسية أداة التفاهم بين الشعوب وليست مجرد نفوذ وسيطرة، ويذكرنا بما قاله الوزير المصري **«بطرس غالي»** المعروف بدفاعه عن **«الفرانكوفونية»** والغرب حين قال بأن الفرنسية ليست لغة تمثل قوة عظمى **«ولكنها عدم الإنحياز بلا مصلحة»** [1] أي انها حوار وتضامن فهو ينفي عنها الغرض والمصلحة وكأنها لغة محايدة!!.

وقد يكون من الإطناب الذي لا يضيف جديداً لو ضربنا أمثلة من كلام دوغول أو بومبيدو أو سنغور أو بورقيبة أو غيرهم من الساسة أو الكتاب، لكني أكتفي بهذا الوصف الذي ذكره المؤلف عن مكتب بورقيبة الذي علق فوقه لوحتان الأولى هي شهادة الإبتدائية بالفرنسية التي كانت لها قيمة حينذاك، والثانية هي منظر لشهداء الإستقلال، وقد أشار إليهما قائلاً ذات مرة: **«أنظر، بفضل هذه وتلك حررت وطني»** [2].

فهو إذن يقرن الشهادة بالفرنسية وهذا أقصى درجات التعبير عن التعلق بلغة ما، وهو في هذه يشبه من يقول عندنا: لقد حررنا الجزائر بالفرنسية، فما أشبه الليلة بالبارحة؟!.

وحين يصل المؤلف إلى المغرب العربي بعد أن فصل القول في بلدان كثيرة، لا ينكر أن انتشار الفرنسية في هذه المنطقة كان بفضل الإستعمار إن كان له فضل، ويركز الحديث على الجزائر بوصفها كانت جزءاً من فرنسا، الدولة الحاكمة. أما تونس والمغرب وكانتا – كما هو معروف – محميتين. والذي يلفت الإنتباه هنا هو أن المؤلف لا يطيل كثيرا لأن الفرنسية لم تكن وحدها في

=وطني وقد كشفت الأيام بعد ذلك حقيقته كما عرفناها جميعاً، ولذا يطلق عليه المؤلف «المحبوب سيزار».

[1] المصدر نفسه ص:**23** .

[2] المصدر نفسه ص: **17** .

الميدان مثلما كان الحال في بلدان كثيرة لا لغة لها. وهو وإن كان قد أشار إلى أن اللغة العربية هي لغة السكان في المنطقة وأن التعريب أخذ ينتشر فيها، إلا أن هذا لم يؤثر على استعمال الفرنسية حتى وإن فقدت مكانتها الرسمية السابقة.

على أنه يشير إلى موقف الشعب وموقف المثقفين فهو يرى أن بين الموقفين تعارضاً دون أن يشرح ذلك بالتفصيل، فالشعب يعبر عن إحساسه الوطني وعن هويته العربية الإسلامية بينما من يطلق عليهم «**المثقفين**» هم في الواقع الفرانكوفونيون ومن يشاركهم الرأي من الساسة أو غيرهم، فهؤلاء على حد تعبيره «**يؤيد التعليم بالفرنسية لأنها لغة الترقي الإجتماعي والإنفتاح على العالم الغربي**»[1] . فهو هنا يشير إلى أن الجانب الإجتماعي في القضية وإلى المصلحة الخاصة أي التواصل مع الآخرين عن طريق هذه اللغة. والجدير بالملاحظة أيضاً أن صاحب الكتاب قد اقتصر على فقرتين فقط عن الفرنسية «**والفرانكوفونية**» في منطقة المغرب العربي، ثم انتقل إلى الحديث عنها في إفريقيا السوداء والأقطار الأخرى التي تستعملها في العالم، فهل هذا تعبير عن الغضب من «**التعريب**»، أم أنه لا يريد أن يكشف عن مدى تغلغل الفرنسية في أقطار المغرب العربي مما قد يثير النفوس؟!.

قد يكون الأمران معاً فهو حذر إلى حد كبير ويعرف ما يقول وحدود هذا القول. قلت إنه أفاض القول فيما له علاقة بانتشار «**الفرانكوفونية**» في هذه البيئات وأتى بإحصائيات وافية للناطقين بالفرنسية حديثاً أو كتابة. فهو إذا كان من قبل قد حدد مفهوم اللفظة ومعانيها وتطورها، فإنه هنا يذكر المراحل التي مرت بها «**الفرانكوفونية**» بعد أن أصبحت مؤسسة قائمة بذاتها من خلال التجمع الذي ضم حكومات ما يسمى بالناطقين بالفرنسية، وأصبحا لهذا التجمع هيكل يعمل على نشرها ومؤتمرات تعقد لهذا الغرض، كما صدرت لفائدتها قوانين رسمية وقرارات ومراسيم تطبق بمختلف الوسائل منها اللجان والمجالس والهيئات كما هو وضعها الآن بقيادة فرنسا بطبيعة الحال.

---

[1] المصدر نفسه ص: 38 .

يمكن إعتبار كل ما سبق عرضاً أو تأريخاً للحركة **«الفرانكوفونية»** عبر مراحلها المختلفة والمدى الذي بلغته حالياً، بعد أن اشتد عودها واتسعت دائرتها واستقرت مصطلحاً وفعلاً وأصبحت واقعاً نامياً تؤيدها حكومات وأفراد ومؤسسات رسمية وغير رسمية داخل وطنها الأصلي أو خارجه، وبما أنه من القوانين المعروفة في الطبيعة وفي الحياة أن الفعل لا بد له من رد فعل، فكذلك الفكرة لا بد لها من أخرى تزاحمها أو تناقضها أو تبين خطرها وعدم صحتها على الأقل.

ومن ثمة كان على هذا الباحث أن يناقش ردود الأفعال المضادة **«للفرانكوفونية»** وأهم صور التعبير عنها وهي اللغة الفرنسية، ويركز بالخصوص على البلدان التي تحررت من سيطرة الإستعمار الفرنسي ولها لغة وطنية، أو تستخدم الإزدواجية ولها أيضاً لغتها الخاصة. وهو لا يذكر هذه البلدان أو يسميها بالإسم ولكننا من حديثه نفهم أنه يقصدنا نحن في منطقة المغرب العربي، ويعتبر أن هذا الموقف الجديد من بلدان استقلت حديثاً عن فرنسا هو موقف سلبي تجاه الثقافة الفرنسية الإستعمارية. أي أنه يشير إلى مرحلة سابقة ويرى أن المستقبل سيكشف عن مدى نضج الذين يناصبون العداء لهذه اللغة أو لا يتحمسون لها على الأقل. وكأنه يعزي هذا إلى تفجر عاطفي نتيجة ظروف خاصة منها الكفاح من أجل الحرية والإستقلال، ثم لا يلبث الوقت أن يسهم في إعادة النظر في هذه القضية. وإذن فإن الفرانكوفونية يمكن أن تظهر في إطار جديد بعد أن تكون هذه البلدان قد قطعت **«مرحلة المراهقة»** على حد تعبيره – ولكن ظهورها سيكون أيضاً بغير إكراه، أي أن مرحلة فرضها بالقوة أيام الإحتلال أصبحت غير ذات موضوع الآن، بعد أن حصلت هذه الأقطار على إستقلالها وسيادتها وتحاول استرجاع مقوماتها الثقافية والحضارية.

فالفكرة الآن ينبغي أن تنشر بالسلم لا بالحرب، بالإقناع لا بالتخويف، لذلك ينقل المؤلف نصوصاً تحذر من استخدام **«شعارات سياسية»** الغرض منها

السيطرة والتأثير لأن ذلك يخلق رد فعل طبيعي وتلقائي بل وشرعي، في وقت تسعى فيه هذه الدول إلى القضاء على آثار الإستعمار. وهو يشير في هذا الصدد إلى مقال نشر في (لاتريبون دي جنيف) «La Tribune de genéve» بتاريخ 19 /4 /1968، يتحدث فيه كاتبه عن «هيمنة» لغوية تحت سيطرة ونفوذ باريس على أولئك الذين يتحدثون بالفرنسية، أولئك الذين لهم لغتهم الخاصة ولكنهم يستخدمون اللغة الفرنسية [1]. وهناك غيره ممن نبهوا إلى مثل هذا الأمر، مثل «روني بليفين René Pliven» الذي أبدى تخوفه عام 1962 فقال: **«أن «الفرانكوفونية» لها مستقبل جميل إذا كان لها هدف واحد هو تقارب الشعوب التي لها لغة وثقافة واحدة، ولن تكون كذلك إذا كان لها تطلع سياسي أو تكون أداة نفوذ بالنسبة للبعض أو وسيلة لضم الآخرين»** [2].

إن التخوف من **«الفرانكوفونية»** له مبرراته في ردود الفعل التي صاحبتها، لأنها قد تصبح فكرة استعمارية جديدة، وهي تكون إذا جمعت إلى اللغة والثقافة والسياسة والنفوذ والهيمنة إحتقار الآخرين. ولعل حماس الشعوب التي استقلت عن فرنسا هم الذي أثار مخاوف هؤلاء الذين أسسوا **«التجمع»** أو دعوا إلى الفكرة أو الذين جاؤوا بعدهم ويدافعون عنها في بيئتها الخاصة الأولى أو في الأماكن الأخرى في العالم... وربما كان لحماس الجزائريين المتفجر غداة الإستقلال في استيراد المقومات الأساسية للشخصية الوطنية وإحلال العربية مكانتها الطبيعية في الجزائر، ربما كان هذا مدعاة تخوف الفرانكوفونيين لأنهم رأوا تأثير الثورة الجزائرية خارج حدودها، سواء أثناء الكفاح المسلح أم بعد الإستقلال، حين أصبحت مثلاً للمناضلين من أجل الحرية، الأمر الذي يمكن أن يجعل منها مثلاً آخر في الكفاح من أجل ثقافة وطنية ثورية أصلية.

هذه كلها عوائق أمام **«انتشار الفرانكوفونية»**، ولهذا كان حديث المسؤولين الفرنسيين – وخاصة دوغول – في هذا الموضوع هو المحاولة الدائمة

---

[1] المصدر نفسه ص: **93 - 94** .

[2] المصدر نفسه ص: **94** .

لإعطاء وجه جديد **«للفرانكوفونية»**؛ وجه آخر بريء لسياسة فرنسا في مستعمراتها السابقة. فقد كان دوغول يرفض الإستعمار القديم ويعتبره إنتهى ولا بد من آليات جديدة في التعامل مع الأقطار التي عرفت بما وراء البحار أو تلك الناطقة بالفرنسية، بحيث نلحظ دفاع المؤلف عن موقف دوغول في خطابه بالكيبيك حين قال: **«يحيى الكيبيك»** رغم أنه جزء من كندا، مما أثار سخط الكنديين واحتجاجهم، وكان ذلك في 14 جوان 1960 [1].

وإذا كان الفرنسيين – ومنهم قزافي – يحاولون إبعاد **«الفرانكوفونية»** عن أن تكون **«أيديولوجية»**، فإن هذا الأخير ينعتها بهذا الوصف عندما يتحدث عن الأيديولوجيات الأخرى التي تقف مناقضة لها بوصفها **«إيديولوجية عالمية أصلية»** مثل الماركسية، ولكن من الناحية السياسية يتنبأ بحرب بينهما، وأنه متأكد في الوقت نفسه من أن **«الفرانكوفونية»** لن يؤثر عليها ذلك لأنها لا تطلب **«الحكم»**، فالماركسية في دعوتها الأممية التي تنادي بالصراع الطبقي لا تعطي اللغة أدنى قيمة، فهي مجرد أداة ليس إلا [2]. ثم إن الشيوعيين والفرنسيين – كما يرى هذا المؤلف – هم أنفسهم قد دافعوا عن **«الفرانكوفونية»** خوفاً عليها من عدم مساعدة الدولة ومن طغيان الأنجليزية عليها، بل طالبوا بدعمها لأنها بكلمة واحدة–لغتهم في نهاية الأمر، فكيف يقفون ضدها كما جاء في نشرة الحزب الشيوعي الفرنسي عام 1978.

والواقع أن الخطر الأكبر الذي يهدد **«الفرانكوفونية»** في الوعي – وحتى في اللاوعي – الفرنسي، وبصرف النظر عن السياسات والأيديولوجيات والقناعات إنما هو إنتشار الإنجليزية، هذا الإنتشار الذي جعل منها اللغة العالمية الأولى سواء في العلم أو في الحياة بشكل عام، نتيجة التقدم التقني الذي عمل على تعلق الناس بها حتى العاديين منهم، ثم إن العالم كان حاجة إلى لغة عالمية فحققتها له الإنجليزية، وهو حلم راود الإنسان طويلاً لأن وحدة الخطاب

---

[1] المصدر نفسه ص: 94 .

[2] المصدر نفسه ص: 94 . (هذا الحديث كان قبل انهيار الشيوعية أخيراً)

والإتصال أمر يقرب الناس بعضهم من بعض، لذلك فإن الصراع اللغوي بين الفرنسية والإنجليزية يأخذ طابع الحدة في كثير من الأحيان، وإن كان ذلك بشكل خفي وتحت أقنعة كثيرة، لكن الحقيقة الثابتة وهي أن اللغة هي عنوان الشعب وشخصيته ولا يلام بالطبع من يدافع عن لغته وثقافته وحريته ووطنه.

والكتاب بعد ذلك يعرض لكثير من **«العوائق الداخلية»** كما يسميها المؤلف يذكر منها: قلة الوسائل والإمكانيات لنشرها بالقياس إلى اللغة المنافسة ثم وسائل النشر مثل الصحافة والإذاعة وكذا الكتب والمجلات التي ينبغي أن ترسل إلى الخارج، فهي في نظرة غير كافية.

والجدير بالتذكير هنا أن الرجل الوطني الذي يهيم بلغته يتحدث بأسى وحزن واضحين ويعبر عن ألمه وتشاؤمه من مستقبل **«الفرانكوفونية»** لأن شخصيات فرنسية من مستوى رفيع تستخدم في علاقتها الخارجية اللغة الإنجليزية، وذلك في الملتقيات والإجتماعات الدولية بلا ضرورة لذلك والأمر نفسه في مجال الطب والعلوم سواء في الدوريات الطبية والعلمية أم في المؤتمرات [1].

ثم يضيف فترة أخرى يتأسف فيها على ما يحدث داخل فرنسا نفسها من حيث **«تنظيم جمعيات فرنسية لمؤتمرات تستخدم فيها الإنجليزية، بل إن هذه الأخيرة بدأت تغزو حتى بعض الكليات حيث تعطى المحضرات بالإنجليزية بل ومناقشة الأطروحات في الفيزياء تتم أيضاً بالإنجليزية»** [2].

ويطول الأمر لو تتبعنا وضع الفرانكوفونية وما يواجهها من صعوبات ومشاكل داخلية وخارجية وليس هذا هدفنا، لكن المهم هو أن نرى كيف يهتم الفرنسيون بلغتهم ويعملون من أجلها وكيف نعمل نحن من أجل لغتنا، ألا يدعو هذا إلى التأمل والتفكير؟!

---

[1] المصدر نفسه ص:99.

[2] المصدر نفسه ص:100.

ويمكن أن نقارن بين ما سبق القول فيه وبين وضعنا نحن منذ الإستقلال حتى المصادقة على قانون تعميم العربية والتعريب الشامل مؤخراً، وهذا يحتاج إلى بحث مستقل شامل كي نلحظ الفارق بين نظرتهم إلى لغتهم ونظرتنا نحن إلى لغتنا ومدى الجدية عندهم وعدم المبالاة لدى المسؤولين عندنا...وهذا يتطلب منا أيضاً أن نعرض لمدى إهتمام السلطة الفرنسية بالفرانكوفونية إبتداء من رئيس الجمهورية إلى المنظمات الرسمية وغير الرسمية، كل هؤلاء يعملون في تناسق وخطة محددة يشرف عليها رسميون بحيث تكونت لها «كتابة دولة» كما هو معروف.

وحتى البرلمان الفرنسي أسهم في القضية بحيث أصدر لائحة تدعو إلى تكوين لجنة تنظر في السياسة الفرنسية تجاه نشر اللغة ودراسة وضعها داخلياً وخارجياً، وهذا في الثمانينات، مع تطوير طرق شرحها قراءة وكتابة بواسطة السياسة والتعاون والعمل على أن تدرس في الخارج بالمؤسسات التعليمية وكذلك وضع شروط لاستقبال الطلبة الأجانب في فرنسا إلى آخر ما يرد في النص الرسمي الذي صادق عليه البرلمان كما أشرت [1].

ويشير المؤلف بعد ذلك إلى اللجنة التي تكونت من النواب ووجهت نداء إلى الفرنسيين جميعاً على اختلاف اتجاهاتهم وأحزابهم تدعوهم – أفراداً وجماعات– إلى الإتصال بها ومساعدتها على معرفة وضع اللغة الفرنسية في المجال العام والخاص، الشخصي أو المهني، وتقديم الإقتراحات التي يمكن أن تساعد على تطوير هذه اللغة ونشرها بقدر الإمكان في أية بقعة من العالم ومما جاء في هذا النداء: **«لغتنا أداة قيمنا الثقافية وحريتنا وهي مع أرضنا تبني شخصيتها الوطنية»** [2].

ويمكن أن نقارن كل هذا بما حدث عندنا حين صادق المجلس الوطني الشعبي على قانون اللغة العربية التي هي اللغة الوطنية، وكذلك بما يحدث حين

---

[1] المصدر نفسه ص:105، 106 .

[2] المصدر نفسه ص:106 .

تثار قضية اللغة العربية أو وضع الثقافة العربية الإسلامية في بلدنا، هنا ترتفع الشعارات والدعوات المراوغة وهو أمر يدعو إلى أسئلة كثيرة تجول بأذهاننا سيأتي الكلام عنها في حينها .

ولا تكتفي اللجنة التي سبق الحديث عنها بهذا فقط بل تقدم إقتراحات للمعنيين بالأمر في فرنسا على اختلاف مستوياتهم، وهي إقتراحات مست جوانب الحياة المختلفة للمجتمع الفرنسي وللناطقين بهذه اللغة حتى أن هذه الإقتراحات بلغ عددها خمسة وخمسين إقتراحاً!!

ومهما حاول المؤلف أن يبعد عن الفرانكوفونية النفوذ السياسي ويبحث عن القنوات التي تجعل منها منظمة **«ثقافية»** وأداة **«للتقارب والتفاهم»**، فإن الصبغة السياسية أصبحت من أهدفها ويبدو ذلك جلياً في تصريحات رؤساء الدول والوزراء والمثقفين والكتاب وعبر النصوص العديدة التي ظهرت منذ الثورة الفرنسية حتى الآن .

ونجد كتاباً كثيرين – خاصة من الجزائريين – قد فهموا جيداً مرامي **«الفرانكوفونية»** وكتبوا عن أهدافها الإستعمارية وسيطرتها الفكرية وأنها ليست حركة ثقافية صرفة، يقول الكاتب **«سليم قلالة»**: **«...وليست لغة فقط للتفتح على الآخرين مهما حاول الكثير إيهامنا بذلك بخلاف أية لغة أجنبية أخرى كالإنجليزية مثلاً، وأن هدف الفرنسية من منظور أصحابها أنفسهم – لا يقال أننا ندعي ذلك من باب الغيرة على الوطن والتحمس للغة الوطنية – هي التأثير في السياسة كل بلد دخلتها...»** [1].

وخلاصة القول أن **«الفرنكوفونية»** حاولت ومازلت تحاول تغيير جلدها ومظهرها فتلبس قناعاً جديداً يبعد عنها تهمة الهيمنة السياسية والإستعمارية، نلمس هذا في كلام الفرنسيين أنفسهم وفي حماس الفرانكوفونيين بالمغرب العربي فهم يحاولون إظهار ما تحمل من قيم إنسانية وأفكار عالمية بعيدة عن علاقات الإستغلال القديمة وأنها تحترم اللغات الأخرى في الأقطار التي لها لغات

[1] جريدة الشعب في **1989/9/29**. وانظر أيضاً الشعب بتاريخ**25 / 5/ 1988** .

وطنية، وهم يراهنون على أن الأجيال الجديدة لم تعرف الإستعمار الفرنسي المباشر وعنصريته البشعة. وليس صحيحاً أن الأفارقة كما يقول جن كافي هم الذين يطلبون لغة المستعمرين الفرنسيين وثقافتهم ولكن: **«الإستعمار الجديد هو الذي فرض هذه اللغة بواسطة «النخبة» التي تسيطر على الإقتصاد والسياسة...»** [1].

ونسوق هنا مثلاً من كلام باحث معروف هو «المهدي المنجزة»الذي يتحدث عن مستقبل المغرب العربي ويخشى عليه من هذه هيمنة الفرانكوفونية التي يرى فيها الآن مرحلة جديدة لتمديد الهيمنة على المغرب العربي عامة [2]. وهو على حق حين ينظر إليها باعتبارها إرثاً ينحدر من ماضي الإحتلال. ويرد على الذين ينظرون إليها نظرة سطحية أو عاطفية ويركزون على اللغة والثقافة دون تعمق في الأبعاد الأخرى، فينقل حرفياً قول رئيس فرنسا الحالي ومفهومه للفرانكوفونية هكذا: **«إذا لم نتوصل إلى الإقتناع بأن الإنتماء إلى العالم الفرانكوفوني، سياسياً وإقتصادياً وثقافياً يمثل إضافة فإننا سنكون قد فشلنا في العمل الذي بدأناه منذ عدة سنوات»** [3].

فيعلق المنجرة على هذا الكلام بقوله: **«إذن لكي تنجح الفرانكوفونية ينبغي أولاً أن لا تكون «هي الفرنسية وحدها» وينبغي أن لا تكون مجرد مشروع ثقافي بل ينبغي أن تكون مشروعاً سياسياً وإقتصادياً... الذي يقول هذا ليس أنا بل رئيس الجمهورية الفرنسية الذي صرح بذلك أثناء حفل الإستقبال الذي نظمه بالأليزي»** [4].

---

[1] اللسانيات والإستعمار ص:221 .

[2] الحرب الحضارية الأولى – مطبعة المهدي – مطبعة الشهاب الجزائر 1991 من ص : 155 – 157 .

[3] المصدر نفسه ص :222 .

[4] المصدر نفسه ص :222 .

فهل بعد هذا من بيان لمفهوم الفرانكوفونية ودورها المهيمن المسيطر الذي هو إمتداد لعهد الإحتلال؟ فإذا كان في الماضي قد اعتمد على القوة العسكرية فهو الآن يعتمد على السياسة والثقافة والإقتصاد والتهديد أحياناً، نقول هذا للفرانكوفونيين بالمغرب العربي الذين يدافعون عن هذا «**التوجه**» ناسين أو متناسين الحقيقة الساطعة لدور الفرانكوفونية في تخريب الشخصية القومية لشعوب المنطقة، فإذا كان الموقف ينبئ عن سذاجة فتلك مصيبة الإستلاب أما إذا كان واعياً فإن هذه هي الطامة الكبرى!!

إن الضجة التي ارتفعت منذ سنوات قليلة تنادي بالويل والثبور وتندب حظ الفرنسية والمآل الذي وصلت إليه بعد أن غزتها الإنجليزية في عقر دارها، هذه الضجة ليست دخاناً في الهواء ولكنها تعني الخوف من انحصار نفوذ فرنسا إقتصادياً وسياسياً وثقافياً، فالبراءة هنا لا معنى لها والحديث عن الغزو الثقافي الأنجلوسكسوني لفرنسا هو حديث جدي شارك فيه الساسة والمثقفون ورجال العلم. وقد لخص لنا الصحافي الجزائري سعدي بزيان في مقال له بجريدة الشعب هذه الضجة التي أطلق عليها «**صراع بين بلزاك وشكسبير في الساحة العلمية الفرنسية**» [1].

في هذا المقال يرسم لنا صورة الهلع الذي استبد بالفرنسيين جراء هذا «**الغزو**»، بينما نعتبر نحن سيطرة الفرنسية على حياتنا نوعاً من الغزو الثقافي تنطلق الأصوات في الداخل والخارج تسخر من ضعفنا وانكفائنا على أنفسنا في عالم واسع يتطلب التنوع ومعرفة الآخر، والآخر هنا بالطبع هو الفرنسي لا غيره! وهذه من تناقضات الفرانكوفونيين، أفلا يحق لنا أن ندافع عن أنفسنا وهويتنا في هذا الكون الذي يتصارع فيه الناس من أجل البقاء والوجود؟!

وليس من تكرار القول إطلاقاً أن نتحدث باستمرار عن غيرنا وما قدموه للغتهم وثقافتهم، فهذا حقهم الطبيعي ولكن من واجبنا أيضاً أن نستفيد مما يفعلون على الأقل فيما يتصل بالطرق والمناهج التي تساعدنا على معرفة

---

[1] الشعب 28 ماي 1989.

أنفسنا لا تعصباً أو رفضاً للآخر، ولكن لنحافظ على كياننا الخاص وعلى شخصيتنا المستقلة التي تعطي لوجودنا معناه ن ولم يكن هدفي من عرض الآراء والأفكار التي سبق الحديث فيها أنني أدين شخصياً أو أشخاصاً أو أشخاصاً أو أنقد فكرة أو أفكاراً بقدر ما كان غرضي هو ضرب المثل لا أكثر ولا أقل.

الفصل الثالث: جذور الفرانكوفونية وارتباطها بالفكر الإقليمي في المغرب العربي

يجول بالذهن دائماً سؤال يصعب أن نجيب عنه بدقة وعلمية وهو: متى ظهرت «**الفرانكوفونية**» في المغرب العربي سواء بوصفها مصطلحاً أو لغة أو ثقافة؟؟ وكيف غزت البيئة في منطقتنا بالبحر الأبيض المتوسط؟؟.

وصعوبة الجواب ترجع إلى أن الباحثين عندنا لم يهتموا بالجانب التاريخي لهذا المصطلح ولا للتأثير الفرنسي – ولا سيما الجانب اللغوي منه – في الأقطار الأربعة، ربما لأن الواقع جعلنا ننسى قضية هامة نعايشها باستمرار فاعتبرناها من الأمور المعتادة أو المسلمات التي لا تحتاج إلى بحث أو تقصي أو إهتمام، فهي موجودة ملتصقة بنا ولا فائدة إذن من الغوص في الماضي لأنه لا يقدم ولا يؤخر، في حين أن معرفة البدايات الأولى لظهورها أو آثارها في بلداننا تعطينا حكماً على الأهداف التي تعمل من أجلها، كذلك تحدد لنا موقف الحاملين لها ولدعوتها وغرضهم من عبورها إلى بيئتنا ومدى رسوخ أقدامها في منطقتنا.

ولو أردنا أن نقارن بينها وبيننا في المشرق العربي وبيننا، لعرفنا أن دخولها إلى مصر ظهر مع حملة نابليون، ومن ذلك الوقت انتشرت بقوة وخاصة بعد البعثة العلمية في عهد محمد علي سنة 1826 وتوصلت حتى اليوم، والأمر نفسه عرفته بلاد الشام بواسطة الإرساليات التبشيرية والمعاهد المسيحية في القرنين الأخيرين، ولعلها ترجع إلى زمن الحروب الصليبية، لأن فرنسا قامت بدور متميز فيها، ولأن المارونيين – ربما منذ ذلك الحين – ربطوا صلتهم بها وبثقافتها حتى قيام أحداث 1860 حين أعلنت فرنسا حمايتها رسمياً. نقول هذا بتحفظ لأنه لا توجد دراسة علمية تتبعت الموضوع تاريخاً واستقصاء، وأما في العصر الحديث فقد قويت مع البعثات العلمية حتى هذه اللحظة.

صحيح أن المصطلح نفسه حديث في إطلاقه في البيئة الفرنسية نفسها – كما ذكرنا من قبل – ولكن ظهور الفرنسية وانتشارها سابق للمصطلح، ويمكن أن نفترض بل نؤكد أنّ اللغة الفرنسية جاءت مع الاحتلال العسكري لبلادنا سنة 1830، وفي أقطار المغرب العربي الأخرى بعد احتلالها فيما بعد، ولكن يمكننا أن نفترض أيضاً أنها بدأت قبل هذا التاريخ. فنحن نعرف أن أفراداً من المثقفين قد أتقنوا هذه اللغة وثقفوا بها بقصد المعرفة أو بغرض التجارة والإقتصاد أو ممارسة السياسة، وهؤلاء لا يمثلون فئة محددة لها ملامحها الخاصة – كما حدث في المشرق – بحيث يمكن أن يكونوا نواة للفرانكوفونية لسببين، الأول: أن اللغة العربية بقيت هي السائدة في الأقطار المشار إليها، والثاني: أن الأتراك نظراً لسيطرتهم وانغلاقهم لم يسمحوا بالتفتح على الثقافات العالمية.

ولعل إتقان **«حمدان خوخة»** المثقف الجزائري للفرنسية كتابة وقراءة أثناء الاحتلال يؤكد هذا الإفتراض ومثله **«بوضرية»** اللذين – كما يقول **«محمد العربي الزبيري»** – كانا يقومان بأدوار سياسية في العهد الداي قبيل الإحتلال مباشرة **«لأنهما كانا يجيدان اللغة الفرنسية»**[1] . وربما يعتبران نموذجين لبدايات الفرانكوفونية قبل وأثناء الإحتلال مع الفارق بين الإثنين في الموقف السياسي إذ كان **«بوضرية»** على حد تعبير الباحث الآنف الذكر : **«يفخر بانتسابه إلى الأمة الفرنسية ويعمل على أن يكون واحد من أبنائها المخلصين»**[2] بينما الآخر كان رجلاً حراً **«يحب وطنه ويريد أن يعيش مستقلاً»**[3].

على أن انتشار الفرنسية بدأ بصورة منظمة ومدروسة ومسيسة بعد احتلال الفرنسيين لبلادنا، ليس من أجل تثقيف الشعب الجزائري، ولكن

---

[1] مذكرات أحمد باي وحمدان خوخة بوضرية- محمد العربي الزبيري – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1973 - ص:142.

[2] المصدر نفسه ص: 144.

[3] المصدر نفسه ص: 144.

بقصد ترسيخ إحتلالهم . فاللغة تساعدهم على بث أفكارهم مثلما تساعدهم القوة العسكرية في توطيد حكمهم. وكلاهما يخدم الهدف الذي جاءوا من أجله وهو السيطرة المادية والروحية على الشعب الجزائري. فاللغة هنا لا تقوم بوظيفة تعليمية ثقافية روحية ونفسية، ولكن تقوم بغسل العقل وجعله مستعداً لتقبل الهيمنة الأجنبية والإحتواء الحضاري.

ومن البداية كانت النية واضحة في **«فرنسة»** الشعب الجزائري، فإلى جانب تصويت البرلمان الفرنسي على اعتبار الجزائر **«جزءاً من فرنسا»**، كان التعليم يخدم هذا الهدف الرهيب، والأمر نفسه حاولوه في تونس والمغرب وموريطانيا مع تفاوت في الأساليب والطرق وظروف الإستعمار والفرق في التسمية بين هذا القطر أو ذاك مما هو معروف لدى الجميع ومن نافلة القول تكرار الحديث فيه.

والذي يهمنا ليس هو دور الفرنسيين في نشر الفرنسية والدعوة إليها وفرضها بالقوة أو بالترغيب، ولكن الذي يهمنا هو دور **«النخبة الفرانكوفونية»** في الدفاع عنها والتعلق بها والتعاطف معها قديماً وحديثاً فهذه الفئة هي التي حملت لواءها وما زالت تدافع عنها بقوة وحماس كبيرين وتقف في أحيان كثيرة موقف الخصم للعربية والعداوة أحياناً أخرى أو الموقف السلبي تجاه **«الهوية العربية»** على أقل تقدير!! إن هذه «النخبة» التي عملت الإدارة الفرنسية على تكوينها وأرادت أن تسخرها لخدمة أهدافها الخفية والمعلنة، وأقلها ربط الفكر والثقافة بفرنسا وحضارتها لم تحقق هدفها المنشود، لأن شريحة منها ثارت على عسفها وجبروتها وناصبتها العداء بل وحاربتها دفاعاً عن حرية شعوب المغرب العربي.

ومن جهة أخرى، يمكن القول بأن سياسة فرنسا الثقافية قد أثمرت مع هذا وأعطت نتائج باهرة لا في المجالين الفكري والثقافي فحسب، بل أيضاً في المجال السياسي، والواقع الذي نعيشه اليوم لا يحتاج إلى شرح أو تفصيل بالنسبة لهذه النتائج!!

لقد قوي المد «**الفرانكوفوني**» بعد استقلال أقطار المغرب العربي وأصبح حقيقة ماثلة للعيان وأصبح «**الفرانكوفونيون**» قوة حاضرة في كل شيء، كيف حدث هذا؟؟

وما هي الظروف التي ساعدت عليه؟ وهل فعلاً أسهمت فرنسا في تثقيف شعوب المنطقة؟؟

للإجابة عن هذه الأسئلة لابد من البحث عن السبب الجوهري الذي رسخ هذه الفكرة في الأذهان، وجعل أناساً منا يدافعون عن الفرنسية بلهجة حارة لا توجد لدى أمثالهم من دعاة الحضارة الغربية في أقطار أخرى استعمرت من أمم غير فرنسا... وهنا نعيد إلى الأذهان في بداية هذه الدراسة من أن الإستعمار الفرنسي لا يكتفي بالإستغلال المادي، ولكن يهمه إبتلاع الشعوب – أفراداً وجماعات – تماماً كما فعلت وتفعل الصهيونية الآن في فلسطين وما يجمع بينهما هو العنصرية المتغطرسة وروح الإستحواذ والهيمنة. فضلاً عن العداوة القديمة من عهد الحروب الصليبية، واستمرار روحها الحاقدة والشعور بالزهو بعد «**حروب نابليون**» والتقدم العلمي والمادي، وأخيراً ظاهرة الإستعمار في القرن الماضي، بقطع النظر عن «**الميزاج**» الفرنسي الذي تحدثنا عنه من قبل. كل هذا أثر في هذه «**النخبة**» الفرانكوفونية وما زال – لسوء الحظ – يؤثر في فكرها ومشاعرها ورؤيتها للغة والهوية القومية وللحضارة أيضاً.

هذه إذن هي جذور الفرانكوفونية وامتداداتها. فإذا كانت قد وصلت إلى القمة في هذه المرحلة الحالية فإنها قد تخلقت في رحم الماضي، وعلى الخصوص في القرن التاسع عشر حين بدأت ولاسيما الدعوة إلى الإندماج في «**المشروع الفرنسي**» في الجزائر. ففي القرن الماضي وأواخره على وجه الدقة، ظهرت هذه النخبة الفرانكوفونية تنادي بالإندماج والمساواة والتي تنامت في بداية هذا القرن، وقد اتفق المؤرخون الجزائريون والأجنب على أن الذين حملوا لواء الإندماج في الثقافة الفرنسية، هم هؤلاء «**الفرانكوفونيون**» لا غيرهم، سواء منهم من كان مماثلاً للأهالي في الإدارة أم المثقفون أم السياسيون. ولن نذكر

أصحاب المصلحة ممن ارتبطت مصالحهم بالوجود الفرنسي، فقد وجدوا بالطبع في الأقطار الأربعة.

ولعل الدراسة التي كتبها «**نيكولاي دياكوف**» وترجمها الأخ «**عبد العزيز بن بكير**»، ترسم صورة لسياسة الإدماج التي رسمها الفرنسيون طوال وجودهم بالجزائر. فحركة «**الفتيان الجزائريين**» أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن، كان هدفها المساواة بين السكان – أوروبيين وجزائريين – بحيث عملوا على أن «**يتكيفوا مع ميزان القوة الذي فرضه الإستعمار فيندمجون بعد تبنيه لهم، وبهذه الطريقة يتساوون مع الفرنسيين...**» [1].

وهؤلاء هم المثقفون الفرانكوفونيون من الأهالي الذين تأثروا بفرنسا وبثورتها وشعاراتها المعروفة ولعبوا دوراً سياسيا وفكرياً في تلك المرحلة، إنطلاقاً من إيمانهم بالمجال الحيوي لفرنسا وبحضاراتها، ويمكن أن نشير إلى فئة قبل هذه ثقفت ثقافة فرنسية ابتداء من ظهور جريدة «**المبشر**» التي أنشأها الفرنسيون أواخر القرن الماضي.

وفي الفترة نفسها تقريباً ظهرت في تونس «**إنتلجنسيا جديدة متفرنجة وحاصلة على تعليم فرنسي وقريبة من مثيلتها الجزائرية الإسلامية، رغم خصوصيات تطورها الإجتماعي والسياسي في ظروف الحماية الفرنسية. وكانت تسعى إلى خدمة شعبها، وكان التنظيم الأول لهذه الإنتلجنسيا هو جمعية الخلدونية لتونس الفتاة وقد ظهرت سنة 1896**». [2]

وإذا كان هذا وضع الفرانكوفونيين الذين ارتبطو بالثقافة الفرنسية في الجزائر وتونس، فإن المغرب وموريطانيا كانت ظروفهما مختلفة نسبياً، لأن إستعمارهما جاء متأخراً بالقياس إلى القطرين الآخرين، وإن كنت لا أستبعد أن

---

[1] جريدة السلام 27 جوان 1991

[2] السلام 10 جويلية 1991 وانظر ايضا اعداد 4- 8- 20 جويلية 1991 من الجريدة المذكورة.

تكون هناك ظروف أخرى مهدت لانتشار الفرانكوفونية قبل وقت الحماية فعلاقات المغرب بفرنسا والغرب قديمة.

ثم إن الذين جاؤا بعد هذه الفئات من الفرانكوفونيين وقبل أن تنشأ الأحزاب والجمعيات الوطنية المنظمة، كانوا في الخط نفسه وإن تغيرت المطالب نسبياً وأصبح الحديث عن العربية باعتبارها لغة أغلب الشعب، من إهتمامات السياسيين مثل **«الأمير خالد»** الذي نادى بالمساواة وحرية التعليم وفصل الدين الإسلامي عن الدولة الفرنسية .

أما الحديث عن العروبة والهوية والإنتماء فهذا لم يخطر على هؤلاء المثقفين والسياسيين الفرانكوفونيين.

وحتى عندما أصبحوا قوة **«سياسية»** وثقافية في العشرينات والثلاثينات فإنهم لم يفكروا في هذا الإنتماء، بل العكس هو الصحيح، فقد طالبوا بالاندماج المطلق في الحركة التي قادها **«بن جلول»** ثم **«فرحات عباس»** الذي أنكر وجود الشعب الجزائري في كلمته المعروفة والتي رد عليها **«الإمام بن باديس»** في كلمته الخالدة.

ويقول المؤرخ **«صلاح العقاد»** عن الإندماجيين أمثال من ذكرتهم ومنهم **«الأخضري»** الذين يمثلون تكتلاً لا حزبًا، أن **«الجامع بينهم هو تشبعهم بالثقافة، الفرنسية وإيمانهم بضرورة التعاون مع فرنسا»** [1]. والذي لا يؤمن بشعبه كيف يؤمن بأمة كاملة من المحيط إلى الخارج؟!

فإذا كان هذا موقف الفرانكوفونيين الإندماجيين الفاقدين لهويتهم وأصالتهم وإنتمائهم العربي، فما هو موقف الوطنيين الذين أنشأوا أحزابًا سياسية تنادي بالحرية والاستقلال لأقطار المغرب العربي؟؟

في واقع الأمر، أن هذه الأحزاب لم تحقق أمل الجماهير فيها من هذه الناحية، فقد علقت عليها هذه الجماهير الأمل في وحدة عربية جهوية أوعامة شاملة وترقبت هذا منها أكثر من نصف قرن؛ منذ إنشائها وحتى أيامنا هذه

---

[1] المغرب العربي الجزائر تونس المغرب الأقصى صلاح العقاد ص: 310.

دون أن ترى موقفا واضحا لزعمائها ومثقفيها، رغم أنها قادت كفاحاً مريراً من أجل التحرر من الإستعمار وبقاياه، ولكنها لم تتخلص من سيطرة الثقافة الفرنسية، ويرجع هذا إلى ماضي هذه الأحزاب وتكوين قادتها ومحتوى الكفاح السياسي وحتى العسكري لتنظيماتهم.

وبصرف النظر عن تقليد الأحزاب الغربية أو الشرقية في التنظيم والتوجيه، فإن فشلها في تحقيق وحدة عربية وحتى الدعوة إليها يأتي من أنها تكونت في المدرسة الفرنسية. وهذا هو الأساس في رؤيتها لقضية الوحدة — جزئية كانت أم كلية — وهذا ينطبق على الزعماء والإطارات التي تشرف على الأحزاب قبل الإستقلال الوطني وبعده، وقد يكون **«الزعيم»** ثقف ثقافة مزدوجة والإطارات مثله أومفرنسة، ولكن المنهج في التفكير ينطلق من تكوين فرنسي. نلمس هذا كله في المراحل التي مرت بها الحركات الاستقلالية في المغرب العربي رغم الفروق بينها أحياناً ورغم الشعارات المتشابهة أو المتخلفة وكذا الأساليب في تحقيق الاستقلال.

ومن البديهيات أن نعيد القول في أثر التكوين في الفرد والمجتمع، في الفكرة والثقافة، وتلعب فيه الدور الأساسي ويكون أقوى وأشد إذا ساعدت عليه البيئة العائلية حين تعيش جواً تسوده الفرنسية حديثا وكتابة وتختفي منه تدارجة، فإن المأساة هنا تصبح أعمق بكثير، أما بقية العناصر الأخرى، فهي مكملة مثل الفقر الذي فرض على الجزائريين والجزائريات — مثلاً — دخول المدرسة الفرنسية بعد مقاومة الفرنسة [1]

هذا التأثير يظهر حتى في كتابة النصوص التي تحدد سياسة هذه الأحزاب. فالفرنسية هي الأصل في كتابتها ثم تترجم إلى العربية أو على الأقل أغلبها. وبعضها ربما لم يترجم أصلاً وبعضها ربما لم يترجم أصلاً من أصحابها و ترجمه الدارسون أو المؤرخون المعنيون بالموضوع.

---

[1] اللسانيات والإستعمار — لويس جان كالفي ص:70 .

أما الحديث في المجال الفكري والثقافي في هذه النصوص فلا يشير إلى فكرة العروبة أو الوحدة من قريب أو بعيد، وإنما يركز على القطرية وعلى المطالب السياسية وعلى العربية باعتبارها اللغة الوطنية للشعب. يبدو هذا في نصوص **«نجم شمال إفريقيا»** و**«حزب الشعب»** و**«حركة انتصار الحريات الديمقراطية»** في الجزائر وفي **«الحزب الدستوري الحر»** بتونس وفي **«حزب الاستقلال»** بالمغرب، وهي الأحزاب الرئيسية التي حملت على عاتقها مسؤولية الكفاح من أجل الحرية والاستقلال عن فرنسا، فالمطالب التي كانت تقدمها هذه الاحزاب فيما يتصل بجانب الهوية هو الإلحاح على العربية والإعتراف بها رسمياً كلغة وطنية أي أن تعترف بها فرنسا لأنها كانت **«محرمة»** في الجزائر بحكم القانون ومضطهدة كأصحابها في تونس والمغرب، أما أن تكون لغة تعبر عن ارتباط بأمة عربية واحدة ولحمة تجمع شملها السياسي والثقافي، فهذا مالم نعثر له على أثر في هذه المطالب. فهي لغة وطنية، أو لغة القران، أو لغة الأجداد، أما ربطها بالقومية العربية بوصفها العنصر المحرك للوحدة فمن الصعب أن نجده في أدبيات هذه الأحزاب إلا مؤخر آو بعد الإستقلال مع الفرق بين النظرية والتطبيق والشعار والواقع.

«فنجم شمال أفريقيا» الذي بدأ **«حزباً»** يجمع الأقطار الثلاثة ثم أصبح حزباً جزائرياً، كان همه الوحيد هو التحرر من الإستعمار . أما الحديث عن الجانب الثقافي فقد انصب على المطالبة بإنشاء المدارس العربية، ثم طالب مؤتمره بعد ذلك بالعربية رسمياً [1] . فهذا الحزب لم يهتم بفكرة الوحدة زعم أن زعيمه **«مصالي الحاج»** قد تأثر بأفكار **«شكيب أرسلان»**. الكاتب والسياسي القومي المعروف.

---

[1] الكفاح القومي وللسياسي – عبد الرحمن بن المعقون ج1 المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر1984 ص:128- 130 .

فكرة الوحدة إذن لم تكن قناعة ثابتة يؤمن بها زعماء الأحزاب في المنطقة، ولكنها كانت ربما **«تكتيكاً»** ساسياً استخدم للتأثير على الإدارة الفرنسية في الأقطار الثلاثة أو في فرنسا نفسها.

ونجد المطالب نفسها فيما قدمه **«المؤتمر الإسلامي»** سنة 1936 الذي جمع كافة القوى السياسية في الجزائر بما فيها **«جمعية العلماء»** باستثناء **«نجم شمال إفريقيا»** الذي كان مصادراً آنذاك – والأمر نفسه ينطبق على حزب **«أحباب البيان والحرية»** الذي ظهر سنة1944. **«ففرحات عباس»** يرى في هذا البيان: **«أن المطالبة بتحرير اللغة العربية والدين الإسلامي وجعل اللغة العربية لغة رسمية ليس معناه تطرقاً وليس معناه إستبعاداً للغة الفرنسية التي أخذنا بها ثقافتنا ولازالت عزيزة علينا...»** [1].

جاء هذا بعد أن تطور هذا السياسي الجزائري في أفكاره الإندماجية، وبعد حرب عالمية ثانية، وحين بدأ الناس يطالبون بالهوية والحرية لا بمجرد اللغة وحدها، ثم أنه يتملق الفرنسيين كما نرى، عندما يعتبر لغتهم عزيزة عليه، بل هو يعبر عن أعماقه لأن تكوّنه كان بها أولاً وأخيراً فكيف يتنكر لها؟!

وحين نعود إلى أدبيات الأحزاب الوطنية في المغرب العربي لمعرفة رأيها – لا في الوحدة العربية، فهذا ما لم تفكر فيه تفكيراً جدياً – ولكن في الوحدة المغربية التي يتحدثون عنها منذ العشرينات من هذا القرن وحتى اليوم، فماذا نجد؟؟.

لقد انغلقت هذه الأحزاب على نفسها في نضالها التحريري فترة طويلة من الزمن ولم توحد جهودها، بل استقل كل منها بنفسه حتى قامت ثورة نوفمبر 1954، فاضطرت الجميع إلى لقاء رسمي عرف بلقاء **«طنجة»** سنة 1958 وإعتبر خطوة كبرى على طريق الوحدة فماذا تحقق بعده ؟ لا شيء يذكر، ربما يصح القول بأن الفترة كانت فترة بناء مؤسسات الدولة بعد الإستقلال في تونس

---

[1] المصدر نفسه ص:**401** . وانظر أيضاً «المغرب العربي للعقاد ص:**47** وانظر ص: **383** . ففيها حديث عن بورقيبة وموقفه من الفرنسية واعتباره لها أنها ليست لغة أجنبية في تونس.

والمغرب، بينما كانت الجزائر تصارع تنين الإستعمار الفرنسي بثورتها العارمة، فكان من الصعب تحقيق الوحدة السياسية أو غيرها، ولكن لو كانت النية صادقة لتوحيد الكفاح المسلح على الأقل في هذه الأقطار وبدأت أسس الوحدة تحقق بالممارسة وبالفعل، لأن الجماهير كانت مهيأة لها في تلك الأيام.

وهذا الأمل كان يمكن أن يتحقق لو أن قادة الكفاح كانوا وحدويين، خاصة وأن تجربة الوحدة كانت قد تمت في العالم نفسه بين مصر وسوريا، وأنى لها أن تتم هنا والفكر الإقليمي الضيق كان هو المحرك لقادة هذه الأحزاب بسبب تكوينهم الفرانكوفوني المعادي للعروبة والذي أبعد عن قناعتهم التفكير العروبي الوحدوي، رغم تميز الجزائر من بين هذه الاقطار بمنادتها بان وحدة المغرب العربي هي خطوة في طريق الوحدة الكبرى. كما ورد في كثير من أدبيات الثورة وما بعدها وكما سيأتي تفصيل الحديث عنه فيما تفصيل فيمل بعد، لكنها بقيت حبراً على ورق لأن من وضعوها لا يؤمنون بها. إنها شعارات للإستهلاك المحلي والعربي أكثر منها مبادئ يناضل من أجلها قوميون عرب مثل الناصريين أو البعثيين وأضرابهم ممن أمنوا بذلك وطبقوه بصرف النظر عن النتائج.

يبقى أن نقول للتاريخ، إن حزب **«الشعب»** و**«حركة إنتصار الحريات الديموقراطية»** حاول كل منهما أن يوحد النضال الوطني في المغرب العربي، لكن محاولاتها لم تنجح سواء مع المغرب أو مع تونس، بل قوبلت بالمراوغة وأحياناً بالرفض وربما بالسخرية أيضاً، الأمر الذي يؤكد ارادة الحزبين في وحدة هذا النضال، ولكنها **«لم تجد صدى لدى الأشقاء»** على حد التعبير الأخ **«محمد حربي»**[1].

---

[1] جبهة التحرير الوطني – الأسطورة والواقع- محمد حربي – ترجمة كميل قيصر داغر- دار الكلمة بيروت سنة 1983 ص:178.

وحتى المؤتمرات التي دعت إلى وحدة المغرب العربي كانت تحركها الفكرة الإقليمية . وقد لاحظ ذلك الباحث السالف الذكر [1] .

بالطبع نحن نتحدث عن التيار العام للفرانكوفونيين من السياسيين والمثقفين، لاعن الجميع، لأن هناك منهم من يؤمن بالعروبة والوحدة، فالمرء قد يتطور في وعيه من مرحلة إلى أخرى قد يبدأ إقليمياً محلياً ثم ينتهي به الأمر إلى أن يصبح قومياً وحدوياً، أو قد يكون إحساسه غامضاً بهذه الفكرة أو تلك ولكن الزمن يغير من رؤيته وكذلك الإحتكاك بالآخرين أو الإطلاع والتثقيف . فكل هذه العوامل تساعد على أن يتحرر الفرد من النظرة الضيقة قطرية كانت أم جهوية فتتسع رؤيته لنفسه وشعبه وللأمة التي ينتمي إليها ثم إلى الإنسانية جمعاء.

إن هذه النظرة الضيقة لدى الأحزاب التي تحدثنا عنها في المغرب العربي، جعلت الإنتماء العربي يتساوى مع الإنتماء إلى افريقيا أو إلى **«حوض البحر المتوسط»**، وربما كان الإنتماء إلى الدين أقوى من الجميع إلى حد كبير نظراً لتأثير الدين الإسلامي في حياة المجتمع ودوره في الإبقاء على الشخصية الوطنية في الأقطار المغربية وأصبح هذا العنصر أكثر بروزاً من العنصر القومي في تكوين العقائدي والسياسي وهذا ما نلاحظه حتى في الوقت الحاضر.

ولو تتبعنا فكرة وحدة المغرب العربي لدى هذه الأحزاب وبدايتها الأولى – كما أشرنا – لوجدنا إنها فكرة غامضة لأن دعاتها لم يوضحوا الأسس التي تبنى عليها هذه الوحدة ومفهومها في غالب الأحيان مثل مفهوم الوحدة العربية والإسلامية وتنصب على: **«توثيق الروابط مع دول العالم عامة ومع الدول العربية والإسلامية خاصة»** [2] .

هذا هو مفهوم الوحدة لدى الأحزاب الثلاثة في المغرب العربي **(الشعب والإستقلال والحر الدستوري)** فهي مجرد **«تضامن»** يستوي فيه القريب والبعيد

---

[1] المصدر نفسه ص: 158 وص: 164 .

[2] المغرب العربي – صلاح العقاد ص:401 .

والصديق إلا أن حزب الإستقلال تغلبت عليه الروح الإسلامية من غيرها بل إن الأحزاب الثلاثة المذكورة حين أصدرت **«ميثاقاً وطنياً»** فيه اعتبرت المغرب العربي **«عاش بالإسلام»** و**«على الإسلام سيسير في حياته المستقبلية»** [1]. ثم تطورت هذه النظرة نسبياً في الميثاق نفسه حين اعتبرت المغرب العربي **«جزءاً لا يتجزء من بلاد العروبة وتعاونه في دائرة الجامعة العربية على قدم المساواة مع بقيت الأقطار العربية أمر طبيعي ولازم»** [2].

وإن اعتبر **«صلاح العقاد»** هذا الموقف الأخير تعبيراً عن رأي وقناعة **«عبد الكريم الخطابي»**، أكثر مما كان انعكاساً لرأي وقناعة الزعماء الآخرين الذين يربطون بين الوطنية والعروبة والإسلام. ولكن التركيز – في الغالب – كان على فكرة الإصلاح والنهضة بمفهوم الأفغاني والباديسي، كما نلحظ عند علال الفاسي في المغرب **«وعبد العزيز الثعالبي»** في تونس، أكثر من المفهوم العروبي القومي الوحدوي.

وإذا عدنا إلى العناصر العروبية التي كانت تنتسب هذه الأحزاب أو ترتبط بها أو تناضل في صفوفها فإننا نجد أن تأثيرها الثقافي كان ضعيفاً من الناحية الفعلية، كما نجد عددها ضئيلاً أيضاً. ففي حزب **«الشعب»** ثم حزب **«إنتصار الحريات الديموقراطية»** كانت العناصر القيادية غالباً من **«الفرانكوفونيين»** باستثناء قلة من المثقفين. ويظهر هذا في مجموع أعضاء اللجنة المركزية للحزب الذين كانوا ثلاثين عضواً ليس من بينهم سوى ثلاثة من العروبيين هم **«ابن الشيخ الحسين»** و**«قاسم رزيق»** و**«عبد الحميد مهري»**، وثلاثتهم **«معربون»**. ويمكن أن نذكر من بين الأعضاء المزدوجي اللغة قلة نادرة عروبية مثل محمد العربي، دماغ العتروس وأقل منهم من ثقفوا ثقافة فرنسية ولكن روحهم وفكرهم بقي **«عروبياً»** أمثال **«مصالي الحاج»**.

---

[1] المصدر نفسه ص: 478.

[2] المصدر نفسه ص: 478.

ويمكن أن نضيف إلى هؤلاء جميعاً مجموعة أخرى بارزة من الطلبة الجزائريين بتونس الذين انضموا إلى «**حزب الشعب**» ودرسوا في الزيتونة، ثم التحقوا بالثورة بعد ذلك وفرضوا أنفسهم في ميدان الكفاح الوطني.

والحكم نفسه يمكن أن ينطبق على العروبيين في حزب «**الإستقلال**» والحزب الحر الدستوري. فأغلب القيادة كانت فرانكوفونية بصرف النظر عن الأفراد، حتى ولو كانوا أعضاء بارزين في الحزبين والأسماء معروفة بطبيعة الحال منها مثلاً: «**العروسي المطوي**» تونس، و«**عبد الكريم غلاب**» في المغرب. وحتى هؤلاء لا يمكن اعتبارهم وحدويين بالمفهوم القومي ولكنهم عروبيون توجهاً، ومثلهم الجزائريون الذين ذكرناهم. ولكن من الصعب أن نعتبرهم وحدويين بالمفهوم النضالي القومي الذي يسعى إلى تحقيق الوحدة العربية الشاملة، لأنه لا وجود لأي دليل على ذلك خاصة قبل الستينات. فالوحدة هنا سواء كانت جهوية تمس المغرب العربي أم شاملة للأمة العربية مشرقاً ومغرباً هي إحساس عاطفي أكثر منه موقف مبدئي، وقد أشار إلى ذلك أحد الباحثين ورأى الدعوة إلى الوحدة المغربية ضرباً من تسجيل الموقف. يقول الكاتب علي الإدريسي ما نصه: «**إن الحركات الوطنية أو القومية باتجاهاتها المختلفة وإفرازاتها المتعددة هي التي استولت على الساحة السياسية في المغرب العربي منذ الثلاثينات من هذا القرن وهي التي غذت القطرية سواء كان ذلك بوعي منها أو بدون وعي...**»[1].

هذا الحكم صحيح. ولكن القضية ليست في النتيجة، ولكن في السبب الذي أدى إلى إنتشار روح الإقليمية وسيادة الفكر القطري، وهو التكوين الثقافي الفرانكوفوني بالأساس. ثم تأتي العوامل الأخرى مثل التكوين السياسي الحزبي الذي ركز بدوره على الفكرة الإقليمية والنضال القطري من أجل التحرر، مما أثر حتى فيمن ثقف ثقافة عربية بحتة ولم يدخل يوماً مدرسة فرنسية، ومع هذا نجده لا يؤمن بالوحدة!!

---

[1] جريدة «الشعب» 21/ 11/1989.

نحن لا ننكر صدق العروبيين، سواء كانت ثقافتهم عربية أم فرنسية، ولكننا نرى أن حديثهم عن عروبة المغرب العربي مجرد عواطف، يقول **«عبد الكريم غلاب»: «وكان المغرب يحافظ على عروبته وعربيته لأن العروبة هي التي طبعته بطابعها منذ دخول العرب هذه البلاد معلمين ومثقفين ومنافحين عن البربر في سبيل العقيدة وتركيز الحضارة العربية...»** [1].

إن هذا الدفاع عن العربية والعروبة نجده لدى غيره من كتّاب ومثقفي المغرب العربي في شتى أقطاره، وهي مجرد عواطف صادقة قد تكون راسخة قوية في نفوس من يؤمن بها، ولكنها لا تزيد عن ذلك مادامت لا تعتبر من **«القواعد الأساسية»** لهذه الأحزاب، ولا يوجد ضمن **«مبادئها»** ولا حديث في **«نصوصها»** عن الطرق والأساليب لتحقيق هذه الوحدة، ولا وجود حتى لشعارات تبنى عليها في الواقع الحي مثلما رأينا عند **«الناصرية»**، التي عكست شعارات حزب **«البعث»** فجعلتها، **«حرية اشتراكية وحدة»** حاولت تطبيقها ن نجحت أم فشلت فهذا شيء آخر. ولكن ماذا نقول عن حزب **«الإستقلال»** الذي نادى بتدوف جزءاً من المغرب الشقيق حتى اللحظة الحاضرة. وتحمس لضم الصحراء الغربية بصورة لا نظير لها؟!!

وتأثير الفرانكوفونية في ضعف الإحساس بالعروبة والوحدة لم يكن مقصوراً على ذوي اللغة الواحدة وهي الفرنسية، ولا على ذوي الثقافة العربية البحتة، ولكن مس أيضاً ذوي الثقافة **«المزدوجة»** وقد ظهر هذا بعد الإستقلال في القيادة التي حكمت الجزائر وتونس الأقطار الأخرى . ففي الجزائر كان الإلحاح على الفرنسية لأن الكفاءة ارتبطت بالفرنسية، **«فالكوادر المتعلمون يتذرعون بكفاءتهم لأجل التقدم في الهرم، بينما يواجههم الكوادر الأميون بإلتزام بالأقدمية في النضال، هؤلاء وجدوا أنفسهم في المواقف ذاتها التي تقفها**

---

[1] «في الثقافة والأدب»- عبد الكريم غلاب -مطبعة الأضلي الدار البيضاء، 1964 وص:25 - 53 .

العناصر ذات الثقافة العربية الذين كانوا مع بعض الإستثناءات في أسفل الهرم...» [1].

وليس صحيحاً ما يقوله الكاتب «**محمود الذوادي**» من «**أن القيادة الجزائرية والتونسية تمثل الثنائية الثقافية الكاملة لهما في تمكن أعضاء القيادة تمكناً متساوياً من اللغتين العربية والفرنسية وثقافتهما**» [2]. فهذا غير موجود بالنسبة للجزائر لا قبل الثورة ولا بعد الإستقلال، فإذا كان القصد هو الإطار الحاكم بصرف النظر عن الرئيس، فإن الجزائر حكمها الفرانكوفونيون. والأمر يختلف بالنسبة لتونس، فإن الثنائية فيها تبدو بارزة في معظم الإطار الحاكم. ولكن تأثير الفرانكوفونية ارتبط بالفكر الإقليمي لا العروبي الوحدوي والشيء نفسه ينطبق على المغرب أيضاً. أما موريطانيا فإن من ترأسها بعد الإستقلال كان «**ولد دادا**» فهو فرانكوفوني الثقافة والتفكير والتوجه كما هو معروف.

فضلاً عن خرافة «**الثنائية**» هذه التي تثار باعتبار أن صاحبها يحسن اللغتين بمستوى واحد. فالغلبة دائماً تكون للغة واحدة ولفكرها وتصوراتها للكون والحياة والواقع، ولم يؤيد الفكرة الثنائية بمفهومها المشار إليه في المقال السابق علم اللغة، وقد رفضها طه حسين منذ سنوات طويلة، وهو الذي شرب من الثقافتين حتى ارتوى، وبرّر هذا بأن الإنسان لا يستخدم لغتين في الوقت نفسه وفي اللحظة نفسها وبالمستوى نفسه، ومن غير المسلم به تفسير التعريب مثلاً في الجزائر بالعامل «**الأيديولوجي**» كما يذهب إلى ذلك صاحب المقال السالف الذكر لأن ما تم من تعريب هو شيء جزئي انصب على التعليم في الأساس. وإذن فإن عامل الثقافة لعب دوره في الموضوع، وليست الثنائية في تونس هي سبب «**التذبذب**»، لأن التعريب لازال يتعثر لا في الإدارة وحدها، ولكن في

---

[1] جبهة التحرير «الواقع والأسطورة» ص:262 .

[2] مجلة «المستقبل العربي» – يصدرها مركز الدراسات الوحدة العربية – بيروت العدد142 . 1990/12

التعليم ولاسيما في الجامعة. فحين يقول صاحب المقال: «**فالثنائية هي إحدى المعطيات الأساسية للمجتمع التونسي اليوم**»[1]. فإنه يتجاهل بذلك الفكر الفرانكوفوني ويتجاهل أن «**بورقيبة**» كان أحد المؤمنين بالفرانكوفونية والمدافعين بقوة عنها وعن سيادتها، لا في تونس وحدها، ولكن – كما ذكرت – في مناطق كثيرة. قد يكون هذا الحكم صحيحاً بالنسبة للغة في حد ذاتها أما بالنسبة للثقافة فهو يحتاج إلى دليل. ثم إن المجتمعات لا تتطور بسبب اللغة وحدها أيا كانت، ولكن تتطور بعوامل أخرى من بينها عامل الثقافة والفكر، وأخرى مادية وإجتماعية كثيرة . أما الثنائية فلا تحرك المجتمع لا في تونس ولا في غيرها كما ذهب إلى ذلك صاحب المقال، وحتى إذا سلمنا معه بأن الثنائية الثقافية – كما ظهرت في نخبة تونس – هي التي تحرك الحياة في مختلف جوانبها، فإنها في نهاية الأمر تؤكد ما ذكرناه من أن «**الفرانكوفونية**» وراء هذه الحركة، وأن تعثر التعريب فيها يعود إلى ضعف الإيمان بالعروبة. والكاتب لا يصرح بذلك ولكن يقول: «**لو أن أصحاب القرار في هذا الأخير كانوا أولاً وقبل كل شيء ذوي ثقافي عربي...**»[2]. لو حدث هذا لتغيرت أشياء كثيرة، وهذا الحكم ينسحب على القيادات الأخرى في المغرب العربي.

كذلك فإن التفسير الإجتماعي للسلوك المتردد لهذه القيادة الثنائية اللغة لا يستند إلى حجة، فهو يقول: «**وبعبارة علم الإجتماع فإن الثنائية كزاد ثقافي وكعقلية ذهنية وكتركيبة إجتماعية طالما أدت إلى سلوك متردد ومتذبذب ليس عند أصحاب القرار فحسب بل عند بقية أفراد المجتمع وفئاته...**»[3]. فهل صحيح لو أن أصحاب القرار كانوا من ذوي الثقافة العربية لتغير الوضع؟؟ قد يصح هذا الحكم ربما في تونس وأيضاً في الجزائر. ولكن التجربة بينت أن هناك

---

[1] المصدر نفسه.

[2] المصدر نفسه.

[3] المصدر نفسه.

مسؤوليات أسندت إلى ذوي الثقافة العربية ولم تكن تعريباً لمؤسسات كانوا على رأسها، بل إن بعضهم نقل أبناءه من الأقسام المعربة إلى الأقسام «**المزدوجة**»، لأنه رأى أن المستقبل للفرنسية مادامت هي لغة «**الخبز**» في بلده! فلو كان يؤمن بالعربية أو التعريب اللغوي لما فعل ذلك، كما أن التعريب الذي تحقق في الجزائر في عهد «**بومدين**» لم يتجاوز نطاق التعليم في الغالب، صحيح أنه كان يدافع عن العربية والإسلام، ولكن إقليميته ووطنيته – التي كانت كل شيء في فكره – جعلته يتابع التجربة بحماس كبير ويقظة دائمة، فلو كان هو أو «**بن بله**» قد اتخذ قراراً ثورياً بتعريب الجزائر تعريباً شاملاً لكان لحديثنا اليوم وجهة أخرى ولو أن المسؤوليات في عهديهما أسندت إلى «**عروبيين**» وحدويين، لتغيير الوضع ولكنهما اعتمدا على الفرانكوفونيين بعض النظر عن أسباب كل منهما وظروفه ومبرراته!!

إن «**بومدين**» كان يحث على التعريب في خطبه وكلماته ويعطي الأوامر للتطبيق، ولكنها تبقى في أدراج المكاتب، لأن الذي يطبق لا يؤمن لا بالتعريب ولا بالعربية فما بالك بالوحدة، و«**بومدين**» كان يعرف هذا ولكنه ما فصل يوما أحد المسؤولين لأنه لم يطبق التعريب في إدارته، بل إن هناك من رفض أن تدخل العربية وزارته! وقد تساوى عنده من عرب مثل بوعلام بن حمودة في وزارة العدل ومن لم يفعل مثل مصطفى الأشرف الذي ضرب بقرارت التعريب عرض الحائط وهو وزير التربية.

فالسلطة الحاكمة سواء في الجزائر أم في غيرها تدرك أن التعريب يؤدي إلى الإحساس بالعروبة من خلال اللغة والثقافة والفكر، وهذه تؤدي إلى الإيمان بالوحدة، ومن ثمة وقفوا ضده لأن تفكيرهم إقليمي من جهة، ولأنهم منحازون إلى الغرب وإلى فرنسا وثقافتها بالدرجة الأولى من جهة ثانية. أما البحث عن أسباب أخرى إجتماعية ونفسية وإقتصادية، فهذا أمر مكمل لا أساسي في تصوير، وهذا البحث هو نوع من الهروب من مواجهة الحقيقة، واقعاً وتاريخاً ومعطيات محسوسة.

وقد قام التعليم بدور بارز في زرع الإقليمية في هذه الفئة الفرانكوفونية، كما غرس فيها حب الثقافة الفرنسية الأمر الذي أدى إلى صراع طويل عرفته البيئة الثقافية في تونس، ونحن عشنا هذا الصراع بين **«الزيتونيين»** و**«البرقيبيين»** وأكثرهم من خريجي المدرسة **«الصادقية»**. وبصرف النظر عن جانب الصراع السياسي في الموضوع، فإن الجانب الثقافي كان هو العنصر البارز في الجزائر والمغرب بين أنصار التعريب والعربية كطرف، والمدافعين عن الفرنسية كطرف ثان وما زال الصراع قائماً حتى اليوم فاهتمام فرنسا **«بالجانب الثقافي للإستعمار يدل على أنها كانت تدرك أن غزو العقول لا يضاهيه الغزو العسكري ولا الغزو الإقتصادي للشعوب إذن تحقيقه هو وحده الذي يؤمن تبعية الشعب الجزائري لفرنسا على الأمد البعيد...»** [1].

إن التفسير الذي يلح على العامل الأيديولوجي – كما سبق – ليس هو التفسير الدقيق والصحيح لقضية التعريب في الجزائر، فالأيديولوجية لا تنبت في فراغ، والفرد منها كانت قوته لا يستطيع أن يفرض شيئاً، ولذا فإن الجماهير الجزائرية وضغطها المستمر هي العامل الأساسي فيما تم من تعريب، وليس صحيحاً ما يقوله صاحب المقال من أن **«القيادة الثقافية للجزائر التي تغلب عليها الفرنسية لم تعرقل عملية التعريب في المجتمع الجزائري...»** [2].

إن هذا الحكم لا يصور في الواقع. فهذه القيادة التي يتحدث عنها، الفرانكوفونية والعروبية لم تتخذ موقفاً حاسماً من أجل تعريب منظم وجاد وشامل، ولكنها تركت المبادرة لمن يرغب فيها من المسؤولين – كما ذكرنا – وتأخير التعريب في الأقطار الثلاثة سببه هذه القيادة أصلا بصرف النظر عن الفروق في الدرجة وفي النظرة إلى اللغة . فحتى الفرانكوفونيون قد يوافقون على التعريب وعلى تعميم إستعمال العربية في ميادين معينة، ولكن في حدود اللغة. أما إذا تجاوز هذا المستوى فهو أمر غير مقبول. إذن النظرة الوطنية شيء والقومية

---

[1] المصدر نفسه.

[2] المصدر نفسه.

شيء آخر . ولو رجعنا إلى البرامج التعليمية في هذه البلدان ورأينا كم هي «المواد» الدراسية التي تحث على الوحدة أو تزرع الحس القومي مشرقاً ومغرباً، لما وجدنا سوى بضع كلمات، بينما نجد العناية بالفكر القطري والإقليمي هو الطابع العام للتكوين.

وحتى الأجانب اعترفوا بأن الصراع الذي حدث في تونس – مثلاً – يرجع إلى الثقافة **«فصراع بورقيبة ضد صالح بن يوسف يرجع إلى جذور ثقافية أيديولوجية، فبرقيبة تحديثي غربي وبن يوسف عروبي إسلامي»** [1].

ويمكن تعميم هذا الحكم في بقية الأقطار، فصراع **«بن بلله»** مع الحكومة المؤقتة منذ نزوله في مطار تونس 1962 وتصريحه المعروف **«نحن عرب»** التي كررها ثلاث مرات، هو صراع بين الإقليمية القومية، بين الفكر الفرانكوفوني والعروبي، والأمر نفسه ينطبق على صراع **«المهدي بن بركة»** ضد الآخرين، ففي تلك الفترة من الخمسينات والستينات رفع شعار **«الوحدة العربية»** بقوة وتزعمه قادة ومناضلون ومثقفون عرب مشرقاً ومغرباً كما أشرنا، وأصبح مشروع الفرانكوفونية، ثقافة وسياسة مهدداً لأن دمج المغرب العربي المشرقي سيؤثر على الغرب وثقافته ومصالحه، وبالتالي فإن فكره وأصحابه سيتضررون. فكان ما نعرفه من أحداث ومآسي حدثت لزعماء هذا الإتجاه العروبي الوحدوي.

ولا حاجة لنا أن نؤكد أن **«الفرانكوفونية»** الرسمية في الحكم بتونس والمغرب ترفض أو لا تسمح بنقد الفرانكوفونية أو مناقشتها ولا سيما في عهد بورقيبة، لسبب معروف، وهو أن البلدين يعتبران من مؤسسي **«التكتل الفرانكوفوني»** ودورهما في الدفاع عنها لا يجهله أحد. وإذا كانت الجزائر عضواً في هذا النادي أو المنظمة لأن الجماهير لن توافق عليه نظراً للتضحيات

---

[1] المستقبل العربي عدد 144 فيفري1991 . والنص ماخوذ من كتاب « تاسيس الدولة والمحيط الثقافي – الإطار السياسي الإداري في تونس المعاصرة»- عرض الباحث محمود الذوادي .

الجسمية التي قدمها شعبنا من أجل وطنه ومقومات شخصيته، فإنها مع ذلك مكنت للفرنسية بصورة أقوى مما كانت عليه قبل الإستقلال.

والذي يلفت الإنتباه بدرجة ملحوظة أن الفكر الإقليمي الذي عمل له المستشرقون الفرنسيون وساسة فرنسا وتأثرت به فئة من **«الفرانكوفونية»** قد أثر بعد الإستقلال أكثر من قبله. فالنضال السياسي والعسكري كما قادته الجزائر أثناء الثورة غطى نسبياً على الإقليمية، لأن الرد على العدو كان هو التضامن بين المناضلين ضد سياسته الإستعمارية التي حاولت تحطيم كل الروابط بين أبناء هذه البلدان. ولكن بعد الإستقلال رفعت هذه الإقليمية رأسها عاليا من خلال الفكر الفرانكوفوني، وبدأ الحديث ليس على خصوصية كل قطر من أقطار المغرب العربي بل عن أمم: أمة تونسية وثانية مغربية وثالثة جزائرية ورابعة موريطانية! فمثلا يذهب الكاتب التونسي بن سلامة جعل تونس أمة بقوله: **«إن الشعور التونسي قد ارتقى إلى المرتبة تجعل منه أنه ينتمي بوطنه الصغير إلى أمة بأتم معنى الكلمة»** [1].

وأخذت الفرانكوفونية ومن ناصرها تبحث عن الجذور القديمة لهذه الأقطار وخصائصها من قبل الإسلام حتى العصر الحاضر، وأصول الحركة القومية ومفهوم الشخصية الوطنية لكل بلد على حدة [2]. والخروج من الظل إلى العلن، مما يذكرنا بالدعوات التي ظهرت في المشرق العربي في العشرينيات من هذا القرن.

والواقع أن القطرية والتأكيد عليها ومفهوم **«الأمة»** لكل بلد والإلحاح عليها لا يحمله الفرانكوفونيون وحدهم، ولكن يشاركهم في ذلك أولئك الذين

---

[1] «هل نحن أمة؟» - مهدي مبروك - دار البراق للنشر- تونس1989 ص:26 (وصاحب الكتاب الذي هو بحث جامعي، يعرض للكثير من آراء المفكرين التونسيين في هذا المجال ممن تأثروا بأفكار بورقيبة الإقليمية).

[2] أنظر: «الدولة والمسألة الثقافية في الجزائر» - المنصف وناس، دار أليف للنشر - تونس - بلا تاريخ . ص:238 - 239 .

ينظرون إلى العربية على أنها مجرد أداة لغوية أو هي لغة القرآن والدين الإسلامي وكذلك هؤلاء الذين يدافعون على الحدود الجغرافية والجهوية أو الذين ينظرون إليهما من منظور عالمي أو ماركسي. فهؤلاء جميعا يلتقون في الموقف نفسه وهو رفض الفكر العروبي القومي ومعاداة الواحدة أياً كانت صورتها، وخاصة إذا كانت حقيقة لا لفظية أو مجرد شعار والموقف نفسه أيضا رأيناه لدى الفرانكوفونيين في مصر ولعل **«طه حسين»** كان أقل عداء نسبيا للفكر العروبي وإن هاجم الوحدة في كثير من الأحيان، فالخلاف في التفاصيل بين المشرق والمغرب لدى الفرانكوفونيين، ولكن الموقف واحد من الوحدة والمصير المشترك.

يقول الأخ **«بن خدة»** رئيس الحكومة أثناء الثورة تحت عنوان **«عروبة وإسلام»** في كتابه **«أصول أول نوفمبر عام 1954»** مانصه: **«..وأن العرب لهم نفس العواطف والروابط الثقافية على طريقة الإنجلوسكسون في أمريكا الشمالية وأنجلترا أو مثل اللاتينيين في فرنسا وإيطاليا والبرتغال وأسبانيا الذين يرتبطون بثقافة واحدة...»** [1].

هذا إذن هو مفهوم للعروبة مجرد رابطة ثقافية لسانها العربية مثل الرابطة الإنجليزية لمن يتكلمها أو اللاتينية للأقطار التي تتحدث بها ولا شيء غير ذلك، فهو يجردها من أي محتوى سياسي يربط الأقطار العربية بعضها ببعض، وهي رابطة عاطفية صرفة. وإذا عرفنا أن الكتاب صدر في 1989، أدركنا أن الماضي الذي تحدثنا عنه ما يزال يتحرك إلى الآن ويعيش بداخل من يؤمن بالإقليمية وثقف ثقافة فرنسية رغم أن الرجل كان قادة الثورة البارزين وعاش عن قرب من التيارات العروبية في المشرق، بحكم أنه كان رئيس حكومة لشعب خاض حرباً شرسة من أجل الإنفصال عن القومية الفرنسية وتحقيق قومية مناقضة لها تماماً .

---

[1] أصول نوفمبر 1954 – يوسف بن خدة – مطبعة دحلب 1989 ص: 182 .

ولا أحد يعارضه في أن العروبة ليست عرقاً أو جنياً أو دماً، ولكنها حضارة جاءت بها أمة واحدة هي الأمة العربية ثم نشرتها تحت لواء الدين الإسلامي، فانضمت إليها أجناس وأمم وهذا لا يتناقض مع الدعوة إلى العروبة بهذا المفهوم ولا مع وحدة الأمة الإسلامية لأنها – آي القومية العربية – لا ترفض الآخرين ولا تتحكم في مصائرهم مثلما فعلت القوميات الغربية المتسلطة.

ورأي هذا السياسي المثقف الجزائري هو نموذج للوطنيين الإقليميين في المغرب العربي. فنظرتهم إلى اللغة نظرة عاطفية بحتة أو دينية خالصة، وهي نفسها نظرة بعضهم إلى العروبة والوحدة، فهي لا تتجاوز هذه **«المشاعر الداخلية»** – إن صح التعبير – التي تظهر في العمل أو السلوك أو التطبيق كما أشرنا قبلاً. فنحن هنا لا نناقش هل الوطنية هي العروبة؟ ولكننا نناقش فكراً أثر في حياتنا وبيئتنا، وله سماته الخاصة منها الدعوة إلى الإقليمية والإنكفاء على الذات ورفض الفكر القومي والوحدة، حتى أن باحثاً عربياً هو **«أحمد محمد الدغيشي»** عجز عن تعليل إهتمام بعض المفكرين بالثورة الفرنسية بعد مرور قرنين من الزمن عليها بحيث أصبحت مثلهم الأعلى **«هل لأن هناك جذوراً تاريخية وأهدافاً مشتركة أو ارتباطاً وثيق الصلة بثوراتنا ومسيرة النضال العربي؟ أم لأن الثورة الفرنسية لا نظير لها في ثورة في العالم مهما بلغ النضال فيها؟؟»** [1]. ويواصل القول مدهوشاً من هذه الظاهرة فيقول: **«بنظرنا أن الثورة الجزائرية والشعب الجزائري مثلاًهم أجدر بفخر مفكرينا وإشعال جذوة الحماس الثوري من خلال الرؤية الواضحة للجهاد الجزائري الذي فاق الخيال «صمتاً» فلماذا نبعد ونعود مائتي عام إلى الوراء»** [2].

والجواب على سؤاله هو أن كثيراً من المتعاطفين مع الثورة الفرنسية هم من خريجي المدارس والجامعات الفرنسية سواء من المشرق أم من المغرب العربيين، وحتى أولئك الذين لهم ثقافة إنجليزية يصدرون في تعلقهم بتلك الثورة

---

[1] (حوار المشرق والمغرب) تقديم جلول فيصل ص: 159 .

[2] المصدر نفسه – (كلمة صمتا جاءت هكذا في الأصل ولعل في الأمر خطأ مطبعي).

عن فكر غربي عام، أما الحديث عن الثورة الجزائرية فهو حديث يتصل بشعب عربي وبأمة ينتمي إليها هذا الشعب، فهي ثورة عربية بداية ونهاية، بينما هم يبحثون عن شيء يقربهم من الغرب ممثلاً بفرنسا. وحديثهم عن الثورة الجزائرية يقربهم من الشرق ومن العروبة أو يضطرهم إلى الحديث عن الوحدة العربية، وبالطبع فإن هذا الأمر يتصل بالشريحة التي عرضنا لفكرها لا بالمفكرين والمثقفين العرب مشرقاً ومغرباً، لأن الكاتب تحدث عن البعض لا الكل وتعجب من موقف نموذج ولكنه لم يعرض للظاهرة التي هي كما ألمحنا ترتبط بالتغريب والإستلاب الفكري والثقافي لدى طائفة لها تأثيرها السياسي والثقافي في أقطار عربية كثيرة.

فالمنطق دائما هو الأصل، من أين نبدأ؟ والنتيجة تكون هي النهاية. فالثقافة – عامة – تحدد هوية الفرد والشعب والأمة وتترك أثرها في تفكير الجميع، ومن هنا نجد أن السياسيين والمثقفين في المغرب العربي ممن ثقفوا ثقافة فرنسية – باستثناء ليبيا – قد صدروا في تصوراتهم ورؤاهم عن النموذج الفرنسي، بينما في ليبيا لم يكن للفرنسية تأثير لا في ساستها ولا في مثقفيها. كما أن الثقافة الإيطالية لم تترك بصماتها في البيئة الليبية، لذلك فإن ثورة الفاتح من سبتمبر قد استطاعت في ظرف قصير أن تعمق الفكر القومي الوحدوي في الجماهير الليبية، بل وكانت همزة وصل بين المغرب والمشرق ورفضت المنطق القطري الإقليمي الذي ساد في الأقطار التي خضعت للنفوذ الفرنسي، بحيث نجد أن الفئة الحاكمة في ليبيا هي فئة العروبيين – فكراً وثقافة بصرف النظر عن اللغة، لأن المنطق كان قومياً لا قطرياً وبغض النظر عن النتائج التي حققتها شعارات الوحدة في ليبيا فهذا موضوع له مجاله.

ونحن لا نفرق في التكوين بين من درس في فرنسا أو في الأقطار المغربية، «**فبوورقيبة**» مثلاً درس في الصادقية ثم في فرنسا. وأمثاله في تونس كثيرون، وكذلك «**فحات عباس**» درس بالجزائر أولاً ثم فرنسا، والشيء نفسه في المغرب، سواء حدث قبل الإستقلال أو بعده فالنتيجة واحدة من حيث التوجه

الثقافي والسياسي. لذلك فإن ذوي الثقافة الفرنسية عندما حكموا هذه الأقطار التي خضعت للسيطرة الفرنسية أبعدوا ذوي الثقافة العربية من الحكم ومراكز المسؤولية إلا النادر الذي شذ عن القاعدة، ولذا كانت نسبة ذوي الثقافة العربية في الإدارة وفي الإشراف على المؤسسات وفي الوزارات تبدو ضئيلة جداً بالقياس إلى ذوي الثقافة الفرنسية في مختلف أقطار المغرب العربي [1].

إذن هذا الصراع الذي تحدثنا عنه منشؤه الفكر القومي والإقليمي إلى جانب اللغوي. فالسياسة هنا ارتبطت بالثقافة منذ نشأة الأحزاب الوطنية حتى الوقت الحاضر، وكان المفروض أن تكون العلاقة بين هاتين المجموعتين «علاقة تعاون واثراء متبادل لا علاقة صراع وتحقير. [2]

ونضيف عاملاً خر مهماً في الإرتباط بفرنسا وثقافتها هو أن كثيراً من الزعماء والقادة والمثقفين الفرانكوفونيين قد تزوجوا بفرنسيات، فتأثر بعضهم – قليلاً أو كثيراً– بالفكر الفرنسي. والبعض منهم كان يفخر بأنه تزوج بفرنسية! وإذا كان الزعماء قد تزوجوا بالأجنبيات فقد أعطوا المثل لمن لا وعي له، ويأتي الجزائريون في مقدمة من تزوجوا بفرنسيات وهناك الكثير من المسؤولين في الدولة زوجاتهم فرنسيات أو أجنبيات وتأثير الزواج لا يحتاج إلى إفاضة في القول، وأقله أن الحديث في المنزل ومع الأولاد يكون بالفرنسية لا بالعربية وينشأ عن هذا مناخ فرانكوفوني لا عربي، وما زلنا نذكر هجوم الفرنسيين بعد الإستقلال على الكتّاب الذين انتقدوا هذه الظاهرة.

وهناك عنصراً آخر يؤكد ما نحن بصدد الحديث عنه وأعني الهجوم على خريجي **«المشرق العربي»** من أبناء المغرب العربي، وذلك بالقدح في كفاءتهم

---

[1] ففي تونس مثلاًمن بين94 وزيراً وكاتب دولة من1956 - 1980لا يوجد واحد من بينهم متخرج من التعليم الزيتوني، وكذلك في المستويات الإدارية لا يوجد من ذوي الثقافة العربية سوى أعداد قليلة تبدو نسبتها في آخر السلم تماماً وهو حكم يمكن تعميمه في باقي الأقطار. أنظر: الأنتلجنسيا العربية – الدار العربية للكتاب – ليبيا 1987 ص: 306 .

[2] المصدر نفسه.

العلمية وشهاداتهم الجامعية التي حصلوا عليها من الجامعات العربية، والسخرية من كتاباتهم ومؤلفاتهم وأطروحاتهم. لقد حورب هؤلاء حتى في معاشهم وتعرضوا لمضايقات كثيرة أثناء معادلة شهاداتهم، بل إن الذين ذهبوا منهم إلى الجامعات الفرنسية وحصلوا منها على الدكتوراه لم يسمح لهم بالتدريس في الجامعة خاصة في تونس حتى الآن، لمجرد أن الشهادة الأصلية كانت من القاهرة أو بغداد أو دمشق!! ذلك لأن الأمر المهم في نظر الفرانكوفونيين - مسؤولين كانوا أو مثقفين - هو التكوين الأصلي - وهم على حق في ذلك - فاللغة أو الثقافة هي التي تطبع الفكر بطابع معين، والمنابع الأولى هي التي تحدد هوية المثقف وتضعه في صف معين حتى ولو ألف بالفرنسية وأتقنها إذ سيظل **«خريج الشرق»**.

ومن تناقضات الفرانكوفونيين أنك حين تنقدهم أو تلومهم على اتجاههم يغضبون، بينما هم يتهمون الآخرين بأن دراستهم في الجامعات العربية تجعل منهم متعاطفين مع الفكر القومي الوحدوي إن كان هذا إتهاماً!

إلى جانب هذا كله هناك عامل المصلحة بمفهومها العام والخاص، فالفئة البورجوازية الحاكمة من الفرانكوفونيين في هذه الأقطار دافعت عن مصالحها ومراكزها وعن وجودها وعن اللغة التي تحسنها وتتفانى في التنويه بها، طالما أنها توفر لها السلطة والنفوذ والجاه. ومثال موقفها من الثورة الجزائرية عندنا أكثر سطوعاً، فقد تظاهرت بتأييدها ثم انقلبت عليها بعد أن غاب بومدين بشعاراته المعروفة، وهو ما حدث للتجربة الناصرية حين انقلبت عليها هذه الطبقة، فالمصلحة إذن عامل هام في الحكم وفي غيره.

ويجسد هذا أن الفرانكوفونية في المجال السياسي - مثل المجال الثقافي - لا تؤمن بالوحدة حتى في المغرب العربي، فقد باءت بالفشل حتى وقتنا الحالي لأنه من التناقض أن يعمل للوحدة من لا يؤمن بها وأن يحققها من لم ينشأ على حبها ولم يتشرب مبادءها في صغره، فالثقافة والحكم والسياسة هي التي

تجسدها لا الخطب والكلمات والمهرجانات التي تعقد والإجتماعات التي تتواصل هنا وهناك!!

وقد ناقش هذه القضية كاتب جزائري هو «**نور الدين قلالة**» فوصل إلى نفس النتيجة وهي أن عدم تحقيق وحدة المغرب العربي هو تعبير عن «**أزمة الهوية أو هوية الأزمة**»، وأن هذه الوحدة الظاهرية أدت إلى الدولة القطرية رغم عوامل الوحدة المختلفة: «**نظراً للدور القاصر الذي تقوم به النخب السياسية والتي لا تقدم مضموناً حقيقياً لفكرة الوحدة الشاملة...**»[1].

وسبب الأزمة بالطبع هو التكوين كما سبق أن ذكرنا، أن سيطرة الفكر الغربي على هذه «**النخب**» التي تحدث عنها الكتاب هو الذي جعل الحديث عن الوحدة «**المغاربية**» مجرد كلام للإستهلاك المحلي ولتحذير الجماهير حين يكثر ضغطها على هؤلاء القادة، أي يعمدون إلى القول دون فعل بينما هم سادرون في إقليميتهم: «**المصنوعة سلفاً ومدروسة ومقصودة**»[2]. تلك هي القضية وهذه هي النتيجة لمقدمات عرضنا لها وأوضحنا أسبابها الجوهرية ومنشأتها الحقيقي. وإذا كان هذا موقف الذين يدافعون عن العروبة والإسلام فماذا يمكن أن نقول عن «**الإندماجيين**» الذين اندفعوا ينهون بفرنسا وثقافتها ويطالبون بأن يكونوا مثل الفرنسيين في الحقوق والوجبات؟!

وقد لاحظ المؤرخ «**صلاح العقاد**» أن المغرب أنشأ وزارة خاصة بشؤون الإفريقية، وأن تونس أصدرت مجلة أسبوعية باسم العمل الإفريقي[3] وهذا بعد الإستقلال، ولكنه لم يذكر الجزائر التي أنشأت هي الأخرى مجلة أسبوعية بالفرنسية باسم «**الثورة الإفريقية**» وتابعة لحزب جبهة التحرير الوطني، ولكن الأحزاب والحكومات في بلدان المغرب العربي لم تنشىء مجلة ترفع شعار الوحدة أو العروبة، صحيح أنه ظهرت عناوين مثل «**شمال أفريقيا**» لكنها رغم

---

[1] جريدة السلام 15 جانفي 1991 .

[2] المصدر نفسه.

[3] «المغرب العربي»، صلاح العقاد ص:483 .

إيحائها بالوحدة بين الأقطار إلا أنها كما معروف، تسمية فرنسية غربية لأن فكر هذه النخبة تتوجه إلى الجغرافيا، إفريقياً أو متوسطياً، كي تضعف من إرتباطنا بالأمة العربية ومن الإحساس بضرورة وحدتها.

وهناك تيار آخر لا يتم الحديث عنه في الموضوع دون التعرض إلى فكره وموقفه من العروبة والوحدة، وأعني به التيار **«الإصلاحي»** الثقافي والديني. أن فكر أصحاب هذا التيار ليس عربيا وحدويا وإن كان من الناحية العاطفية لايرفض الوحدة مثل الفكر الفرانكوفوني العروبي، فهو يستوي في هذا مع شعارات الأحزاب في أقطار المغرب العربي قبل الإستقلال ويلتقي معها في النتيجة وإن اختلف المنهج والطريقة والأداة.

إن هذا الفكر الوطني دافع عن العربية والعروبة ودافع بقوة أكثر عن الإسلام بصفة خاصة، يستوي في ذلك خريجو مدارس جمعية العلماء والزيتونة والقرويين أو خريجو المعاهد الدينية بالمشرق العربي أو من تعلموا في الزوايا وعلى مشايخ الطرق. فأصحابه ينظرون إلى العربية نظرة دينية أساساً أو نظرة وطنية بعد ذلك، فلم يظهر منهم مفكرون قوميون أمثال **«ساطع الحصري»** أو **«زكي الأسوزي»** أو **«عبد الرحمن البزاز»** أو **«منيف الزراز»** أو **«الفرّا»** **أو«شرارة»** أو **«محمد عمارة»** أو**«قسطنطين رزيق»** وغيرهم في الأقطار المشرقية وهم كثيرون قديماً وحديثاً . وكأن التنظير للعروبة والوحدة يخصهم ولا يمسنا نحن في المغرب العربي.

ولا نجد – فيما أعرف – في تونس أو ليبيا أو الجزائر أو المغرب أو موريطانيا من تصدى إلى بلورة الفكر العربي على أسس معينة **«أيديولوجية»** ورسم معالم وحدة عربية شاملة باستثناء **«الكتاب الأخضر»** في ليبيا بعد الثورة أو كتابات المفكرين العروبيين أمثال **«جعيط»** **«وبوقمر»** وغيرهما في تونس **«ومحمد الجابري»**. وقلة نادرة عنيت بالوحدة ومقوماتها في المغرب، فالجابري كرّس بحوثاً قيّمة انقد العقل العربي، وناقش قضليا كثيرة تتصل بهذا الموضوع ودافع عن الوحدة التي تبنى على مراحل كما ذكر حرفياً: **«أقصد الوحدة التي**

تبنى على مراحل وفي إطار استراتيجية عامة طويلة المدى أيضاً، وهذا هو المهم خلال وحدات إقليمية...» [1].

وقد ذكرني رأيه بما كنت قد قلته منذ أكثر من خمسة عشر سنة، أي في بداية السبعينات عن الوحدة ومراحلها وعن العناصر التي تسهم في تكوينها أو تحقيقها، جغرافياً وسياسياً ومادياً واعتبر بعضهم من الجزائريين رأيي في تلك المرحلة فكراً طوباوياً، ولكننا ما لبثنا أن رأينا في الثمانينات وحدات من التي نوهت بها بقطع النظر عن جناحها أو فشلها، فهذا لا يؤثر على الأفكار والمبادئ والمعطيات ولكنه يعود إلى الظروف والقيادات والأشخاص، وفي نهاية الأمر نعود إلى حكمنا الآنف الذكر [2].

باستثناء ما كتبته لا يوجد في الجزائر دراسات عن الوحدة بالمفهوم الدقيق ولمقوماتها وأسسها جزئية أو كلية، وكأن الموضوع يهم المشارقة وحدهم، صحيح أن هناك مقالات عن العروبة وعن الوحدة فيها تمجييد أو تأييد أو دفاع عنها، ولكن الدراسة المستفيضة والتحليل والمقارنة والنقد هو أمر يكاد يكون معدوماً بالقياس إلى ما قدمه إخواننا في المشرق العربي خاصة في مصر والعراق وسوريا وفلسطين ولبنان والأردن، أما الخليج فلا أعرف أن كانوا قد ناقشوا الموضوع أصلاً.

على أن باحثاً فرنسياً جاداً يتعاطف مع القضايا العربية هو **«جاك بيرك»** دافع عن الوحدة العربية وعن العرب في مواطن كثيرة، وعبر عن تجاوبه مع التاريخ الحديث للأمة العربية مشرقاً ومغرباً، يقول ما نصه: **«إنني أحب الشعوب**

---

[1] هموم الثقافة العربية – فرحات صالح – دار الحداثة بيروت – ط1 1988، وهو حديث للجابري أجراه معه المؤلف سنة 1981 بالدار البيضاء، ويبين الجابري في هذا الحديث رأيه فيما يتصل بالوحدة والتجزئة والعوامل التي تساعد على كل منهما وغير ذلك مما له علاقة بالموضوع من نواح عديدة.

[2] أنظر «عروبة الفكر والثقافة» عبد الله ركيبي – المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر1986 (من ص:31: 37).

العربية كافة أو بالأحرى الشعب العربي بشكل عام، لكنني لا أحب أنظمتهم ولا مناهجهم التخالفية، إن من أراهم الأفضل حالياً بشكل حدسي وشعوري أكثر مما منطقي مبرر: دولة في المغرب العربي، ودولة في المشرق... فيهما علامتان من علامات الحداثة الممكنة أو التي هي قيد التحقيق...» [1].

فهذا المفكر الفرنسي ابن الفرانكوفونية يأمل في دولة واحدة في المغرب وثانية في المشرق العربيين، بينما غيره ينتمي إلى المنطقتين وإلى هذه الأمة يرفض هذا ويتنكر لحضارة بأكملها، بل ويدعو إلى الحضارة الأخرى التي ينتمي إليها هذا المفكر، وتلك لعمري من المفارقات الغريبة في وطنها العربي!!

وحتى أصحاب الفكر الإصلاحي عندنا الذين أشرنا إليهم آنفاً – علماء دين ومثقفين – تركزت عنايتهم على شرح هذا الفكر السلفي وإذاعته بين الجماهير. ورغم أن الفئة التي ربطت بين الإسلام والعروبة منهم هي أكثر ارتباطاً بالإقليمية منها بالفكر القومي العربي، فالوحدة تنطق عندهم من مفاهيم دينية إسلامية وتعود إليها، فهي المنبع والمصب. ويبدوا التناقض واضحاً في فكرهم بين الإقليمية والعالمية التي يمثلها الإسلام، فدعاتهم بدل أن يفكروا في وحدة جهوية تبنى على العروبة والإسلام وتتطور مع الظروف والأحوال إلى أن تصل إلى قمتها ونهايتها، وقد كان البعض منهم يسافر من بلده إلى العالم الإسلامي في الماضي للدعوة إلى الوحدة الإسلامية رغم علمهم بأن تحقيقها من الصعوبة بمكان، خاصة وأن الإستعمار الغربي كان جاثماً على صدور هذه البلدان متحكماً في رقابهم، وكذلك النعرات الإقليمية التي كانت ولازالت تتحكم في قيادات هذه البلدان فضلاً عن سيطرة الفكر الغربي على العقول فيها أياً كان نوعه أو لونه، ففرانكوفونياً أم أنجلوسكسونياً أم غيرهما.

---

[1] مجلة«الفكر العربي المعاصر»- لبنان عدد37 ديسمبر جانفي1985 - 1986 . والحديث جرى بين بيرك وايف لاكوست حول هموم الثقافة العربية وقضايا الأمة كالوحدة، الإسلام، العروبة، الناصرية، الإخوان المسلمون، الثورة الإيرانية وغيرها.

ومع ذلك هناك الجناح العروبي الإسلامي في هذا التيار، وفوق أن أفراده قليلون بالمغرب العربي، فإن نظرته إلى الوحدة نظرة عاطفية مثل العروبيين والفرانكوفونيين إلا شريحة أقل من الأولى تؤمن إيماناً راسخاً بها وتعمل على تحقيقها بالرأي والفكر والموقف لأنها لا تملك سوى ذلك.

على أنه يمكننا أن نلحظ ثلاث تيارات في **«جمعية العلماء المسلمين الجزائريين»**.

فهناك – كما أشرت منذ قليل – التيار العروبي الإسلامي الذي يؤمن بالوحدة الإسلامية ولا يعارض الوحدة العربية، فرغم أن جمعية العلماء قامت على إحياء الدين وسجلها الرسمي يؤكد ذلك، فإنها دافعت عن العروبة والعربية من خلال أدبياتها وكتابات مفكريها وعلماءها ومثقفيها أمثال **«ابن باديس»** و**« الإبراهيمي»** و**«توفيق المدني»** والشاعر **«محمد العيد آل خليفة»** ومن يسير على نهجهم، فإن الوحدة والعروبة وأن كانتا تمثلان هوية الشعب إلا أنها تبقى مجرد عاطفة صادقة تبدو في النصوص والأقوال ولا تتجاوز هذا إلى مرحلة الفعل، فهم حين يتحدثون عنهما يقيمون الدليل على إمكان تحقق الوحدة وأنها قد تحققت في الماضي في عصر الخلافة تحت راية الإسلام، أما كيف ؟ ولماذا لا تتحقق الآن؟ فهذا مالا نجد له أثر في نصوصهم.

غير أن الشيخ **«باديس»** تحدث عن الوحدة العربية الشاملة ووحدة المغرب العربي إعتماداً على الروابط التي تربط بين أجزاء الأمة الواحدة، وقد عرض لموقفه هذا كثير من الباحثين مثل **«المليي»** في كتابه **«عروبة بن باديس»**، كما عرض إلى آرائه في العروبة والوحدة وقضية فلسطين كاتب آخر هو **«إبراهيم لونيسي»** وغيرهما [1].

وإذا كان الشيخ باديس يرى أن الوحدة لا تتحقق لأقطار مغلوبة على أمرها ولا تتمتع بالإستقلال ولكن يمكنها تحقيق ذلك بعد تتحرر، فإنه لم

---

[1] انظر جريدة الشعب 20 أفريل 1989 ، ففي المقال تفصيل لما ورد في كتابات باديس سواء في التهاب عامي1938 و1938 أو في كتاب: (ابن باديس، حياته وآثاره) جـ 3 وجـ 4.

يعطينا تصوره للوحدة وطريقة تحقيقها وشكلها ومحتواها، وهو معذور – ربما – لأنه كان يعيش مثل الجزائر تحت نير إحتلال استطاني لا يمكن أن يوافق على الخوض في الموضوع بالتفصيل. ومثله «**الإبراهيمي**» الذي دافع عن الوحدة دفاعاً حاراً وخاصة ُوحدة المغرب العربي، وساق حججاً كثيرة من التاريخ والفترات التي تحققت فيها هذه الوحدة، ولكنه أيضاً لم يبين طريقة إنجازها على أرض الواقع. فإذا كان الرجلان يؤمنان بها ويدافعان عنها وعن العروبة فإنهما لم يبينا محتواهما ومراحل التحقيق. وهذه – في الغالب – نظرة العروبيين من «**جمعية العلماء**»، فحتى اتصالاتهم في المشرق العربي وعلاقتهم بالتيارات السياسية والفكرية كانت تقترب من «**الإسلاميين**» كما يطلق عليهم اليوم و«**الإخوان المسلمين**» بوجه خاص، وهذا حتى بعد قيام ثورة مصر سنة 1952 وانتشار أفكار حزب «**البعث**» العربي في المشرق، لأن توجههم الديني يغلب رؤيتهم القومية.

والتيار الثاني تغلب عليه النظرة الدينية الصرفة وينظر إلى العربية من خلالها ويتحمس للوحدة الإسلامية وهذا من منطلق الإيمان بالخلافة الإسلامية قبل كل شيء، وذلك يرجع في الواقع إلى ثقافة وتكوين هذا التيار مثل سابقه وإلى البيئة العائلية أيضاً ومدى الإطلاع على النظريات السياسية بالنسبة لقضية الوحدة، قومية أو إسلامية .

ثم هناك تيار ثالث إقليمي جهوي محدود وهو يشبه إلى حد كبير التيار نفسه الذي ظهر في الأربعينات في حزب «**الشعب**» بعد أن تأسس معهد ابن باديس وقد تزعمه أفراد قلائل ولكنهم لم يعلنوا دفاعهم عن اللهجة «**البربرية**»، وإن تعاطفوا معها، وقد تأكد هذا التيار بعد الإستقلال وهو بعيد عن العروبة كل البعد توجهاً وتوحداً، وأصحابها يحاربونها سراً وعلانية ويدافعون عن الإسلام عقيدة وعن العربية بوصفها لغة القرآن والدين وحسب.

فإذا قلنا أن تفكير الغالبية إقليمي فإن هذا ما رده إلى بنية هذه الجمعية وانطلاقها على أسس معروفة، أما الأفراد فإن الحكم عليهم مختلف ولا ينبغي

تعميمه على الجميع. فهناك فرق بين الجيل القديم وهو الذي تغلب عليه هذه النزعة، والجيل الجديد الذي غالباً ما يلتقي مع العروبيين في كثير من المبادئ والأفكار دعاة للعروبة والوحدة وإن وجد فيه أيضاً إقليميون متعصبون حتى من بين من درسوا في الجامعات العربية لأن تكوينهم في الأساس كان إقليمياً ولم يستطيعوا التحرر من بيئتهم الخاصة سواء الثقافية أم العائلية، بل إن بعضهم لم يعلم أولاده حتى الدارجة الجزائرية في المنزل قبل الدخول إلى المدرسة الأساسية تعصباً ضد العروبة والعربية وهذا من مفارقات الوضع الثقافي والفكري في جزائر ما بعد الإستقلال!

ولعل الملاحظات السالفة الذكر تنطبق على الفكر السلفي في تونس والمغرب وحتى ليبيا وموريطانيا، لأن الإتجاه الإسلامي يغلب عليه طابع الدين بصورة أكثر مما رأينا لدى الأحزاب السياسية الليبرالية التي قاومت المحتل الفرنسي بالشعارات الوطنية بينما قاومته الحركات الإصلاحية السلفية بالفكر الديني وبالدفاع عن عقيدة المواطنين في المغرب العربي عامة باعتبار أن الإسلام هو الدعامة التي تجمع سكان هذه المنطقة ولا تأثير لأديان أخرى عليهم. وهذا عكس المشرق العربي الذي توجد فيه الديانة المسيحية بنسب تختلف من قطر إلى آخر.

وبناء عليه فلو جاء باحث الآن من هذه الأجيال الجديدة وأراد أن يعرف رأي المثقفين بالمنطقة في الوحدة ومقاومتها وأسسها وملامحها لما وجد نصوصاً تساعده على إتمام بحثه، أليست هذه حقاً ظاهرة جديرة بالتأمل بل بالبحث والدراسة؟ فحتى الآن وباستثناء ليبيا – كما أشرت – لم تدع الأحزاب ولا الحكومات في المغرب العربي إلى ندوة أو اجتماع كما يفعل اشقاؤنا في المشرق ساسة ومثقفين، فهم يقيمون الندوات الفكرية وحتى بعد حرب الخليج لتحليل الأوضاع العربية من شتى النواحي ويبحثون عن السبل الكفيلة بتحقيق فكر وحدوي على الأقل لا الوحدة السياسة. مرة أخرى ألا يدعو هذا إلى الحيرة حقاً؟؟!

إن الحيرة تزول إذا تأملنا جيداً ما سبق قوله في الصفحات التي مضت، وإنه لمن العجب العجاب أن نقرأ كتباً عن المغرب العربي ألفها مؤرخون أو باحثون أو أدباء من المشرق، ولا نجد مثيلاً من الباحثين وكتاب مغاربة يكتبون في التاريخ والسياسة والإقتصاد والإجتماع والثقافة بنظرة **«وحدوية»** لهذا **«المغرب»** الذي يتحدثون عنه يومياً!! أما الكتابة عن المشرق وتاريخه وثقافة أبنائه ووضع سكانه فإنه من النادر أن نعثر عليها فيما عدا ما كتبه الأدباء والصحافيون، وأتمنى لو أن حكمي هذا يكذبه الواقع، فأين موقفنا من الوحدة إذن؟لودعنا من الجماهير فهي تؤمن بها ولكنها مغلوبة على أمرها حتى أصبح الحديث عن الوحدة العربية وكأنه كما قلت من قبل مهمة **«المشارقة»** وحدهم، أما نحن فلسنا معنيين بالأمر ولا بما حدث في الجناح الآخر الا إذا كان الأمر يتعلق بمصير أو خطر داهم يحيق بها مثلما حدث في 1967 وفي حرب 1973، وأخيراً في **«حرب الخليج»** وبالطبع في قضية فلسطين بصفة دائمة.

ثم هناك تيار آخر هو ما يطلق عليه التيار **«اليساري»** في المغرب العربي **(مثلما هو الحال في المشرق)** وبالخصوص المتأثر بالفكر الماركسي، فهذا أيضاً إن لم يناوئ الوحدة في شريحة منه فهو لا يؤمن بها، لأن فكرة الأممية تحول بين أصحابه وبين الإنصهار بالحدة العربية. فهم يستمدون رؤيتهم من هذا المفهوم الذي يرفض القوميات التي عرفت بشوفينييتها بالغرب الأوروبي في القرن الماضي، ومع هذا فإن القوميات لم تمنع من وجود أحزاب كبرى في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا وغيرها، كما إنها لم تمنع من البحث عن وحدة القارة الأوروبية والسعي الحثيث لتحقيقها في السنوات القادمة.

كذلك فإن وجود قوميات عديدة في الهند - مثلاً - لم يمنع الهند من أن تكون أمة واحدة، ولا الصين التي تنتشر فيها الأعراق والقوميات وكونت أمة عظيمة يبلغ تعدادها ربع سكان العالم. فلماذا إذن لا تتوحد الأمة العربية من المحيط إلى الخليج ولها من المقومات ما يساعدها على أن تكون موحدة وعلى أن تصبح أمة عظمة في هذا الكون الذي يسعى إلى التكتل والتوحد والإلتحام؟؟

وأعتقد أن أوضاع الإتحاد السوفييتي اليوم بعد المتغيرات العميقة التي حدثت فيه، ستعيد النظر في تحليلات الماركيسيين إزاء القومية والوحدة العربية وحتى في المنطلقات الآيديولوجية الأخرى فضلاً عن تطبيقها فوق أرض الواقع.

وفيما أعتقد فإن الحزب الوحيد – في المغرب العربي – الذي اتخذ موقفا من فكرة الوحدة هو حزب جبهة التحرير الوطني وخاصة في نصوصه ومواثيقه بعد الإستقلال، فقد نص فيها بوضوح على أن الوحدة من أهدافه وأن الجزائر جزء من الأمة العربية وأن وحدة المغرب العربي إنّما هي الخطوة على طريق الوحدة الشاملة، وإن بدأ أحياناً نوع من الغموض المقصود، لأن الذين حرروا هذه النصوص كانوا من مشارب مختلفة واتجاهات شتى، فكانت محاولة التوفيق بين أفكار متضاربة، وكانت الضبابية أحياناً لترضية الجميع.

ولا نقول جديداً إذا أكدنا على أن النصوص شيء وتحقيق مضمونها ومحتواها شيء آخر!

ولنتأمل الآن بشيء من التفصيل نصوص جبهة التحرير التي يصدق عليها الحكم الآنف الذكر، لنجد أن مواثيقها بعد الإستقلال أكثر إقتراباً من مفهوم الوحدة نظرياً على الأقل بالرغم من أن المفهوم يختلف إيجازاً وإطناناً، صيغة ومحتوى. ففي «**ميثاق الجزائر**» مثلاً الذي يعتبر أقوى نص رسمي للجبهة منذ قيامها حتى عام 1964، وهو تاريخ انعقاد مؤتمرها الأول، في الباب الخاص بالأسس العقائدية نجد البداية هكذا: «**إن الجزائر بلد عربي إسلامي**» وبعدها يتحدث عن أن «**عوامل الوحدة المكونة من تاريخ وثقافة إسلامية ولغة مشتركة ظلت تحتل المقام الأول..**» [1]، فهي مثل غيرها من القضايا ذات الإهتمام الخاص ولكنها ليست مبدأ أو هدفاً نهائياً.

وعندما يرد الحديث عن السياسة الخارجية، فإن الوحدة هنا تبدو كمفهوم يتعلق بأمور عامة: «**وفي المغرب العربي والعالم العربي كما في إفريقيا**

---

[1] ميثاق الجزائر- مجموع النصوص المصادق عليها من طرف المؤتمر الأول لحزب جبهة التحرير الوطني أفريل1964 – المطبعة الوطنية الجزائرية ط 2 بلا تاريخ للطبع ص: 35.

تشكل المناورات التقسيمية التي تقوم بها الأمبريالية والمصالح والخصائص الإقليمية العراقيل الرئيسية لتحقيق الوحدة حيث تحولها أحياناً إلى شعار ديماغوجي»[1]. فهذا كلام عام عن الوحدة، إلى جانب أن النظرة إلى الأمة العربية هي نظرة خارجية باستعمال لفظة **«عالم»** ثم ربط الوحدة مغرباً ومشرقاً بأفريقيا فكأنها في نفس المستوى والمصير المشترك.!

وأكثر من هذا فقد ورد في هذا الميثاق عنوان خاص بإفريقيا مأخوذ من تقرير الأمين العام للجبهة هو **«ضرورة الوحدة الإفريقية»**[2]. وتحته فقرات كثيرة عن هذه الوحدة وأهميتها وضرورتها بالنسبة للجميع، فهي اختيار سياسي عن قناعة وإيمان وبأن مصير الجزائر مرتبط بمصير أفريقيا، أما الوحدة العربية فإنها ليس ضرورة أو اختياراً ولا هي تعبير عن المصير المشترك والإرتباط العضوي مع الأمة العربية . ثم إن ما يتصل بالثقافة لا يختلف عن هذا الفهم، فالمطلوب هو القيام **«بتقوية الروابط سيما الثقافية العربية مع العالم العربي»**[3]. وهكذا لا نخرج بتصور للوحدة ولا لمفهومها أو طرق تطبيقها أو محتواها. ولكن النص الثاني للجبهة الذي ظهر في الميثاق الوطني 1976 أكثر تحديداً فيما يتعلق بالوحدة العربية، غير أن بدايته تؤكد أن الجزائر: **«شعب وأمة»** وهذا مفهوم يتناقض مع الفقرات التالية التي تجعل الشعب الجزائري مرتبطاً بالوطن العربي: **«..وهو جزء لا يتجزأ منه ولا ينفصم عنه»**[4]، فكيف تكون الجزائر شعباً وأمة في الوقت نفسه ثم كيف تتوحد هذه الأمة مع أمة أخرى؟؟!

في الحقيقة إن محاولات التبرير بأن الجزائر أمة اعتماداً على الماضي والتاريخ وعلى المفهوم الذي درجت الحركة الوطنية على ترديده منذ نشأتها حتى اليوم، سببه طبعاً هذه الروح الإقليمية من ناحية وترضية أولئك الذين لا يؤمنون

---

[1] المصدر نفسه ص: 47 .

[2] المصدر نفسه ص: 138.

[3] المصدر نفسه ص: 174.

[4] الميثاق الوطني – المعهد التربوي الوطني – الجزائر1976 ص: 23.

بالعروبة والوحدة من الفرانكوفونيين ودعاة البربرية والجهويين والشوفينيين جمعاً من ناحية أخرى. ومع هذا فإن الميثاق الوطني فيما بعد كان أكثر جرأة وتصوراً للوحدة وتحديدا مفهومها وانتماء الجزائر العربي، فإلى جانب أنه كرر مرة ثانية أن الجزائر جزء لا يتجزأ من الوطن العربي فقد التزم بالعمل من أجل تحقيق «**الوحدة العربية**» ونص على إمكان تحقيقها وهذا هو الأمر الهام، ذلك أن الإقليميين لا يؤمنون حتى بإمكان تحقيقها.

ويناقش الميثاق التجارب التي فشلت نظراً لأنها تمت بين القادة وفي «**القمة**» ويعرض إلى الظروف التي تحققت فيها هذه التجارب ولأول مرة يتحدث عن تطبيق «**صيغ وحدوية وتكاملية أو إندماجية كفيلة أن تستجيب للمطامع المشروعة والعميقة للشعوب العربية**»[1].

ويعالج الموضوع بروح واعية دور الوحدة في قوة العرب والمسلمين والعالم الثالث، كما يفرد جزاءاً خاصاً لوحدة المغرب العربي باعتبار أنها خطوة على طريق الوحدة العربية، بل عامل مهم في تحقيقها والتعجيل بها. ثم يستعرض في هذا الإطار العناصر الموحدة لهذا الجزء من الوطن العربي ولكنه يلح على دور الجماهير فيها، وأن هذه الوحدة ينبغي أن تكون لمصلحتها لا لفائدة فئة أو حكم أو «**أقلية محظوظة**» ولن يتحقق هذا إلا إذا كانت «**وحدة ديمقراطية لأنها ترمي إلى جمع كل مقدراتنا ليستفيد منها كل مواطن في المغرب العربي وخاصة الجماهير المحرومة**»[2]. وهذا المفهوم هو أسلم طريق للوحدة ولهدفها وغاياتها، فلكي تتحقق لا بد أن يؤمن المواطن في المغرب العربي بفائدتها، إذ أنه لا بد من المحرك المادي – إلى جانب المحرك العاطفي والروحي والقومي – أي الفائدة التي تنفع المواطن كي يحتضنها ويدافع عنها، لأنه بذلك يدافع عن وجوده وعن مصلحة الأجيال القادمة، فالعنصر المادي فيها لا ينفصل عن العنصر الروحي.

---

[1] المصدر نفسه ص: 163.

[2] المصدر نفسه ص: 165.

وهكذا نجد أن الميثاق الوطني قد تعرض للقضايا المتصلة بالوحدة الشاملة ولوحدة المغرب العربي بنظرة موضوعية عقلانية، وبفهم جديد متطور نظراً للنكسات التي منيت بها الوحدة إبتداء من إنفصال سوريا عن مصر سنة 1961، ومروراً بالحدة الثلاثية والرباعية والثنائية إلى آخر أسمائها وأشكالها لأنها كلها لم تبن على أسس صحيحة ألا وهي التخطيط السليم ومشاركة الجماهير في إعلاء صرحها وتحقيقها. ولعل شعار **«مغرب الشعوب»** كان منطلقاً مما جاء في الميثاق من أن وحدة المغرب العربي لا تتحقق إلا على هذا الأساس ومن هذا المفهوم لا من المؤتمرات والملتقيات واللجان هنا وهناك بلا أي أثر لذلك في الواقع وبلا أدنى تحقيق على صعيد هذا الواقع المادي الذي يعيشه المواطن العربي في هذه المنطقة، فلا بد أن يشعر أن الوحدة تحقق له كرامته ورغباته ورفاهيته المادية وتحقق له القوة والمناعة، حينئذ يتحمس لها عن قناعة وإيمان ويحققها فعلاً وموقفاً وسلوكاً، فتصبح ضرورة ملحة يشعر بها مثلما يشعر الآن الأوروبي وهو يسعى لتحقيق وحدة أوروبا وهي قارة تختلف أقطارها فيما بينها لغة وتاريخاً وتتعارض مصالح شعوبها أحياناً كثيرة، بل قد تتناقض في أهدافها وقناعاتها بسبب إتلاف القوميات والثقافات والمصالح، بينما الوحدة في المغرب العربي أو في الوطن العربي كله لا تتعارض فيها هذه المصالح ولا تتصارع فيها اللغات أو الثقافات أو العقائد، فالتعداد في الأمة العربية هو نفسه التعداد في داخل الشعب الواحد لا يتناقض مع الوحدة بمفهومها الحضاري والمادي والتاريخي.

والخلاصة أن الفكر العروبي الوحدوي بالمغرب العربي لم يتعرض للتطبيق وبقي مجرد حبر على ورق، وأن المحاولات التي تمت أوهي الآن في طريق التنفيذ لن تتحقق طالما أن الداعين للوحدة جزئياً أو كلياً، لا ينطلقون من **«منظور قومي»** بقدر ما ينطلقون من نظرة إقليمية صرفة يغذيها **«فكر فرانكوفوني»** أو **«جهوي»** أو **«شوفيني»** محلي أو تسنده مصلحة فئوية قطرية تجزيئية. ولكي تتحقق الوحدة التي تؤمن بها الجماهير لا بد من أسس ومناهج

علمية تمس مختلف النواحي والجوانب في حياتنا ويتشربها الناس من خلال قنوات عديدة معروفة للعام والخاص وفي مقدمتها: توحيد التعليم، توحيد اللغة، توحيد الإقتصاد والمواقف السياسية، إزالة الحدود كلياً لا جزئياً، نشر الثقافة الوحدوية بمختلف الطرق والوسائل التي تساعد المواطن على الوعي بها وبفائدتها وضرورتها للجميع، وغير هذا مما يسهم في تحقيقها نصاً وروحا إلى جانب الوسائل الأخرى وهي كثيرة ليس هذا مجال الحديث فيها .

أما العوائق – وما أكثرها – فإنها ظرفية وهي طبيعية بالقياس إلى الفكر السائد وإلى الماضي الذي تحدثنا عنه وإلى أنظمة الحكم الحالية، ثم إلى النخب الفكرية غير المتجانسة في ثقافتها وفكرها وتوجهها. وعندما تزول هذه العوائق وتحل محلها عوامل إيجابية وظروف وأشخاص وأفكار جديدة تساعد على تحقيق الوحدة ووعي الجماهير بنفعها وفائدتها للجميع، فإنها بالضرورة ستتحقق بطريقة أو بأخرى لأن التاريخ اثبت هذا والتاريخ يعيد نفسه في أحيان كثيرة وإن كان يلون الواقع بلون جديد.

الفصل الرابع: الفرانكوفونية بين الأدب والثقافة في المغرب العربي

كنت أفضل أن أبدأ هذا الفصل بسؤال هو: هل الأدب المكتوب باللغة الفرنسية في المغرب العربي يمكن نسبته إلى الأدب الوطني أي المكتوب باللغة الوطنية ؟؟ بل فكرت في أن يكون هذا السؤال عنواناً للفصل، لكنني عدلت عنه وفضلت العنوان الحالي لأنه يعبر عن رأيي الآن في هذا الأدب، فهو أدب **«فرانكوفوني»** كتبه أدباء من المنطقة لا كما دأب كثير من المهتمين بالأدب والنقد على أن ينسبوه إلى القطر الذي ظهر فيه بحيث يأخذ جنسية هذا القطر، فهناك في رأيهم أدب جزائري وآخر تونسي أو مغربي وإن اتخذ الفرنسية أداة للتعبير. وقد سبق لي أن ناقشت هذا اللون من الأدب وأعطيت رأيي تفصيلاً فيه في كتابي **"القصة القصيرة الجزائرية"**[1]. ولذا فمن تكرار القول أن نعيد الحديث فيه، يكفي القول بأن اللغة التي هي أداة الأدب الأساسية هي التي تحدد هويته وإنتماءه الخاص لجنس أو وطن أو تاريخ أو جغرافيا أو غير ذلك .

إن المفهوم الذي ساد بعد الإستقلال للأدب المكتوب بالفرنسية، وإن بدأ الحديث عنه أثناء الثورة – لإنه قبل ذلك كان أدباً فرنسياً ولو كتبه أدباء من المغرب العربي ولا سيما الجزائريين، لأن جنسيتهم بحكم القانون الفرنسي آنذاك كانت الفرنسية بسبب الإحتلال – هذا المفهوم بأنه أدب **(مغاربي)**، ومصطلح مغاربي هذا أطلقه الفرنسيون ساسة وأدباء ومؤرخون ومثقفون وتلقفناه نحن وأصبحنا نردده في المناسبات المختلفة وفي مجالات شتى، وقد رفضت هذا المصطلح ولم أستخدمه طوال فصول هذا الكتاب لأنه **«فرانكوفوني»** يوحي بل يكرس الإقليمية وروح التجزئة ويبعدنا عن إنتمائنا العروبي الأصيل. أما لماذا أطلق هذا المصطلح على الأدب المذكور فلدوافع وأهداف معروفة وهي الإبقاء

---

[1] القصة القصيرة الجزائرية - عبد الكريم ركيبي- المؤسسة الوطنية للكتاب –الجزائر والدار العربية للكتاب بليبيا وتونس – ط 3 1983- انظر من ص: 230 إلى249.

على هذه اللغة والثقافة بالمنطقة والعمل على استمرار الفكر الفرانكوفوني مسيطراً، وقد أخذه عنهم كتّاب ومؤرخون وأدباء عرب مشرقاً ومغرباً وأطلقوه على هذا الأدب حتى يسبغوا عليه صفة الوطنية في الأقطار الثلاثة، ويمكنوا له في هذه البيئة بحيث أصبح الحديث عنه وكأنه حديث عن حقيقة لا تقبل الجد أو النقاش، وأنه هو الذي يحدد صفة الوطنية لا الأدب المكتوب باللغة العربية لأن هذا الأخير يعد فرعاً من الأدب العربي؟!

وحتى نضع هذا الأدب في مكانه الصحيح الذي يستحقه بحكم ظروف الأقطار التي احتلتها فرنسا وفرضت لغتها على شعوبها وفرضت على هؤلاء الكتّاب هذه اللغة رغماً عنهم، لأن العربية – لغتهم الوطنية – تعرضت للمصادرة وللحصار، فكتبوا ما كتبوا بالفرنسية شعراً أو قصة أو غيرهما ولا ذنب لهم في ذلك، نقول إن إضفاء صفة «**الوطنية**» عليه يصبح ضرباً من المهاترة أو قصر النظر أو التنكر للتاريخ أو خلق البلبلة في نفوس الأجيال، وأخيراً فإن في هذا تجنياً على الحركة الأدبية من ناحية، وتناقضاً مكشوفاً مع تاريخ الأدب في العالم من ناحية أخرى. فليس هناك أدب كتب بلغة أجنبية واعتبر أدباً وطنياً ومن هنا فإن إطلاق مصطلح «**الأدب الفرانكوفوني في المغرب العربي**» هو التعبير السليم عن الحقيقة التاريخية واللغوية والثقافية والذي يتلاءم مع الأحكام النقدية الموضوعية لا تلك التي تعتمد على النظرة الذاتية، فهو إذن «**أدب فرانكوفوني**» في غير بيئته الأصلية مثل أي فرع من فروع الثقافة الأخرى التي كتبت بهذه اللغة، ولا شأن لها بالجغرافيا، وإلا فسينقلب الأمر وتتغير المفاهيم وتختلط الأشياء وينعدم التمايز بين الشعوب والأمم والأوطان.

وقد يفاجأ البعض بحكمي على هذا الأدب وموقفي الآن منه بعد أن سبق لي أن تحدثت عنه واعتبرته أدباً «**جزائرياً**» وكان ذلك في الستينات، وكان حكمي آنذاك ينصب على ما كتب منه أثناء الثورة التحريرية لأنه كتب في ظروف خاصة ومرحلة معينة، وهو الشيء نفسه الذي يمكن أن يقال على مثيله في تونس والمغرب، فقد قام بدور التعريف بالنضال في الأقطار الثلاثة والتعبير عن

تطلع هؤلاء الأدباء إلى الحرية والإستقلال، وكنت وقتها قد أشرت إلى أن هذا الأدب سيتوقف بعد أن أدى دوره، فهو أدب مرحلي، ليترك مكانه للأدب الوطني العربي الذي كتب باللغة الوطنية العربية.

غير أن توقعي هذا لم يكن في محله إذ استمرت الكتابة بالفرنسية ووجد من يدافع عما يكتب بها، لا بوصفه أدباً فرانكوفونياً ولكن باعتباره أدباً **«وطنياً»** جزائرياً أو تونسياً أو مغربياً، وامتدت صفة **«المغربة»** هذه – إن صح التعبير – لتطلق عليه وعلى أشياء أخرى كثيرة من حولنا ونسمعها كل يوم كما أشرت آنفاً. وإذن فإن الوقت قد حان لنضعه في مكانه الحقيقي من حركة التاريخ حيث ينبغي له أن يكون وألا نتمادى في خداع أنفسنا وخداع أبنائنا وأجيالنا الحالية والمقبلة، لأن هناك من يصر على الكتابة بهذه اللغة الأجنبية ويفضلها على اللغة القومية ولا يريد بل يرفض أن يتعلم لغته .

ولا أعتقد أن ما قلته فيما مضى وقاله غيري في هذا الشأن يتناقض مع ما نقوله اليوم، فإلى جانب أن الظروف تتغير وبالتالي فالأحكام على المعطيات تتغير، فإن الواقع نفسه يتغير باستمرار، وقد يبدو شعاراً ما صالحاً لفترة وغير صالح لأخرى، وقد تكون الأحكام السابقة خاضعة لظروف الكفاح الوطني التحرري الذي كان في حاجة إلى كافة الأسلحة ومنه القلم الوطني والكلمة المناضلة الشريفة بأية لغة كتبت، أما الآن فإن ما يكتب بهذه اللغة الأجنبية هو شذوذ عن القاعدة وخروج عن الواقع الطبيعي المألوف بل وتحد سافر للتاريخ وللثوابت الوطنية.

إن تحليل الوضع الثقافي والأدبي يخضع للوضع الذي نعيشه وللمؤثرات الداخلية والخارجية ولمحيطنا القريب والبعيد، فما كان بالأمس حكماً سليماً قد يصبح اليوم غيره، وبالإضافة إلى أن هذا الأدب يخدم الفرنسية وثقافتها، فإنه يحدث ضباباً في جو الثقافة الذي ينبغي أن يكون عربياً. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن بعض الدين يكتبون اليوم يرفعون أصواتهم دفاعا عن الفرنسية وهجوماً على العربية والسخرية منها، فلم يصبح دفاعهم عن الفرنسية – كما

فعل الجيل السابق – دفاعاً عن الشعب ونضاله أو دفاعاً عن أنفسهم، لأنهم لم يتعلموا العربية. وأقوال المرحوم «**ملك حداد**» في هذا المجال غنية عن التعليق، أصبحوا يفخرون بإتقانهم للفرنسية وجهلهم للعربية ويجاهرون بلا مواربة بأنهم لا يفكرون في دراسة العربية حتى ولو أتيح لهم ذلك. إذن هناك إصرار على الموقف الجديد الذي لم يكن لدى الرعيل الأول، وهذا هو الفرق بين من نظر إلى الفرنسية كلغة أجنبية فرضت عليه في ظروف معينة وبين من اختارها عن قناعة وأصبح موقفه ينبع من ذاته لا من ظروفه، وهنا يكون من حقنا أن نقول لهم: إن ما تكتبونه هو «**أدب فرانكوفوني**» لا «**مغربي**» أو «**وطني**» لأنكم اخترتم هذا عن سبق إصرار وبمحض إرادتكم، وهكذا حقكم ولكن ما ليس من حقكم ولا من حق المؤرخين الذين يساندونكم أن تعتبروا أن أدبكم يعبر عن الجماهير وعن أشواقها وأحلامها وطموحها، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، حتى ولو كتبتم نصوصاً جيدة ورائعة وحصلتم على جوائز محلية أو عالمية.

نحن نعرف أن التكوين – كما ألمحنا – له أثره وتأثيره في كل شيء ومنه اللغة، ولكن إذا تجاوزنا مرحلة التحليل الموضوعي الصرف إلى الإعتزاز والفخر باللغة الأجنبية فإن الأمر في هذه الحالة يكون قد تجاوز الواقع الظرفي إلى الحقيقة التاريخية التي تمس وجود الفرد والمجتمع معاً ويكون الموقف مختلفاً أيضاً .

وما يردده الأدباء والكتّاب والسياسيون والمثقفون الفرانكوفونيون عندنا من مقولات وأحكام في مناسبات مختلفة من مثل: أنا ليست لي عقدة لغوية، أنا لا أحس بمركب النقص، اللغة محايدة، الفرنسية إرث تاريخي إيجابي، لقد حررنا الجزائر باللغة الفرنسية، اللغة أداة ووسيلة فقط، ينبغي أن ننسى الماضي، اللغة ليست منافي، الفرنسية لغة العلم والتقنية!!

هذه وغيرها من المصطلحات أو التعابير وأمثالها الكثير مما يردد على مسامعنا وفي كتابات وأحاديث الفرانكوفونيين تؤكد إرادتهم في الإبقاء على وضع الفرنسية سائدة وقوية ومتحكمة، يرددونها في أحاديثهم للصحافة

والإذاعة والتلفزة وفي محاضراتهم وتعليقاتهم، ويكون هذا غالباً عندنا تثار قضية التعريب والعربية وتعميمها. ألا يدل هذا على التشبث بالفرنسية من منطلق فيه تعصب واستماتة في بقائها؟؟ أليس هذا دليلاً على الإستلاب الثقافي؟؟ ثم ألا يؤكد ذلك بأن المصلحة الخاصة هي من وراء هذه الأحكام؟؟

للإجابة عن هذه الأسئلة علينا أن نعود إلى أقوال الأدباء أنفسهم وإلى أحاديثهم ومواقفهم وآراء بعضهم، ثم موقف أصحاب اللغة نفسها من هؤلاء وأولئك. فهناك أمثلة ساطعة تدل على أن الدفاع عن الفرنسية ليس بريئاً أو محايد ولكن وراءه دوافع خفية أو علنية. فمالك حداد مثلاً لا يذكر إسمه عندنا إلا نادراً وفي مناسبات معينة، أما في الضفة الأخرى فلا يكاد يذكر إسمه إطلاقاً لسبب معروف وهو دفاعه عن العربية ورفضه الكتابة بالفرنسية بعد الإستقلال، في حين أن غيره يشيدون به محلياً وفرنساً مثل كاتب ياسين، ومولود معمري وبن جلون وغيرهم وحتى من الجيل التالي لهؤلاء. ورغم أن محمد ديب قد أخذ الجنسية الفرنسية ويعيش في فرنسا منذ أمد بعيد إلا أنه لا يجد هذا التقدير هناك، ربما لأنه لم يدافع عن الفرنسية – فيما أعرف – دفاعاً حاراً ولم يهاجم العربية أو يسخر منها كما فعل بعضهم، لذلك يأتي الحديث عنه وعن أدبه هادئاً فاتراً، بينما ينوه بمن كتب المقالات أو نشر كتاباً واحداً لمجرد دفاعه كما قلت عن الفرنسية لغة ثقافة أو علم أو أدب .

وموقف مالك حداد يشبه موقف بعض الكتّاب التونسيين الذين كتبوا بالفرنسية بعد الحرب الثانية، ثم حين إستقلت بلادهم توقفوا عن الكتابة بها مثل محمود أصلان وعبد المجيد التلايلي [1] اللذين لم يجدا الإهتمام نفسه الذي وجده الهاشمي البكوش، كلود بن والبير ميمي، وربما لأن بعض هؤلاء ليس

[1] الأدب التونسي المعاصر – جان فونتان - الدار التونسية للنشر ص: 131 تونس 1989 .

تونسياً بالأصالة ولكن بالجنسية وحدها ومثلهم صالح القرمادي – وهو شاعر أساساً الذي يقول: «**بواسطة اللغة الفرنسية أحس بالحرية من أثقال التقاليد...**»[1].

والموقف من حداد مثل الموقف من «**مالك بن نبي**» فرغم أنه كتب بالفرنسية إلاّ أنه لم يجد التقدير أو الإهتمام بسبب أفكاره الإسلامية غير المقبولة بالطبع من الفرنسيين والعلمانيين، وأيضاً لأنه تركها فيما بعد إلى الكتابة بالعربية فتجاهلوه – محلياً وفرنسياً – لأنه خرج من الصف وتمرد على اللغة التي كتب بها في بداية حياته.

و«**رشيد بوجدرة**» يعتبر المثل الحي بيننا اليوم. فقد اختار أن يكتب بلغته العربية، لغة أمته وشعبه بدلاً من الفرنسية التي كتب بها روايات كثيرة نالت رضا الفرنسيين ودعاة الفرانكوفونية في المغرب العربي عامة وفي الجزائر خاصة، ولكنه الآن أصبح لا يذكر ألا إذا جاء الحديث عنه عرضاًبل وحاربوه علانية وقد لاحظ هو أن حملة إعلامية شنت عليه لأنه تحول إلى العربية [2].

وليس فحسب، فدعاة الفرانكوفونية حاولوا إيجاد المبررات من التاريخ لاستمرار الفرنسية في أقطار المغرب العربي، واعتبروا هذا تفتحاً على العالم قديماً وحديثاً، وبعضهم يعتبر هذا من مميزات المنطقة ويلقي الأحكام المسبقة دون أن يناقش هل الأدب الذي كتب قديمٌ أم حديثاً أم معاصراً باللغة الفرنسية هو أدب جزائري [3]؟!.

---

[1] الأدب الجزائري المعاصر – جان ديجو –سلسلة ماذا أعرف؟ نشر الصحافة الجامعية باريس1979ص:123.

[2] جريدة المساء 10 / 11 ماي 1991.

[3] **فالأب جان ديجو يعتبر أن ما كتب من أدب قبل الفتح الإسلامي هو أدب «مغاربي» جزائري مثلما فعل سنت أوغسطين ويوبا الثاني باللاتينية أو الإغريقية فذلك أدب وطني رغم أنه يكتب بلغة محلية كما جاء في كتابه السابق الذكر ص: 3 - 4 - 5 وفي الكتاب دراسة مستفيضة للموضوع.**

وقد أشار بوجدرة إلى أن تشجيع الكتّاب بالفرنسية مرجعه إما إلى أن بعضهم يكتب **«نصاً سياسياً»** يروق للفرنسيين ويروج لأفكارهم، وبعضهم الآخر يكتب القصة بطريقة فنية جميلة تحمل أفكاراً عربية وموجهة أساساً للإستهلاك الغربي... [1].

إذن فالفكرة سواء مست القديم أم الحديث هي النصوص التي تعجب الفرنسيين والتي كتبت باللاتينية أو الفرنسية المنحدرة منها وتهتم بالإقليمية أو الجهوية، فكلما ابتعدت عن النطاق العربي واقتربت من البحر المتوسط أصبحت مقبولة ومتفتحة وسلمية.

والدعوة إلى أدب **«متوسطي»** ظهرت في كتابات الفرنسيين أمثال البير كامو وهي تحمل في طياتها فكراً سياسياً وإن لبست ثوباً جغرافياً أو جمالياً، وربما كانت دعوة **«طه حسين»** إلى ثقافة مصرية مستقبلها مرتبط بهذا البحر هي أول دعوة في البلاد العربية من كتّاب عرب وإن سبقتها الدعوات الإستشراقية الفرانكوفونية، حتى إن كاتباً يرد على هذه الدعوة التي رفعت شعارات تجمع بين الضفتين مثل: الشمس، البحر، الشاطئ الحساسية المتوسطية **«ووحدة الحب للحياة»** وغيرها من التعابير التي لا تكون وطناً كما تساءل باحث فيما مضى. لذلك فإن ما كتب من أدب فرانكوفوني بأقلام جزائرية يعود إلى سنة 1950 لأن هذه الدعوة المتوسطية لم تجد من يهتم بها من الجزائريين إلا أولئك الإقليميون الذين تأثروا بها من ناحية ويرفضون فكرة الإنتماء العربي للأدب وللشعب الجزائري من جهة أخرى.

فالبير ميمي في تونس يرجو ويتمنى أن يتجه المغرب العربي إلى دول البحر المتوسط وليس إلى الشرق الأوسط **«فتونس أقرب إلى باليريمو ومرسيليا منها إلى القاهرة...»** [2].

---

[1] المساء11 ماي 1991.

[2] المجاهد الأسبوعي - جويلية 1965 .

وإذا عممنا هذا الحكم فإن فرنسا أقرب إلى ألمانيا منها إلى غيرها وتونس أليست على الحدود الجزائرية والليبية فمن الأقرب؟!

هناك أيضاً مفكر تونسي أرجع الصراع – ثقافة ولغة وأدباً – إلى فكرة الهوية، إنه **«هشام بوقمرة»** الذي يرى أنه بعد مرور ربع قرن على استقلال تونس فإن الوضع اللغوي بها ما زال في الموقع نفسه **«والخلفية في الواقع الأمر واحدة، إذ أنها تتعلق أساساً بالإنتماء..»** [1]، والفرنسيون الذين دعوا إلى **«المتوسطية»** وكتبوا أدباً في تونس زاعمين – مثلما فعلوا في الجزائر – أن ذلك أدب مرتبط بهذه الأرض، يقول عنه هذا المفكر العربي إنه أدب **«يمثل ترويحاً عن النفس بحثاً عن الطرافة والسياحة ولا يتناول إلا بعض العلاقات الإجتماعية التي تدعو في النهاية إلى التشبث بالرسالة الحضارية للعنصر الفرنسي في الأرض التونسية...»** [2]. فهذا هو الغرض من دعوتهم إلى البحر المتوسط، أدباً وفكراً وجغرافياً وإنتماء، سواء صدرت من فرنسيين أو من أبناء المغرب العربي. وهي في آخر الأمر فكرة إقليمية تناهض الفكرة العروبية وهي نفسها التي نادى بها طه حسين وأضرابه من الفرانكونيين في المشرق العربي.

وإذا كان تجاهل الكتّاب بالفرنسية الذين دافعوا عن العربية والعروبة أمراً يثير الإنتباه، فإن العروبيين أمثلهم ممن كتبوا بالعربية أمر أيضاً له مبرره، لأن المهم هو الفكر واللغة والموقف. فالعروبيون وإن كتبوا بالفرنسية – فضلاً عن الذين كتبوا بالعربية – لا يجدون مكاناً لهم في وسائل النشر الفرانكوفونية بفرنسا ولا يلقى إنتاجهم إهتماماً سواء صدر في الجزائر أم في تونس أم في المغرب أم في موريطانيا، لأن هؤلاء جميعاً غير **«متفتحين»** حتى ولو كانوا لا يعرفون حرفاً عربياً واحداً، أما أولئك **«المرضي عنهم»** فهم الذين يعيشون عصرهم ويستحقون التكريم والتنويه بإنتاجهم. نلمس هذا في الضجة التي أثاروها حول ما كتبه **«الطاهر بن جلون»** الذي يصرح بأن الفرنسية هي

---

[1] القضية اللغوية - هشام بوقمرة - ص: 5 .

[2] المصدر نفسه ص: 105 .

التي تعبر عنه وعن إحساسه، فانهالت عليه الجوائز الأدبية ومثله الجزائري «عبّه» الذي ذهب به حب الفرنسية والدفاع عنها إلى حد بعيد إذ رصد جائزة من ماله الخاص لمن يكتب عملاً أدبياً متميزاً بهذه اللغة، بل أكثر من هذا تجشم عناء السفر إلى الولايات المتحدة لينشئ بإحدى جامعاتها كرسياً للأدب الفرانكفوني في الجزائر. والأمر نفسه ينطبق على كتابات عبد الوهاب مدبّ في تونس الذي هو من دعاة الفرانكوفونية البارزين وخاصة في الأدب.

إن هناك قضايا عديدة تثار حول هذا الأدب المكتوب باللغة الفرنسية، منها مثلاً الحكم عليه بأنه لم يبلغ الذروة في الدفاع عن طموح الشعب لأنه لم يقرأه. ويقول شاهد منهم أي ممن يكتبون بهذه اللغة عن الرواية الجزائرية المكتوبة بها بأنها: **«لم تعكس بصدق واقع ونضال الشعب من أجل الاستقلال فقد انطبعت بطموح الجزائر كلها في فترة من تاريخها إلى الحرية الحقيقية...»** [1].

كما يختلف الدارسون حول مرحلة هذا الأدب أو استمراره: **«فالبعض يرى أن الأدب الجزائري ذي التعبير الفرنسي ما هو إلا أدب ظرفي de Literature circonstance ما يلبث أن يختفي عند تحرير الوطن، أما عند البعض الأخر فإنه وجد ليبقى ويستمر إلى الأبد...»** [2].

على أن الشاعر أدونيس يحدد موقفه من الشعر العربي المكتوب باللغتين الفرنسية والإنجليزية فيعتبره **«ظاهرة خاصة نشأت في ظروف خاصة وهي إذن ظاهرة عابرة»** [3].

بينما غيره في المغرب العربي كما سبقت الإشارة يصر على بقاء هذه الظاهرة ويدافع عنها، ففرق كبير بين هذا الشاعر الذي يتقن الفرنسية ويكتب بها ويترجم منها وإليها، وبين فرانكوفوني في المغرب العربي يدافع عن

---

[1] المجاهد الأسبوعي –مقال لمصطفى الأشرف23 يناير 1964 .

[2] الأدب الجزائري ذو التعبير الفرنسي غاني مراد ب.ج ا 1976 باريس ص: 169

[3] انظر هامش كتاب مقدمة للشعر العربي، أدونيس دار العودة بيروت ط 3 1979 ص: 77.

استمرارية هذا الأدب الفرانكوفوني ويستميت في هذا الدفاع. وهنا نذكر ماقلناه في بداية هذا البحث لتعليل ظاهرة الدفاع عن الفرنسية في المغرب العربي ودفاع المشارقة عن العربية، وقد أرجعنا ذلك إلى أصول التكوين الأولى وإلى البيئة ونوعية الإستعمار ومدى وعي الكتاب بأهمية اللغة ودورها في الثقافة وفي بلورة الهوية.

إن وضع هذا الأدب شاذ حقاً، فالمراجع والقواميس التي تشير إلى الكتاب الجزائريين ذوي التعبير الفرنسي تصنفهم ضمن الكتّاب الفرنسيين أصلاً خاصة قبل 1962 وحتى بعدها، إذ يسمونهم **«كتّاب فرنسيون من أصل جزائري»** [1]، إلى حد أن ناقداً فرنسيًا اعترف بأن مولود معمري: **«أدخل مؤخراً حيوية جديدة في الأدب القصصي الفرنسي...»** [2]، مع أن العالم عرف كتّاباً كثيرين كتبوا بالفرنسية وآخرين كتبوا بالإنجليزية ولم يعتبروا لذلك فرنسيين أو أنجليزاً، على حد تعبير الباحثة **«عايدة بامية»** التي تذكر أن **«جبران خليل جبران» «وجورج شحاده»** من لبنان **«وقوت القلوب وأندريه شديد»** منم مصر وغيرهم قديماً وحديثاً كتبوا بلغات أجنبية، ألمانية وإيطالية وإسبانية، ولم ينسب أدبهم إلى لغة الكتابة فلماذا ينسب هذا الأدب إلى المغرب العربي [3]؟؟.

وكان يمكن أن يصح حكمنا على هذا الأدب – مثلما هو حكم **«أدونيس»** – بأنه عابر لو اعتبرناه أجنبياً مثل اللغة التي كتب بها – والتي هي اليوم في بلادنا لغة أجنبية – ومثلما حدث في بلدان أخرى وجد فيها أدب لغة غير قومية فاعتبر رافداً للأدب الوطني ولا يأخذ صفة القومية وحينئذ يتحدد بالضبط دوره ومكانه وموقعه، ولا يتعرض عليه أحد، أما أن يزاحم الأدب الوطني ويحمل نفس تعريفه فهذا أمر يتعارض مع مقومات السيادة أصلاً.

---

[1] تطور الأدب القصصي الجزائري- عايدة أديب بامية- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر1982 ص:53 .

[2] المصدر نفسه ص:53

[3] المصدر نفسه ص: 54

قضية أخرى تثار في هذا الموقف وهي نظرة الكتّاب الفرنسيين لأبناء المغرب العربي. فهم – على العموم – يرسمون صورة ساحرة لطبيعة المنطقة وفي المقابل صورة ساخرة أو باهتة أو مضحكة للسكان، حتى أن ماكسيم ردو نسون يعترف بأن **«صورة المغرب – يقصد الأقصى – وسكانه قد شوهت بوسائل كثيرة وبطرق مختلفة، فالعرب هم بدو ومخربون أو حضري مغربي يعيش تحت تقاليد الأثرية البربرية قليلاً أو كثيراً...»** [1].

وهذا الشيء نفسه أو قريب منه وقع بالنسبة للجزائريين والتونسيين، وهي صورة نسجوها في الواقع للعرب – مشرقاً ومغرباً – والقصد منها هو التأثير في الرأي العام الفرنسي وغيره. لقد حاول هؤلاء الكتّاب وأضرابهم من المستعمرين أن يخلقوا خرافة اعتنقوها وصدقوها حين أدعوا أن **«الجزائر قطعة من فرنسا»**، وتجاهلوا الواقع والتاريخ والثقافة وكل مقومات الهوية الخاصة بأبناء المغرب العربي ولم تكن: **«حرب الجزائر ولا الخصومة بقادرة على تحطيم هذا بل بالعكس فقد بعثت هذه الخرافة وولدت من جديد وتواصلت حقيقة الهوة بين الغرب والشرق...»** [2].

وإذا كنا نعيد إلى الأذهان تصور هؤلاء الكتّاب **«السواح»**، فإننا لا نقصد شحن النفوس ضد الغرب وفرنسا خاصة، ولكن من يتحدث عن الأدب المكتوب بالفرنسية مطالب بأن يعرض للفرنسيين أصلاً وللفرانكوفونيين الذين يتشبهون بالفرنسية. هدفنا هو إزالة هذه الصورة المزيفة المشوهة التي رسمها ويرسمها هؤلاء وأولئك لشعوب المنطقة، لنضع بدلاً منها الصورة الحقيقية للمغرب العربي الذي يعتز بتاريخه وثقافته وأدبه الذي عبرت عنه العربية لا الفرنسية وتجسد في هويته العربية الإسلامية.

---

[1] صورة المغرب في الأدب الفرنسي –لحجمري عبد الجليل- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1983 ص:833.

[2] المصدر نفسه ص:33.

وللأمر جانب آخر خطير وهو أن باحثين ونقادًا عربًا بكل أسف انساقوا وراء هذه الدعاية التي أطلقت على الأدب المكتوب بالفرنسية فرفعوا أصحابه إلى القمة وأهملوا أو كادوا أن يهملون من كتبوا بالعربية – اللغة الأم – وقد بلغ الأمر بباحثه من هؤلاء أن اعتبرت الأدب الجزائري المعاصر هو ما كتب بالفرنسية فقط، آما ما كتب بالعربية فلا يستحق سوى الإشارة إلى بعض الأسماء، ويكون هذا في أطروحة جامعية نوقشت بالخارج للأخت **«سعاد محمد خضر»** التي أقدر جهودها، فقد أسمت كتابها **«بالأدب الجزائي المعاصر»** وقالت إنه **«لا يمكن أن نقول عنه إنه أدب عربي أو بربري أو فرنسي فقط وإنما هو أدب جزائري، مضمونه يعكس تقاليد وثقافة وحياة فئات الشعب الجزائري المختلفة، ولكنه مكتوب باللغة الفرنسية. وتعتبر الجزائر وأدبها تجربة فريدة في تاريخ الآداب القومية ومثلاً رائعًا من الأمثلة التي يجب أن تدرس في نطاق دراسات الأدب المقارن...»** [1].

هكذا إذن اعتبرت الباحثة أن ما كتبه الأدباء الجزائريون بالفرنسية هو رصيد الجزائر من الأدب المعاصر، ولم ينل الأدب العربي في الجزائر من كتّابها سوى ذكر بعض الأسماء، منها من لم يكتب أدبًا وإنما كتب ألوانًا أخرى، فهل غابت أسماء الشعراء والقصاصين التي لمعت في الفترة المشار إليها عن ذاكرة المؤلفة ؟وإلا فلماذا تحدثت بالتفصيل عن الأدباء الفرانكوفونيين الجزائريين وعرضت لأعمالهم الأدبية دراسة وتاريخًا وتحليلاً بل وحتى **«الشعر البربري»** وتجاهلت شعراء وكتّابًا بالعربية عرفوا حتى خارج نطاق المغرب العربي آنذاك؟؟! [2].

---

[1] الأدب الجزائري المعاصر- سعاد محمد خضر- منشورات المكتبة العصرية- صيدا بيروت 1967 ص4.

[2] لم تشر إلى محمد العيد أو مفدي زكريا أو السائحي أو الزاهري أو رمضان حمود وعشرات من الشعراء قبل وأثناء الثورة، ولا إلى رضا حوحو في القصة والمسرح وغيره من القصاصين في الفترة المدروسة.

ألا يعني هذا أن هناك تجاهلاً مقصوداً للأدب المكتوب بالعربية والإلحاح على ما كتب بالفرنسية ترسيخًا لهذه الفكرة التي تريد أن تعطي لهذا الأدب صفة الوطنية والهوية القومية، فيصبح فرعًا للأدب الجزائري بل هو الأدب الجزائري أساسًا؟؟ وبكل أسف فإن الأقلام التي انساقت وراء هذه الفكرة هي لأبناء من الأمة العربية مشرقًا ومغربًا.

فهل هذا سببه الانبهار بحضارة الغرب وثقافته وفكره ؟؟أم راجع إلى الروح الإقليمية التي تغذيها عوامل عديدة أم أن هناك علامات استفهام أخرى؟؟!

وأخيرًا تأتي القضية الهامة والأساسية بالنسبة لهذا الأدب ومن يكتبون به، وهي قضية اللغة ومدى إحساس الأديب بها، وهل يشعر بالتمزق لأنه يكتب بغير لغته الوطنية. إن إجابتهم متناقضة فبعضهم يشعر بالحرية حين يكتب بالفرنسية كما لاحظنا من قبل، والبعض الأخر يحس بالغربة في هذه اللغة، الغربة التي تنتج عن التناقض بين الواقع الذي يتطلب التعبير عنه باللغة الأم وبين اللسان الفرنسي الذي يخاطب به الجمهور.

ويبدو أن الذين شعروا بهذا وعبروا عنه صراحة هم أولئك الذين لهم حس قومي عروبي أصيل، فهم وفي أعماقهم يتألمون بسبب أن هذه اللغة الأجنبية تحول بينهم وبين إحساسهم العربي، أما أولئك الذين يزعمون أنهم لا ينزعجون ولا يقلقون أو يحسون بالتمزق فمرده إلى روحهم الإقليمية الضيقة وضعف إحساسهم العروبي وعدم ولائهم للأمة وإيمانهم بها وبالمصير المشترك، واللغة عنصر أساسي في هذه الوحدة.

هذا هو التفسير المنطقي لفخر بعض الذين يكتبون بالفرنسية. فقد اندمجوا فيها إلى درجة أنها أصبحت جزءًا من ذواتهم وامتزجت بنفوسهم، حتى باتت هي التعويض وهي البديل عن اللغة القومية، وهم يغضون موقفهم هذا بادعائهم أن الفرنسية لغة أدب وعلم وحضارة وتفتح لأن من يحس بالحرية بواسطة الفرنسية وبالقيد من خلال العربية من الصعب بمكان أن يكون عروبياً، وهذه مأساة الفرانكوفونيين سواء من إعترف بهذا أم لم يعترف.

إن معظم الدارسين لهذا الأدب ونقاده ناقشوا هذه القضية حتى الأجانب منهم أقروا هذا الوضع الشاذ لهؤلاء الكتّاب. فهم ينتمون إلى حضارة بحكم البيئة والتاريخ والمنبت، وإلى أخرى بحكم الواقع والثقافة واللغة وربما الحياة. فبعضهم بسبب هذا ترك بيئته الأصلية والتجأ إلى الثانية لأن الأولى رفضته أو تنكر لها ولم يتأقلم معها حتى ولو وفرت له ما يرغب يقول جان فونتان: **«ومن هؤلاء الكتّاب المنشور إنتاجهم بالفرنسية نفهم إلى أي درجة وصل التمزق الحضاري عند بعض المثقفين التونسيين المعاصرين ويعبر هذا عن أزمة لاحظها الدارسون من قبل...»** [1].

وقد صرح بهذا أيضاً الأديب المغربي **«عبد الكريم الخطيبي»** الذي يكتب باللغتين، بأنه حين يكتب بالفرنسية يحس بالإنسحاق: **«فإن لغتي الأم تنسحب بل تنسحق فهي تأتي عند الكتابة ممزقة ومشوهة...»** [2].

وأكثر من هذا فإن المفكرين قد عبروا عن التناقض الذي ذكرناه، **«فجاك ديريدا»** وهو متخصص في الفلسفة ومن أصل جزائري يعيش في فرنسا عبر عن هذا بقوله: **«أشعر على الدوام بأنني هامشي إزاء الثقافة الفرنسية، أشعر بأنني في داخل هذه الثقافة وخارجها في آن واحد، ذلك لأنني عشت في بلد أجنبي من ناحية وجئت للعيش في فرنسا في عمر متأخر نوعاً ما، يبقى النموذج الثقافي الفرنسي نموذجاً مفروضاً من قبل المدرسة. والثقافة الفرنسية بحد ذاتها تبقى ثقافة أجنبية نسبياً أي أنها حميمة وغير حميمة في آن واحد...»** [3].

ورغم دفاع بعضهم عن العربية والأدب العربي بل والإسهام في التعريف بالثقافة العربية في فرنسا ذاتها، فإنهم لا يحسون بهذا التمزق مثل جمال الدين بن الشيخ الذي يرد على من يقول بذلك رداً إنفعالياً: **«يقولون إن الكاتب العربي**

---

[1] الأدب التونسي المعاصر ص: 139(هذا الدارس كغيره من الذين حاولوا ترسيخ مصطلح الأدب «المغاربي» في أذهان الناس مثل البير ميمي –خان- ديجو- وآخرون عرب وأجانب)

[2] أحاديث ممتعة سعدي بزيان - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر1981 ص: 39

[3] مجلة «كل العرب»عدد 39 جانفي 1990 .

الذي يكتب باللغة الفرنسية ممزق فهذا في رأيي كذب وبهتان وادعاء لا تبرير لها...» [1]. فهو مثل بعض الكتّاب ينظر إلى اللغة من حيث الإتقان والتملك، فمن يملك لغة ما يستطيع أن يعبر بها وهنا ربما تتساوى اللغات، وهو يؤكد أيضاً أن اللغة الفرنسية لا تمنع **«الكاتب من أن يكون تقدمياً»** [2].

والموضوع ليس هو التقدم أو التأخر، القوة أو الضعف، الوهبة أو عدمها ولكن القضية في الإحساس العميق الداخلي للكاتب بهذه اللغة، فهل **«الفرنسية»** تملأ نفسه وتشبع ذاته وتغوص في شرايينه مثل اللغة الأم أم لا؟؟ هذا هو السؤال المطروح، ويرد عليه كاتب آخر هو عصام محفوظ فيقول: **«إنني عكس ما ذهب إليه ابن الشيخ فلا أجد للأدباء العرب الذين يكتبون بالفرنسية أو غيرها من اللغات الأخرى مكاناً مهماً في تاريخ أدبنا، ذلك أننا عندما نقرأ لبعضهم نكون في الوضع نفسه الذي نقرأ فيه لكتّاب آخرين نحبهم في الغرب، إن اللغة ليست مصطلحاً هنا، إنها جزء من عبقرية الشعب وهي أحد الشروط الأساسية في تحديد القومية، أقول هذا بأسف وأنا أتذكر مواهب أمثال جورج شحادة ومالك حداد والطاهر بن جلون وكاتب ياسين وغيرهم...»** [3].

وهناك كاتب آخر من المغرب الشقيق هو **«عباس الجراري»** يعالج فكرة اللغة ومفهومها ودورها في حياتنا ويربط بينها وبين الهوية ولا يفصل بينهما كما يفعل الفرانكوفونيون في كثير من الأحيان، وهو يرفض كأي كاتب عروبي سيطرة اللغة الفرنسية على الحياة الفكرية والأدبية والثقافية وعلى المجتمع بوجه عام، لأنه يرى في ذلك خطراً على المقومات الأساسية للشعب المغربي، لكنه ينطبق على الظاهرة اللغوية في المغرب بصفة عامة، فيقول: **«ولعلنا في غير حاجة إلى أن نثبت أن اللغة العربية رمز حياتنا ووعاء مختلف منظوراتنا ومقولاتنا وتجاربنا، على هيكلها تقوم كل بنيات أمتنا الفكرية لأنها أساس محوري في**

---

[1] أحاديث ممتعة ص: 39 - 40 .

[2] المصدر نفسه ص: 41 .

[3] المصدر نفسه ص: 70.

تكييف عقليتها وما يصدر عنها من مختلف ألوان النشاط. هي بنية واحدة تتكون من اللفظ والدلالة، لا يجوز الفصل بينهما ولا النظر إليهما مستقلين، وهي الصيغة التعبيرية لوجود الناطقين بها ترتبط معها نفسيتهم ويتبادلون وإياها الشحنات والقدرات، ثم هي المعيار الذي تحدد من خلاله العلاقات الخارجية مع الأشياء والناس. من هنا كانت أزمة اللغة في بلادنا أزمة ذات ووجود وأزمة تعبير عنهما، وكانت محاربة العربية لا تعني غير فرض عقدة على المواطنين ومنفى يعيشونه مكرهين داخل لغة أجنبية...» [1].

فكل من هذين الكاتبين ينفي أن تكون اللغة محايدة، وهذا حق، لأنها تعكس فكراً معيناً. فلا وجود للغة بدون فكر معين والعكس صحيح، وهذا حكم علماء النفس، فالإنسان يفكر باللغة التي تترجم هذا التفكير وإذا لم تعبر عنه يبقى مجرد تفكير تجريدي.

وحتى علماء الإجتماع الذين ينظرون إلى باعتبارها ظاهرة إجتماعية ليست معزولة عن المجتمع الذي ظهرت فيه ولا عن قيمّة ومواضعاته وتصوراته لأنها هي التي تجسد تصور الناس – أفراداً وجماعات– للحياة والكون والطبيعة بما تحمله من أفكار ومفاهيم وخيال أيضاً. ومن هنا فإن الإبداع نفسه يتأثر بها ويؤثر فيها لأنه يعبر بواسطتها وعن طريق الأدوات البلاغية والصور البيانية والتفرد الأدبي، وهي كلها وسائل تمتاز بها كل لغة من اللغات عن الأخرى، وهي في الوقت نفسه تلون الفكر والأدب والثقافة بلون هذه اللغة كما يبدو في النطق والنبرة والإيقاع، بل إن هذا يشمل حتى قواعد اللغة التي تحدد بنيتها كما يظهر في نحوها وصرفها وبناء الجملة فيها، وأكثر من هذا كما يبدو في التعريف والتنكير والتأنيث والتذكير وفي الصيغ المختلفة.

ولو أردنا أن نضرب مثلاً حياً يدركه من يهتم بالأمر لرأينا الفرق في هذا بين اللغة العربية والفرنسية والإنجليزية مثلاً فنحن نقول: أشرقت الشمس، في

---

[1] الثقافة في معركة التغيير - عباس الجراري - دار النشر المغربية - الدار البيضاء 1972 ص: 126 - 127.

الفرنسية le soleil et levé وفي الإنجليزية The sun is rising، فإحساسنا يختلف من لغة لأخرى وأيضاً حسب الناطقين بها ومدى ارتباطهم بثرائها وصورها، وكيف تنطبع في ودجدانهم أو خيالهم وأذهانهم. ثم إن **«الشروق»** في لغتنا غير **«الظهور»** في الإنجليزية **«والنهوض»** في الفرنسية، فحين تلفظ الشروق نحس بالضياء الباهر أو الساطع ولست أدري كيف يتصور الفرنسي والإنجليزي هذا أو يحس به، وربما يصحب تصورنا للشمس وضوئها إحساس بجمال المرأة أو الطبيعة ولكن في اللغتين الأخريين لا نتصور سوى الظهور، ثم إننا في العربية نتصور الشمس مؤنثة بينما هي في الفرنسية مذكر، والشيء نفسه يقال عن **«القمر»** فهو في لغتنا مذكر وفي الفرنسية مؤنث وربما كلمة قمر في الإنجليزية The moon نطقاً وصوتاً أقرب إلى لغتنا من حيث الإحساس باللفظة، مما يجعلنا نلحظ فروقاً في الكلمات من لغة لأخر إيقاعاً وجرساً، هدؤا وحركة، ضخامة أو فتوراً فضلاً عن تراكم الإستعمال وتواصله بين الأجيال، إلى جانب مفهوم البلاغة في كل لغة أسلوباً وجمالاً وخيالاً مما يضفي على مفهوم الإبداع طابعاً محلياً أو عالمياً.

على أن ابن الشيخ يرفض حيادية اللغة، على عكس كثيرين ممن يكتبون بالفرنسية – لكنه يؤمن في الوقت نفسه بالوعي والأصالة في الكتابة بأية لغة كانت طالما أن الكاتب يتحكم فيها ويتقنها فيقول: **«الذين يقولون إن اللغة أداة حيادية مخطئون جداً وأظن أنه لو كتب رشيد بوجدرة ومحمد ديب ومصطفى الأشرف باللغة العربية لكانت الثقافة الجزائرية قد انتقلت إلى مرحلة هامة، فاللغة كائن حي تحيا بالإستعمال وتموت بعدم إستعمالها...»** [1].

ثم يؤكد على أن من يكتب بالفرنسية عليه أن يبقى في وضعه فهو لا يمثل الأدب العربي الذي: **«لا يمثله إلا من يكتب باللغة العربية»** [2].

---

[1] المصدر نفسه ص: 50 .

[2] المصدر نفسه ص: 41 .

وفي مناقشة للموضوع يبحث عن المبررات للذين يكتبون بالفرنسية وكأنه يعطف على وضعهم المأساوي، ولكنه يدين الذين يؤمنون – من الجزائريين – بمستقبل الثقافة الفرنسية في الجزائر فهم: **«الذين ربما لهم نوايا في عودة فرنسا مرة أحرى إلى الجزائر، يمكن هنا أن نلخص قولي أنه لا يمكن لأي شعب له لغته الوطنية أن يبقي هذه اللغة بعيدة عن المعركة، نعم فليكن لكل كاتب آراؤه وأفكاره ولكن شريطة أن يكون ذلك بلغته الوطنية واالغة هي التي تحدد إطار البلاد وإلا أصبحنا كمستشرقين نتحدث عن الجزائر...»** [1]. فهو هنا يعبر عن الحقيقة العلمية وعن الموقف القومي السليم في النظرة إلى اللغة وإلى الأدب ولا يجاري الرأي المنحاز للغة الفرنسية.

من كل ما تقدم نلحظ أن أزمة الكتّاب في المغرب العربي نابعة من اللغة، عبّر عن هذا من يعيش منهم في فرنسا أو يعيش في وطنه، وحتى من غير الأدباء. وقد أسهم في مناقشة هذه القضية فرنسيون كما أشرنا – ومنهم جاك بيرك عالم الإجتماع المعروف – فهو مثل كثير من أدباء المغرب الذين يرفضون **«الحرية»** التي تعطيها لهم الفرنسية، لأن العربية توفر الحرية نفسها لمن يكتب بها ويؤمن بقدراتها ويتعاطف مع فكرها العروبي. وأن الذين يرون في العربية مجرد لغة القرآن أي تحمل طابعاً دينياً لا يسمح لهم بالتفرد أو الإستقلالية، فإن هذا العالم الفرنسي يعطيهم الحجة من كتاب عرب فيقول: **«فإننا بلا شك نسلم بأن المغرب العربي عربي فلغته هي العربية، ولكن هذا لا ينفي استعمال لغة حضارية أخرى كوسيلة ثانوية للفكر والفن غير أني أقول وبشدة أن لا مفكر لأهل المغرب العربي من التعريب، والإستعراب، ولا حل إلا في التعريب وكيف يمكن أن تقبل مثلاً الرأي القائل بأن في اللغة الفرنسية يجد الكتّاب المغرب العربي الحرية ولا يجدونها في اللغة العربية التي قالوا عنها إن هذه اللغة يسودها الجو الديني، فأقول لهؤلاء هل إن لغة طه حسين كان يسودها الجو الديني؟ وهل كان هذا «الجو الديني» مانعاً لظهور أمهات الكتب في الأدب العربي**

---

[1] المصدر نفسه ص: 51.

المعاصر؟ فلو احتج كتاب المغرب العربي مثلاً أيام الإستعمار بتمزق شخصيتهم لكان الأمر صحيحاً لا محالة، أما الآن وقد ذهب الإستعمار إلى غير رجعة وولى هاربا ًإلى سالف الأبد كما يقول النابغة الذبياني فلا يمكن أن تبقى حجج هؤلاء مقبولة بعد الإستقلال الذي مضى عليه حوالي 20 سنة بالنسبة للمغرب وتونس، و17 سنة بالنسبة للجزائر!! والخطر كل الخطر عندي بالنسبة لأهل المغرب العربي هو أنهم يدعون إلى التعريب ولا يفعلونه ولا ينفذونه!!» [1].

نقلت هذا النص رغم طوله لأنه يعبر عن الحقيقة التي نؤمن بها نحن، ولكن صاحبها يتقن لغة الفرنسية الأم ويتقن العربية ويؤلف بها. ولا أظن أن كتّابنا يحبون الفرنسية كما يحبها هذا الفرنسي الوطني، ومع هذا يدين الذين يتابعون الكتابة بها الآن برغم أنها توفر لهم الحرية التي لا*يجدونها أو الهروب منها تحت مظلة بالية لاتقي من شمس ساطعة.

ويكاد يصرح بأن موقف هؤلاء هو موقف ضد التعريب وضد عروبة الجزائر، فاللغة هنا لا تمثل فكرة معزولة عن الواقع والذات ولكنها تجسد الإنتماء، إنه صراع من أجل الوجود لا صراع من أجل اللغة واللسان ومن يقول بغير هذا فهو أما مستلب فكرياً وثقافياً أو لا يعي الواقع والحياة وصراع الحضارات.

والأمر نفسه ينسحب على الدعوة إلى الكتابة الأدبية بالعامية. فالمنطق هو هذه النظرة الإقليمية التي تحدثت عنها فيما مضى من هذا البحث وقد سادت مشرقاً ومغرباً. وربما كان «لطفي السيد» مصر هو رائدها بحيث دعا إلى تمصير اللغة العربية بإحلال الدارجة محل الفصحى، وهي فكرة أيده فيها أدباء ومثقفون من الفرانكوفونيين أمثال: الحكيم، سلامة موسى، عبد العزيز عبد الحق، محمود تيمور وغيرهم ومنطلقهم هو «الفكرة الفرعونية» التي يؤمن دعاتها بالحضارة الفرعونية في مقابل الحضارة العربية الإسلامية، حتى أن هذا الأخير يقول: «إن العرب أضاعوا قوميتنا إضاعة تامة بسبب إصطناع لغتهم

---

[1] المصدر نفسه ص: 110 .

وأدبهم وأننا لم نسترجع هذه القومية إلا في العصر الحديث بسبب الحوادث السياسية التي مرت بنا والتي نشأت من عوامل أكثرها خارجية وانتهت بالثورة المصرية وبسبب المفاخر التاريخية – الفرعونية – التي نحن مدينون للأجانب بمعرفتها...» [1]. على أن البعض من هؤلاء قد تراجع عن آرائه فيما بعد نتيجة لتطور فكره وللمد القومي الذي عرفته مصر في الخمسينات والستينات.

ولو حذفنا اسم القائل واسم المكان ووضعنا إسماً آخر ومكاناً آخر في **«المغرب العربي»** ممن يدعو إلى **«البربرية»** ويرفض الهوية العربية ويدافع عن الفرانكوفونية أكثر من العربية والعروبة، لما فرقنا بين هؤلاء وأولئك في الدعوة إلى العامية المصرية أو الجزائرية أو غيرهما أو دعاة البحر المتوسط أو الجزائر جزائرية وتونس تونسية والأمة المغربية أو دعاة أدب الشعب ولغة الشعب وهي الفكرة نفسها التي انتشرت في مصر وشعارها إن العامية تعالج قضايا الشعب الحقيقية [2]. ولا فرق بينهم وبين ما ألح عليه **«كاتب ياسين»** وأمثاله من الفرانكوفونيين المندمجين في الثقافة الفرنسية أو المتأثرين بأفكار المستشرقين الفرنسيين ومن يسير على دربهم منذ القرن الماضي حتى هذه اللحظة التي أكتب فيها هذه الفصول، وإن تغيرت الظروف والأحوال واختفى أشخاص وظهر آخرون في جناحي الأمة العربية، ولكن الشعارات بقيت أو عدلت وكذلك اللهجة خفتت مرة وعنفت أحياناً وسالمت أحياناً أخرى. والتبرير بعجز العامية أو الفصحى عن التعبير أوجد قوالب جاهزة يلقبها الكتّاب بغرض إخفاء الموقف من العربية والعروبة، وهي مبررات غير علمية. **«فكاتب ياسين»** يرى في الفرنسية **«أداة تعبير»** تساعده على البيان والإفصاح وهي مهمة الكتابة بوجه عام، أما عند محمد ديب فهي **«آلة عمل»** ولدى معمري **«أداة إتصال»** فهي عنده **«إختيار»**

---

[1] **القضية اللغوية – ص: 149 وفي الكتاب مقالات وتعاليق تتصل باللغة وبدعاة العامية في تونس والمشرق والأدب القومي وفيه أيضاً تفصيل لكل هذا والصراع بين الإقليمية والقومية في تونس. انظر ص: 165.**

[2] **المصدر نفسه ص: 149 .**

Le [1]choix de la langue . إذن فالإختيار هنا مقصود، فلماذا اختار معمري الفرنسية ولم يختر العربية؟! لو قال إن الأولى فرضت عليه أيام الإستعمار وأنه حرم من الثانية – كما قال حداد – لوجدنا له مبرراً ولغيره ممن يعترف بالظروف القاهرة، آما أن يختار عن سبق الإصرار والحرية فهو موقف في حد ذاته مقصود، وهو يلتقي فيه مع أولئك الذين يدافعون عن الفرنسية أو العامية عن اقتناع لا عن ضرورة.

وهذه القضية إستنفدت كثيراً من كتابات المثقفين والأدباء في المغرب العربي واتخذوا منها موقف الرفض من هذا الواقع المفروض أو المقصود، نرى هذا لدى الباحث «**عبد المجيد النجار**» الذي يتحدث عن طمس الهوية في تونس بعد رحيل الإستعمار بأيد تونسية وبأساليب مختلفة: «**ظاهرة وخفية، ما لم يقع مثله في عهد الإستعمار نفسه**» [2].

فالهوية هي مدار هذا الصراع والعروبة لن تتحقق بغير العربية، وهو يناقش ذلك تفصيلاً في مواطن عديدة من كتابه [3]. وبالطبع فإن الأدباء الفرانكوفونيين أمثال «**القرمادي**» في تونس وآخرين من سبق ذكرهم يعنيهم الدفاع عن الفرنسية. وكثير من هؤلاء يكتب بالعربية ولكنه يتعاطف مع الفرنسية وهم يصدرون في رؤيتهم للعالم من خلال الحضارة الغربية الأوروبية ومن خلال الثقافة الفرنسية بوجه خاص، مثل «**العروي**» وهو باحث معروف يرى «**أن الحضارة الأوروبية كونية**». وحتى الذين يؤمنون بالعربية ويتعاطفون معها ويكتبون باللغتين مثل الأحبابي يقول: «**إن الذي يجمعني بالعراقي والمصري هو اللغة فحسب**» [4]. فالرابطة إذن لغوية ثقافية لا رابطة مصير مشترك وهو مع ذلك يقف ضد العامية وهذه نظرة متقدمة على كثير من دعاة الفرانكوفونية بالمغرب

---

[1] الأدب الجزائري ذو التعبير الفرنسي ص: 147

[2] صراع الهوية في تونس عبد المجيد النجار. شركة ديبيتال للنشر والطباعة 1990 ص: 18 .

[3] انظر المصدر السابق من ص: 20 إلى 126.

[4] مجلة حوار 15سبتمبر إلى15اكتوبر 1989.

العربي ويهاجم الكتابة بها بدعوى أن الشعب لا يعرف العربية الفصحى، وهي ادعاءات غير علمية في رأيه وهذا صحيح لسبب بسيط: **«إن الشفوي لا يخلق حضارة ولا يسهم في التقدم»** [1].

وقد عرف في تونس **«بشير خريف»** الذي تخرج من المدارس الفرنسية وكتب بالعامية بدعوى الفن ولم يجد من يقرأه حتى في بلده لأن اللهجة التي كتب بها، وهي من الجنوب لا يعرفها حتى قراؤه في تونس، مما اضطره إلى شرح بعض التعابير والكلمات في رواياته التي كتبها بالعامية. وهناك من يقف – نتيجة إقليميته المتعصبة ورفضه للعروبة – موقف الرفض لكل ما هو عروبي أمثال الطاهر بن جلون ومحسن تومي، حتى إن كتاباً يقول عنهما **«وهما من أشد أعداء الإسلام والعروبة»** [2].

---

[1] المصدر نفسه.

[2] الشعب 27 / 2 / 1990 جاء هذا تحت عنوان «حوار بين حضارتين أو مونولوج فكري غربي» وهو مقال موقع بحرفي ب. خ. وأنا لا أعرف إذا ما كانا يعاديان الإسلام وإن كنت أعرف تعصبهما للفرنسية مثل أركون وعلي مراد وغيرهما ممن ينظر نظرة خاصة للغة لدوافع كثيرة معروفة.

(2)

إذا كانت المعركة في المشرق العربي قد ثارت في العشرينات من هذا القرن بين الأدباء حول العربية والبيان العربي بين طه حسين والرافعي وبين هذا الأخير والعقاد، فإنها فيما بين كثير من الأدباء كانت عن التقدم والحضارة، عن النهضة والطريق الذي يساعد عليها، أي كان الصراع بين **«دعاة الحضارة العربية الإسلامية»** و**«دعاة الحضارة الغربية»** والفكر الأوروبي، في حين أنها في المغرب العربي في مجملها – دارت حول اللغة والهوية وعن الأدب المكتوب بالفرنسية.

وقد رأينا نماذج من ذلك، وربما كانت المعارك الثقافية في الجزائر أكثر منها في المغرب وتونس لأنه من الصعب –كما أسلفنا –أن تهاجم الفرانكوفونية في القطرين لأنهما دولتان منخرطتان رسمياً في الكتلة الفرانكوفونية، أما الجزائر فإنها قامت بثورة شعبية وانتصرت بقوة السلاح، لذلك فإن مثقفيها أثاروا مشكلة الأدب المكتوب بالفرنسية خاصة في سنتي 1964 و1965 وحول اللغة الوطنية، وقد أسهمت مجلة **«المجاهد الأسبوعية»** بالعربية في هذه المناقشات وشجعتها وترجمت كثيراً من المقالات التي عالجت هذه القضايا، وقد أثارها هؤلاء الذين ثقفوا ثقافة فرنسية [1]. فالمعركة متواصلة إذن ولم تتوقف لأننا ما زلنا نبحث عن هويتنا مثلما حدث في الماضي، فبعد التحرير مباشرة انفجر الصراع لأنه أثناء الثورة كان من غير الممكن مناقشة الموضوع أو طرحه، وكان من الصعب أن نجد من يدافع عن الفرنسية بينما الناس يستشهدون من أجل الهوية العربية الإسلامية للشعب الجزائري. فالعروبيون دافعوا عن العربية ولو كانوا لا يعرفونها، بينما الفرانكوفونيون إستمروا في خط الدفاع عن الفرنسية. ففي مقال بعنوان **«الثورة والتعريب»** [2]، يثير الكاتب قضية اللغة والأدب المكتوب بالفرنسية ويشير إلى الحوار الذي دار أثناء الأسبوع

---

[1] المجاهد الأسبوعي 28 / 1 / 1965 .

[2] المجاهد الأسبوعية 20 / 5 / 1965 .

الثقافي حضره ملك حداد، عبد المجيد بن زين، محمصاجي، بوربون، معمري، بشير حاج علي وغيرهم، هذا الحوار الذي آثار: «**مناقشة عاصفة على الصعيدين الأدبي والقومي فقد رأى فريق من المستمعين أن بعض هؤلاء الكتّاب قد مس الشعور القومي وأداة التعبير لديه التي هي اللغة العربية، وقد برز مالك حداد في هذه المناقشة كأديب وطني له خطه السليم ووعيه القومي الواقعي علاوة على ما يتحلى به من موهبة فنية...**»[1].

ولا شك أن مقال الأشرف الذي نشره في المجلة الفرنسية «**الأزمنة الحديثة**» المعروفة، ثم نشرته «**الثورة الإفريقية**» وترجمته «**المجاهد**» الأسبوعية بالعربية[2]، قد أثار بدوره جدلاً كبيراً بين الكتّاب والمثقفين، لأن كتابه تناول قضايا كثيرة تتعلق باللغة العربية وأيضاً باللغة الفرنسية وبالدارجة، وبالأدب الشعبي ومحو الأمية، كما تحدث عن الكتّاب الجزائريين الذين قلدوا الفرنسيين في رواياتهم – على حد تعبيره – مثل عبد القادر فكري، ابن الشيخ، زهار، جميلة دبّاش «**ولهم نفس اتجاه الكتّاب الفرنسيين ونفس الذوق الجامع إلى التصور السحري الكاذب للمجتمع الغريب والتفاهة السطحية**»[3].

والأشرف يدافع عن الأدب الشعبي. فهو – في رأيه – الوحيد في الجزائر الذي «**يعد أدباً يستجيب لضرورة التعبير في اتجاه التحررالوطني والمصير السياسي**»[4] حتى إنّه يلوم السياسيين الذين يستخدمون الفصحى في خطبهم ويريدون أن يجعلوا منها «**قبل الأوان أداة للدعاية أو التفسير السياسي الشفوي للجماهير الشعبية**»[5]، ولسنا ندري ما هو الوقت الملائم لذلك. فهو لم يحدد أجلاً أو تاريخاً لأن تكون العربية أداة خطاب وكتاب!!.

---

[1] المجاهد الأسبوعية 20 / 5 / 1965 .

[2] المجاهد 16 / 1 / 1964 .

[3] المصدر السابق.

[4] المجاهد 23 / 1 / 1964 .

[5] المجاهد 16 / 1 / 1964 .

وهو في آرائه المتصلة بالفرنسية ودفاعه عنها في مجال رده على «بوربون» في هذه المناقشة [1]، ينظر إلى الجزائر برؤية كاتب فرانكوفوني ويتنبأ بأن الفرنسية إذا استمرت فإن الروائع التي ستكتب بها ستصبح نصوصاً تدرس في المدارس الفرنسية والجزائرية وربما في غيرهما. وأكثر من هذا فإنه يسوي بين كتّاب فرنسيين معروفين بعدائهم للجزائر وبين الكتّاب الجزائريين الوطنيين، فالمهم عنده أن تكون النصوص جيدة ولا تهم جنسية الكاتب أو أفكاره. أما اللغة والنظرة إليها من وجهة النظر الوطنية فهذا لا يهم في رأيه ولكنه يتنبأ بأن وزيراً جزائريا للثقافة الوطنية ربما يأتي مستقبلاً فيدعو إلى تكوين لجان لاختيار نصوص من كتاب فرنسيين وجزائريين فيقول – والخطاب هنا لبوربون: **«وهل يستطيع أن يؤكد لي أنه في يوم قريب أو بعيد لن يرتئي وزير جزائري للثقافة الوطنية إذا بقيت اللغة الفرنسية تعلم عندنا أن تؤلف اللجان التربوية كتباً دراسية ومختارات من نصوص يجمع فيها مؤلفون فرنسيون أو باللغة الفرنسية كتبوا بمعرفة نادرة ودراية بالموضوع وبموهبة كبيرة عن الجزائر...»** [2]

ويضرب أمثلة لكتاب فرنسيين وجزائريين قديماً وحديثاً يجمع فيها بين الرجعي والتقدمي كما يذكر أسماء لكتّاب معادين للجزائر ولشعبها، يكفي أن تكون كتابتهم من «**الروائع**» أمثال: **«ترومنتان، دوديه، فيدو، ماسكري، لوي برتراند (أي نعم)، جيد، أندري شوفريون، معمري، كاتب ياسين، كامي ومن يدري ربما بوربون نفسه لأن المستقبل أمامه...»** [3]

فكما لاحظنا يؤكد على كاتب مشهور بحقده على الجزائريين، حاربهم في رواياته وأعماله وصب جام غضبه على الوطنيين منهم، كذلك فإن الأشرف يضع البير كامي من بين الكتّاب الجزائريين، وهي نظرة تتفق مع من يقول بأنهم جزائريون لمجرد أنهم ولدوا على أرض الجزائر ولو كانوا فرنسيين

---

[1] المجاهد 6 / 2 / 1964 .

[2] المصدر نفسه.

[3] المصدر نفسه.

أباً عن جد. أما توقعاته عن استمرار الفرنسية وعن إدراج نصوص كتاب بالفرنسية فقد كانت في محلها، فقد ألفت لجان اختارت نصوصاً للكتب المدرسية الجزائرية. ولكن من فعل ذلك ليس وزير ثقافة، بل وزراء التربية وهو واحد منهم بطبيعة الحال فقد كان وزيراً لفترة ما خلال السبعينات.

وإذا كان حديثه هذا قد جاء بعد الإستقلال مباشرة، فإنه يدل على قناعة لم تتغير لا بلهيب الثورة ولا بالشعارات الإشتراكية والتقدمية لأنها راسخة في تفكير أصحابها، وربما هذا هو الذي جعل فرانز فانون يقول بأن **«الثورة الجزائرية وكفاح الشعب الجزائري أسهما في نشر اللغة الفرنسية في الوطن»** [1]. وهذه من تناقضات الواقع الثقافي في المغرب العربي، فمن جهة كان النضال ضد السيطرة الفرنسية العسكرية والسياسية ومن جهة أخرى كان العمل على بقاء الفرنسية قوية ومسيطرة!!.

وفي هذه الفترة نفسها تقريباً ثار الجدل في ندوة جمعت كتّاباً من المغرب العربي وشارك فيها أحد الفرنسيين وقد نشرت في مجلة **«ملتقي Confluent»** وهم مالك حداد من الجزائر، محمد عزيزة من تونس **«غرياوي» «وعيوش»** من المغرب وأيضاً **«خالد الشريبي»**. وكان من الطبيعي أن يدور النقاش حول الأدب المكتوب بالفرنسية، وكان محور هذا النقاش مالك حداد وآراءه في الموضوع لمكانته الأدبية المرموقة من ناحية ولفكره القومي العروبي من ناحية أخرى، وخاصة عندما اعتبر أن التعبير بالفرنسية مأساة الكتاب الذين يكتبون بها، وأعاد في رأيه فيما كتب بالفرنسية من أدب وحتى عندما ترجمت أعماله إلى العربية لم يعبر هذا عن إحسسه الحقيقي رغم قرب ذلك من فكره وعواطفه، وهذا راجع إلى اللغة الأصلية التي كتب بها، وإذا كان أثناء الثورة قد اعتبر أن الفرنسية منفاه، فإنه في هذه الندوة يضيف إلى ذلك مقولة أخرى وهي أن

---

[1] الأدب الجزائري ذو التعبير الفرنسي - ص: 57 .

الفرنسية **«منفى قرائي أيضاً»** [1]. وهو لا يعتبر سكوته حين قرر التوقف عن الكتابة انتحاراً ولا يأسف لذلك ولا يحس بالمرارة حين يلقي بقلمه [2].

ومالك حداد كان مقتنعاً تماماً بأن الجزائر ستعرف الكتّاب الذين تستحقهم تترقبهم وهم الذين يكتبون بالعربية، وهولم يكن يتنبأ بل كان يستقرئ الواقع والتاريخ ويحكم منهما على المستقبل، لأنه متأكد ومؤمن بمستقبل العربية وأدبها، ويتأسف لأنه كتب بغيرها ويحزن لأن هناك من كتاب المغرب العربي من يستمر في الكتابة بها، وهو يقول رأيه هذا بدون مواربة: **«أنا مقتنع تماماً بأن التمزق الذي حدث لنا في المغرب العربي، سواء وعينا ذلك أم لم نع وهذه التجزئة إلى شعوب وجماهير... إلى جزائريين تونسيين، مراكشيين إنما يعود كل ذلك إلى اللغة الفرنسية فهذا هو الواقع...»** [3].

هذه نظرة أديب عروبي قومي يرى أن التجزئة تبدأ من اللغة لتصل إلى الثقافة وفي النهاية إلى السياسة. فالتمزق يبدأ من اللغة وينتهي إلى الهوية فالوحدة. فالتفرقة لا تنشأ وحدها ولكن لعوامل كثيرة مثلها مثل الوحدة تماماً، وهذا الكلام يقوله أديب –كما أشرت– عروبي وطني لا يفرق بين محتوى اللغة وشكلها ولا بين الفن والسياسة، لأن التمزق الذي عرفته شعوب المغرب العربي هو من أثر هذه **«الفرانكوفونية»** المفرقة المشتتة للأفكار والمواقف، وهي التي خلقت فكراً غير متجانس وغير منسجم. وإذا كانت قد مزقت شعوب المنطقة فقد مزقت الفئات داخل كل شعب أو قطر وأسهمت في تقوية الفكر الفرانكوفوني التجزيئي القطري.

---

[1] انظر المناقشة بالتفصيل في الحوار الذي تم بين الأدباء المذكورين في مجلة « الملتقى» العدد 37 جانفي - فيفري - مارس 1965باريس (دعا إلى الندوة صاحب هذه المجلة الفرنسية) من ص: 78 إلى ص:101.

[2] المصدر نفسه.

[3] المصدر نفسه .

وإذا كان مالك حداد يرى أن الكتابة بالفرنسية قبل الإستقلال هي ظاهرة مؤقتة حدثت لظروف خاصة – على حد قوله – فإنها تصبح غير ذات موضع بعده. وقد استمر رأيه هذا حتى وفاته رحمه الله.

وهذه الأحكام لا يوافق عليها بعض الكتاب لأنها **«تطعن»** بؤرة إحساسهم. فالغرباوي مثلاً يرى أن الذين يكتبون بالعربية إنما ينظرون إلى عصر الرشيد، إلى الماضي مثلهم مثل من يكتب بالفرنسية الذين يدفعون الآخرين إلى نفس المشكلة، ولكي يتخلص من الحرج يفضل الصحافة ولا يوافق على رأي حداد بالتوقف عن الكتابة بالفرنسية إذ يرى فيه **«موقفاً إنهزاميا»** [1]. وفي نفس الوقت يعتبر أن من يعود إلى الماضي هو رجعي أو يفكر تفكيراً إقطاعياً، ولا يفكر في أن الإهتمام بالماضي قد يكون بغرض استلهامه والعودة إلى قيم فقدت في الحاضر وأن الإستعمار الفرنسي نفسه ساعد على اختفائها. ولا يعني هذا رفض العصر وروحه والوقوف ضد الحضارة الجديدة، وتفضيله لغة الصحافة في المغرب العربي هو نوع من الهروب من المشكلة نفسها لأنها لغة ليست خاصة بالمغرب العربي بل هي لغة عامة في صحافة العالم كله، بينما لغة الأدب متميزة في الآداب الإنسانية عامة لا في العربية وحدها، وقد جاء حكمه هذا من تلك النظرة التي يشاركه فيها **«كتاب مغاربة»** أو فرانكوفونيين ممن قد لا يعرفون العربية بل ويعتبرون كتابة الأدب بها تحمل طابعاً كلاسيكياً وهي نظرة استشراقية معروفة، وهي نفسها نظرة زميله عيوش تقريباً، فهو يفخر بالكتابة بالفرنسية والتعبير بها .

على أن الباحث عزيزه **(من تونس)** يجعل وضع اللغة في بلاده مختلفاً نوعاً ما لأن العربية احتفظت فيها بقدر من المرونة واحتفظت بوجود نسبي، ثم إن الكتّاب فيها درسوا اللغتين وتكونت لديهم **«ثنائية»** أو **«إزدواجية»** اللغة والثقافة

---

[1] المصدر نفسه.

وهي لا تكون – في رأيه– مشكلة في تونس [1]. كما يرى أن الفرنسية **«رفاهية فهي أداة إتصال ثانوية وهي مهمة جداً»** [2].

أما خالد الشريبي فقد كان واضحاً، – عكس عزيزه – فهو يتفق مع مالك حداد، بل يذهب إلى أن المأساة ليست في الكتابة بالفرنسية فحسب ولكن المأساة أن **«المغاربة جُهّلوا عن قصد وعن سبق إصرار وفصلوا عن تاريخهم وماضيهم وعن أصالتهم...»** [3] فاللغة في رأيه لا بد أن ينظر إليها من ناحية الحضارة والفن أيضاً. ويحاول أن يقارن في حديثه عن الرواية المكتوبة بالفرنسية في المغرب العربي والمكتوبة بالعربية في المشرق، ويحكم – وهذا متوقع منه ومن أمثاله – بأن الرواية في هذا الآخر ضعيفة بالقياس إلى الرواية في الأول بسبب اللغة طبعاً وهذه نظرة غير نقدية بالمرة، فالمقارنة هنا تحتاج إلى دراسة ونصوص وتقويم وتفسير.

و مالك حداد لا يوافق على هذا الحكم النقدي الفني، فالحوار عن اللغة لا عن الفن أو الأسلوب أو التقنية أو الشكل بصورة عامة، فالمشكلة أساساً في اللغة الفرنسية لأن الأديب المغربي مثل غيره في الجزائر أو تونس ينظر إلى الفرنسية من زاوية معينة وهي زاوية الحضارة، في حين أن حداد يرى في هذا خطراً على العربية نفسها إذا حكمنا عليها بالجمود والبقاء حيث هي، فهي قادرة على أن تجعلنا نعيش قرننا إذا قررنا نحن ذلك، ومن يستطيع أو يتجرأ بالقول فيؤكد **«أن الأدباء المغاربة لو كتبوا بالعربية فإنهم لا يكتبون بالقدر الذي كتبوا فيه بالفرنسية»** [4].

وعندما يقيم **«مالك»** الحجة على الذين يدافعون عن الفرنسية فإنهم يلجأون إلى التمني والترجي مثل شرايبي الذي يرغب في أن يكتب بالعربية،

---

[1] المصدر نفسه.

[2] المصدر نفسه.

[3] المصدر نفسه.

[4] المصدر نفسه.

وهي أمنية كثيرين ولكنهم لا يحققونها في الواقع، فهو إذن يكتب بالفرنسية خيرًا من أن يصمت ويتوقف كما فعل مالك [1].

ثم إن «**عزيزة**» يثير قضية هامة تتصل بمستوى الذوق لدى القارئ، فهولا يتذوق مايقدم له باللغتين ولا يستطيع أن يفهم إلا إذا كان يتمتع بمستوى جيد من التعليم، وهذه أيضا مشكلة من يكتب بالفرنسية والتي عبر عنها «**مالك حداد**» بالمأساة.

وإذن فلابد من الكتابة بالعربية أولاً حتى يتحقق هدفه من الكتابة. والأديبان يردان على «**بوتان**» الفرنسي الذي أدار هذه الندوة ويلح على قضية «**الثنائية**» أو «**الإزدواجية**» التي ظهرت في لبنان وهي بالنسبة له حل أمثل ويتمنى أن يأتي الوقت الذي تصبح فيه مقبولة في المغرب العربي، ولكنهما يرفضان هذا الوضع ويريان فيه خطرًا على الثقافة الوطنية، ويضرب «**عزيزة**» مثلاً من التاريخ الفرنسي نفسه فيقول: «**لو أن اللاتينية درست في المدارس الفرنسية من القرن الخامس عشر حتى الآن لوجد كتاب لها وبالفرنسية الأمر الذي يخلق وضعًا يشبه وضع الفرنسية والعربية اليوم في المغرب العربي...**» [2].

فالباحث التونسي يقيم الحجة على أولئك الذين ينفون الصراع الثقافي إذا وجدت لغتان مختلفان في بلد واحد، فهو يرى أن ذلك يخلق تناقضات في المجتمع الذي توجد به هذه الوضعية، والدليل على أن «**الإزدواجية**» واستمرارها أمر غير سليم من شتى النواحي هو ما نلاحظه في أقطار المغرب العربي حيث وجدت فئتان: عروبية وفرانكوفونية والصراع بينهما لا يتوقف مادام على هذا الحال.

---

[1] المصدر نفسه وهو الخلاف بينهما فمالك يرى أن فكره ة وإحساسه لا تعبر عنه سوى العربية إما شرايبي فيرى أن الفرنسية تعبر عن إحساسه القومي رغم أنها لغة أجنبية،ومنشأ هذا الخلاف بين العروبيين وغيرهم هو النظرة هو إلى اللغة من حيث أنها لغة أو من حيث هي تعبير عن إنتماء حضاري وهوية قومية.

[2] المصدر نفسه.

ويبلغ الأمر بأديب مغربي آخر هو «غرباوي» أن يطالب الفرنسيين بدراسة العربية، يقول: **«فلماذا نتعلم نحن لغتهم وهم لا يفكرون في ذلك إطلاقاً وهم متأكدون بأن العربية ستكون لغة أبناء هذه المنطقة»** [1].

وإذا كان مالك حداد يؤمن بأن الطب وغيره من العلوم يمكن تدريسها بالفرنسية فإن الأدب – وهو الذي يعبر عن أعماق الشعب – من الصعب أن يكون بلغة أجنبية، ولا يحقق هدفه إلا إذا عبر عنه بالعربية [2]. أما **«شرايبي»** فإنه ينظر إلى الأدب على أنه موجه للصفوة أي الأقلية، وهذه فكرة طبقية. وربما هذه النظرة تفسر بأنه ما دام موجهاً للصفوة يمكن أن يكتب إذن بلغة أجنبية، ولكن حداد يرفض هذه الرؤية، يرفض الحكم والإستنتاج معاً إن كان يدور بخلد الأديب المغربي.

وأثناء هذا الحوار يعود النقاش إلى السؤال الدائم: هل يكتب الأديب بعد الإستقلال باللغة الأجنبية أم يصمت؟؟ الأديب **«عزيزه»** من أنصار الرأي الأول الذي يناقض رأي **«حداد»** المعروف، ثم إن عزيزه وهو يثير قضية اللغة لا يفعل ذلك من الناحية القومية ولكن من ناحية تعدد اللغات واللهجات فهو يتساءل: بأي لغة يكتب الأديب في المغرب العربي؟؟ بالدارجة أم بالفصحى أم بلغة ثالثة؟؟.

ولكنه لا يبين رأيه بوضوح في قضية هامة أثيرت في المشرق العربي ولا تزال تجد من يناقشها حتى اليوم، لأن مشكلة الكتابة أساساً في اللغة الأدبية وفي القدرة عن التعبير بها عن إحساس الأديب وأفكاره، ولما كان المجتمع العربي لم يتحرر من الأمية فإن القضية والحديث عنها لا يتوقف حتى يوجد الحل. كما أثيرت قضية القارئ الفرنسي والعربي، **«فشرايبي»** يطالب بسياسة ثقافية محددة، خاصة وأن قارئ الأدب بالفرنسية يجد رواجاً نظراً لوجوده في

---

[1] المصدر نفسه.

[2] المصدر نفسه.

بيئتها الأصلية، ولكن حداد يرد عليه بأن كتبه مقروءة بالعربية – بعد ترجمتها – أكثر منها بالفرنسية التي كتبت بها أصلاً [1].

وفي نهاية هذا الحوار اثري والطويل بين أدباء المغرب العربي يقول حداد بأنه: **«لا يستطيع أن يعبر عن أفكاره الحقيقية سوى بالعربية وان أمة التي لا تعرف الفرنسية إلا قليلاً لا تفهم ما يكتب ولكنه لو كتب بالعربية وكانت تعرفها أمة لما أحتاج إلى حوار من النوع الذي تم في هذه الأمسية»** [2].

ولست أدري ماذا كان الأدباء الذين شاركوا في هذه الندوة قد قاسموه هذا الرأي، فقد رأينا تبايناً في النظرة إلى الكتابة وإلى اللغة، فبعضهم يشارك مالك حداد في أمور ولكنه لا يوافق على الصمت وهي قضية لها علاقة بالموقف وبالهوية، قوة وضعفاً، لدى هذا أو ذاك وهي القضية نفسها لدى غيرهم من الساسة والمثقفين والمفكرين في الأقطار الثلاثة.

على أنني لم أعرض إلى قطر رابع وهو موريطانيا في هذا الحديث، رغم أن فرنسا احتلته مثل الباقي وفرضت عليه الفرنسية كما فرضتها على البلدان الثلاثة الأخرى، ورغم أن رئيسه بعد الإستقلال (ولد دادا) يعد من الفرانكوفونيين المعروفين، فإن ظروف الثقافة في هذا البلد العربي المسلم لها مميزات خاصة، ولذا لم يظهر أديب غزير بالفرنسية فيها، لأن الإستعمار الفرنسي لم يبق بها طويلاً عكس باقي الأقطار. فوجود الفرنسية غير راسخ في موريطانيا مقارنة بغيرها، ثم إن العربية هناك لها تاريخ عريق، ومن كتبوا بالفرنسية – وهم قلة – لم يتعصبوا ضد العربية ربما لأن الذين أتقنوها هم من أصول إفريقية زنجية أما الباقي فإن ثقافتهم أصلاً عربية، إلى جانب أن

---

[1] المصدر نفسه يرد بذلك على الذين يثيرون مشكلة يعتبرها مغالطة حين يذكرون بأنه غير مقروء في وطنه حتى ولو كتب بالعربية والواقع أن القضية تتصل بأعماق الأديب وأفكاره ووطنيته أكثر من انتشار كتبه أو عدم انتشارها.

[2] المصدر نفسه.

«اللهجات البربرية» قد اختفت منها قبل دخول الإستعمار إلى درجة أن المستعمر لم يستطيع أن يجعل منها أداة تزاحم العربية أو تعاديها أو تقلل من شأنها. ومن هنا فإن الإنتماء إلى الحضارة العربية والثقافة العربية والتراث العربي هو الذي ساد المناخ الثقافي هناك، فالإعتزاز بالشعر العربي وبالأدب العربي يمثل موقفاً عاماً سواء بالنسبة للمثقفين والأدباء أم بالنسبة لغير المتعلمين الذين يدافعون عن العربية حتى ولو كانوا لا يعرفونها، لأنها تمثل لهم اعتزازاً بشخصيتهم العربية الإسلامية كما نلحظ هذا في الجماهير الشعبية في الأقطار الأخرى.

أما الفئات التي ترجع في أصولها إلى العنصر الزنجي – كما أشرنا – فهي التي تدافع عن الفرنسية وتحتمي بالفرانكوفونية لأعراض أخرى غير الأدب والثقافة، وهي من هذه الناحية تشبه الفئة نفسها في المغرب العربي التي ترى فيها نافذة على الحضارة والتقدم أو تعبيراً عن فكر إقليمي جهوي، لأن المنبع واحد والهدف واحد سواء كان في هذا القطر أو ذاك. ومع هذا فإنه من الصعب أن نحكم حكماً سليماً على وضع العربية والكتابات بالفرنسية لأن هذا يتطلب مصادر لا نملكها وتحتاج إلى بحث واسع ودقيق.

وهناك بلد آخر من أقطار المغرب العربي وأعني به **«الجمهورية العربية الصحروية»**. فهي جغرافياً من المغرب العربي ولكن وضعها الثقافي مختلف مثل ليبيا، فقد استعمرتها إسبانيا واللغة التي سادت فيها أكثر من غيرها هي الإسبانية ولكن فيما أعرف، فإن إعتزاز المثقفين فيها إنما هو بالعربية وإن الثقافة العربية الإسلامية هي التراث الأصيل في الصحراء الغربية، لذلك فإن عروبة الثقافة والفكر في هذا القطر الشقيق تشبه إلى حد كبير موقف ليبيا – حكومة وشعباً – من القضايا القومية.

(3)

لا يتم الحديث عن اللغة والثقافة والأدب في المغرب العربي إلا إذا ضربنا مثلاً بكاتب أثار ضجة كبيرة في حياته حول هذه القضايا وأعني به كاتب ياسين، فلعله الكاتب الوحيد الذي يصرح بموقفه ضد العربية ويعتبر أن العروبة خرافة ويدافع دفاعاً حاراً عن الفرنسية وعن الدارجة. ولذا فهو يمثل قمة المد الثقافي الفرانكوفوني ليس في الجزائر وحدها، ولكن في المغرب العربي كله. ولعل تكوينه الفكري والإيديولوجي هو سبب عدائه للعربية والعروبة إلى جانب عناصر أخرى خاصة. وهو متأثر في ذلك بأحكام المستشرقين الفرنسيين عن العربية ونظرتهم إليها، بحيث بقي على موقفه حتى آخر لحظة من حياته. ومن يتبع تصريحاته ومواقفه يجد أنه يقف موقف العداء الذي تحدثت عنه. فقد كتب بيار أبي صعب عن رفضه **«الشرس والعنيف لأي شكل من أشكال الإنتماء إلى الهوية العربية... لست عربياً ولا مسلماً – كان يردد – أنا جزائري...»** [1]. ورغم أن الكاتب **«ابي صعب»** أراد أن يبرر لرفض ياسين للهوية العربية لأن البعض استغلها رسمياً أو انتهازاً للفرض سواء من الأشخاص أم من الحكومات التي استغلت شعار العروبة، فإن هذا أمر ورفض الفكرة من أساسها أمر آخر. ولو طبقنا هذا المبدأ على المثل والمبادئ والأفكار والقيم لرفضنا كل شيء.

«فالكاتب الجزائري» لا يفرق محتوى العروبة لدى التقدمي أو لدى الرجعي، ولكنه يرفضها لأنها تدعو إلى الوحدة لا إلى التشتت. فالعروبة الحقيقية الثورية رفضت الإستعمار ووقفت ضد الهيمنة الأجنبية وحاربتها بمختلف الوسائل، كما رفضت استغلال الإنسان ودافعت عن العدالة والحرية لكافة الشعوب والأفراد. وهو نفسه كان يهاجم الظلم والطغيان بمختلف

---

[1] مجلة الرواية الجزائرية جانفي 1990ص: . 141

ألوانه، فكيف يقف ضد العروبة والوحدة لولا إقليميته لراسخة وفرانكوفونيته المضادة للفكر القومي العروبي؟!

وفي حوار له صدر في كتاب عام 1986 تحدث فيه عن اللغة والكتابة لأنهما يتصلان بإبداعه وبرأيه فيهما سئل عن اختياره للدراجة بدل الفصحى يرد: **«أنا لا أريد أن أعرف الكلاسيكية»** [1]. ويقارن بين العربية واللاتينية ويدلي بحكم ردده خصوم العربية من الأجانب وهو حكم منحاز، فضلاً عن أن الواقع لا يؤيده فيقول: **«ماذا بقي مما كتبه الأساتذة في السوربون باللاتينية؟»** [2].

وهو مثل كثيرين غيره يرون في الفرنسية لغة العصر وأن الفصحى غير قادرة على نقل العلوم والمعارف والتقنية الحديثة، وكأن الدراجة هي التي تستطيع ذلك!!

وتكون إجابته عجيبة حقاً عندما يسأل عن عدم اهتمامه بالعربية، بينما انصب اهتمامه على الفرنسية والكتابة بها، يرد بأنه ارتبط بالفرنسية ثم انتقل إلى العامية فلماذا يرتبط بالعربية ؟! ويكون موقفه العدائي سافراً حين يعترف بقوله: **«لأن العربية ليست لغتي أبداً، وفي هذه الحالة ينبغي أن تعلم البربرية ولكن لا يوجد أيضاً أدب بربري...»** [3].

إذن فعداوته للعربية ليست لأنها صعبة أو كلاسيكية كما يزعم ولكن لأن رأيه يستند إلى أنه لا يؤمن بالعروبة وبالهوية الثقافية للشعب الجزائري . وهنا يلتقي مع أمثاله من الكتاب الجزائريين والفرنسيين وغيرهم في النظرة إلى العربية لا من الجانب الفن أو الصعوبة والسهولة ولكن من جانب الفكر **«والأيديولوجية»**، وهو يرفضها لا لأنه يجهلها بل عن تعصب وجهوية وروح إقليمية صرفة.

---

[1] كاتب ياسين محادثة أجراها معه حفيظ قفايطي دار لافوميك للنشر الجزائر ص: 55.

[2] المصدر نفسه ص: 56 .

[3] المصدر نفسه ص: 56 .

أما دعواه الكتابة بالعامية وهي دعوى أمثاله – مشرقاً ومغرباً – فإنها ستار يخفي موقفه الحقيقي تجاه العروبة، لأن اللهجة الدارجة نفسها تكتب بحروف عربية، وفهم ما يكتبه هو أو غيره بها يتوقف على التعليم لا على مجرد الكتابة بلهجة من اللهجات عربية كانت أو غير عربية. والدعوة إلى العامية وإلى الكتابة بها تخدم الفرنسية في آخر المطاف لأنها تبقى لغة الفن والأدب والعلم. فإذا كانت العربية – وهي عريقة ومن أقدم اللغات في العالم –غير قادرة – مرحلياً – على أن تصبح لغة التقنية الحديثة فكيف يمكن للدراجة أو للهجات الأخرى أن تكون لغة علم وحضارة وهي تفتقر إلى أبسط عناصر اللغة الحية بدءاً بالحرف وانتهاء بالقواعد والمصطلحات؟!

وتفسير موقف كاتب وأشباهه إنما هو – كما سبق القول – النزعة الإقليمية المحلية والنعرة الضيقة والتعصب المقيت ضد العروبة ودعوته إلى أن تكون العامية لغة حية تنطلق من هذا السبب ! من غيره . فهو يعتبرها **«اللغة الحقيقية»**! [1] وهذا **«موقف شعوبي»** عرف في أقطار عربية كثيرة قديماً وحديثاً وإن اتخذ مظهر الواقع واعتمد على المألوف أو على مفهوم الفن أو غير ذلك. فالكتابة بالفصحى – في اعتقاده – تجعل **«الأديب بعيداً عن الشعب الذي لا يقرأه كثير من الناس»** [2].

وإذا طبقنا هذا على ما كتبه هو نفسه بالفرنسية فهل يقرأه كل الناس؟؟ ومن هؤلاء الذين يقرأونه؟! هل هم أغلبية الشعب أم هم قلة من الناس؟؟ ولكن مشكلة هذا الكاتب وأمثاله أنه كان يجهل العربية ولا يستطيع الحكم على ما كتب بها. فلو قرأ شيئاً– حتى ما ترجم – لطه حسين – مثل **«الأيام»** وغيره لما بالغ في أحكامه، ولكنه لم يجشم نفسه بأن يقرأ حتى المترجم من العربية إلى الفرنسية نظراً إلى **«عقدته»** الخاصة تجاه العربية والعروبة. وحين تستحكم **«العقد»** في شخص ما فإنه لا يحاول إطلاقاً أن يبحث

---

[1] المصدر نفسه ص: 57 .

[2] المصدر نفسه ص: 57 .

عن الحل لأن هذا يلغي اعتقاداً ساد في فكره وأصبح قناعة يصعب أن يتخلص منها. ونذكر في هذا المقام ماسبق أن عبر عنه **«جاك بيرك»** فيمن يهتم العربية ويمثل بطه حسين.

فكاتب ياسين ينظر إليها وكأنها لغة أجنبية فلا مانع عنده **«أن يتعلمها طلبتنا بالجامعة مثلما يتعلمون اللاتينية والإغريقية»** [1]. فهذا الرأي فيه تحامل واضح، فلو كان الفرنسي يحكم هذا الحكم على العربية أو الاتينية لقلنا إنه ينطلق من تاريخه اللغوي والثقافي، أما هذا **«لكاتب الجزائري»** فقد كان الأجدر به أن ينطلق من تراثه حتى ولو كان لا يعرفه.

ولما سئل عن فشل الدعوة إلى العامية في المشرق العربي فكيف لها أن تنجح هنا أجاب: **«هذا لا يعني أن التجربة إذا لم تنجح هناك فإنها بالضرورة ستفشل في الجزائر فإن كانوا هم ضعافاً فهذه مشكلتهم...»** [2]. فهو لا يناقش التجربة في المشرق لأنه لا يعرف عنها شيئاً ولا عن دعاتها لأنه لم يقرأ لأحد منهم ولا قرأ عنها شيئاً لأنه لا يعرف العربية، والأمر نفسه حين يحكم على العربية الفصحى ويقارنها باللاتينية وتلك وهي نتيجة الأحكام المسبقة لا نتيجة دراسة وتحليل علمي موضوعي، فكيف يحكم على لغة من لا يعرفها ولا يعرف قواعدها وبلاغتها وتاريخها؟!

وتبدوا أحكامه هذه الإنفعالية في رده عن سؤال حول بوجدرة ولماذا انتقل من الكتابة بالفرنسية إلى الكتابة بالفرنسية إلى الكتابة بالعربية. فقد تهرب بقوله مرة أخرى أنه يريد الآن تعلم البربرية، ويضيف بأن اللغة العربية تمثل في نظره ونظر غيره من الفرانكوفونيين خطراً لأنها تدفع **«المتقفين نحو البورجوازية»** [3] وهذا الحكم يشاركه فيه أمثاله من الفرانكوفونيين وهي فكرة غرسها الفرنسيون في أذهانهم. فالفرنسية تمثل التقدم والعربية تمثل

---

[1] المصدر نفسه ص: 57 .

[2] مجلة أضواء – الجزائر 1 /12 / 1983.

[3] محادثة كاتب ياسين مع قفايطي ص: 59.

التأخر والطبقية. فهل اللغات هي التي تصنف الناس إلى طبقات وفئات اجتماعية واقتصادية أو سياسية؟! وهل الفرنسية أو الألمانية أو الإيطالية أو الإسبانية أو الروسية أو الإنجليزية لغات «**تقدمية**»؟ وهل الذين يكتبون بها كلهم تقدميون؟ إنه تبرير لا يستند إلى علم أو تحليل منطقي، ولكنه يعتمد على عداء سافر للعربية وعلى تذبذب في الرأي وتعصب كبير ضد العربية والعروبة وعلى تناقض فظيع في الأحكام والمواقف.

والمغالطة نفسها نجدها في رأيه عن اللهجة العامية فهو يعتقد أنها «**هي التي تساعد الشعب على الثورة الثقافية**» [1]. فأية عامية؟؟! ففضلاً عن تعدد العاميات في الأقطار العربية مشرقاً ومغرباً، ففي الجزائر نفسها أكثر من لهجة وليس هناك في التاريخ القديم والحديث ما يؤكد أن «**العامية**» قامت بثورة ثقافية، إلا إذا اعتبرنا اللغة الصينية لهجة من اللهجات وليست لغة رسمية في بلدها خاصة وهي البلد الوحيد الذي بدأ هذه الثورة.

ومن الأحكام الإعتباطية التي يلقيها أيضاً دون سند أو مبرر أن يتنبأ بأنه سيأتي اليوم الذي تؤلف فيه الكتب باللهجة الدارجة، وهي الأفكار نفسها التي حاول المستشرقون وأشباههم من الجزائريين وعرب آخرون أن يطبقوها وفشلت فشلاً ذريعاً، وبقيت مجرد دعوة ضائعة تائهة في خضم بحر العربية وأدبها وثقافتها العريقة ولم يكتب لها أي قدر من النجاح لأنها ضد التاريخ .

ويبدوا تناقضه أكثر في المثل الذي ضربه من كاتب إيرلندي هو جيمس جويس الذي استطاع أن يدرس مائتي لهجة إيطالية في الفترة التي قضاها في إيطاليا، وهذه اللهجات ما زالت موجودة في المجتمع وفي البيئة الإيطالية. ويعترف كاتب ياسين بأنها لا تعتبر لغة أدب. أليس في هذا رد على ما قاله هو نفسه وعلى دعوته إلى اللهجة الدارجة ومطالبته بأن تكون لغة الشعب التي يكتب بها أدبه وثقافته؟!

---

[1] المصدر نفس ص: 59.

ولو أن هذا الأديب وأمثاله درسوا العربية واللهجات المحلية وعرفوا الشعر الملحون ثم دعوا إلى العامية لوجدنا لهم مبررات. فالأدباء في المشرق العربي الذين دعوا إلى العامية درسوا العربية وتعمقوا في علومها وآدابها، ثم رفضوها فترة وكتبوا بالعامية ثم اكتشفوا أنهم كتبوا لأنفسهم لا لقراء تعلقوا بالعربية الفصحى ولا يرضون بديلاً، فعادوا إلى الكتابة بها بعد ذلك معلنين عن فشل دعوتهم... قلت لوأن هذا الكاتب أتيح له ذلك لوجدنا له مبرراً ولا عتبرنا آراءه مجرد نزوة أو اجتهاد أوفهم خاص، ولكنه يرفض العربية جملة وتفصيلاً لمجرد أنها لغة أمة لا يعترف بوجودها.

وهذا موقف إقليمي صرف، وربما نال جوائز فرنسية بسبب هذا الموقف ضد العربية ودفاعاً عن الفرنسية، وآراءه في الواقع تنبئ عن أحكام عاطفية لا ترقى إلى مستوى الأفكار الصحيحة المقنعة التي يستشهد بها للتاريخ وللمستقبل وتكون لها مكانتها العلمية والنقدية والأدبية فهي مجرد حشرجات متشنجة. وهنا نلحظ الفرق بين أفكار هذا الكاتب وبين أفكار مالك حداد، فموقف مالك وآراؤه تردد في كل مكان وأصبحت من المقولات التي يستشهد بها حتى خصوم العربية من الأجانب، بينما أفكار ياسين انزوت في مكان ضائع ولفها النسيان ولن يبقى منها أثر للتاريخ لأن ما يبقى هو ما يعبر عن روح الشعب وعن هويته وآماله وأصالته ومستقبله .

وهنا لا يفوتني أن أذكر رأياً لكاتب وناقد فلسطيني معروف هو **«جبرا ابراهيم جبرا»** الذي يؤلف بالأنجليزية وبالعربية، رأيه في كتّاب المغرب العربي بالفرنسية يقول: **«إن هؤلاء الأدباء لن يغيروا مجرى الأدب الفرنسي أو الفكر الغربي بل عليهم أن يكونوا جزءاً من حضارة أمتهم وفكرها...»** [1].

ومجمل القول في الكتّاب الفرانكوفونيين في المغرب العربي أنهم ثلاث فئات:

---

[1] مجلة الحوار عدد19 جانفي1989.

الأولى: الكتّاب العروبيون الذين يقفون مع الهوية ويدافعون عن العروبة وعن العربية وعن الحضارة العربية الإسلامية، وعن وحدة الأمة ومصيرها الواحد وتراثها وأصالتها، ويؤمنون بأن المستقبل للعربية أدباً وفكراً وثقافة وأن دورهم انتهى وجاء دور الجيل الجديد الذي يعبر بلغته القومية وهي العربية.

الثانية الكتاب والأدباء الذين يخاصمون العربية ويعادونها ويرفضون حتى مجرد تعلمها، ويرفضون العروبة والإنتماء العربي وأحياناً الإنتماء الإسلامي ويقفون إلى جانب اللهجات المحلية سواء كانت عربية أو بربرية – ويدافعون بحماس عن الفرنسية ويتعاطفون مع فكرها وثقافتها وحضارتها، ويبدوا تعصبهم (**الذي لا نظير له وخاصة في الجزائر**) في استماتتهم في التنوية بأدبها وعلومها وإن تظاهروا بأن دفاعهم عنها هو دفاع عن التقدم وروح العصر.

الثالثة: الكتّاب الذين ثقفوا ثقافة فرنسية بحتة أو ثقافة ثنائية، فهم يتعاطون مع العربية أو «**يعطفون**» عليها لأنها لغتنا القومية أو لغة القرآن الكريم، ولكنهم لا يرون فيها لغة علم وتقدم وحضارة معاصرة وإنما هي في رأيهم لغة حضارة قديمة ولغة العقيدة والإسلام، فهم لا يحاربونها ولكن لا يعملون شيئاً من أجلها ولا يبذلون جهداً في الكتابة بها أو دراستها أو نشرها بين الناس، فنظرتهم عاطفية خالصة.

وكلا الفئتين الأخيرتين تنظر إلى الفرنسية نظرة انبهار وترى فيها لغة الحياة والمستقبل، عكس زملائهم في المشرق العربي الذين ينظرون إليها باعتبارها لغة أجنبية مثل بقية اللغات الأخرى في العالم، يمكن أن تساعد بلداننا في المغرب العربي على الإستفادة منها ومن علومها وثقافتها . ولو نظروا إليها من هذه الزاوية ما تعصبوا لها ولما خاصموا العربية أو وقفوا منها موقفاً سلبياً أو عاطفياً. ولكنهم – لسوء الحظ – لم يعلموا على إثراء العربية مثل أضرابهم في المشرق العربي الذين أفادوا من الفرنسية والإنجليزية وغيرهما وأفادوا العربية ترجمة وتأليفاً ونقلاً وتلخيصاً وإبداعاً ودراسة وبحثاً وتأثراً وتأثيراً.

ومأساة طائفة من الكتّاب الفرانكوفونيين المنغلقين على أنفسهم وعلى أفكارهم وعلى إقليميتهم أنهم لم يتطوروا في موقفهم من اللغة العربية، فبدلاً من أن يعلموا على تطويرها راحوا يناقشون واقعها وأصلها وماضيها، صعوبتها، راحوا يقارنونها بالفرنسية عوض أن يناقشوا مستقبلها وكيف نجعل منها لغة العلم والحضارة المعاصرة بعد آن كانت لغتها في الماضي. وفي تصوري فإن العائق الذي يقف بينهم وبين أن يطوروا من نظرتهم هذه، هو ضيق الفكر والإقليمية المتعصبة والنظرة إلى العربية نظرة تخضع لأحكام مسبقة خاضعة لظروف داخلية أو خارجية، حين يتحررون من كل هذا ويسهمون في النهضة الثقافية والأدبية بالمغرب العربي ويرفضون **«الإزدواجية الحتمية»** كما يطلق عليها البعض منهم، ويعملون على نشر اللغات الأجنبية بلا تفرقة، حينئذ ستكون هذه اللغات رافداً حقيقياً لنهضتنا وثقافتنا وحضارتنا وهذا لا يتحقق إلا بالإيمان بانتمائنا للحضارة العربية الإسلامية التي بدونها نفقد روحنا ووجودنا الحقيقي.

وإذا كان هؤلاء الكتّاب وغيرهم يتحدثون عن وحدة المغرب العربي فإنها لن تتم بدون لغة عربية موحدة وثقافة مشتركة ورؤية مشتركة وهذا هو دور الأدباء والمثقفين وتلك مسؤوليتهم أمام الأجيال وأمام التاريخ.

(4)

الحديث عن الثقافة والمثقفين في الأقطار المغرب العربي مرتبط بالحديث عن الأدب، فإذا كان الميدان مختلفاً نسبياً بين الإثنين فإن الأداة واحدة فيهما معاً، ذلك أن القضايا التي أثارها الأدباء – كما رأينا – هي نفسها تقريباً التي أثارها المثقفون وما زالوا. فإذا كان الأدب جزءاً من الثقافة فإن هذه الأخيرة هي **«البوتقة العامة»** التي تصهر فيها الأفكار وتظهر فيها القناعات والمذاهب والإتجاهات والمدارس والنشاطات الإبداعية، الفردية والجماعية.

وما قلناه عن الأدب الفرانكوفوني في المغرب العربي نقوله عن الثقافة الفرانكوفونية. فإن وضعها يشبه وضع الأدب تماماً، لأن القضية – في الأساس – هي اللغة التي تعبر عن هذه الثقافة، فقد رأينا حجج الكتاب والأدباء ونظرتهم إلى اللغة. فالذي ينظر إليها من موقف قومي يقف إلى جانب العربية باعتبارها تمثل **«الهوية اللسانية»**، والذي ينظر إليها بغير ذلك أي باعتبارها أداة أو آلة أو نافذة على العلم والعالم وما إلى ذلك من مفاهيم فإنه وإن كان يسوي بين الفرنسية وبين اللغة الوطنية في الغالب – بصرف النظر عن نخبة معينة تعادي العربية – فإن نظرته تستند على تأويلات وتفسيرات غير علمية ولا موضوعية ولا تعتمد على برهان مقنع. وفي الأغلب فإن الإقليمية الضيقة تحول بين هؤلاء وبين رؤية الأشياء على حقيقتها كاللغة مثلاً فيكون حكمهم عاماً منحازاً أو سلبياً. فالحكم يأتي بعد تحليل معين ويتوج بنتائج تبنى على مقدمات، وهنا يأتي الفرق بين الذاتي والموضوعي. فحين تتغلب الذات على الموضوع يكون حكماً قاطعاً سلفاً ولا مجال للحوار فيه.

وهذا ما يوضح تحامل المثقفين الفرانكوفونيين على اللغة العربية وعلى عجزها الدائم في نظرهم، وكأن فيها قصوراً ذاتياً لا تبرأ منه حتى ولو ظهرت بوادر هنا أو هناك تدفع هذه **«التهمة»** عنها وعن قابليتها للإستيعاب والمستحدثات واستعدادها للتطور وتصوير الواقع الذي يقنع الآخرين ويضيف تجربة وفهماً وخبرة للناس.

وإذا ضربت لهم مثلاً عن وضع العربية في مثل هذه البلدان فإنهم يجدون ما يحاجون به من أنها لم تصل إلى مستوى الفرنسية أو الإنجليزية، ولكنك إذا قلت لهم:

كيف تصل إلى هذا المستوى وأنتم لا تساعدون عليه؟ أو أن الذين كان يمكن أن يساعدوا عليه لا يفعلون شيئاً بل يحاربونها بمختلف السبل؟ فلا يحيرون جواباً أو يتهربون من الإحراج، فهم أنفسهم عائق أمام تطورها ونهضتها وانتشارها، سواء حاربوها أم وقفوا موقفاً سلبياً منها نظراً إلى فكرهم الإقليمي الضيق ونظراً لاندماجهم في الثقافة الفرانكوفونية. «**فالهروب**» إذن هو أن يسموا العربية بالعجز ويحتمون بالفرنسية والتنويه بها والكتابة بها، وهم يعرفون أنهم لا يخدمون الثقافة العربية ولكن يخدمون الثقافة الفرانكوفونية الغربية عنا تماماً، كما فعل الأدباء قبلهم وبعدهم فهم جميعاً في نهاية الأمر لا يعلمون على إغناء الثقافة العربية لأنهم يكتبون لقارئ – غالباً – ما يكون خارج بيئة المغرب العربي أو أقلية صغيرة لا تمثل شيئاً بالقياس إلى الجماهير العريضة.

وأحياناً يهرب المثقفون الفرانكوفونيون إلى الجانب الجغرافي والعاطفي حين يناقشون الوضع الثقافي في المنطقة، فيهتمون بما يسمونه «**الخصوصية**» التي تميز أقطار المغرب العربي عن المشرق العربي – ثقافياً وجغرافياً – في نظرتهم. صحيح أن هناك ملامح جغرافية تعطى لهذه الأقطار طابعاً خاصاً يقرب بعضها من البعض – أرضاً وإنسانياً وتاريخياً وظروفاً – ولكن هل هذا الطابع يميزها عن البلدان العربية الأخرى؟؟ لا أظن ذلك لأن هناك تاريخاً مشتركاً وعقيدة مشتركة ونضالاً مشتركاً ضد المستعمرين الأوربيين أياً كان جنسهم أو لغتهم. ثم إن الخصوصية التي يتحدثون عنها في الثقافة ويقصدون منها وجود لهجات «**بربرية**» أو «**محلية**» معينة فهذه أيضاً ليست خاصة بالمغرب العربي، فهي وأمثاله موجودة بالمشرق العربي بالقدر نفسه والظروف نفسها، ولسنا في حاجة إلى تعداد هذه اللهجات العربية أو غير العربية فهي معروفة وبعضها مكتوب ومعترف به

رسمياً. ومع هذا لم يكن ذلك عامل فصل أو انفصال أو سلبياً للإنكفاء على الذات والإبتعاد من الأمة وعن همومها ومشاكلها وأحلامها في الوحدة والتوحد.

نلحظ فكرة «**الخصوصية**» هذه عند الخطيبي الذي يرى فيها طابعاً يميز هذه المنطقة فيؤكد على «**أهمية الذات المغاربية كإطار مرجعي يوجه البحث ويعطي دلالة حقيقية ومفيدة للتاريخانية**»[1]. وهو يعني بهذا وجود وضع تاريخي ثقافي سلالي يعطي لهذه الجهة تلك الخصوصية التي يصرح بها في قوله: «**ولعل في هذا التحديد لمحتوى التاريخانية إشارة إلى أهمية «المعطية البربرية» في تحديد تاريخ المغرب العربي...**»[2].

والمفهوم من هذا أنه لابد من مراعاة هذا الواقع الثقافي وليس هناك من يتجاهله أبداً فهو من التاريخ ومن الحياة ولا أحد يرفضه لا من العروبيين ولا من غيرهم.

والأمر لا يتعلق بالجغرافيا ولا بالثقافة بوصفها من المعطيات المسلم بها ولكنه يتصل بمحتوى ذلك، فالجغرافيا لا تقف عائقاً أمام الوحدة وهناك بلدان اتحدت بل قارة كاملة مثل «**أوربا**» تعمل هذه الوحدة الآن، وفي أفريقيا نفسها توحدت شعوب في دولة واحدة بعد إستقلالها مباشرة «**ومنظمة الوحدة الإفريقية**» هي تعبير عن هذا الطموح الوحدوي. ثم لا أحد يرفض الثقافة البربرية لا من العروبيين ولا من غيرهم، ولكن القضية هنا أن «**البربرية**» لهجة أو سياسية تعادي العروبة وتعادي حتى وحدة المغرب العربي إذا اعتبر جزءاً من الأمة العربية، فهذه هي القضية لا الجغرافيا ولا الثقافة ولا التراث القديم يناقض فكرة الوحدة. فالتاريخ – كما يرى الخطيبي– هو مشكلة الإنسان وأساس «**هويته المتعددة**»[3] فهو يقول: «**ولذلك بقيت هوية المثقف هوية غامضة بحكم صلتها**

---

[1] الأنتلجنسيا العربية – ص:63.

[2] المصدر نفسه ص:63 .

[3] المصدر نفسه ص:61.

بالتراث والتاريخ فهي ليست مسألة منهج بقدر ما هي متصلة بذات الوجود والمجتمع...» [1].

ولكن هذه الهوية لا ترفض الآخر، فليس هناك عروبي واع بحضارته غيره أو يتجاهله أو يتجاهل وضعه التاريخي وثقافته الخاصة، ولكنه ينظر إلى هذه الثقافة نظرة تكاملية لا نظرة الهيمنة أو التحكم، فهذا لا يتماشى مع مفهوم العروبة التحرري الوحدوي ثم من يزعم أن هذه الهوية بقيت غامضة؟ لقد كانت واضحة تماماً في الماضي ولم تتشتت أو يكتنفها الغموض إلا بعد أن احتل الإستعمار الفرنسي هذه الأقطار فزرع النعرات الجهوية والقبلية وبث الفرقة والتمزق وعمل على ترسيخ **«الإلثية»** وأعطاها مفهوماً عرقياً إقليمياً بعد أن كانت ثقافة مندمجة في مجتمع واحد له تاريخه المشترك، فأراد أن يجعل منها **«قومية»** خاصة متميزة وشحنها بأفكار لم تظهر قبله. إذن فهذه الهوية **(الغامضة)** لدى المثقف الفرانكوفوني هي أساسًا من خارج البيئة وليست من داخله بصرف النظر عن الواقع الذي نسلم به بطبيعة الحال.

ولو وافقنا على مفهوم هذا المثقف لأصبح من حق أيًا كان أن يفهم التاريخ كما يهوى ويفسره تفسيرًا ذاتيًا وكطلك الجغرافيا ليتحولا إلى عوامل تفرقة وتجزئة أولاً لسكان المغرب العربي في أقطاره المتميزة ذات **«الخصوصية»** التي يتحدث عنها الكاتب، ثم لسكان الأرض العربية كلها، وهذا منطق لايصدر إلا عن فكرة إقليمية، وتلك هي منحة هؤلاء المثقفين الإقليمين ومأساتهم التي تحدث عنها مالك حداد، فهم لم يحددوا موقفهم من الهوية والإنتماء فبقيت غامضة في نظرهم وهذا ناتج عن بلبلة فكرية أحدثتها الثقافة الفرنسية في نفوسهم فلم يحددوا اتجاههم ورؤيتهم، فهم بين منتم إلى الإقليم أو المنطقة ولم يرتقوا إلى المستوى الحضاري الذي تعيش فيه شعوبهم التي حددت هويتها وانتهت إلى العروبة تلقائيا وإلى الإسلام بحكم الحضارة التي أمنت بها منذ فجر التاريخ.

---

[1] المصدر نفسه ص: 66 .

فهذا المثقف المغربي الذي نحترمه ونحترم أمثاله في المغرب العربي ويصدر رؤيته تلك من منطلقات غير منطقية كما رأينا وإن كانت مبررة من حيث الشكل. مثلاً نجد أخر من تونس هو منصف وناس يجعل من الإنتماء المغربي فكرة تشبه الدعوة إلى أفكار متشابهة في المنطقة أو في الوطن العربي فيقول: **«والدعوة المغربية يمكن أن تقارن بالدعوة المتوسطية أو الفرعونية لعدم تنكرها لمراجعها الحضارية ولاعتمادها على العامل الديني كمنطلق لتعبئة الجماهير في حركة التحرر السياسي»** [1].

وهذا غير صحيح، لأن الدعوة الفرعونية بنيت على أساس إنتماء حضاري وفكري وثقافي وعلى أساس أصل مخالف للأجناس الأخرى. فهي دعوة عنصرية إقليمية صرفة، بينما الدعوة المتوسطية التي دعا إليها غيرنا من العرب في مصر مثل طه حسين وفي الشام وكذلك سكان البحر المتوسط من الأوروبيين فهي لا تستند على حضارة موحدة وأمة واحدة ولا على إنتماء أو هوية ثقافية، لأن الثقافات متعددة بقدر ما تعتمد على الجغرافيا والمصالح الإقتصادية المشتركة، ثم إن الدعوة المغربية عند هؤلاء تفصلنا عن الأمة التي ننتمي إليها فضلاً عن الإسلام الذي يراه هذا المثقف عاملاً هامًا، وهي حقيقة لا تشكل عنصراً خاصاً بنا في منطقة المغرب العربي، فهناك شعوب وأمم تؤمن به ويعتبر جزءًا من هويتها مثلنا. إذن فلماذا يفرقنا عن هذه الأجناس والشعوب والأمم التي توجد في منطقتنا إذا لم تكن حضارة وثقافة ولغة وانتماء قومي خاص بنا لا يشاركنا فيه أحد أو تشاركنا فيه شعوب لها نفس التاريخ والثقافة واللغة وإن كان الإسلام أحد مقوماتنا الثقافية والروحية والحضارية.

وليس صحيحاً أيضاً أن تكون المثقفين المغاربة أثناء فترة الإحتلال كان: **«تكويناً موحداً في شكله ومضمونه مما جعلهم يتشابهون في أنماط التفكير ومراجع التحليل»** [2].

---

[1] المصدر نفسه ص:81.

[2] المصدر نفسه ص: 71.

فهذا حكم غير سليم . إن هؤلاء «المثقفين المغاربة» يختلفون فكراً ولغة وثقافة ومن ثمة موقفاً من القضايا التي تتصل بحياة المجتمع، فالمثقف الأصولي السلفي الموجود اليوم وجد في ذلك العهد الذي يتحدث عنه الكاتب مثل الليبرالي **«المتفتح»** فقد وجد في أقطار المغرب بصورة أو بأخرى بل وخد من ينادي **«بالإندماج»** و**«بالتجنيس»** كما وجد اليساري المعتدل أو المتطرف. والشيء نفسه بالنسبة لانتماء، فهناك العروبي الإسلامي والفرانكوفوني الغربي الذي يجد في الحضارة الغربية ملاذه. فالأنتلجنسياً المغاربية– كما يسميها هذا الكاتب – شرائح وفئات نظراً لتعدد مصادرها الثقافية واللغوية والمذاهب الفكرية التي تؤمن بها.

ومثل هؤلاء نجد السياسيين، فهم في الوضع نفسه من حيث الثقافة ومن حيث المستوى ومن حيث النظرة إلى الإنتماء كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، فالهروب من الحقيقة واللجوء إلى التحليل المبتسر لا يحل المشكلة . فلم يظهر – إلا القليل – من المثقفين الفرانكوفونيين من ينتقد التذبذب الذي يعيشون فيه تجاه العروبة ولا يحللون أسباب ذلك، فهم يبررون لهذه الفكرة أو تلك ولكن لا يواجهون الحقيقة بصراحة أو يعترفون بخطئهم في التحليل والتبرير لوضع يتطلب قول الحقيقة ويتطلب النزاهة العلمية.

فالقضية في مجملها أيديولوجية ثقافية لغوية قبل أن تكون جغرافية أو جهوية أو حتى قضية معتمد ديني. فلماذا نختفي وراء تعابير مبهمة؟؟ وإلا فكيف نجد مبرراً للهجوم على الأصالة حين يثار حولها الحوار ويتهم الذين يدافعون عنها بأنهم مرتبطون بالماضي في حين أن كافة الشعوب في هذه المعمورة تدافع عن ذاتها ووجودها وأصالتها كيفما كانت حتى أن مثقفاً من المغرب الشقيق هو **«عبد الله العروي»** يعتبرها **«موتاً وفناء»** وكتابه **«الأيديولوجية العربية»** لم يصبح له قيمة إلا بعد أن ترجم إلى العربية. أما قبل ذلك فقد كان يعيش في الظل لأنه كتب بلغة أجنبية. فالأصالة تبدأ من الكتابة بلغتنا لا بلغة غيرنا ثم يأتي

الحديث عما نأخذ أو نترك من التراث، فلنحدد إذن نقطة البداية ثم يأتي الحديث عن العناصر الأخرى وعن التفاصيل وعن المستقبل.

على أن المعاصرة ليست في الكتابة بلغة أجنبية كما يحاول المدافعون عنها إقناعنا ولكنها تأتي من أن نعيش روح العصر وعلوم العصر بإرادتنا لا بإرادة غيرنا. وهذه مشكلة الفرانكوفونيين في المغرب العربي فهم يتصورون أن الفرنسية هي التي تضعنا في بؤرة هذا العصر وتعطينا مكانتنا في هذا الكون، وتلك أوهام لا تستند إلى واقع أو منطق أو حجة، فهي مجرد ملاذ مؤقت وتجاهل لواقع مؤلم وقفز إلى حلم تجريدي لا يفيد الأمة ولا يخرجها من التخلف والضعف والتشتت بل يضيف إليها عائقاً آخر. فبدلاً من أن نبحث عن مخرج حقيقي ندور في حلقة الانتماء الضيق والصراع بين لغة وطنية وأخرى أجنبية وأيهما تساعدنا على النهوض والترقي!! إن هذا النوع من المثقفين أسهموا في تأكيد التخلف الفكري والثقافي بالتشكيك في هويتنا وأصالتنا وإنتمائنا وأحدثوا شرخاً في شخصية الفرد وكذا في المجتمع بالمغرب العربي، وليتهم قلدوا الفرانكوفونيين في المشرق العربي فلربما حمدنا لهم دورهم كما حمدناه لأولئك ولكانوا عامل بناء لا عائقاً في طريق الوحدة.

ولو جاريناهم في هذا الإنتماء الذي يتحدون عنه يرفعونه شعاراً، ساسة وأدباء ومثقفين، منذ سنوات عديدة فبماذا حققوا له وبه؟؟ فأين هذه **«الوحدة المغربية»** التي يتحدثون عنها ويكرسون لها الإجتماعات والندوات والرحلات والإذاعات؟؟ إنها مجرد ترضية لنداء الجماهير ولضميرها الصادق في الإيمان بها لا أكثر ولا أقل. لقد مرت سنوات على هذه الدعوة فبماذا تم منها؟ أترك الجواب لهؤلاء المثقفين الذين يدعون إلى إنتماء منفصل عن الإنتماء الحقيقي أو بديل له ولن يتحقق منها شيء طالما أن الفرانكوفونيين هم الذين يرفعون شعارها، ساسة ومثقفين لأن في أعماق كل واحد منهم تعيش فكرة الإقليمية المستحكمة وليس هذا تنبوأ أو تكهناً، ولكن الواقع يؤيد هذا الحكم. فما رأينا فكرة تحققت من خصومها ولا مبدأ أصبح راسخاً ممن لا يؤمن به.

لذلك فإن حلم الوحدة هذا بعيد جداً طالما أن الذين يمسكون بمقاليد الأمر لا يعتنقونه عن مبدأ ومذهب وإنتماء، وطالما أن هناك مثقفين يساعدونهم، لهم التوجه المصلحي نفسه، فنحن مازلنا في المغرب العربي نسأل من نحن؟؟ وحين نعثر على الجواب فإن طريق الوحدة تتحدد وتتضح معالمها ووقتها تزول الغيوم وينقشع الضباب ويتبدد الغموض الذي ذكره الكاتب المغربي السالف ذكره.

واضطرب رؤية الفرانكوفونيين في رؤيتهم للتاريخ وللهوية وبحثاً عن مخرج لهذا المأزق دفع بعضهم إلى أن يعتنق فكرة «**الإزدواجية**» أو «**الثنائية**» اللغوية ويراها حلاً لمشاكلنا الثقافية والحضارية واللغوية . وقد وجد هذا الإتجاه منذ القرن الماضي، ولعل تونس كانت أسبق في التمهيد له وترسيخه في البيئة الثقافية منذ إنشاء المدرسة «**الصادقية**» في أواخر القرن الماضي.

وكان الهدف من ذلك هو خلق جيل من المثقفين يمكنهم نقل العلوم والمعارف الغربية إلى تونس ليساعدها على النهوض والتحرر، وهو الدور نفسه الذي قام به محمد علي ثم لطفي السيد في مصر بعد ذلك.

غير أن هذا المنطق السليم أصبح قناعة في حد ذاته وهدفاً مقصوداً لا وسيلة للرقي والتقدم، وباتت «**الثنائية**» غاية لا أداة وسبيلاً إلى «**التغريب**» على حد قول أنور الجندي: «**ولقد كان النفوذ الفرنسي قوي الوطأة على هذه الطائفة محاولاً أن يدفعها إلى طريق التغريب مغرياً لها بأن المستقبل للغرب وثقافته وأن الإتجاه الإسلامي في الثقافة إلى زوال**»[1].

إذن فهذه «**الثنائية**» يراها بعضهم حلاً لمشاكل اللغة ويعتنقها دعاتها في تونس بوجه خاص، وهي توجد في الأقطار الأخرى بشكل أو بآخر. وهنا نجد أنفسنا في الأزق نفسه ولا نكاد نخرج منه، فتثار قضية «**الهوية**» من جديد ولكن بصورة أخرى، فإذا كان أصحاب الثقافة الفرنسية البحتة يبررون جهلهم

---

[1] الفكرة والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا – أنور الجندي الدار القومية للطباعة والنشر مصر 1965 ص: 39 .

للعربية بأنهم غير مسؤولين عن ذلك، فأن تذبذبهم ناتج عن هذا الوضع، فدعاة الثنائية يسقطون في ورطة آخرى ومن نوع مختلف فهي لا تحل القضية بل تزيد في تعقيدها فهل الهوية هنا لابد لها من عامل خارجي عنها وعن تاريخها ومقوماتها؟؟.

ولعل هذا الوضع في بعض البلدان التي تعتنق هذه الثنائية، يؤكد أنها تضيف تمزقاً للمجتمع ولشخصية الفرد كما سبق القول. ثم إن هذا الفهم ينصب على اللغة بوصفها شيئاً آخر، بينما هي تعبير عن الوجود العميق لذاتية الشعب وعن إبداعه الثقافي، وهو الأمر نفسه الذي نلحظه عند الذين اعتمدوا الفرنسية لغة رسمية وأداة للثقافة الوطنية. والثنائية – في الواقع – لا تزيد عن أن تكون: **«ثقافة أقليمية صغيرة لم تتح لها فرصة النمو والتوسع نتيجة لسيطرة اللغة الفرنسية على مقاليد أمور التثقيف والتدريس وقنوات الإنتاج الفكري والثقافي، فرغم تفتحها على اللغتين والثقافتين – العربية والفرنسية – إلا أنها بقيت معزولة وهامشية...»** [1].

فحتى هذه الثقافة **«الهجين»** حالت الفرنسية بينها وبين الإزدهار، لأن هذه اللغة المتفوقة أصبحت هي السيدة في هذه الأقطار وأثرت على أنصار **«الإزدواجية»** فقد خضعوا لسيطرة الفرانكوفونية – لغة وفكراً وثقافة وتوجهاً – ماعدا فئة قليلة منهم تحررت من سيطرتها ونفوذها القوي.

والمشكلة التي نعان منها في هذه المنطقة هي أن المسؤولين السامين أو الباحثين الجامعيين يلتقون في التنويه بالثنائية ظاهرياً ولكنهم يفعلون عكسها واقعياً. فالباحثون – مثلاً حين يناقشون أطروحاتهم في الجماعات الفرنسية فإنهم لا يترجمونها إلى العربية وبالتالي لا نستفيد من هذه الأطروحات عكس إخوتنا في المشرق العربي الذين يبادرون إلى ترجمة رسائلهم وأبحاثهم إلى لغتنا القومية.

---

[1] المستقبل العربي – عدد 141 - 1990 (هذا نص من بحث طويل في المجلة بعنوان المشروعية والتوترات الثقافية حول الدولة والثقافة في الجزائر للباحث الجاد عمار بلحسن والبحث في مجمله هام وجدير بالقراءة المتأنية).

ولعل الجزائر تعطينا في المثل المناداة بالثنائية لا خطة أو منهج أو تحقيق لهذه الفكرة فمنذ الإستقلال أنشئ قسم للترجمة وأصبح معهداً في بداية السبعينات، ومع هذا لا يوجد لدينا مترجمون بأتم معنى الكلمة في العلوم الإنسانية فضلاً عن العلوم على الأخرى.

فالمترجمون يعدون على الأصابع وربما لم يتخرجوا من المعهد المذكور، وهذا دليل آخر على سيطرة الفكر الفرانكوفوني الأحادي حتى على الحياة الأكاديمية.

ويؤكد حكمنا على الإزدواجية رأي باحث جزائري هو **«جمال العبيدي»** في قوله: **«والحقيقة أن التجربة قد أوضحت – سواء في الجزائر أم خارجها (المغرب وتونس) أن الإزدواجية في فروع التعليم تعمل على تكريس سيطرة الفرنسية أو على وجه الدقة فإن الإزدواجية قد حافظت على الفرنسية وعززت موقعها كلغة عمل ثقافي، يخفي موضوع الإزدواجية في حد ذاته موقفاً من أجل الحفاظ على الوضع القائم »** [1].

ويسوق الباحث رأياً في هذا المجال لكتابة فرنسية ناقشت الموضوع بلا تحيز فرأت أن: **«هذه الثنائية في حالة تونس (ويمكن أن ينسحب الحكم على الجزائر) قد ساعدت على خلق التمايز بين المعربين والمفرنسين، وأخيراً – وعن طريق هذا التمايز ذاته أيضاً إلى خلق تمايز إجتماعي...»** [2].

على أن هؤلاء الذين يدافعون عن الثنائية لا مصلحة مؤقتة أو ظرف مفروض علينا، بل هم يتمنون لها البقاء وطول العمر وهو ما ذهب إليه **«غاني مراد»** الذي يحيي الإزدواجية ويرجو: **«لها حياة مديدة فإذا كانت العربية ضرورية بوصفها رباطاً بالماضي وبالأقطار العربية الشقيقة وبالشعب وقيمة**

---

[1] الشعب 5 / 6 / 1989.

[2] المصدر نفسه.

الثقافة والدينية والأخلاقية فإن الفرنسية هي الرباط مع العالم، مع الشعوب الأخرى، مع المستقبل ومع الفكر المعاصر » [1]

فنظرة الفرانكوفونية في المغرب العربي إلى العربية تربطها دائماً بالماضي، بينما الفرنسية عندهم تمثل العصر الحاضر والمستقبل. ولا يقول أحد بهذا الرأي عند الحديث عن اللغة القومية في أية بقعة من العالم، فهي لا تمثل الماضي بالنسبة لأصحابها ولكنها تمثل الوجود كله. فهل العالم لا يعترف بنا إلا من خلال الفرنسية؟؟ وإذا كنا لاشيء إلا بهذا الشرط، فأية تبعية فكرية وثقافية ولغوية أشد من هذه، ولماذا لا يعترف بنا وبلغتنا وبثقافتنا كما اعترف باليابان والصين وكوريا والفيتنام وغيرها؟! ولماذا الفرنسية بالذات لا سواها؟!

وهذه هي محنة الفرانكوفونيين وتلك رؤيتهم الغائمة وذلك موقفهم الذي لا يستند إلى منطلق أو فهم أو رأي علمي مقنع، ولكن ينطلق من مركب نقص عانوا ولا يزالون يعانون منه، وهم هنا يتناقضون مع رأي الجماهير، فمرجع هؤلاء مختلف عن المرجع الذي يعودون هم إليه.

إن ما ينقصنا في المغرب العربي هو الحسم في قضية الهوية، ونحن لا نمل من ترديد هذا الموقف. فالذين حددوا موقفهم هم العربيون الذين يؤمنون بالإنتماء العربي والإسلامي الراسخ في البيئة، وهم الذين لا يحسون بالإنفصام أو الإزدواج في الشخصية أو البلبلة في الفكر والثقافة لأنهم درسوا التاريخ واستوعبوه وجعلوه حكماً سواء منهم من ثقف ثقافة عربية أم أجنبية، مشرقاً أو مغرباً، وهم الذين حسموا في قضية الهوية مثل المفكر الباحث التونسي **«هشام جعيط»** الذي لمس أصل القضية عندما يقول: **«...فالنفوذ لثقافي الحضاري الفرنسي ليس فقط مضراً بتعريب المغرب تعريباً شاملاً كاملاً عميقاً، بل هو أيضاً مناف لبروز تضامن مغربي، وهكذا بقيت بلدان المغرب العربي الثلاثة مرتبطة بصفة وثيقة ومجحفة بفرنسا منقطعة الصلة فيما بينها، بينما بقيت هذه الصلات بين بلدان المشرق على الصعيدين الإنساني والثقافي. لذا فإنني لست فقط أطالب**

---

[1] الأدب الجزائري ذوي التعبير الفرنسي – ص: 179.

بالتعريب بل وأيضاً بتأصيل وتمتين العلاقة مع المشرق، وكذلك فيما بين بلدان المغرب العربي، وعلى الخروج من الوصاية الحضارية الفرنسية!! وهي وصاية معمقة في آخر التحليل ولم يخرج منها شيء يذكر على صعيد الإبداعية كما على صعيد تأكيد الذات...» [1]

وفي نهاية القول علينا أن نراجع أحكامنا عن الهوية ونتجرد من أحكام **«جاهزة»** و**«نتحرر من ذبذبة فرضتها علينا الفرانكوفونية»**، حتى لا ننقلها إلى الأجيال الجديدة وحتى نبني مغرباً عربياً موحداً يلتقي مع مشرق عربي ويعملان ضمن دائرة واحدة لها كيانها الواحد ومصيرها المشترك. ويسهمان معاً في حضارة إنسانية شاملة.

---

[1] الشعب جويلية 1990 (والنص منقول من مجلة اليوم السابع التي تصدر في فرنسا بتاريخ 8 / 12 /1986 في معرض مقال للصحفي سعدي بزيان).

الباب الثاني

الفرانكوفونية في الجزائر وموقفها من الاتجاه القومي

من حق القارئ الكريم أن يسأل: لماذا خصصت قسماً مستقلاً عن الجزائر دون غيرها من أقطار المغرب العربي بينما الدراسة تعني بالتوجه العربي وموقف الفرانكوفونية منه في المغرب العربي؟ وإذا كان الجواب سيتضح في آخر هذا القسم فإنني ألخص الدوافع والمبررات في جمل قليلة:

أولاً: الجزائر رفعت شعار التعريب منذ الإستقلال حتى اليوم بقطع النظر عما تحقق منه في الواقع أم لم يتحقق، بينما في الأقطار الأخرى كان هذا الشعار مرتبطاً بالإزدواجية حتى الرسمية منها.

ثانياً: الجزائر قامت بثورة تحريرية كبرى يندر أن نجد لها مثيلاً في المشرق المغرب على السواء، بإستثناء ثورات في فلسطين واليمن والصحراء الغربية، مع الفارق بين هذه الثورات وبين الثورة الجزائرية في الأساليب والظروف والمحتوى أيضاً وهذا الفارق نلمسه في وجوه كثيرة وخاصة من حيث التأثير. فهذه الثورة كان لها تأثيرها الكبير في بيئات كثيرة قريبة أو بعيدة، وتجربتها رائدة نظراً لظروف الإستعمار الفرنسي والإستيطان الذي مارسه في الجزائر وطول المدة التي قضاها في أرضها والقوانين التي سنها ليجعل منها قطعة من وطنه. إذن فتحطيم هذه **«الخرافات»** كلها جعل من ثورتنا نموذجاً متميزاً من بين الثورات العالمية.

ثالثاً: موقع الجزائر الجغرافي ومكانتها الإستراتيجية وصراعها مع الغرب طوال قرون عديدة، بحيث كانت محل أطماع دولة تتجه إليها بسبب سيطرتها على البحر المتوسط فترة طويلة، وهذا التأثير القديم إمتد إلى العصر الحديث وتجاوز إلى أقطار أخرى لا ترتبط بها لغة أو تاريخاً أو عقيدة أحياناً.

رابعاً: الجزائر تكاد تكون الوحيدة من بين البلدان التي احتلها الفرنسيون التي لم تصبح عضواً رسمياً في التكتل الفرانكوفوني الذي تتزعمه فرنسا صاحبة المصلحة الأولى في إنشاء هذه المجموعة والإشراف عليها وعلى

نشر الفرنسية. ورغم أن أقطاراً من المغرب العربي إنضمت إلى هذه المجموعة إلا أن الجزائر ظلت خارجها حتى هذه الآونة.

خامساً: يمكن أن نعتبر أن الفرانكوفونية قد بلغت أوجها هنا في هذا القطر الخارج عن التكتل وخاصة بعد أحداث اكتوبر 1988 وظهور التعددية والديموقراطية بعد أن كانت الجزائر تحكم بنظام الحزب الواحد ولو في الظاهر على الأقل – وأتيح للأحزاب أن تظهر بتكاثر كبير حتى بلغ عددها **«خمسون»** حزباً وربما ستبلغ المائة في المستقبل القريب أو البعيد. ومن هذه الأحزاب من يتشبث بالفرانكوفونية ويدافع عنها – ثقافة ولغة وفكراً وإعلاماً – دفاعاً مستميتاً!!

سادساً: هناك قضايا تثار الآن، وهي قديمة وليست ظرفية أو طارئة ولكن بديتها تعود إلى الإستقلال بل إلى ما قبل الثورة، والأجيال الجديدة لا تعرف عنها شيئاً لأنها لم تناقش بوضوح قبل التعددية. فقد كانت من **«المحرمات»** تقريباً، وإذا أثيرت فإن الغوص فيها يتطلب شجاعة نادرة مفقودة أو مغيبة، وقد يتهم صاحبها أحيناً بأمور أقلها **«التبعية»** للغير، مثل الحديث عن القومية العربية والوحدة العربية، فقد تجعل من يتحدث عنها متعصباً تابعاً لهذه الدولة أو ذاك البلد والسبب معروف كما سنبينه بالتفصيل.

سابعاً: ظهور ما يسمى **«بحزب فرنسا»** قديماً وحديثاً، ولعل هذا المصطلح لم يظهر في تونس ولا في المغرب وإن ظهر العملاء للدولة المستعمرة لغرض من الأغراض، أما الجزائر فقد انتشرت فيها هذه العمالة من الإحتلال وربما حتى اليوم، الأمر الذي يجعلها بقدر ما تتميز بتاريخ عظيم في كفاحها الوطني سياسة وثورة وجهاداً بقدر ما وجد فيها عملاء وصلوا إلى درجة الموت من أجل فرنسا! فهناك تطرف في الجانبين الوطني وغير الوطني. وربما يرجع هذا إلى المزاج الحاد للفرد الجزائري، فهو حين يؤمن بالنضال يضحي بما يملك، وإذا انحرف يذهب إلى أبعد مدى. وهذه ظاهرة نادرة ربما في الأقطار العربية مغرباً

ومشرقاً. ولعل حدة المزاج هذه ترجع إلى الإستعمار الطويل وضغطه على نفسية الفرد وعلى المجتمع ككل.

هذه هي المبررات التي جعلتني أركز على الجزائر، لأنها في الواقع لو تحقق فيها التعريب كما كنا نحلم لأثرت ليس في المنطقة هنا ولكن في مناطق عربية أخرى . وحتى الذي تحقق أثر بشكل أو بآخر في الأقطار المجاورة، والسبب الرئيسي في تعثر التعريب في بلادنا حتى اليوم هو سيطرة الفرانكوفونية على العقول والمناخ من جهة وسيطرة المصلحة الخاصة من جهة أخرى وضغط الدولة التي احتلت الجزائر بمختلف الوسائل من جهة ثالثة.

والعامل الأول معروف ولا يحتاج إلى بيان، فالفرانكوفونيون هم الذين حكموا الجزائر من الإستقلال حتى اليوم، ودور الكثير منهم في عرقلة التعريب ناقشه الكتّاب والدارسون وأفاضوا القول فيه بما يدع مجالاً للمزيد.

أما العامل الثاني فهذا هو الذي بقي غامضاً لم يناقش كثيراً، لأن الحديث عن المصلحة – في الغالب – لا يقتنع به الناس عندنا ويرون فيه مساساً بالفرد أو فئة وتحت ستار النزاهة أو المثالية المفتعلة يتجنبون الخوض فيه، سوى أولئك الباحثين النزهاء حقاً الذين حللوا تشبث الفرانكوفونيين بالفرنسية إنطلاقاً من هذه المصلحة الخاصة، ولم يكتفوا بالحديث عن الفرنسية من الناحية اللسانية أو التقنية أو العلمية وقيمتها الأدبية والثقافية كما يفعل أغلب المدافعين عنها في بلدنا.

والعامل الثالث معروف، فهناك ضغوط كثيرة – مادية ومعنوية وإعلامية – استخدامتها فرنسا وما زالت كي تبقى على لغتها وثقافتها قوية فاعلة في الساحة الجزائرية.

والواقع أننا نعرف أن هناك فئة من الناس تحركها المبادئ والمثل وهي الفئة المثالية التي تضحي بكل شيء حتى النفس في سبيل أن يتحقق المبدأ. أما الفئة الثانية فهي التي تحركها المصالح الفردية الخاصة، وهم الأنانيون الذين يدرسون على الجماجم ويستغلون الآخرين ثم الثالثة التي توازن بين المصلحة

الخاصة والعامة فلا يطغى جانب على آخر. ونحن هنا لا نتهم الفئة الفرانكوفونية بالأنانية البحتة ولكن نحملها مسؤولية فشل التعريب لأنها دافعت عن مكانتها ومصلحتها الآنية ورفضت التضحية سواء بعدم تعلم العربية – إن كان هذا يعد تضحية – أم بعدم مساعدة العربية على الذيوع والتطبيق في الميدان عن إصرار أو عن كسل أو عدم مبالاة أو عداء في بعض الأحيان. ومهما كانت المبررات فإنه لا حجة مقنعة لديهم، هذا إذن عامل مهم وهناك آخر ربما أهم سيتضح فيما بعد.

والحقيقة أن الفرانكوفونيين عندما فضلوا الوقوف إلى جانب الفرنسية، كانوا في أعماقهم يدافعون عن موقعهم في السلطة وعن مكانتهم الإجتماعية والسياسية والثقافية وعن فائدتهم المادية، وحاولوا أن يقرنوا بين مصلحتهم وبين مصلحة الوطن في التشبث بالفرنسية كما يزعمون، وهذه مغالطة كبرى. فتقدم الوطن لا يكون بتبني لغة عدوة مهما كانت قوتها وعلميتها وتقدمتها وتقدمها، وإنما هم يدافعون في الحقيقة عن **«مراكزهم»** أساساً التي خلقتها ظروف وملابسات عديدة وأوجدتها أوضاع ثقافية مرفوضة بدءاً من عهد الإحتلال، وكان بالإمكان تغييرها لو بذل جهد صادق. ولكن أنّى للفرانكوفونيين أن يتجردوا من الذاتية ومن النظرة الخاصة ويعانقوا المبدأ الذي ضحى من أجله الشعب والشهداء؟ فالذين ناضلوا من الوطنيين نسوا بسرعة والذين لم يناضلوا وجدوا ضالتهم في الوضع المستمر منذ الإحتلال. وهنا وجدت العربية نفسها بين وطني يعطف عليها ولا يفعل لها شيئاً وبين مناوئ لها محاربها بمختلف الأساليب والشعارات والمبررات.

فالباحث الجامعي جمال العبيدي، وهو كما سبق القول عنه من المتعمقين في الفرنسية والعلوم الإنسانية، يذكر أن الأحكام الإعتباطية التي يطلقها الفرانكوفونيون عن العربية وعن المثقفين بها إنما تنبئ عن موقف طبقي إجتماعي لا عن حقيقة علمية خضعت للتجربة والتحليل.

فهذا الباحث الجاد عالج قضية التعريب والتناقضات الإجتماعية، وفي سياق حديثه عن الموضوع ركز على المصلحة الإجتماعية لفئة المفرنسين: **«ولكي نفهم أشكال مقاومة حركة التعريب يجب البحث عن المصالح الإجتماعية التي تعوقها. ولمقاومة ومعارضة حركة التعريب جذور في المصالح الإجتماعية وإن كانت هنا تلبس قناعاً ثقافياً...»** إلى إن يقول: **«فإن الإطارلت المفرنسة قد شعرت بوعي أو بغير وعي أن سياسية التعريب هي في الحقيقة تهديد مباشر لمواقعها الإجتماعية...»** [1].

إن هذا الباحث وأمثاله من الدارسين الأكاديميين الموضوعيين لم يستروا الحقيقة الصارخة التي حاول الساسة والمثقفون والأدباء الفرانكوفونيون إخفاءها ببرقع مكشوف يشف عما تحته من دوافع مصلحية نفعية، حتى لو تعارضت مع المبدأ والتاريخ والمقومات الأساسية للشعب الجزائري. أليس في هذا تناقض بين ما يقال وما يفعل؟؟ ألم يحن الوقت بعد لنجرد التاريخ من الأوهام والمغالطات ونظر الحقيقة كما وقعت وعاشها الناس؟؟

والنظرة الإستعلائية أو الطبقية التي استمدتها الفرانكوفونية من تكوينها تجعلها تحتقر ما يكتب بالعربية – غالباً – وتسخر من كتابات المثقفين العروبيين والمعربين، حتى ولو كانت هذه الكتابات جديدة ومبتكرة، فهي لا قيمة لها لأنها كتبت بالعربية ولا قيمة للمؤلفات المكتوبة بها حتى ولو كانت نادرة في موضوعها وأسلوبها ومحتواها، بينما من يكتب بالفرنسية، حتى لو كانت لغته ضعيفة أو متهافتة يجد من يصفق له ويبارك ماكتب.

كذلك فإن من يكتب بهذه اللغة يكفي أن ينتشر كتاباً واحد فيصبح مفكراً وأديباً، وشاعراً أو قصاصاً أو عالماً. فبعضهم كتب رواية واحدة أو ألف كتاباً واحداً وربما جمع فيه مجموعة مقالات سبق نشرها، فقرأنا فقرأنا تنويها وتقريظاً ينذر أن نجد له مثيلاً بالنسبة لمن ألف عشرات الكتب العربية، وكأن أصحاب هذه الكتب القليلة النادرة في حجمها قد ملكوا ناصية العلم فملأوا

---

[1] جريدة الشعب **1989/6/5**.

الدنيا حكمة وإبداعاً، فالإنطلاق إذن من اللغة وفئة المثقفين لا من مستوى البحث والإبداع.

ففي ميدان البحث العلمي عندنا يناقش أحدهم أطروحة بالفرنسية ولو كانت رسالة صغيرة وقد لا ينشر غيرها وقد لا يسمع به الناس، مع ذلك فهو من وجهة نظر هؤلاء قمة في البحث العلمي، ذلك أنه يستمد قيمته من اللغة التي يكتب بها لا مما قدمه أو أضافة للعلم موضوعاً ومنهجاً وجدة وتجديداً.

أما الذين كتبوا أطروحات عديدة وطبعوها مرات عديدة بل طبعوا عشرات الكتب العلمية باللغة العربية وبلغات أخرى مثل الإنجليزية أو الألمانية أو الروسية وغيرها فإن هؤلاء لا يستحقون حتى مجرد الإشارة إليهم وإلى جهودهم إن لم يصبحوا مجالاً للسخرية!!

هذا في العلوم الإنسانية وفي والأدب، أما في العلوم الدقيقة فإن الأمر أكثر مدعاة للازورار لأن العربية في نظرهم لا حق لها في أن تطرق مثل هذه الموضوعات والتخصصات فهي حكر على الفرنسية وحدها.

إذن المصلحة ليست مجردة ولكنها ارتبطت باللغة والثقافة والطبقية أيضاً ومن ينقد واحدة فهو ينقد الجميع لأن الأصل واحد والمصب واحد كذلك من الفرانكوفونية وإليها، بحيث أن التمييز ليس خاصا بالمستوى المادي بل أضيف إليه المستوى الثقافي فالفرانكوفونية أصبحت تمثل شريحة متميزة والعروبية تمثل أخرى تابعة ومهزومة. فمالك حداد حلل هذا الوضع حين أشار إلى المتفرسين الذين سيطروا على كل شيء، ويوازن بين الفلاحين الجزائريين الذين فقدوا الوطن تحت الإحتلال وبين المعربين الذين فقدوا كل شيء بينما: **«المفرنسون نجحوا في استخدامهم للغة مهيمنة «Hegemonique» بروح إنتقامية لتحقيق منافعهم بحيث أن هذه «العدوانية» تعطيهم شعوراً بالنفوذ في المجتمع، فالطالب «المعرب» ربما استرجع ذاتيته ولكن لديه إحساس بأنه أضاع فرصته في السلم الإجتماعي...»** [1]

---

[1] الجزائر – ثقافات وثورة – برونو إيتيان – دار ساي – باريس 1977ص: 184.

لذلك أبعد المعربون والعربيون عن المسؤولية بزعم أنهم لا يصلحون للتسيير والحكم والإشراف، حتى ترسّخ هذا في الأذهان كثير من الناس، كما رسب في اللاشعور بأن الفرنسية هي لغة الحياة والتقدم أما العربية فهي لغة **«الدار الأخرى»!!**

وقد بدت هذه التفرقة بين أبناء المعربين وأبناء الفئة الفرانكوفونية **«المحظوظة»**، بدا ذلك حتى في التعليم **(قبل تطبيق المدرسة الأساسية)** بقصد وعن سبق إصرار وتخطيط. فالأولون يوجهون إلى التعريب أما الآخرون فإلى المزدوج بل المفر نس. وقد لاحظ هذا باحث فرانكوفوني يساري هو محمد حربي فقال: **«وعلى صعيد التعليم يخاض التعريب وهو التطلع العميق لغالبية السكان بصورة ديماغوجية ويوجه النظام المدرسي المكلف وغير الفعال أولاد الطبقات الفقيرة نحو التعريب وأولاد ذوي الإمتيازات نحو ثنائية اللغة...»** [1].

والملاحظة أنه حتى اليوم نجد أن أفراداً من هذه الفئة تتحايل على الهروب من المدرسة الأساسية إلى المدارس التابعة للمركز الثقافي الفرنسي، وقصة ثانوية **«ديكارت»** معروفة للجميع !!

ويكون الأمر أكثر سوءاً حين يأتي الحديث عن دور المثقفين – خاصة أثناء الثورة – فهناك كتاب كامل ألف عن المفرنسين يذكرهم بالإسم مؤرخاً لحياتهم واتجاهاتهم فخوراً بثقافتهم الفرنسية التي أبرزت هذا العدد الضخم من المثقفين والسياسيين [2]. ولم يكلف صاحب الكتاب نفسه أن يشير إلى المثقفين بالعربية ولا إلى الطلبة الذين درسوا في المعاهد العربية مشرقاً ومغرباً إلا في القليل النادر، لأن الذي يعنيه هو أثر الثقافة الفرنسية في الجزائريين وما قدمته للجزائر وقدمته لها هؤلاء الذين درسوا في جامعاتها ومعاهدها. وإذا كان موقف

---

[1] جبهة التحرير – الواقع والأسطورة ص: 314.

[2] الطلبة الجزائريون بالجامعة الفرنسية (1880 - 1962) جي برفيل – طبعة لويس جان فرنسا - 1984 (في الكتاب دراسة واسعة عن الموضوع ولا سيما من ص: 270 - 306 بعنوان: قبول الثقافة الفرنسية).

الفرنسيين مفهوماً فإن الفرانكوفونيين عندنا غير مفهوم بتجاهلهم للمثقفين العروبيين ودورهم قديماً وحديثاً في ملء فراغ كبير لم يستطع الفرانكوفونيون لا الأمس ولا اليوم أن يقدموا له شيئاً لسبب واضح، وهو أن هؤلاء يكتبون بلغة لا يفهمها الشعب وبعيدة عن تاريخهم ووجودهم ولا تعبر عن إحساسهم وطموحهم وانتمائهم القومي، وقد أشار إلى هذا مؤرخ جزائري ناقش الموضوع بالتفصيل [1].

ومما يدعوا إلى العجب حقاً أن الذين يمثلون هذه الثقافة من خريجي الجامعات الفرنسية يعترفون بأنهم لم يكونوا طليعة الثورة ولا المحركين لها، وينفون عن أنفسهم هذا الدور كما جاء على لسان قيادة **«إتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين»** أثناء المؤتمر الرابع له وكانت قيادته من الفرانكوفونية أساساً: **«لابد من القول ورغم إضراب ماي 1956م فإن حركتنا لم تكن أبداً طليعة الثورة...»** [2].

ويذهب اعترافهم إلى أبعد من هذا إلى الإقرار بإخفاقهم في مهمتهم بالنسبة للثورة التحريرية وبالنسبة للشعب معاً: **«نعم لا نخشى من الإعتراف، نحن نعيش على الهامش فيما يتعلق بمأساة شعبنا، نعم لا نخشى من الإقرار بأننا لم نشارك بكثافة في الكفاح، لقد كنا حذرين»** [3].

إنهم يعترفون بأنهم لم ينخرطوا في الثورة التحريرية مبكراً حتى أن بعضهم يصف الإضراب الذي قاموا به سنة 1956م بأنه **«نوع من الجنون إن لم يكن الجنون بعينه»** [4].

ومؤلف الكتاب يقر بأن الفرانكوفونيين المثقفين بدؤوا ينفصلون عن الفكر الإندماجي بعد سنة كي يرتبطوا بالفكر الوطني، ولكنه لا يعرف تاريخ إندماجهم في الحركة الوطنية، هل هي سنة 1943م، أو 1955 أو

---

[1] الشعب (سلسلة من المقالات في شهر جوان وجويلية 1989).

[2] الطلبة الجزائريون ص: 307.

[3] الطلبة الجزائريون ص: 307.

[4] المصدر نفسه ص: 307.

1960م؟ ومتى اختاروا أن يصبحوا «وطنيين» نهائياً ثم كيف احتفظ بعضهم بالجنسية الفرنسية بعد الإستقلال...[1].

فهو لايذكر ذلك ولكن يترك السؤال لمن يعنيه تأريخ الثقافة في الجزائر، وطبعاً نحن لا نتبنى ما جاء في آرائه لأنه فيما يبدو يريد أن يعطي أهمية لتأثير الثقافة الفرانكوفونية في هؤلاء المثقفين، ثم إنه يشك في إرتباط هؤلاء بالحركة الوطنية بحيث يذكر الحديث عن الكتّاب بالفرنسية، فإن قصد الذين ينهون بهم من الفرنسيين – أمثال هذا الباحث – هو إعطاء الأهمية لدور الفرنسية والثقافة الفرانكوفونية في تكوين هؤلاء وسلوكهم ولو على حساب مشاعر هؤلاء وأولئك.

وكما ذكرت فإنه لا يجشم نفسه عناء الحديث – ولو بالإشارة – إلى المثقفين العروبيين الذين إرتبطوا بالوطن وثقافته منذ الأمير عبد القادر مروراً بباديس وحركة جمعية العلماء والذين تخرجوا من مدارس حزب الشعب وانتهاء بالمعاهد والجامعات العربية قبل الثورة وأثناءها وبعدها خاصة وأن هذه الدراسة هي بحث جامعي أكادمي!!

ولو قلنا نحن هذا الكلام في المثقفين الفرانكوفونيين لا تهمنا بالتحيز وربما الجهل والتحامل، ولكن أن يقوله فرنسي وقد اتيح له أن يتصل بالأفراد أنفسهم لأنهم مصادر حية وكذا اطلع على وثائق رسمية وعلمية، فإننا لن نعلق على آرائه وأحكامه كما سبق وقلت ونترك ذلك لمن يعنيه الأمر، فنحن لا نؤرخ ولكن نرصد الأفكار والإتجاهات والمواقف من العربية أو من الفرنسية إيجاباً وسلباً.

ثم إن المؤلف الآنف الذكر يلخص التيارات الفكرية والسياسية والأيديولوجية لشريحة الطلبة الفرانكوفونيين في الجزائر وهم الذين يعبرون عن الثقافة الفرنسية في الفترة التي تحدث عنها وكيف تطور هؤلاء الأشخاص في قناعتهم أو بقوا عليها، وهم يمثلون ثلاث إتجاهات في تصوره:

---

[1] المصدر نفسه ص: 308 .

1- دعاة الإندماج قبل 1914 وهم أولئك الذين يؤمنون بالمساواة بين الجزائري والفرنسي وتكون الحقوق المعترف بها للجميع هي مدار مطالبهم بحيث تكون **«المواطنة»** لمن يطالبها فله ما للفرنسيين وعليه ما عليهم.

2- دعاة **«الفرانكو – موسيلمان»** أو الإتحاد الفرنسي الإسلامي وهذا بعد سنة 1919، وهؤلاء يطالبون بالمساواة وبالحق في أن يبقى الفرد مسلماً في الأحوال الشخصية ولكن فرنسيا في الأحوال المدنية فهو مسلم وفرنسي في الوقت نفسه.

3- أما بعد 1936 و1943 فإن الحركة الوطنية اعتنقت الفكر العربي الإسلامي وهؤلاء جميعاً يمثلون الإنتلجنسياً الفرانكوفونية، وقد اعتبرت هذه الشريحة من المثقفين على اختلاف إتجاهاتها تابعة بسبب ثقافتها الأجنبية **«وامتيازاتها البورجوازية»**[1].

والمؤلف يعتبر هذه الفئة **«محظوظة»** لأنها استفادت من الثقافة الفرنسية، ولكن الإضراب هو الذي حررها من البقاء بعيداً عن الشعب بحيث **«استهمت في الكفاح من أجل الإستقلال...»**[2]. ولا يغرب عن بالنا أنه في تحليله للنخبة الفرانكوفونية يزعم أنها تمثل كتلة متجانسة بينما هي مشارب متعددة مثل غيرها من الفئات الثقافة العروبية ففيها الماركسي، والليبرالي الغربي والإسلامي وفيها العروبي أيضاً، فهو هنا يصدر عن موقف لغوي وثقافي لا عن تحليل علمي لإتجاهات هذه الفئة.

أما دور المثقفين العروبيين فإنه يختلف نسبياً عن دور الفرانكوفونية لأن تاريخ الثقافة الوطنية عرف منحنيات كثيرة. ودون الغوص في أعماق التاريخ

[1] المصدر نفسه ص: 310 .

[2] المصدر نفسه ص: 309 .

البعيد والقريب، فإننا سنقتصر على الحديث عن المواقف أكثر من الحديث عن الدراسة والجامعات والمعاهد وكذلك فإن هناك دراسات ومقالات أشارت إلى هذا الدور سواء نجحوا فيه أم أخفقوا ولكن المهم في هذا كله أنهم ناضلوا من أجل ثقافة وطنية قبل الثورة وأثناءها وبعد الإستقلال، ولم يكن المحرك لدفاعهم عنها هو المصلحة المادية أو الوضعية الإجتماعية أو الجاه والسلطة عكس زملائهم الذين تحدثنا عنهم. فالذين هاجروا من الوطن قبل الثورة ومنذ بداية القرن وحتى تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بل وحتى سنة 1952 وهي بداية البعثات إلى الجامعات العربية قبيل الثورة بقليل، لم يكن هاجسهم هو أن يستفيدوا من دراسة العربية وأدبها وعلومها أو دراسة الدين الإسلامي وفقهه والشريعة الإسلامية، بل كان الدفاع عن العربية والإسلام لأنها مضطهدان في بلدهم. وكذلك بعد هذا التاريخ هؤلاء الذين ذهبوا إلى تونس أو القرويين أو القاهرة وسوريا والعراق قبل الثورة أو درسوا في **«معهد عبد الحميد بن باديس»** وحتى طلبة الزوايا، جميعهم هاجروا أو بقوا في الوطن واقتصر تعليمهم على العربية بناء على موقف واحد هو الدفاع عن ثقافة الوطن وانتمائه لأنهم يعرفون أن كل الأبواب مسدودة أمامهم فيما يخص الوظيفة أو العمل بالعربية في إدارة مفرنسة كلياً.

وحين قامت الثورة لم يترددوا في الإنضمام إليها، فمن البداية تركوا المعاهد في الداخل والجامعات في الخارج والتحقوا بالثورة وبالكفاح المسلح واعتبروا موقفهم هذا موقفاً لا يحتاج إلى إستشارة أحد أو إلى إجتماع يقررون فيه الإنضمام للثورة أو عدمه!

وليس هذا من باب المفاضلة بين الفئتين الفرانكوفونية والعروبية، فهذا ما لم يخطر ببالنا إطلاقاً، ولكن كي نقر حقيقة ساطعة أثبتها التاريخ، فبعض الباحثين تجاهلوا شريحة وطنية شاركت في جهود الشعب من أجل الحرية ورفضت العبودية الثقافية والسياسية والعسكرية الفرنسية. وأعتقد أن ما ذكره الأخ المناضل علي كافي يثبت هذه الحقيقة ويرسم صورة بسيطة لدور

المثقفين العروبيين والمعربين أثناء الثورة ويحدد حتى المسؤوليات التي تقلدوها من أبسطها إلى أعلاها – وهو واحد منهم – وهذا لأن الثورة حققت حلمهم وحلم آبائهم وأجدادهم وجاءت لتجسد إيمانهم الراسخ بالشخصية الوطنية والإنتماء العربي الإسلامي، فتعد للجزائر ثقافتها ولغتها التي هاجروا من أجلها إلى الخارج لأنهم حرموا منها داخل الوطن وكان هذا أملهم في نضالهم من أجل العربية والعروبة ومن أجل الثورة والوطن.

وإذا أردنا أن نقارن بين الفئتين حتى بعد 1956، نجد أن الفرانكوفونيين المثقفين إنضموا إلى الثورة وذهبوا إلى الخارج والتحقوا بأجهزتها ثم أجهزة الحكومة المؤقتة، وبعضهم ذهب إلى فرنسا وإلى جامعاتها فأتم دراسته وعاد بعد الإستقلال يحمل شهادة عليا ويحقق مكانة مرموقة في التعليم أو في الإدارة أو في المسؤوليات السياسية، وأود هنا أن أسجل موقفاً لواحد من هؤلاء الذين غادروا الجزائر وتركوا الدراسة فيها سنة 1956، وذهب إلى فرنسا وهو الأستاذ في الجامعة الآن وحين ذكرته بهذا قال: **«صحيح أنني وأمثالي ذهبنا لإتمام الدراسة أثناء الثورة إلى فرنسا ولكننا رجعنا بشهادات عليا نفيد بها الوطن»** ولم أعلق على ما قال لأن هذا المنطق لا يحتاج إلى تعليق!!

أما العروبيون فلم يستطيعوا أن يتموا دراستهم الجامعية غالباً فضلاً عن العليا إلا بعد الإستقلال لأن مشاركتهم في الثورة حالت بينهم وبين إتمام الدراسة [1].

لقد تحدث علي كافي عن الطلبة العروبيين ومن استشهد منهم وهم بالشعرات، كذلك الذين التحقوا بجيش التحرير وفي مختلف المسؤوليات من أبسط مسؤولية إلى أعلى قيادة وهم أيضاً بالعشرات وربما بالمئات، ثم الذين انخرطوا في الجبهة [2].

---

[1] مجلة الوحدة من 30 / 5 / 1990 إلى 6 / 6 / 1990 .

[2] مجلة الوحدة من 30 / 5 / 1990 إلى 6 / 6 / 1990 .

أثرنا هذا لأن تجاهل العروبيين كان خطة مدبرة منذ الثورة لإبعادهم عن المواقع التي لها تأثير في البلد. فالحملة التي شنت عليهم ومازالت توحي بالمؤامرة التي تحدث عنها عثمان سعدى في سلسلة من المقالات في جريدة المساء [1].

ومما يلفت الإنتباه أن التقليل من دور المثقفين العروبيين شارك فيه حتى أساتذة جامعيون لهم قيمتهم أمثال د. علي الكنز. فهو يؤكد أن دور المثقفين بالفرنسية في عهد الإستعمار كان كاملاً في تشكيل ثقافية وطنية على حد قوله: «**فبالنسبة للجزائر المستعمرة ورغم الطابع الغامض للجامعة الجزائرية في ذلك الوقت فقد استطاع الطلبة الجزائريون «لعب دوراً» [2] مهم في تشكيل ثقافة وطنية كانت ضرورية لحركة التحرر الوطنية**» [3]. وكما فعل الباحث الفرنسي السابق فإن الباحث الجزائري يذكر إحصائية للخريجيين بالفرنسية دون أن يشير مجرد إشارة إلى الطلبة العروبيين ذوي الثقافة العربية وأكثر من هذا فهو يبرر للجامعة الجزائرية في عهد الإستعمار ويعتبر دورها غامضاً، ولست أدري كيف غاب عنه دور الجامعة في عهد الإحتلال؟! وهل كان غامضاً فعلاً أم كان هدفها واضحاً وهو خدمة الثقافة الفرنسية أساساً وإيجاد قنوات لها من خلال هؤلاء الطلبة؟؟ ثم هل هؤلاء خدموا الثقافة الوطنية أم الفرنسية ما دامت لغتهم هي الفرنسية ومتى شكلوا هذه الثقافة قبل الإستقلال وكيف ؟؟!

هذه أسئلة لا يناقشها الباحث ولا يثيرها ولكنه يندهش من أن الجزائر منذ بداية القرن حتى قيام الثورة لم تعرف يقظة ثقافية مثلما ظهرت في المشرق ولم تعرف «**بوشكين**» ولا «**غوغول**». والسبب في هذه نظره هو أن المثقفين لم يرتبطوا بالمجتمع، وكأن الجزائر كانت تعيش الظروف نفسها التي عرفتها الأقطار العربية الأخرى، وكأن الإستعمار الفرنسي كان يعمل على أن يوجد

---

[1] المساء (سلسلة من المقالات في جانفي 1991).

[2] كذا في الأصل.

[3] الأنتلجنسيا العربية ص: 484.

أمثال هؤلاء الشعراء والقصاصين أو يساعد على ظهور **«إنتلجنسيا»** سواء بالعربية أم بالفرنسية؟!

ومن الظلم للجزائر أن يقارنها الباحث بغيرها من البلدان العربية أو الغربية التي ظهرت فيها هذه الطبقية **«المثقفة»** فضلاً عن فرنسا وروسيا، وكيف يتهم الجميع – عروبيين وفرانكوفونيين – بأنهم: **«كانوا دائماً يحطون من قيمة مجتمعهم ويحتقرونه، لم يؤمنوا أبداً بقدرات مجتمعهم ولا بحيوية تطوره بحيث كان همهم الحيد المناقشة والمجادلة في الظلام...»** [1].

وما أظن أن حكماً قاسياً صدر ضد المثقفين الجزائريين بأية لغة يكتبون مثل هذا الحكم، بل أكثر من هذا فهو يشكك حتى في وطنيتهم، فلا العربيون تشبثوا بجزائريتهم ولا الفرانكوفونيون. قد يكون حكمه على فئة منهم صحيحاً ولكن أن يعمم الحكم هكذا بلا مستند أو وثيقة أو بيان فإنه يبقى مجرد تخمينات بعيدة عن البحث العلمي والروح الموضوعية. فهم في نظره: **«أما متشبثون بالعروبة أو الإسلام وإما بفرنسا وحتى أوربا إلا أنهم لم يكونوا متشبثين بجزائريتهم...»** [2]

هذا الرأي قد يصدق على بعض الذين يكتبون بلغة **«أجنبية»** ولكنه لا يصدق على الذين يكتبون باللغة الوطنية وهم – في الغالب – أبناء فلاحين وعمال ومن أبناء الطبقة الصغيرة أو المتوسطة. فهم لا يمثلون نخبة كما يمثلها الفرانكوفونيون **(أبناء الطبقة المحظوظة)**، ويلوم هؤلاء المثقفين لأنهم لم يندمجوا في الحركة الوطنية في العشرينات. فإذا كان القصد **«المعلمين»** فإنهم ارتبطوا بالحركة الوطنية من بدايتها الأولى، أما إذا كان يقصد المثقفين بالمفهوم الدقيق للكلمة، فإن هذا ينطبق على الفرانكوفونية الذين اهتموا بالسياسة ولم يعنوا بالثقافة. وهذه من البديهيات التي لا تحتاج إلى إعادة القول

---

[1] المصدر نفسه ص: 491 .

[2] المصدر نفسه ص: 491.

فيها بالنسبة لتلك الفترة وحتى بعدها. وأثناء الثورة لم يتأخر العروبيون عنها وقد بينا هذا من قبل. أما إذ كان يقصد الفرانكوفونيين فهذا وضع آخر.

وقسوة حكمه على المثقفين أنه ينظر إلى العروبة والإسلام كما ينظر إلى الذين توجهوا إلى فرنسا والغرب ويضع الجميع في **«سلة»** واحدة، بينما المفروض أن بين الإنتماء إلى العروبة والإسلام هو ما قامت عليه الحركة الوطنية سواء مثّلهما **«حزب الشعب»** أم الجمعية العلماء أم غيرهما، لأن باقي التيارات كانت تؤمن بالإندماج.

كان حكمه صحيحاً لو أنه نظر إلى الأمر من وجهة **«قومية عروبية»** فيكون المثقفون بوجه عام آنذاك إقليميين محليين، أما أن ينفي عنهم سمة الإنتماء الوطني فهذه مبالغة لا تصدر عن باحث جاد مثله.

وموقفه من العربية والعروبة جعله ينظر إلى التعريب نظرة غيره بأنه سبب فشل الجامعة وسبب ضعف المستوى الثقافي والبيداغوجي كما جاء في كلامه حرفياً: **«إن تملك الجامعة للغة العربية قد أدى إلى انخفاض في المستوى الثقافي لأدائها البيداغوجي التربوي...»** [1]

والمقام لا يسمح بمناقشة هذا الموضوع فهو خارج عن نطاق دراستنا ولكن يمكن أن نسأل الباحث: هل الفروع التي تدرس باللغة الفرنسية بقيت قوية فيها؟ وأين يظهر ذلك؟ في المؤلفات؟ أم في الإختراعات؟ ثم من المسؤول عن ضعف الفروع المعربة؟ هم الذين يحاربون العربية في الجامعة وخارجها؟؟

وهكذا نلحظ أن مفهوم الثقافة والمثقفين عند هؤلاء الذين يعلقون على الوضع الثقافي سواء الفرنسيين أو الفرانكوفونيين الجزائريين، ينصب على جانب ويترك الجانب الآخر بهدف تبريري من جهة وتجاهل للآخر من جهة أخرى. وفي كل الأحوال فإن النظرة الموضوعية لا وجود لها في هذه الكتابات التي تتسم بالإنفعال أحياناً وبالذاتية أحياناً أخرى وبالتعالي مرة ثالثة.

---

[1] المصدر نفسه ص: 486 .

وهنا لا نجد تأريخاً ولكن آراء عشوائية كنا نود أن يبتعد عنها من يتصدى للحكم على التاريخ الثقافي لبلادنا.

(2)

إن الصراع بين الفرانكوفونيين والعروبيين إذن منذ القديم وحتى الوقت الحاضر، ينطلق من مفهوم **«الهوية»** و**«الإنتماء»**، أما **«اللغة»** فتمثل عاملاً آخر من عوامل عدة كثيرة.

لذلك سنعرض إلى بعض المظاهر التي تجسد هذا الصراع كما يبدو في بعض المواقف تجاه العروبة والعربية، ولا أقول الإسلام، لأنه عنصر عليه إجماع بوصفه عقيدة الشعب الجزائري كله. وبطبيعة الحال سنعود إلى ما بعد الإستقلال مباشرة ثم نرصد ملامح هذا الصراع الفكري والقومي والأيديولوجي حتى اليوم، وغرضنا ضرب الأمثلة للذين لم يعرفوا هذه الفترة ولم يشاهدوا هذا الصراع من الأجيال الجديدة، ولن أعرض إلى القضايا المتصلة بالتعريب في مختلف المجالات، فهذا موضوع كتب فيه كل المواطنين وحللوا ظروفه وأساليب تطبيقه.

إن هناك الآلاف المقالات ومئات المحاضرات وكثير من الكتب الهامة الجادة تناولت الموضوع بما لا يدع مجالاً لي كي أكرر القول فيه [1]، وخاصة فيما يتعلق بجانب اللغة وتعميمها في مختلف المجالات. أما الذي يهمني هنا فهو المواقف المعارضة أو المناوئة للعروبة كما تجسدت في اللغة وهي إشارات ورموز تكتشف عن عداء راسخ ضد الإنتماء والهوية.

وقبل أن أضرب هذه الأمثلة أرى لزاماً على أحدد رأيي فيما يتصل بالمثقفين الفرانكوفونيين والعروبيين معاً بالنسبة للإنتماء، حتى نضع النقاط على الحروف ولا نضع الجميع في بوتقة واحدة. وتصنيف المثقفين الفرانكوفونيين هو نفسه ينطبق على ذوي الثقافة العربية من حيث النظرة إلى

---

[1] **أنظر مثلاً كتاب الباحث أحمد بن نعمان، التعريب بين المبدأ والتطبيق – شركة الوطنية للنشر والتوزيع ، فهو رسالة جامعية ألمت بالموضوع من شتى أطرافه بروح علمية وبالشواهد والوثائق لا سيما الأبواب: 4 و5 و6 ففيها تفصيل للموضوع.**

الهوية والعروبة، وهذا راجع إلى التكوين أساساً كما سبق القول، وإلى الوعي أيضاً وإلى عوامل كثيرة أسهمت في تطوير هذا الوعي أو عدمه أو نظرة الشخص وتجربته الثقافية وإلى حياته بوجه عام.

فالفرانكوفونية – مثقفين، ساسة، كتاباً، إداريين ومسيرين – يمثلون فئات مختلفة:

1- العربيون: أولئك الذين يدافعون عن العربية والعروبة وعن التعريب حتى وإن لم يعرفوا العربية قراءة وكتابة وتأليفاً، ومنهم المعرفون وغير المعرفين في عالم الثقافة والحياة وهم يدافعون عن الإنتماء العربي والإسلامي.

2- الموالون للفرنسية لغة وثقافة، وهي الفئة التي تحارب العربية وتناصبها العداء خفية أو جهراً، وإنتماءوها ليس للعروبة ولكن للإقليمية والجهوية وللحضارة الغربية ولفرنسا بالذات. وهم غير الموالين سياسياً لفرنسا ممن عرفوا بـ **«الفرانكوفيل»** فهؤلاء لا يستحقون حتى مجرد الإشارة إليهم لأنهم إمتداد لأمثالهم في الماضي ممن ارتبطت مصالحهم بمصالح الفرنسيين.

3- هناك فئة ثالثة لا تعادي العربية ولا العروبة ولكنها تدافع عن مصالحها ونظرتها عاطفية خالصة للموضوع، قد تكون دينية أو وطنية ولكنها لا تحرك ساكناً فتعمل على تثبيت هذه الهوية من خلال اللغة، وهي مستعدة أن تتطور في موقفها إذا وجد المناخ الملائم والظروف المناسبة وتحررت من أفكاره مسبقة.

4- هناك فئة رابعة سلبية لا تعادي ولا تؤيد ولا يهمها نجاح التعريب أو فشله ولا تشارك في الحياة الثقافية ولا في غيرها، فهي متقوقعة على نفسها تجتر الكلمات وتعلق عليها أحياناً نتيجة ظروف خاصة تتصل بالبيئة المحلية العائلية أو بالوضع المادي المتدهور أو المتميز فهي سلبية تجاه مجمل القضايا تعيش لنفسها على هامش الواقع.

ومهما يكن فإن من الصعب أن نحدد نسباً معينة في هذه الشرائح لأن هذا يتطلب استفتاء لا نملك وسائله الآن على الأقل. وحتى الصحف التي حاولت أن تعطينا صورة تقريبية لهذه الشرائح لم تحقق نجاحاً في هذا، لأن عملها كان محدوداً ويقتصر في الغالب على فئة واحدة دون الفئات الأخرى.

أما المثقفون بالعربية والعروبيون والمعربون، فأنا أفرق بين العروبي والمعرب (**بكسر الراء**) لأن الأول يلتقي مع الشريحة الأولى التي تحدثت عنها من الفرانكوفونيين في الإيمان بالعروبة والدفاع عنها من منطلق قومي حضاري ووحدوي، وهم ليسوا شوفينيين متعصبين – كما يدعى الأقليميون من الفرانكوفونيين – فالعروبة في فهم العروبيين فكرة وحضارة وإنتماء لا جنسياً أو عرقاً أو دماً، فهذه دعوى لا توجد عند الجزائريين ولا غيرهم وإنما خلقها أعداء العروبة كي يلبسوها صفة التعصب ويشوهوا محتواها، كما فعلوا في دعوة عبد الناصر الذي لا يفرق بين العروبة والإسلام، بل إن «**البعثية**» نفسها لم تقف ضد الدين وزعيمها دافع عن الإسلام ولكنها تكملهما ولا يتطرف دعاتها في المناداة بها إلا إذا اعتبرنا بشير بومعزة متطرفاً وهو فرانكوفوني ومن المدافعين بحرارة وصدق عن العروبة والوحدة؟!

هذا أولاً وثانياً: المعربون ذوو الثقافة العربية لساناً لا فكراً، وهؤلاء يختلفون عن السابقين في النظر إلى العربية والعروبة، فهم يؤمنون باللغة الوطنية ولكن من الناحية اللغوية اللسانية دون أن تكون في نظرهم رابطة للأمة العربية ماضياً وحاضراً ومستقبلاً.

وهذه الفئة إن دافعت عن العربية فبحكم المصلحة أو التثقيف، وهي مستعدة أن تتغاضى عما تتعرض لها العروبة من مقاومة بل إن أفراداً منها ترسل أولادها إلى المدارس الفرنسية في الداخل والخارج بدعوى مصلحة هؤلاء الأولاد، حتى أن بعضهم أخرج أبناءه من الأقسام المعربة في السبعينات وأدخلهم إلى الأقسام «**المفرنسة**» التي أطلق عليها «**المزدوجة**»، وهي الظاهرة التي سبق لي الحديث عنها في هذا البحث، وعندما ينتقدون يتعللون بالمستقبل وما دامت

الفرنسية مسيطرة وهي لغة الحياة والخبز في الجزائر فإن من فائدة أبنائهم أن يتعلموها بدلاً من العربية، ومنهم جامعيون وأساتذة **«معبرون»** كما أن كثيراً منهم تقلدوا مسؤوليات سامية في الدولة ولم يكلفوا أنفسهم حتى مجرد تعريب الميادين التي يشرفون عليها، بل إن منهم من يدافع عن البربرية أكثر مما يدافع عن العربية.

وموقفهم هذا يشيبه موقف أمثالهم في الماضي بحيث يكرر التاريخ نفسه. فقد كان بعض المعربين قبل الثورة ينادون ويطالبون بأن تكون اللغة العربية لغة رسمية في المدارس الفرنسية ويطلبون من الشعب أن يشجع العربية، ولكنهم في الوقت نفسه يبعثون أولادهم إلى المعاهد الفرنسية في الجزائر وإلى الجامعات الفرنسية في فرنسا. وهذه من تناقضات هؤلاء المعربيين قديماً وحديثاً، وماضياً وحاضراً لأنهم نظروا إلى اللغة نظرة **«لسانية»** ولم ينظروا إليها نظرة قومية.

ثالثاً: وهناك فئة من المعربين تنظر إلى العربية نظرة دينية صرفة وهو موقف يتساوى فيه المعربون وبعض الفرانكوفونيين. فهي لغة القرآن، لغة الدين، وهي مقدسة وقيمتها تستمد من الدين، لا من كونها لغة من اللغات الأخرى وتعليمها ينبغي أن يرتبط بالعقيدة وعلومها وتبقى العلم والحضارة، لغة الفضاء و**«التقنية»** و**«الألكترونيات»**، ولكن إذ وجد من يطور العربية ويجعلها لغة العلم فإنهم لا يرفضون ذلك.

رابعاً: أما الفئة الرابعة فهي التي ترى في العربية رابطة لغوية ودينية معاً، وتناضل من أجلها بلا هوادة ولا تعادي العروبة والوحدة وإن كانت لا تؤمن بهما ولا تعمل من أجلها . فهي تسعى إلى أن تكون العربية سيدة في أرضها وفي الحياة والمجتمع وهي أقرب إلى العروبين الوحدويين المؤمنين بالعروبة والإسلام، إنتماء وحضارة ومصيراً واحداً .

خامساً: تبقى فئة أخيرة وهي السلبية المتشائمة المنزوية على نفسها تجتر الواقع في حسرة وألم، فهي في هذا تشبه الفئة الفرانكوفونية التي لا تحرك

ساكناً، لا تفعل شيئاً للعربية بل تكتفي بالتفرج على المسرح الثقافي والسياسي وتعيش لذاتها تشتر أحزانها في صمت.

وإذا كنت لم أتحدث عن ذوي الثقافة الثنائية أو **«المزدوجة»** كما شاع المصطلح الذي يطلق على من درس اللغتين، فإن الأمر بالنسبة لهذه الشريحة هو نفسه الذي نلحظه في الفئتين اللتين عرضنا لمواقفهما، فهم ليسوا على موقف واحد تجاه العربية والعروبة وتجاه الفرانكزفزنية وتجاه النظرة الدينية إلى اللغة.

تلك في تصويري – هي صورة الموقف تجاه العربية والفرنسية، فهي ليست نخبة واحدة أو اثنين كمل نراه لذا من يناقشون القضية ولكن هناك نخب وشرائح إن صح التعبير. وهذا سببه التكوين وتعدد مصادره كما سبق القول وهو سبب الأزمة الثقافية التي نعاني منها منذ الإستقلال حتى الوقت الحالي. وقد أتيح لي من قبل مناقشة هذه القضية عامي 1965 و1966 [1].

ومنذ بداية الإستقلال بدأ الصراع ضد التوجه العربي في الجزائر، وكما سبقت الإشارة منذ تصريح الرئيس السابق أحمد بن بلة في تونس 1962، وأخذت الفرانكوفونية ترفع رأسها تناوش مرة وتناور أخرى وتجاهر ثالثة. وكان الصراع بينه بين حضارتين واتجاهين وقناعتين، ولعل المؤرخ ناصر الدين سعيدوني قد وضع الأصبع على الجرح في مقالاته: **«جذور المد الشعوبي في الجزائر»** . فهو يرصد دعوة أصحابه الذين يعتبرون: الصلة بالمشرق نوعاً من التبعية والإستلاب والضياع رغم الروابط مع البلاد العربية التي تعتمد على المصلحة المشتركة ووحدة العقيدة واللسان والتراث الحضاري وأوضاع الجزائر بالخصوص، في حين اعتبر الإرتباط بالغرب ولاسيما فرنسا يتماشى وطبيعة الأشياء وتوجهات شعوب المغرب ومصالحها الإجتماعية والإقتصادية والثقافية. وقد عبر عن ذلك أحد دعاة هذا الإتجاه وهو **«متوقي الحواسين»** بقوله: **«من**

---

[1] انظر: «أحاديث في الأدب والثقافة» - عبد الله ركيبي – دار الكتاب العربي – مصر 1966 من ص: 84: 90.

الجناية على النفس ومن الخطأ السياسي السماح بانظمام منطقة المغرب إلى منطقة المشرق العربي أو استخدامها مطية لطموح الشعوب العربية المشرقية. فالمغرب لم يكن أبداً مشرقياً ولم يكن عبر تاريخه إلا بعيداً عن تأثيرات المشرق لأن علاقته كانت مع القارة الأوروبية التي زادها التاريخ تلاحما، فالمغرب منطقة وصل بين أوروبا وأفريقيا والمستقبل بالنسبة إليه يكمن في إنشاء الولايات المتحدة الأورو– إفريقية» [1].

إن هذا الرأي يلخص اتجاه الفرانكوفونيين الإقليميين والشعوبيين – كما قال المؤرخ – ويعطينا صورة للتعصب ولمقاومة رياح التاريخ، بل وتحريفه ومسخه وتشويه التوجه إلى العرب، فإذا كان هناك **«مطامع»** – ولا نقول مطامح – للمشرق في المغرب فهل التوجه إلى **«الغرب»** ليس فيه مثل هذا الطمع في الجزائر ؟! لو كان هذا الباحث وأمثاله ممن يبررون الوضع في الجزائر والطمع فيها – على الأقل– منطقيين مع أنفسهم ومع التاريخ ومع الواقع!

ولكن اقليميتهم وشعوبيتهم المنغلقة تغطي عن اعينهم شمس الحقيقة وتحجب عنهم أن يقرأوا التاريخ قراءة سليمة.

والرأي نفسه يلخصه لنا مؤرخ جزائري آخر هو الطاهر عدواني في مقال بعنوان **«العروبة المتهمة»** ويصف مآل هذه الحرب ضد العروبة بقوله: **«ولكن توقفت فصول المعاداة والحرب المعلنة للعروبة كقومية لأنه تم الإجهاز عليها في الواقع ودمر التوجه العربي للجزائر بالكامل. إلا أن تلك الفئات المعادية للعروبة ظلت تحمل لواء العداء للثقافة العربية وللغة العربية اللتين هما الوعاء الطبيعي للروح القومية. ولا يزال التعريبيون يقاومون هذا الطوفان الجارف للفرانكوفونية بطرق بدائية تفتقر إلى الأيديولوجيةالسياسية...»** [2]

---

[1] الشعب 17 فيفري 1990 .

[2] السلام 5 / 12 / 1990 .

(3)

وهذا التحليل وإن كان سليماً من حيث النتيجة فإن وضع المثقفين بالعربية في فئة واحدة غير دقيق، لأن هذه الفئة كما ذكرنا تنقسم إلى شرائح وإتجاهات، وقناعاتهم مختلفة في نظرتهم إلى العربية والعروبة وإلى الوحدة، ومن ثمة فإن إفتقارهم إلى الأيديولوجية التي أشار إليها الكاتب غير موجودة لدى طائفة منهم ولكنها راسخة عند أخرى.

يمكن أن نضرب أمثلة لهذا الصراع منذ الوهلة الأولى لتي وضعنا فيها أقدامنا على أرض الجزائر بعد الإستقلال، في حين حضرنا أول مؤتمر للطلبة المسلمين الجزائريين الذي انعقد في بن عكنون في تلك الصائفة. كما قلت منذ اللحظة الأولى ظهر الصراع الثقافي، فطلبة الجزائر **(فرع الإتحاد في العاصمة)** وطلبة فرع الإتحاد بفرنسا جاؤوا وفي أذهانهم أن يسيطروا عليه – كما فعلوا أثناء الثورة – وكان حديثهم كله وحوارهم بالفرنسية رغم أننا كنا في الشهر الثاني من الإستقلال! ورفضنا موقف التحكم والتعالي وحب الرئاسة كما رفضنا الحوار بلغة ثار الشعب عليها وعلى أصحابها، وانضم إلى فرع القاهرة الذي كنت عضواً فيه مع آخرين هم فرقاق، حلمي، برغام، جندي خليفة، رابح بلعيد، وفروع أخرى من المشرق العربي وفروع أمريكا والبلدان الإشتراكية وكنا نجتمع بحضور **«المسلحين»** حيث كانت العاصمة تحت رحمتهم. وكان الفرانكوفونيون مصممين على موقفهم ورفضنا هذا فتوقف الإجتماع وبدأت المفاوضات، وهنا ظهرت الفرانكوفونية بأحلى صورة بعد أن غطتها سنوات طويلة.

وفي خاتمة المطاف جمدنا **«المؤتمر»** ليصبح **«ندوة»** حتى يبت الصراع على السلطة آنذاك، وبعدها وقع ما نعرف للإتحاد في المراحل التالية.

فالصراع إذن ليس وليد اليوم ولا الأمس القريب ولكنه مستمر. وما زالت أذكر أحد المناضلين الفرانكوفونيين حين دخلت إلى تونس عن طريق الأوراس في أكتوبر 1957 بعد خروجي من معتقل «آفلو»، وكان هذا المناضل مسؤولاً

عن الطلبة في تونس، وقد أرسلني جيش التحرير آنذاك كي اتم دراستي في المشرق العربي، وكان معي الأخ **«محمد دالي»** المعروف **«بمحمد هني»** الذي كان يعرف هذا المسؤول وحاول معه أن يحقق لي هذه الأمنية، ولكنه اعتذر ولما قلت له: كيف ترسلون إلى الدراسة من كان يعمل في إدارة فرنسا وترفضون طلبي، وذكرت له إسماً معيناً قال لي بالحرف الواحد: **«ذلك الشخص تدخل له فلان»** وأعفي القارئ من ذكر اسم الطالب والمسؤول معاً – وهنا التقت الثقافة والجهوية وهذا الرجل هو الآن من الشخصيات البارزة قد تسلم وزارة خطيرة في البلد بعد الإستقلال.

وانطلقت هستيريا الفرانكوفونية الإقليمية في مرحلة ما بعد الإستقلال، ومنذ اللحظة الأولى – كما أشرت – أخذ دعاتها يخترعون الإشاعات ويطلقون النكت ضد الشرق والمشارقة، يقدحون في كفاءة المعلمين المعارين من الأقطار العربية، وكانت حملة رهيبة لم نشهد لها مثيلاً إلا بعد1988 . قدحوا في كفاءتهم وفي لباسهم وفي لهجاتهم وفي شهادتهم. وليس هذا فحسب فقد سخروا من خريجي الجامعات العربية من الجزائريين فاتهموهم بجهل العربية وعلومها والقواعد البيداغوجية رغم أن كثيراً درسوا في **«الزيتونة»** أو في **«المعهد»** أو في **«القرويين»** أو في **«الأزهر»** ثم أتموا دراستهم في جامعات مشهورة، حتى إن **«مفتشاً»** من هؤلاء الذين يزعمون أنهم درسوا الفرنسية على المستشرقين بالجزائر وبفرنسا كتب تقريراً عن أحد الخريجين من جامعة القاهرة ومن قسم اللغة العربية بأنه يجهل قواعد اللغة العربية وكان في تقريره عشرة أخطاء لغوية!!.

ومن أعاجيب تلك الفترة أن هذا **«المفتش»** وأمثاله كثيرون لا يحملون شهادة البكالوريا بالعربية ولا يستطيعون كتابة مقال بها، بينما بعض هؤلاء الخرجين كان قد طبع كتباً كاملة أثناء الدراسة. ولم يكتفوا بهذا بل أضافوا تهمة أخرى عجيبة. فكل من قرأ في البلد فهو **«تابع»** له، فخريجو القاهرة ناصريون، وخريجي العراق أو سوريا هم بالضرورة في نظرهم **«بعثيون»**.

وكان هذا تخطيطاً من الفرانكوفونيين الإقيميين يهدف إلى:

1- ضرب الفكر الناصري في الجزائر الذي بدأ ينتشر بحكم أن الرئيس «**بن بله**» كان ينادي بالعروبة وبالوحدة مثل «**عبد الناصر**» وشارك في هذه الحملة المغرضة جهات فرنسية نعرف هدفها ودوافعها. كذلك شنّوا حملة على البعث – وما زالوا حتى الآن –وعوض أن يهاجموا النظامين هاجموا الفكر الذي ينادي بالعروبة وبالوحدة.

وإذا كانوا لا يصرخون بهذا ويعلنونه على الملأ فإن الفعل والتطبيق حقق لهم هذا الهدف.

2- ضرب التيار العروبي الوطني الذي إلذي بدأ يجد مكاناً له في جزائر الإستقلال. وفي نظر هؤلاء الفرانكوفونيين الإقليميين، فإن الذي يمثله هم خريجو الشرق حتى ولو كانوا ضد العروبة وبعضهم -- كما سبقت الإشارة – إقليمي وجهوي حتى النخاع ومع ذلك لم يسلم من التهكم على ثقافة وكفاءته.

وهناك مثل حي على هذه الحرب الفظيعة التي عشناها بمرارة وكنا نظن أننا تحررنا من الإرهاب الإستعماري، فإذا بنا نجد أنفسنا تحت إرهاب فكري وإداري لا نظير له.

من ذلك ما تعرضنا له حين أعلنا الإضراب وكان عدد خريجي الشرق يزيد على المائتين معظمهم أساتذة بالثانوي وكانت مطالبهم «**نقابية عادية**» لا صلة لها بالسياسة بل هي مطالب عادلة. ومع ذلك شنت علينا الحرب واتهمنا بأننا ضد «**نظام بومدين**» الذي قام بانقلاب 1965 حتى يرهبوا هذه الفئة ظناً منهم أنها ستؤثر على مصالحهم المادية ووضعهم الإجتماعي من ناحية وأنها ستتفق ضد الفكر الفرانكوفوني والثقافة الفرانكوفونية من جهة ثانية وتدافع عن التوجه العروبي من جهة ثالثة. ولو كان المجال يسمح لضربت أمثلة أخرى كثيرة مما نصب لخريجي الشرق من أحابيل وما أثير حولهم من قصص بعضها مؤلم بعضها مضحك وكلها من إختراع «**الفرانكوفونية**» تنضجنه في مطابخها وتذيعه بين

المواطنين بوسائل كثيرة، والهدف هو تحطيم معنويات هذه الفئة التي يخشون منها على نفوذهم وعلى مناصبهم في الإدارة وحتى في التعليم الذي لم يجد العروبيون غيره مفتوحاً أمامهم، فما من عروبي إلا وله قصة محزنة مع الفرانكوفونية ودعاتها.

ولسوء الحظ فإنهم وجدوا من بعض **«المعربين»** من يلقي بحطبه في هذه النار التي اشعلها غيرهم فيسهمون في نشر دعايات مغرضة مفتعلة لدوافع قد تكون ذاتية مصلحية يلتقون فيها مع الفرانكوفونية أو لإقليمية راسخة فيهم. فهؤلاء يرفضون الفكر العربي من منطق إقليمي رغم أن ثقافتهم عربية، وأولئك يدافعون عن مواقع الفرنسية والفكر الفرانكوفوني وثقافتهم فرنسية، وكلا الشريحتين تشترك في محاربة التوجه العربي القومي. وشارك في هذه **«الجوق»** حتى بعض المثقفين الذين كنا نعتقد أنهم يترفعون عن هذه الأحكام العامة المسبقة فسقطوا في الهوة أيضاً.

والتناقض هنا يبدوا جلياً، فإذا كان خريجو الشرق تأثروا بالأفكار الناصرية والبعثية كما يقال، فهل الذين درسوا على يدي الفرنسيين والجامعات الفرنسية لم يتأثروا بالفكر الفرنسي؟! هل هم معصومون من هذا التأثر؟؟ وهل لهم طبيعة خاصة متميزة لا تؤثر فيها لا للغة الفرنسية ولا ثقافتها ولا علمها لأنه لا محتوى لهذا كله؟!

وأكثر من هذا فإن تهمة العجز لم يسلم منها **«المتعاونون العرب»** الذين تخرجوا من الجامعات الفرنسية، مثل الجزائريين الذين تخرجوا من الشرق وأتموا دراستهم في فرنسا نفسها وحتى الذين درسوا في أمريكا أو بريطانيا أو روسيا أو غيرها لم يسلموا من هذا الإرهاب الفكري ومن هذه الحرب النفسية الظالمة.

ومن مظاهر هذه الحملة على التوجه العربي بعد الإستقلال أن جماعة من العربيين أسسوا نادياً ثقافياً أطلقوا عليه اسم **(نادي الفكر العربي)**، وهو أول مشروع ثقافي عروبي ظهر بعد الإستقلال، ومعذرة إن جاء الحديث عنه أو عن

غيره من المشاريع وعن دور فيه وفيها، لأن مسؤولية هذا ترجع إلى الظروف في تلك الأوقات وهذا للتاريخ ليس أكثر قلت حين أسسوه اجتمعوا وانتخبوني رئيساً له، وكنت في تلك الساعة حيث مثلت الجزائر كرئيس وفد ومعي الشاعران المعروفان بوزيدي وخرفي في المؤتمر الرابع للأدباء العرب سنة 1960، ولما عدنا وجدت نفسي وقبلت التحدي. وأخذ نادي الفكر العربي ينشط ولكن لم يكن لنا مقر، فطلبنا من الصديق المناضل «**محمد داقي**» أطال الله عمره أن يمنحنا شقة له تقع فوق مقهى «**طانطافيل**» بساحة بور سعيد فلبى رغبتنا مشكوراً وبدأنا نشاطنا بإحياء ذكرى الأمير عبد القادر والشيخ عبد الحميد بن باديس ممن ناضلوا من أجل الجزائر وثقافتها وتوجهها العروبي الإسلامي إلى جانب الندوات والمحضرات التي تقام أسبوعياً وبتواضع حقيقي لم يسبق لغير هذا النادي أن قام بمثل هذا النشاط الأدبي والفكري من قبل. وبدأت المشاكل ورغم أن الرئيس بن بله قد شجع النادي، فإن العراقيل بدأت تواجهنا. فكلما طلبنا بمقر للنادي طلبوا منا أن نبحث عن أماكن شاغرة فكان أعضاء الهيئة الإدارية ومنهم الإخوة: «**عبد الله عثامنية وعمر برناوي وبوكعباش ونور عبد القادر والسائحي**» وغيرهم كثيرون ممن نسيت أسماءهم، يتجولون في الشوارع ويبحثون عن عناوين الأماكن الفارغة المغلقة ولأن وزير الشؤون الإجتماعية آنذاك كان قد وعدنا بإعطائنا مقراً من هذه المحلات. وكلما أعطيناهم عنواناً يصلح مقراً قالوا لا هذا نحتاجه أو أخذته المصلحة الفلانية أو الإدارة العلنية وفي آخر الأمر يئسنا وعرفنا أن اسم النادي وتوجهه هو علامة الشؤم وعليه فلو كان توجهه إقليمياً فرانكوفونياً لأعطي مقراً كبيراً ومؤثثاً!!

وحين قام انقلاب 1965 وبعد أن قد قدمت إستقالتي منه لأسباب خاصة انتخبت هيئة أخرى، وبعد بضعة أشهر سلمت المفتاح لصاحب الشقة وتفرق الجميع وذهب. النادي. ومازالت أسئلة كثيرة تحتاج إلى من يجيب عنها، عن الأسباب الحقيقية التي أدت إلى توقف هذا المشروع. ولكن يبقى أن السبب

الرئيسي هو توجه العروبي القومي وهذا ما لم توافق عليه الفرانكوفونية في عهد الرئيس الأول والرئيس الثاني .

هناك نموذج آخر يجسد هذا الصراع الثقافي ونظرة الفرانكوفوني إلى الثقافة العربية، وهو يتصل بتأسس **«إتحاد الكتّاب الجزائريين»** في سنة 1974 . فقد شنت عليه حرب من النوع نفسه لا لأنه يحمل شعاراً عروبياً – مثل النادي السابق الذكر – ولكن لأن أعضاء هيئته الإدارية هم: مالك حداد أميناً عاماً، عبد الله ركيبي الأمين العام المساعد وعبد الله شريط ومحمد الميلي وزهور الونيسي والجنيدى خليفة والأخضر عبد القادر السائحي وأبو العيد دودو وغيرهم أعضاء، ورغم أن مالك حداد كان لايعرف العربية فإنه لم يسلم من هجومهم لأنه كان عروبياً في روحه وفكره، ولأن بقية الأعضاء ثقافتهم أساساً هي العربية، وقد قاطع الإتحاد الكتاب الفرانكوفونيون باستثناء قلة قليلة، رغم أنه لم يفرق بين الكتّاب من حيث لغة الكتابة. ولعل تجربتنا مع **«حزب جبهة التحرير الوطني»** تبين أن الفرانكوفونية استطاعت أن تحاربنا حتى في عقر دارنا. فقد أسس الحزب **«لجنة الفكر والثقافة»** سنة 1973 وكان لي شرف رئاستها باقتراح أعضائها المؤسسين الذين كانو من المثقفين باللغتين وكلهم تقريباً خريجوا جامعات – عربية وغير عربية – وكان الهدف من هذه اللجنة أن يسهم المثقفون في الحزب ويدخلوا فيه بعد أن قطعوه ولم ينخرطوا فيه إلى جانب خدمة الثقافة الوطنية واللغة العربية بالدرجة الأولى.

وبدأت اللجنة تمارس نشاطها الثقافي والإعلامي وتفرغت عنها لجان متخصصة: **«لجنة الدراسات والبحوث»** ويرأسوها الدكتور «صالح باوية» وإن رأسها محمد العربي في فترة أخرى؛ **«لجنة التنشيط الثقافي»** تحت مسؤولية عبد الله عثامنية، **«لجنة التعريب»** والمسؤول عنها عبد القادر حجار **«ولجنة الإعلام»** تحت مسؤولية عمر برناوي.

قامت اللجنة بنشاط كبير ملأ فراغاً في الحياة الثقافية والأدبية والإعلامية وأنشأت نشرية بعنوان المسيرة وأحيت العديد من المناسبات الوطنية

والثقافية وحاضر أعضاؤها ومناصروها في شتى أنحاء الوطن ولكن العراقيل كانت تنصب لها في كل مناسبة، خاصة من الفرانكوفونيين، فمرة نجد قاعة الإجتماع مغلقة وأخرى يقطع عنا خط الهاتف وثالثة يتغيب المنسق بين اللجنة والحزب وهكذا. وحين نحتج أمام مسؤول الحزب يقول: **«أنهم يخافون منكم على أماكنهم»** ولكني أسجل هنا أن المسؤول عن الحزب في بداية السبعينات كان يدعم اللجنة في حدود ظروفه، ولكنهم كانوا أقوى منه ومن بومدين نفسه الذي شجعها كما شجعها أيضاً من العروبيين في الحزب والدولة وأن كانوا قلة. والواقع أنهم لم يكونوا يخشون على مناصبهم بقدر ما يخافون من توجه اللجنة العروبي لأنها تدافع عن العربية والعروبة والتعريب. وأعتقد أن مصير هذه اللجنة بعد ذلك يفسر ما تم، فاجأنا المسؤول عن الحزب بالدعوة إلى عقد ندوة للتعريب بسرعة، فاعترضت على هذا التسرع ولكنه أسر على موقفه فقدمت استقالتي. وتجمدت اللجنة لتحل محلها لجنة أخرى سأتحدث عنها بعد قليل.

على أنني للتاريخ أسجل هنا أن المشرفين على نادي الفكر العربي أو إتحاد الكتاب أو لجنة الفكر والثقافة كانوا متطوعيين مثل الأعضاء تماماً لم يتقاضوا **«سنتيماً»** واحداً مقابل هذا الجهد، إن بعضهم كان يستعمل سيارته لتوصيل الآخرين إلى منزلهم إذ كانت الإجتماعات في لجنة الفكر والثقافة خاصة تمتد حتى منتصف الليل في أحيان كثيرة، ولم يطلب أحد منهم لا سيارات ولا مساكن ولا أية امتيازات من أي نوع، كانوا فقط يؤمنون بالثقافة الوطنية ويدافعون عن العربية وعن هوية شعبهم وتاريخه.

كانت الجنة التي حلت محل لجنة الفكر والثقافة بالحزب تسمى **«لجنة التعريب»**، وكانت في البداية لجنة فرعية ثم أصبحت وطنية، ورأينا ماذا تحقق بعد أن انعقدت الندوة وبعد اجتماعات شارك فيها المسؤولون على اختلاف مسؤولياتهم ومواقعهم، وفي نهاية المطاف عربت الشوارع بدلاً من تعريب التعليم والإدارة وذهب اقتراح الرئيس بومدين في تلك المناسبة أدراج الرياح، ومطالبته بانشاء **«أكاديمية19 جوان»**. ولم يبق من عهده فيما يتعلق بالتعريب سوى **«المدرسة الأساسية»** أما خطبة وقرارته وأوامره فقد كان مصيرها سلة المهملات **(ومعذرة للتعبير)** ولم يستطع أن يخرجها من أدراج الفرانكوفونية لأنها صاحب الأمر والنهي والتطبيق، وإن كان الظاهر أن على قمة الحكم مثقف درس بالأزهر!.

وهذه الأساليب في الدعوة إلى التعريب ورفع شعاره دون تطبيق فعلي هي التي سماها بشير بومعزة بالملغم Amalgame [1] وقد أخفقت: **«بسبب السياسة الديماغوجية القاسية التي ضحت بالكيف من أجل الواجهة، وضحت بالعروبة نفسها التي هي التعبير السياسي للوفاء بالمثل العليا لكفاحنا الوطني ومن أجل وحدة المصالح والمصير المشترك للشعوب العربية...»** [2].

وهذا بيت القصيد، فبومعزة يدرك مثل العروبيين المخلصين أن التعريب مرتبط بالعروبة، وما دامت هذه غير معترف بها فإن التعريب افرغ من محتواه. ففي عهد بومدين استغل هذا الشعار لتغطية الحقيقة المرة، بينما كان المفوض

---

[1] أصل الكلمة عربي من فعل « لغم» وأحد معانيها بعد زيادة ألف في أولها (الغم) هو خلط الذهب وما شابهه بالزئبق فهو « ملغم» بضم الميم. («المنجد» - المطبعة الكاثوليكية بيروت – 1960 ص: 726).

[2] « لا أمير ولا آية الله» - بشير بومعزة – مطبعة كانا – باريس 1984 ص: 181 - 182.

والواجب يقتضيان: «**أن يرتبط بمواقف سياسية عروبية أكثر ترابطاً وتضامناً...**»[1] [2]

هذا رأي عروبي في التعريب وفي التوجه القومي وثقافته، ولغته أولى هي الفرنسية التي يؤلف بها عن تمكن وقدرة فائقة، بينما كثير من هؤلاء الفرانكوفونيين الإقليميين لا يحسنون هذه اللغة ولكنهم يدافعون عنها للدوافع التي أشرنا إليها سابقاً.

والشيء نفسه يقال عن «**المجلس الأعلى للغة عربية**» ثم «**مجمع اللغة العربية**» في عهد الئيس الشاذلي بن جديد وكيف افرغ محتواهما وأهالوا عليهما التراب، بعد أن ملأوا الجو كلاماً صباحاً مساء، وبعد زوابع صاخبة من الأحاديث والخطب ولم يتحقق شيء لا للعربية ولا للتعريب مثل أي مشروع يتصل بهما وبالثقافة العربية وما أكثر هذه المشاريع طوال فترة ما بعد الإستقلال [3].

ونحن لا نتهم أجداً بالذات، ولكن التهمة موجهة إلى الفرانكوفونية والجهوية والإقليمية، فهذه هي سبب فشل المشروعات الخاصة بالعربية لأنها تعرف أنها تخدم التوجه الذي يعادونه ويحاربونه قولاً وفعلاً حتى إنه ليمكن القول: إذا وقع تخريب في التعريب فابحث عن الفرانكوفونية!!

---

[1] المصدر نفسه ص: 177 .

[2] واذكر بهذه المناسبة أنه حين استقبل الرئيس الراحل بومدين أعضاء الهيئة الإدارية لإتحاد الكتاب بعد تاسيسه مباشرة، ولكنه حاول إقناعنا بانه يتقدم وحين ذكرت له أن قرارات 1971 قد أغلق عليها في الأدراج بينما التقارير تقول له أن التعريب يسير على أحسن مايرام وصربت له أمثلة كثيرة فأقر وجهة النظر هذه، وكان بحضور مسؤول الحزب ووزير الثقافة والإعلام ومدير الإعلام بالرئاسة. وهذه هي الديماغوجية التي تحدث عنها بومعزة، فالشعارات والتصريحات كثيرة ولكن التطبيق لا وجود له على أرض الواقع في تلك الحقبة.

[3] انظر تحقيقاً مفصلاً شارك فيه أساتذة جامعيون أبدوا استياءهم من تجميد مشروع مجمع اللغة العربية في جريدة المساء - بتاريخ 21و 22 جوان 1991 ففيه تحليل شامل للظروف والأسباب التي أدت إلى تجميده والسكوت عليه.

إن هذا الفكر التغريبي هو الذي يرسل أعداداً قليلة من الطلبة إلى المشرق العربي ولكنه، يدفع بالمئات إلى الجامعات الفرنسية، وهو نفسه يحضر المؤتمرات التي تعقد في فرنسا وأوروبا، ولكنه يتجاهل مثلها في الأقطار العربية، يرحب بالتعامل مع المؤسسات الثقافية والإقتصادية الفرنسية ولكنه يرفض التعامل مع مثيلاتها في البلدان العربية. وسأضرب مثالاً واحداً وهو أن الأخوة العرب قد سبقونا في تعريب المصطلحات العلمية تعريباً دقيقاً، وعلى أيدي أساتذة يحسنون إلى جانب العربية لغات أخرى أجنبية. وهي الآن تستخدم في جامعاتهم ومعاهدهم على نطاق واسع، ولكننا هنا نرفض جلب هذه المصطلحات ونصر على أن نترجم عن الفرنسية بعربية ركيكة تفتقر إلى الإتقان والدقة مما يسبب تشويشاً ذهنياً لدى طلابنا وذلك حتى لا نوجد أي نوع من الصلات بيننا وبين الأشقاء. ولعل قصة **«معهد الترجمة»** التابع للمنظمة العربية والثقافة والعلوم **«(أليسكو)»** تفق شاهداً أيضاً على هذا الموقف غير العروبي. فقد رفضوا أن يكون مقره هنا مثلما رفضت مؤسسات أخرى كثيرة تنازل عنها الأشقاء العرب للجزائر، ومنها مقر **«إتحاد الجامعات العربية»**، وأيضاً مثل الإتفاقيات العديدة التي تبرم مع الحكومات والجامعات العربية وتبقى بدون تنفيذ لأنها مجرد ذر الرماد في العيون، أما ما يعقد مع فرنسا فيطبق بحماسة منقطعة النظير والحجة جاهزة. فالمصلحة **«الوطنية»** هي الطبل الذي يدقون عليه، أما العرب فماذا يعرفون أو يملكون؟! إنهم مثلنا متخلفون!!

وللمقارنة بين موقف الفرانكوفونية من الشهادات الفرنسية والعربية نعيد إلى الأذهان تلك الحرب الرهيبة التي شنتها على أصحاب هذه الشهادات بعد أن حصلوا عليها من مصر وسوريا أو العراق أو غيرها، وتقدموا لمعادلتها في الجامعة وخاصة في الستينات وبداية السبعينات. ومن مهازل الفرانكوفونية في هذا المجال أن الذي يوافق على المعادلة وينظر في أمر هذه الرسائل شخص لا يحمل شهادة **«البكالوريا»** ويحكم على دكتوراه الدولة والماجستير من تلك الجامعات المذكورة بل والجامعات الأخرى الغربية والشرقية مثل أمريكا،

بريطانيا، ألمانيا، وروسيا وغيرها من الأقطار غير الفرانكوفونية. أما الشهادات الفرنسية فهي معادلة تلقائياً وحسب إتفاقية إيفيان، ومازلنا حتى الآن نعادل أمثال هذه الشهادات من الخارج بشهادة «**دكتوراه الدولة الفرنسية**»، لأننا لم ننشئ بعد دكتوراه جزائرية ذات مواصفات محددة وقواعد خاصة كما يفعل الناس في العالم، وهذا كله خدمة للثقافة الفرانكوفونية وشهاداتها ولغتها وثقافتها!!

وما زالت أذكر موقفاً بل مواقف مشابهة نسجلها للتاريخ والتبيان ما تعمله الفرانكوفونية بوعي خدمة للغة الأجنبية ورفضاً للتوجه العربي. فهناك زميل وصديق لن أذكر اسمه عاد من فرنسا في أوائل السبعينات بعد أن حصل على الدكتوراه «**من الطور الثالث**» وعندما توجهت معه إلى عميد إحدى الكليات في ذلك الوقت وشرح له الزميل رغبته في التدريس بجامعة الجزائر، ورغم أنه ذكر له بأن شهادته من «**السوربون**» إلا أنه سأله عن شهادة الليسانس من أين؟ فلما عرف أنها من جامعة القاهرة قطب جبهته وطلب منه نسخة منها لإحراجه، وكاد الموقف أن يؤدي إلى جدل ساخن لولا أنني تدخلت حتى لا يقف هذا العميد في طريق الأستاذ الزميل.

فالنظرة إذن إلى التكوين الأصلي هي منطلق أمثال هذا المسؤول في الجامعة وفي غير الجامعة، وبالتالي فإن الذي يفرق بين إتجاه وآخر هو هذا التكوين وهذه الثقافة، وكأن الدراسة في غير فرنسا، تجعل صاحبها محل شك وطني وبيداغوجي وعلمي. وتلك جناية الفرانكوفونية على التعريب والعروبيين، وهناك قصص كثيرة محزنة حقاً من هذا القبيل الذي رويته واقتصرت فيه على ناحية واحدة هي معادلة الشهادات، أما قضايا السكن والترقيات وغيرها فحدث ولا حرج، وقد عانينا من هذا طويلاً رغم أن هؤلاء الفرانكوفونيين يزعمون أنهم تعلموا المناهج والمنطق وتعمقوا الثورة الفرنسية ومبادئها، ومع هذا ينسون ما قرأوا إذا ما تعلق الأمر بالعربية والعروبة وأصحابها!

أما مجال الإدارة فإنها محرمة **«بظهير»** فرانكوفوني على العروبيين والمعربين معاً، فلا يدخلونها حتى ولو كانت لهم أرقى الشهادات ومن أفضل الجامعات شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً. فهي حكر على الفرانكوفونيين الذين ضربوا عليها سوراً سميكاً لا يدخله من يعرف الحرف العربي. وحين نصل إلى المجال العلمي وما يزعمون أنه تقني لا تصلح له العربية، فهذا ليس حكراً فحسب ولكنه الخط الأحمر الذي لاتتجاوزه العربية ومثقفوها، ولو ضربنا أمثلة أخرى لمجالات أخرى لاحتجنا إلى مؤلفات وكتب كثيرة!!

والإعلام نفسه لا يخرج عن هذا المدار، فأغلب المؤسسات تدار **«بالفرانكوفونية»** إدارة وتسييراً وتوجهاً. وتبقى بعض الصحف التي أسست منذ الثورة وبعد الإستقلال مباشرة بالعربية. لكن المنشورات والتعليمات والقرارات والأوامر كلها أو أغلبها بالفرنسية. يكفي أن نعرف أن وزارة الثقافة والإعلام من الإستقلال حتى قبل أحداث 1988 لم يكن على رأسها عروبي باستثناء وزير واحد هو عبد الحميد مهري. والشيء نفسه يقال بعد أن انفصلت الثقافة عن الإعلام. أما التربية فقد أشرف عليها عروبيون ربما لا يزيدون على أصابع اليد الواحدة. وحتى هؤلاء الذين يحسبون على العروبيين فإنهم كانوا وما زالوا يخضعون لتأثير الفرانكوفونية ومناوراتها وإفراغها للتعريب من محتواه لأنها أقوى منهم ولأنهم يسايرونها ويمالئون أصحابها كي يحافظوا على مكانتهم ووجودهم !!

أما الوزارات الأخرى فمن النادر أن نجد فيها عروبياً واحداً باستثناء العدل والمجاهدين والشؤون الدينية. وحتى هذه الوزارات أسندت في بعض الأحيان إلى فرانكوفونيين. ويزداد الأمر سوءاً في مسخ الأسماء، أشخاصاً أو أماكن أو غيرها بسبب نطق الفرنسية حتى أصبح أصلها غير معروف، وهذا بغرض محو أي أثر للنطق العربي، وما أكثر الأسماء التي أصبح نطقها فرنسيا وكأن أصلها من هناك لا من هنا، وحتى المؤسسات يرمز إليها بحروف حسب اللغة

الأجنبية ورموز الشركات تؤخذ من الحروف اللا تينية ثم تترجم إلى العربية ويبقى نطقها بالطبع فرنسياً!!

ونستعير من هناك رأساً الإستمارات الإدارية المختلفة والقسيمات وقد تتغير في البلد الأصلي فتتغير بدورها هنا. حتى ولو كان هذا التغيير لا يصلح لإدارتنا الجديدة، ناهيك عن أنها أصلاً غير صالحة لها. وأكثر من هذا فإن تسمية الوزارات تؤخذ بالمصطلحات نفسها التي تستخدم في الضفة الأخرى فإذا ظهرت وزارة **«منتدبة»** هناك فلا بد أن نوجدها لدينا حتى ولو كان مفهومها غامضاً لدى الشعب وربما حتى لدى أصحابها!!

كل هذا يحدث ويشاهده المسؤولون في مختلف المستويات ولا يتأملونه أو ينبهون إليه، وكأنه شيء طبيعي، وكأن العربية عاجزة عن كتابة مصطلحات أو كلمات أو تعابير عادية لا تحتاج إلى فكر عميق أو تقنية صعبة. ولكن العادة تجعل هذا المسؤول يشاهد الإعتداء السافر على اللغة الوطنية ولا يحرك ساكناً. ولم أقرأ أو أسمع أو أشاهد مسؤولاً مر على **«الحرف اللاتيني»** ورآه ينبت كل يوم ولا يصدم عينيه أو نظره بل يراه شيئاً عادياً مألوفاًن أليس هذا من الظواهر الجديرة بالتحليل والتعليق. وليس هذا مقصوراً على الفرانكوفونيين بل حتى ويا للأسف لدى العروبيين أو قل المعربين المسؤولين أو الذين تضعهم الظروف في مواقع المسؤولية أو المناصب العليا إلا في القليل النادر، لأن الوضع العام الذي تعيشه البلاد والمناخ الفرانكوفوني السائد والإنطواء على الذات وروح الإقليمية الطاغية، كل هذا يجعل هؤلاء المسؤولين يغضون الطرف ويسايرون الواقع ولا يغيرونه أو يعملون على تغييره حتى ولو بالكلام. وأتمنى لو أن واحداً منهم تحداني وذكر لي مناسبة ما استنكر فيها ذلك أمام مسؤول ما في فترة زار فيها مثلاً مشروعاً من المشروعات أو قرية أو مدينة وألقى ولو ملاحظة عابرة للمسؤول المباشر الذي يشاهد في كل لحظة الحرف اللاتيني ولا ينبس ببنت شفة كما يقال. أما ما يرد في التلفزة في هذا المجال فنعرف دوافعه وأغراضه وعرفنا نتائجه حتى الآن ولا يحتاج إلى تعليق!!

وحبذا لو كان المقام يتسع لأمثلة كثيرة تتصل بالموضوع من قريب أو بعيد، فالفرانكوفونية مثلاً – الآثار الرومانية على الآثار الإسلامية. فإذا جاءنا زائر **«مهم»** فإن تيبازا تستقبله وتترجم له إن كان لا يعرف الفرنسية، أما الذي يعرفها فلغته موجودة تنطق حتى بحرف **«الغين»** – الذي يلفظه الباريسيون – فلا يشعر بالغربة وهو يغادر وطنه الأصلي. ولا نذكر الأسماء القديمة مثل يوغرطة ويوبا وماسينسا والكاهنة وغيرها من الأسماء البربرية فإنها تبقى جزائرية أولاً وأخيراً. وليس هناك من يعترض عليها، ولكنها لو جاءت عفواً ودون قصد وإنما ينوه بها لأنها ترمز إلى **«إقليمية خاصة»** وليس الغرض منها بريئاً وهو إحياء التراث كما يقال، فذلك أمر يهم الجزائريين جميعاً. ولكن الهدف هو إضفاء روح هذه الإقليمية الضيقة وإبعاد صبغة العربية والعروبة عن المعالم التاريخية والجغرافية والحضارية، بحيث يكون **«الإنتماء»** إلى فترة قديمة بل موغلة في القدم، لا إلى فترة أحداث منها إمعاناً في فصل الجزائر عن دائرتها الحقيقية وهي دائرة الأمة العربية. وهي الفكرة ذاتها التي نادى بها إقليميون في مصر والشام – كما سبقت الإشارة – ولا زال بعضهم يلح عليها ويكرس جهده لها رغم أنها ضد رياح التاريخ والواقع والمصير. وهذا ما يفسر أيضاً وجود أسماء لمستعمرين فرنسيين في شوارع ومختلف المدن الجزائرية كما كانت في عهد الإحتلال، ومنها أسماء قادة وملوك فرنسيون شنوا الحرب على الجزائر وحطموا حريتها واعتدوا على كرامتها وساموا أهلها العذاب ألواناً شتى، ومع ذلك بقيت أسماؤهم منقوشة على شوارعنا حتى اليوم. وقد رأيت هذا بنفسي ومعي شهود بإحدى المدن في شهر ماي المنصرم، وأظن أنها ستبقى تذكرنا بالماضي وبدور الفرانكوفونية في المحافظة على التاريخ!!

ويمكن أن نعمم الحكم على مجالات أخرى يظهر فيها دور الفرانكوفونية في تدمير الثقافة والفن. فهي لم تتخذ موقفاً واضحاً منهما بل تركت المجال لكل من هب ودب حتى لا يكون لدينا ثقافة قومية أصيلة وفن عربي مثل غيرنا. فلا نحن أوجدنا فناً شعبياً حقيقياً ولا عربياً متطوراً، ولذا

شنت حرباً بلا هوادة على الفن الشرقي وعلى السينما والمسرح العربيين من هذا المنطلق. وهي لا تتحرج من كتابة الأغاني بالحروف اللاتينية فيأتي نطقها مضطرباً عيياً لا هو بعربي ولا هو فرنسي، بل هناك من الأغاني ما يمزج بين اللغتين إلى جانب الهبوط والإبتذال في التعابير والكلمات مما شوه الفن عندنا تشويهاً لم يساعد الناس على تهذيب أذواقهم وترقية أحاسيسهم أو إفادتهم، وهو هدف الفن.

بل بقيت الخشونة ظاهرة في هذا الفن. فالدراجة مسخت والعربية الفصحى أضعفت، بحيث أصبحنا حين نسمع الأغاني الجزائرية لا نعرف لها لوناً أو شكلاً أو شخصية مميزة، تعكس الشعوب العربية وهذه هي جناية الفرانكوفونية على الحياة الثقافية والأدبية والفنية بل وعلى المجتمع كله.

وحتى في رصد الجوائز وفي المسابقات الأدبية والثقافية، تشجيعاً للمبدعين وإحياء للمآثر والأمجاد، حتى في ذكرى الثورة المجيدة فإن الفرانكوفونية تسوّي بين العربية والفرنسية وتشجع هذه مثل تلك وفي المستوى نفسه وبالمبالغ ذاتها، أليس هذا من تناقضات الواقع الذي عاشته وتعيشه الجزائر الحرة المستقلة؟؟!

والخلاصة أن التوجه العربي للجزائر طغت عليه الديماغوجية والسلبية معاً. ففي عهد الرئيس بن بله – رغم عروبيته – كان الإعتماد على الفرانكوفونية، ولم يتخذ قراراً حاسماً من أجل التعريب كما فعل الفييتناميون بعد ثورتهم، كذلك فإن الرئيس الراحل هواري بومدين إعتمد على الفئة الفرانكوفونية التكنوقراطية ذاتها ولم يستطع – كما سبق لي القول – أن يطبق القرارات الخاصة بالتعريب، لأنه اهتم بأشياء كثيرة أخرى وترك الأمر للتطور وللزمن وللمدرسة الأساسية. وقد تحقق بعض ما كان يحلم به. أما الرئيس الشاذلي بن جديد فرغم نواياه الطيبة فإنه جاء في ظروف صعبة، فلم يستطع وخاصة في بداية توليه الحكم أن يفرض التعريب بل وحتى المؤسسات

التي أنشأها كي تساعد على التعريب اصطدمت بالفكر الفرانكوفوني الذي أصبح مهيمنا على الحياة كلها.

من هنا ومن خلال هذا كله شوهت الفرانكوفونية صورة الجزائر وكذلك من خلال الوفود التي تسافر شرقياً وغربياً. فالحديث فيما بين أعضائها – في الغالب – بالفرنسية ومع غيرها أيضاً وحتى في الشوارع وفي المحلات التجارية التي **«يتسوقون»** منها. وقد تعرضت لموقف أكد لي هذا حين زرت الإتحاد السوفييتي عام1974 بدعوة من إتحاد الكتاب لحضور الذكرى الأربعين لتأسيسه، وهو الذي أنشأه الأديب مكسيم غوركي.

وفي المطار وجدت في انتظاري مع من استقبلني مترجماً بالفرنسية وعندما سألت: لماذا الفرنسية بينما الوفود العربية الأخرى يترجم لها بالعربية قالوا لي: في العادة لا يأتي من عندكم إلا من يتكلمون بالفرنسية وهذه هي المرة الأولى التي يأتينا فيها مثقف بالعربية من الجزائر!

أما البعثات الديبلوماسية إلى الخارج فيكفي أن يعرف القارئ الكريم أن أكثر من 90 ٪ من مثلي الدولة الجزائرية في الخارج من الفرانكوفونية الجزائرية في الخارج من الفرانكوفونيين – لغة وثقافة وفكراً – وهناك منهم من يتحدث لغة البلد الذي يذهب إليه ولا يتحدث لغته هو. وتحضرني هنا قصة عشتها بنفسي حين كنت في لندن سنة 1980 للدراسة، وكنت أتلقى دروساً في اللغة الإنجليزية مع السفير الجزائري آنذاك الأخ عبد الكريم بن محمود وديبلوماسيين آخرين في معهد **«البوليتكنيك»**، وكان هذان الديبلوماسيان لا يعرفان العربية ولكنهما يبذلان جهداً كبيراً لتعلم الإنجليزية، وحين ذكرت هذا للسفير قال لهما: **«لماذا الإهتمام بالإنجليزية ولا تهتمان باللغة الوطنية أولاً»** فكستا ولم يحيرا جواباً. وأكثر من هذا أنهما حين يأتي ديبلوماسيون عرب إلى السفارة يقوم بالترجمة بينهم القنصل الذي يحسن اللغات الثلاث. وهذا الذي كان يحدث في لندن من المؤكد له شبيه في سفارات أخرى عديدة، وهي ظاهرة عامة بالنسبة للديبلوماسية الجزائرية وأيضاً بالنسبة لمجالات أخرى غيرها مما

قال فيه الدكتور أبو العيد دودو: «**فالجزائري الذي نراه يتعلم في ظرف سنة اللغات الإنجليزية والروسية والألمانية ليقدم أبحاثاً وأطروحات كيف له أن يجد صعوبة بخصوص اللغة العربية التي هي لغته...**»[1]. ولكن الصعوبة في الواقع هي العقدة ومركب النقص تجاه العربية التي زرعتها الفرانكوفونية في نفوس هؤلاء، وعدم إيمانهم بهويتهم القومية وانتمائهم الحقيقي إيماناً قوياً راسخاً يدفعهم إلى دراسة لغتهم الوطنية.

وفي خاتمة هذا الفصل نسجل أن العروبيين والمعربين واجهوا هذا «**الطوفان**» المدمر للفرانكوفونية ودعاتها بمواقف مختلفة وبأفعال لا بأقوال، فكان لهم الفضل في أن تعود الجامعة الجزائرية – مثلاً – إلى شخصيتها العربية الأصلية بعد أن استماتوا في الدفاع عن هذه الشخصية وعن الهوية العربية الإسلامية، وطوروا في البحث العلمي باللغة الوطنية وغير هذا من المواقف في مجال التعليم عموماً. ولا يزال شعبنا يتذكر مظاهرات الطلبة الأولى من أجل التعريب سنة 1971 ومنهم من تعرض للضرب والإهانة القاسية، حتى أن وزير الداخلية الذي أعطى الأوامر وقتها أقسم أن التعريب لن يدخل **(وزارته)** مادام هو فيها، وإن المسؤول عن جبهة التحرير فيما بعد قال لوفد الأساتذة: «**عندما تكون لكم قرون تعالوا لتناطحونا بها**»، طبعاً بالدارجة وهو نفسه كان يخطب في الجماهير بفرنسية فصيحة وأمام الفلاحين الذين لا يعرف الكثيرون منهم لا الفرنسية ولا العربية!!

ومن الصعوبة أن نتحدث عن المظاهرات في الجامعات الأخرى وإطلاق «**الكلاب**» على الطلبة وضربهم بالهراوات وقطع الحديد وكسر أسنان البعض منهم وسجن البعض الآخر أو عرقلة مصالحهم المادية والمعيشية، **(هذا في عهد الإستقلال والحرية)** وذلك لأنهم قاوموا الفكر الفرانكوفوني والتوجه الغربي. ومن يعد إلى فترة السبعينات ويبحث عن الحقيقة سيجدها محزنة حالكة الوجه فيما يتعلق بالصراع بين الفرانكوفونية وبين العروبيين وفكرهم وتوجههم

---

[1] المساء 6/ 1/1991.

الأصيل وإخلاصهم لوطنهم. ولما كان هؤلاء هم الجانب الأضعف في المعادلة، فقد دفعوا ثمناً غالياً، ولعلهم مازالوا يدفعونه حتى كتابة هذه السطور. وما يقال عن مجال الجامعة والتعليم يقال عن ميادين آخرى كثيرة، مما لا يسمح المجال بذكره، بل هو يحتاج دراسة عميقة مفصلة موثقة تؤرخ وتحلل لدور المثقفين والعروبيين والمعربين في الحياة الثقافية والفكرية والأدبية وغيرها. يتفق في هذا الرواد ومن جاء بعدهم من أجيال لاحقة مازلت صامدة أمام زحف الفرانكوفونية الذي لا حدود له.

الفصل الثاني: الوجه الجديد للفرانكوقزنية بعد 1988

يمثل تاريخ 5 أكتوبر 1988 نقلة جديدة في المسار السياسي – على الأقل – بالنسبة إلى حاضر الجزائر ومستقبلها. فهو بمختلف المقاييس أصبح فاصلاً زمنياً هاماً في حياة الشعب والمجتمع والفرد. فقد دخلت بلادنا منعطفاً جديداً ومرحلة مختلفة عن السابقة من عدة وجوه:

من الناحية السياسية: ظهرت التعددية الحزبية وساد مناخ ديموقراطي مهما قيل ويقال عنه يندر أن نجد له مثيلاً في أقطار المغرب العربي المجاورة أو البلدان العربية أخرى، وحتى في أقطار إفريقيا وآسيا. كما أن حرية القول أصبحت واقعاً محسوساً وبات الناس يعبرون عن آرائهم المختلفة بلا خوف أو مصادرة، كما آن حرية الإجتماع معترف بها قانوناً. وانتهى عهد الحزب الواحد والرأي الواحد والفكر الواحد و**«الأيديولوجية»** الوحيدة رسمياً وفعلياً، كما تعددت الشعارات في توجه البلاد منها. الجزائر الجزائرية، الجزائر البربرية الأمازيغية والإسلامية، وضعف الحديث عن التوجه العربي في كثير من أدبيات هذه الأحزاب. وانتشرت فكرة الدعوة إلى الإقليمية بصورة لا مثيل لها من قبل كما طغى الفكر الفرانكوفوني الغربي الذي يدعو إلى الغرب وإلى فرنسا بوجه خاص.

لقد انفجر الشعب في مظاهرات عارمة لم تحدث من قبل، وعاشت البلاد تحت حصار الدبابات، وانتشرت الفوضى والحرائق في كثير من مؤسسات الدولة وسقط كثير من الشباب تحت رصاص الأمن، وتبدلت المواقع وزالت الحجب وتمزقت الستائر. فالتقى أعداء الأمس وتعانقوا، وتفرق رفاق الماضي في السلاح والنضال من أجل حرية الوطن، تفرقوا إلى شيع وأهواء ومصالح ينهش بعضهم بعضاً.

تلك هي سمات المرحلة من الناحية السياسية والإيديولوجية وإن امتد خيط الماضي في تيار وطني عروبي إسلامي كما نادت به جبهة التحرير الوطني أيام الثورة التحريرية.

وفي الجانب الإقتصادي: تأكد التوجه إلى الليبرالية الرأسمالية الغربية، وزحف القطاع الخاص النظيف وغيره، وأصبح قوة رهيبة مهيمنة بعد أن كان في عهد **«الإشتراكية»** تابعاً وربما مهمشاً، وانتشرت للأفكار التي تدعو إلى هذا القطاع في المؤسسات العمومية **(القطاع العام)** وبدأت **«الإصلاحات»** التي ترتكز على إستقلالية المؤسسات وتحجيم الكبرى منها وتجزئتها ربما تمهيداً لبيعها إذا وجدت الظروف المناسبة، ولكن تحت ستار التحكم في التسيير والمر دودية. كما طغت على المجتمع بصفة عامة الروح المادية، وأخذ الناس يبحثون عن الربح والمنفعة الخاصة، كما ارتفعت نسبة البطالة بصورة مهولة وأخذ الجميع يغازل الخارج – رأسمالاً وشركات وحكومات ومجتمعات – وغير هذا من مظاهر جديدة على المجتمع الجزائري الذي تعود على مصطلحات: الثورة الزراعية، الثورة الصناعية، الثورة الثقافية، الطب المجاني، ديموقراطية التعليم، يرددها في الشارع وفي الإعلام وفي التربية والتعليم وفي المحاورات الخاصة والعامة وفي خطاب الدولة والمجتمع.

أما في الجانب الإجتماعي: فقد اضطرب الأمن الإجتماعي و**«تسيبت»** الأمور وبات الفرد لا يأمن على نفسه أو بيته أو أمواله، فانتشرت السرقة والإعتداءات بمختلف أشكالها وألوانها، وكاد ينفرط عقد الدولة التي كان من المفروض أن تحمي الناس وتوفر لهم الأمان، فإذا بها تترك الأمر للشعب يكيف نفسه ويحمي حياته وكأنها استقالت من مسؤولياتها! وعمت ظاهرة عجيبة وهي انتشار القضبان الحديدية السميكة على النوافذ والأبواب والشرفات، وانتشرت التجارة غير المرخص بها وهي ما يطلق عليها **«الموازية»** أو **«الطفيلية»** أو **«السوداء»** وغيرها من التسميات التي لم تكن موجودة، وانفجر المجتمع وكأنه كان في سجن رهيب وخرج ما في الأعماق بعد كبت طويل.

والعنصر الإيجابي في هذه الأحداث هي أن الناس واجهوا الواقع بالنقد لا بالهروب والسلبية.

وربما كان الجانب الثقافي والإعلامي أكثر تمزقاً واضطراباً، فكثير من النزعات الثقافية والفكرية برزت للعيان، المدافعون عن عروبة الثقافة ومستقبلها خرجوا من سلبيتهم نسبياً، أما المدافعون عن الثقافة البربرية الأمازيغية فقد أعلنوا عن ذلك وعلى الملأ وفي الندوات والمحاضرات والصحف والمنابر المختلفة. كذلك فإن دعاة الثقافة الغربية والتوجه نحو فرنسا أسفروا عن وجوههم بلا أدنى تقية بعد أن كانوا يناورون ويتسترون تحت مقولات معروفة. وهناك دعاة الثقافة الإسلامية إنتشروا هم الآخرون في شتى أنحاء الوطن يمعمقون منها وينشرونها بين الناس، واختفى الإجماع على اللغة العربية باعتبارها لغة رسمية وطنية وجاء من يزاحمها رسمياً وواقعياً.

أما الإعلام فقد وجد متنفساً له في التعددية. فإلى جانب الصحف الحكومية أنشئت الصحافة الحزبية والمستقلة، وطغت الصحافة الفرانكوفونية إلى درجة أنها أصبحت أضعاف الصحف العربية في حين أنها كانت قليلة نسبياً في الفترة السابقة إلى جانب ما تلقاه من دعم وتشجيع. ويكفي دليلاً على ذلك ما حدث في أول نوفمبر لجريدة **«الخبر»** المستقلة باللغة الوطنية حيث كان احتفالها بأول عام لصدورها حزيناً باهتاً بسبب الظروف المادية والمعنوية القاسية التي تعمل فيها الفئة العروبية المشرفة عليها، ويقارن احد الكتّاب هذا الوضع بالحفل البهيج الذي اقامته قبل اشهر جريدة مماثلة تصدر باللغة الفرنسية حيث: **«حضره إضافة إلى جوق الموسيقى الراقصة رئيس حكومة ووزراء وحاشية ومناصرون ومتعاطفون والمؤلفة قلوبهم على حب الفرنسية...»** [1].

وهذا وهذا التوجه نحو الفرانكوفونية هو الذي أدى إلى إلغاء **«وزارة الثقافة»** وإنشاء **«المجلس الأعلى للإعلام»** و**«المجلس الخاص بالوسائل السمعية**

---

[1] المقال كتبه 1. سوالي في جريدة «الصح آفة» العدد 40 من 12/6 نوفمبر1991.

البصرية، حتى لا تكون هناك شخصية لهذه الثقافة الوطنية وتميع في مؤسسات لا تعطي صورة لها كما كانت في السابق . وهذا كله قبل أحداث جوان 1991 المؤلمة حين عادت مؤسسات كانت قد ألغيت.

هذه صورة مختصرة لملامح المرحلة الجديدة تتفرع عنها تفاصيل ومحاور كثيرة، بعضها مستمد من الماضي وبعضها خلقه الحي المتطور. والحقيقة أن التاريخ لا تنفصل علاقاته، وقد يتكرر، ولكن بصورة جديدة قد تكون إيجابية وقد تكون سلبية، لأن الأفكار لا تموت نهائياً إلا في حالات نادرة، ولكن قد تتطور وتنمو وتأخذ قسمات جديدة وظواهر جديدة. فالحزبية مثلاً في الجزائر اليوم هي رجوع إلى الماضي فيما قبل ثورة نوفمبر المجيدة التي قضت عليها بوسائل كثيرة ولكنها عادت بطريقة أخرى نظراً لاختلاف الأشخاص والأساليب والمناهج والأفكار والظروف.

ولقد رأينا هذا في مصر مثلاً بعد عبد الناصر. فقد عادت الحزبية من جديد وعادت الألقاب التي كان الناس يخجلون من ذكرها مثل **«البك»** و**«الباشا»** أيام عبد الناصر، لأنه ألغاه ورفض أن تبقى رمزاً لعهد إقطاعي بغيض. ولكن في عهد خلفه السادات رجعت بصورة كبرى لأن الطبقية نفسها عادت بقوة وأصبح صوتها مسموعاً. والشيء نفسه يقال عن الأخلاق، فانتشار الرشوة في الجزائر وكذا **«العروشية»** و**«الجهوية»** و**«الحسوبية»** هي من موروثات العهد الاستعماري، فقد بثها بوعي وإصرار وزرعها في الأوساط الرسمية خاصة حتى يفتت ويحطم قيمه وأخلاقه الأصلية، بحيث كان المواطن لا يستطيع أن يستخرج قسيمة الميلاد إلا إذا دفع رشوة، وهكذا إلى حد القتل. حيث يمكن للمجرم أو المنتقم لثأره أن يقتل في النهار وأمام الشهود دون أن يخطى السجن يوماً واحداً، لأنه يدفع إلى موظف فرنسي أو جزائري أو شخصية تتمتع بالسطوة أو النفوذ فلا يحاكم وإذا حوكم يخرج براءة. وكان المسؤولون الفرنسيون لا يتورعون عن الرشوة وأتباعهم وأذنابهم حسب السلم الإجتماعي أو الوظيفي، وهذه حقائق يعرفها من عاش قبل الثورة. وقد عادت هذه الآفات الإجتماعية بعد

الإستقلال، ولكنها لم تعد دفعة واحدة بل زحف شيئاً فشيئاً وحسب الظروف والمراحل، وتبدأ من أسفل السلم إلى المستوى الذي يتحدث عنه الناس وكذا المسؤولون الآن، فالإختلاسات والنسب المئوية والمشروعات الوهمية، كلها من هذا القبيل وإن أخذت ملامح خاصة.

فإذا كانت الأفكار لا تموت كلها فكذلك الأخلاق، إيجابية أم سلبية، فالقيم والمثل تعود من جديد هي الأخرى إذا وجدت الأشخاص الذين يدافعون عنها ويؤمنون بها ويلتزمون بها ووجدت الظروف الملائمة والبيئة المناسبة لظهورها من جديد وتحقيقها في الواقع، إذ وجد المثل الحي والقدوة الحسنة التي تنكر الذات. وثورة نوفمبر تعطينا الحجة، فأثناءها اختلفت أخلاق سيئة وظهرت أخرى فاضلة، ثم بعد الإستقلال ظهرت أخرى أيضاً. واليوم نلحظ أخلاقاً مختلفة وهكذا، فالمجتمع يتطور في فكرة وأخلاقه وسلوكه ومفاهيمه حسب الظروف والتربية والتوجيه.

وعلى سبيل المثال فإن «**الجهوية**» التي كانت موجودة فيها قبل الثورة وأثناءها لم تعد هي نفسها اليوم، ولكنها أصبحت سافرة الوجه تتحدى التاريخ والوحدة الوطنية والأمر نفسه ينطبق على «**الإقليمية**»، و«**الطرقية**» أيضاً عادت بعد صمت طويل ربما بما زاد على الأربعين عاماً!!

وكان من الصعب الحديث عن «**اللائكية**» و«**العلمانية**» أثناء الثورة وبعد الإستقلال ولكنه اليوم عاد بعد أحداث أكتوبر يتحدى أصحاب التيار الإسلامي السياسي، كما وجد أنصار لهذه الفرقة أو تلك بعد أن كان الناس لا يتجرأون على مهاجمة «**الإسلاميين الأصوليين**» كما يطلقون عليهم اليوم. فإذا كان الحديث عن فصل الدين عن الدولة في عهد الإحتلال الفرنسي قد وجد آذاناً صاغية لدى الشعب الجزائري لأن الحكم كان أجنبياً، ولأن الدين الإسلامي كان مضطهداً مثل العربية والشعب الجزائري كله، فإنه في الوقت وفي ظروف الجزائر بعد الحرية لا يتماشى مع التيار العام للشعب لأنه في عمومه لا يفصل بين الإثنين. لذلك تسابق الناس إلى الإنضمام إلى الأحزاب الإسلامية

رغم اختلافها في طريقة التطبيق وفي الاجتهاد، والشيء نفسه بالنسبة للعلمانيين فهم – يميناً ويساراً – يختلفون في فهمهم للدين ودوره في الحياة، وإن اتفقوا على إبعاده من الحكم والسلطة والسياسة.

ووجد التيار العروبي نفسه وجهاً لوجه أمام الفرانكوفونية بمختلف شرائحها، والنزعة الإسلامية الخالصة التي لا تؤمن بالعروبة، والتيار الأمازيغي، واتخذ الصراع منحى عنيفاً لفظاً وأسلوباً ودار حول القضايا التي يمكن أن نجعلها فيما يلي:

أولاً: الهجوم على العربية والعروبيين وعلى «**الرموز الوطنية**» بصورة رهيبة.

ثانياً: تحميل الدولة المسؤولية فيما يتعلق بالتعريب.

ثالثاً:انتشار الإسلام السياسي وموقف خصومه منه.

رابعاً: المطالبة بأن تكون اللغة البربرية (**الأمازيغية**) لغة وطنية ثانية، كما اعتبر البعض أن الفرنسية لغة وطنية أخرى!

خامساً: ظهور مصطلح حزب فرنسا ودعوة البعض إلى تأسيس حزب بهذا المفهوم.

سادساً: ظهور الأقدام السوداء في الجزائر وعمل فرنسا على الإبقاء على هيمنتها على الجزائر.

سابعاً: الوعي الجديد بعد معركة الخليج أو ما اصطلح عليه بحرب الخليج، والواقع العربي المتردي بسبب الحكام.

لقد وجدت الفرانكوفونية فرصتها الذهبية التي كانت تترقبها أمداً طويلاً، وساعدها على ذلك هذا الجو المشحون بالتوتر من جهة واضطراب الرؤية والتسيب من جهة ثانية، وتغيّر معطيات كثيرة في العالم من جهة ثالثة، والوضع الإقتصادي المتأزم من جهة رابعة. وأعلنت – بلسان فصيح – عن تشبثها المطلق بالغرب، فكراً وثقافة وحضارة، بينما كانت في السابق تحث على ذلك فقط وبلهجة هادئة مناورة تحاول الإقناع لا الفرض. أما الآن فإن الظرف الداخلي والخارجي ملائم تماماً لا للأرقام والمواقف بل للتهديد والترهيب، فأخرجت

الأقلام من غمدها، وانطلقت الأصوات من عقالها لا يردعها رادع، لأن ما بقي من قيم الثورة ومبادئها قد توارى عن الواقع وتحققت الخطط المرسومة والمدروسة طوال عهد الإستقلال، ونضجت الثمرة بعد السقاية والرعاية والعناية الطويلة النفس وأفرغت الثورة وكذا الإستقلال من محتواهما القومي والإجتماعي والروحي.

وهنا جاء دور التوجه العروبي ودور العربية والعربيين ليحملوا جميعاً وزراً لم يرتكبوه أبداً، وأعلن الصدام، وجرت منازلة لا مثيل لها بين أنصار العروبة وأنصار التغريب، وشن هجوم على كل من يدافع عن المبادئ والثوابت، وخلع أعداء العروبة قفازهم الذي طالما لبسوه ليغطوا به أيديهم وأظافرهم التي يغرسونها في لحم العربية وتاريخها العريق، خاصة وأن القوى التي وقفت بالمرصاد للإقليميين والجهويين والفرانكوفونيين قد أصابها التشتت وانفض شملها وتوارت في الخفاء تداوي جراحها. وزاد من المأساة وضع العرب المضطرب وتضارب مصالح حكامها وتفرق كلمتهم وتصارع أحزابهم وشيعهم، وافتقاد النموذج الوحدوي الناجح الذي يمكن أن يقوم علامة بارزة على صلاحية الوحدة. كل ذلك ساعد الفرانكوفونيين ومن لفّ لفهم أن يستلوا خناجرهم ويمعنوا طعناً في العربية والعروبة والوحدة. في الماضي كانوا يتهمون العربية والعروبة بالرجعية، ودعاتها بالرجعيين. لأن القومية فات وقتها سواء في الغرب أم في الشرق الأوروبي بمفهوم الليبرالية أو الماركسية، ولكن الفرانكوفونية والإقليمية بعد أحداث أكتوبر غيرت من شعارات الهجوم. فالناصرية أو **«البعثية»** أصبحتا غير كافيتين، وناصر قد توفي إلى رحمة الله، والبعث حقق انتصاراً في العراق فكان لابد من مصطلحات جديدة من مثل: العروبة المتعصبة، العرقية. كما اتهموا الإسلام والإسلاميين بالتطرف والرجعية والأصولية، لأنهم في أعماقهم يخافون على مشروعهم **«التغريبي»** من العنصرين معاً من التوجهين الإثنين وممن يدافع عنهما، فكان السلاح هو نفسه.

ولم يقل أحد بهذه العروبة التي اخترعوها في مخيلتهم أو أنضجوها في مطابخهم ونسجوا خيوطها في «دهاليز» الفرانكوفونية وحملوها فوق ألسنتهم وأقلامهم ووجدوا من يؤمن على ذلك ويباركه في الداخل وفي الضفة الأخرى، بينما العروبة التي ينادي بها العروبيون مهما كانت ثقافتهم أو تكوينهم أو قناعتهم، معتدلة أو تقدمية يسارية، هي التي تعتز بالتاريخ والحضارة العربية الإسلامية، وهي التي تؤمن بالإنتماء لأمة عظيمة راسخة في أعماق التاريخ هي التي حررت الإنسانية من العبودية والإستغلال وقدمت لها إنجازات معرفية تبقى خالدة في ضمير العالم.

هذه العروبة التي لا تدعي الإمتياز والتفوق ورفض الآخر، والعروبي هو من يقاوم الظلم والطغيان ويعدل بين الناس ويحترم من يخالفه في الدين أو في الرأي أو في الثقافة أو في المنطلقات. والعروبة تؤمن بالإسلام وترى فيه روحها وجوهرها عامل وحدتها فلا عروبة بلا إسلام. كذلك فإنهم تؤمن بأن الوحدة الإسلامية لا تحقق بدون عروبة، فهي اتجاه وحدوي عقلاني غير متشنج ينتمي لحضارة عظيمة تجمعه بغيره ولا تميزه عن غيره، فهي إذن حركة تتجه إلى المستقبل ولا تعيش في الماضي كما ينعتها أعداؤها من الفرانكوفونيين والإقليميين ودعاة النعرات المحلية والجهوية. والتيار العروبي مثل بقية التيارات الفكرية والسياسية والثقافية فيه المحافظ والمعتدل والتقدمي.

ورغم أننا نفرق بين الفرانكوفونيين في نظرتهم إلى العروبيين، ولا نتجنى عليهم جميعاً في موقفهم من العروبة، فهم – بإستثناء العربيين منهم – يتجننون عليها ويرفضونها جملة وتفصيلاً ولا يميزون حتى بين شرائحها المختلفة ولا يجشمون أنفسهم مشقة دراسة منظريها ومفكريها وأبحاثهم . ولم أقرأ للذين يهاجونها نصاً واحداً ممن كتب عنها وشرح مفهومها – سياسة وثقافة وفكراً – أليس مدعاة للشك فنية المبيتة ؟ وإذا انتفى الدليل فإن الحكم يصبح باطلاً على شخص أو فكرة أو منصب أو تجاه. وإذا كانوا لا يحاولون معرفة المثقفين العروبيين في الجزائر وخارجها، فكيف يحق لهم أن يتهموا أصحابها

بمختلف التهم والنعوت؟؟! بينما نحن لا نعمم الحكم ولا نقول بأن الفرانكوفونيون جميعاً ضد العربية والعروبة، كما أننا نناقش الفئة المثقفة **«الوطنية»** منهم، وهي التي نحاورها في هذه الدراسة ونبين لها أن التقدم والتطور واللحاق بركب الحضارة لا يفرض علينا الإنسلاخ عن جلدتنا ولا يعني تنكرنا لهويتنا وأصالتنا فماضينا وحضارتنا. هذا هو محل الخلاف بيننا وبين هذه الفئة. هي تريد أن تجرنا إلى الغرب وفرنسا بوجه خاص، ونحن نرفض هذا التوجه وهذه التبعية، هي تحاول أن تجعلنا نفهم بأن خروجنا من التخلف يقتضي منا أن نتبنى الفرنسية ونموذج أصحابها بإعتبار أننا ورثناها – كما قال بعضهم – عن الإستعمار ونحافظ عليها وندعمها بوصفها نافذة على العالم، ونحن لا نخالفهم في هذا ولكننا نقول لهم: بشرط ألا تصبح لغة حياتنا وبحوثنا والتفاهم بيننا كما هو وضعها الآن في الإدارة وفي المناخ العام وخاصة لدى هذه الفئة.

عن منشأ الخلاف هو **«الفكر»** أساساً **«اللغة»** لتعبر عنه كما تعكسه **«الثقافة»** وفروعها وأدواتها وألوانها. بعد ذلك فلو سلموا بالمبدأ لكان الحوار عن أساليب التطور وطرق التحقيق والتنفيذ والإنجاز، ولاحترامنا الإجتهادات المختلفة، لأنه في هذه الحالة يصبح الخلاف حقا مشروعا وربما واجبا عامل تقدم ولكن المشكلة تحديد هذه **«الهوية»** التي نؤمن بها عربية إسلامية وهم يريدونها مائعة ضائعة رجراجة كالمطاط أو كالزئبق، يفسرها كل حسب مصلحته وهواه وحسب دوافعه وأغراضه، ويعطيها اللون الذي يشاء، ويؤول محتواها بما يأخذه من هنا وهناك.

ومهما ناقشنا معهم هذه الهوية بمختلف عناصرها فإن مرجعهم ومرجعنا مختلف ومنه اللغة. فنحن بدون العربية لا هوية لنا وهم بغيرها لا يحسون بفقدان هذه الهوية، وبحكم الطبيعة فإن الذي يجهل لغته الوطنية يحس بالنقص حتى ولو ملك لغات الأرض جميعاً، هذا منطق الحياة والطبيعة، ولكن الفرانكوفونيين عندنا يقلبون الحقائق والنواميس الطبيعية، فيصبح الفرد الذي يجهل لغته القومية **«عادياً»** والذي يتقنها **«معقداً»**!!. وهذه من الظواهر التي

تتطلب دراسات نفسية وإجتماعية وتاريخية وتقتضي تحليلاً يشمل الحياة كلها. ولما كنا نركز على جوانب معينة في بحثنا هذا فإنه من الضروري أن يتجه طلابنا وباحثونا الجدد إلى تفسير هذا الموقف غير المنطقي وغير المبرر وغير التاريخي من وجوه كثيرة. فهل هو راجع إلى «**مركّب التعالي**»؟ وهل أصحابه يشعرون فعلاً بالإستقرار والإطمئنان الداخلي؟ ثم هل يكفي «**التفسير الشكلي**» للغة حتى يتحرر الإنسان من إحساسه بالنقص تجاه الآخرين؟؟

لعل بعض الكتابات التي ظهرت بعد أحداث أكتوبر تشير إلى ذلك، وبوجه خاص تلك التي تستخدم علم «**اللسانيات**» لتبرر موقف الجهل بالعربية من ناحية وتسوّي بينها وبين الفرنسية أو غيرها من ناحية ثانية . فقد رأينا بعض «**الأكاديميين**» و«**المتعالمين**» ممن لبسوا مسموح الأكاديمية يعرضون إلى اللغة من جانبها اللساني ويستعرضون اطلاعهم على ما كتبه الفرنسيون في هذا المجال ويصبغون على آرائهم صفة «**الموضوعية**» المراوغة التي لا تستند على علم حقيقي أو معرفة أو دراسة من البيئة الوطنية، ولكنها تعتمد على التأويل والتفسير والإستشهاد بأقوال هؤلاء الباحثين والأجانب عن موضوع «**قومي**» يتصل بواقعها في وطنها وكيف تصبح قادرة على منافسة اللغات الحية الأخرى في الميادين كلها بما فيها ميدان العلم والتقنية، ثم كيف تسترد مكانتها في مجالها وأرضها بينما هم يناقشون اللغة من حيث «**الوظيفية**» ويعلقون على «**اللسان**» ودوره في التبليغ والتوصيل.

والفرق بين الأمرين، بين موقف يتخذ من اللغة «**هوية**» وآخر يجعل منها «**أداة**» محايدة و«**وسيلة**» مجردة من الفكر والعاطفة والإنتماء واضح. ويبدو أن غرضهم هو بلبلة الأفكار والقراء غير المطلعين والواعين بما تقوم به اللغة في الناحيتين: القومية واللسانية مما يساعد على غموض الرؤية بالنسبة لمن يفهم اللغة هـــذا الفهم الساذج، فلا يعتز بها بل تصبح – كما يزعم هؤلاء – مجرد آلة تعمل مثل الأشياء التي نستعملها في حياتنا العادية والأدوات المنزلية التي

نستخدمها لتحقيق غرض مادي معين، وهي النظرة نفسها التي عرفناها لدى كثير من الكتاب الفرانكوفونيين الإقليميين فيما مضى [1].

وأعتقد أن المناخ الديمقراطي وحرية التعبير قد أسهما في هذا الخلط بين الحرية والسياسية والإجتماع وبين الحرية في اللغة والكتابة بها. فإذا كان من حق الفرد أو الفئة أو تدافع عن شعار معينة أو حزب معين أو نظام معين، فإنه من حق أي كان – من نظرهم – أن يكتب باللغة التي يشاء وأن يختار الأداة التي تناسبه في أن يعبر عن فكره وتوجهه بصرف النظر عن الجانب الوطني أو القومي، ويبررون ذلك بأن المرء لا يختار اللغة التي يكتب بها لأنه يريد ذلك بل لأنه ورثها عن آبائه وأجداده. أما تلك المقولات التي تتحايل على الفرد لتبتلعه أو الشعب لتستغله والتي تقول: إن الإنسان لا يختار الوطن الذي يعيش فيه أو اللغة التي يتحدث بها أو الأبوين عند ولادته فهي نوع من التفلسف الذي لا يعني شيئاً في قضية اللغة، وهذه الأفكار التي تدعي الحرية وعدم التقيد بلغة الآباء والأجداد رددها كثير من هؤلاء المفكرين أمثال **«أركون»** في حديثه إلى إذاعة لندن في ربيع 1990 عندنا طالب بالحرية في الكتابة بأية لغة كانت. وقد شاعت هذه التعابير في صحفنا مؤخراً ومناقشة بعض من تصدى للحديث عن حرية الكلمة واللغة والفكر، ووقع خلط كبير بين ما هو جوهري وما هو ثانوي، وشارك في هذه المناقشات مثقفون ورجال إعلام وأدباء ومفكرون من الفرانكوفونيين واستندوا في هذا إلى حقوق الإنسان. وهي مصطلحات سليمة عندما تكون في موضعها الحقيقي، ولكنها تكون مخادعة ومراوغة إذا كان الأمر يتعلق باللغة القومية والهوية، وهي قضية بديهية لا تقبل تعسفاً في الجدل أو تمحلاً في الرأي أو تحريفاً للحقيقة الموضوعية التي يتفق عليها الناس جميعاً.

فهذه الآراء وأمثالها تشبه تلك التي تقول في مجال الإقتصاد: **«دعه يعمل، دعه يمر»** وهؤلاء يقولون: **«دعه يتكلم بأية لغة يشاء»** فيطالبون بتعدد الألسن في الوطن الواحد: **«إحتراماً للحرية الشخصية للفرد وهو واحد من المبادئ الأساسية**

---

[1] أنظر: المسار المغربي 14 جانفي 1991.

لحقوق الإنسان...» [1]. وصاحب المقال مثل غيره يدافع عن حق أريد به باطل، وإلا فكيف يصح أن تصبح اللغات في مستوى واحد من شتى النواحي ويصح عليها تطبيق المذهب الرأسمالي الليبرالي في الإقتصاد، خاصة إذا كان صاحب الدعوة يعلق لافتة الجامعة فوق جبهته ويناقش الأمر بلهجته الرصانة ويتوارى تحت حقوق الإنسان. أليست هذه من المهازل التي لم تظهر إلا في مرحلة كشفت فيها الفرانكوفونية عن وجهها البشع الكالح وعن لونها الفاقع. وما رأينا في بلاد الحرية والديمقراطية والمساواة من يزعم هذا لا عند الساسة ولا الجامعيين ولا عند المثقفين. وحادثة معهد «باستور» الفرنسي ترد على أمثال هذا المتعالم. فقد أصدر المعهد المذكور في فرنسا ذاتها حولية باللغة الإنجليزية فاعتبر ذلك مساساً بالسيادة الوطنية و«**ثارت ثائرة العلماء والكتاب والصحافيين والسياسيين واعتبر الجميع هذا العمل خطيراً ولا ينبغي السكوت عليه...**» [2].

إن موقف الفرنسيين هنا موقف وطني رغم أن الدعوة علمية صرفة، لأن اللغة الإنجليزية الآن هي لغة العلم في العالم كله. ومع ذلك فقد اعتبر مجرد إصدار نشرية بها مساساً بالسمعة الوطنية لفرنسا وبهيبتها، بل إن بعض الكتاب ناشد العلماء والمفكرين أن يتظاهروا أمام هذا المعهد الشهير إحتجاجاً على موقفه وطالب بقطع الدعم الأدبي عنه وكرر المقولة المعروفة: «**إن اللغة هي الوطن فلنكن مع الوطن...**» [3].

والأديب بوجدرة الذي انحاز للعربية الأم كان قاطعاً في موقفه تجاه التعددية الثقافية حين قال: «**إن الدعوة إلى تعددية اللغات في المجتمع يعتبر خرافة نابعة عن أناس بعيدين عن الواقع...**» [4]. ويتشهد في هذا الصدد بالبلدان ذات

---

[1] مجلة الثورة الأفريقية – أسبوعية بالفرنسية تابعة لحزب جبهة التحريربتاريخ3/ 11 / 89. وهذه المجلة تأسست بعد الإستقلال وموجّهة إلى الخارج. وكاتب المقال ينادي بحرية اللغات.

[2] الشعب 18/5/ 1989.

[3] المصدر نفسه.

[4] المساء 6/1/1991.

التعددية اللغوية فيذكر من بينها: سويسرا وبلجيكا، **«فبدلاً من أن يزيدها ثراء ثقافياً أدى إلى الإنغلاق بين المناطق»** على حد قوله. ويشاركه أبو العيد دودو في الرأي، فأدباء المغرب العربي بالفرنسية: **«لا يقدمون شيئاً للعربية من خلال كتاباتهم...»** [1].

= فكل فرد يستخدم اللغة التي ألفها وتعود عليها بصرف النظر عن الهوية وهي مغالطة دأب ترديدها بعض الفرانكوفونيين المستغربين أمثال هذا الكتاب الذي يستر تحت العلم.

وإلى جانب هذا التمييع لقضية وطنية حية، هناك قضية أخرى تتصل بها وهي هذه الحرب المتواصلة ضد العروبيين وذوي الثقافة العربية التي أخذت تنحو السب والشتم في أحيان كثيرة في السابق كان خصومهم من الفرانكوفونيين يتهمونهم بالعجز والضعف الثقافي وأن ثقافتهم تغلب عليها المسحة الدينية، حتى أن باحثاً منهم يتهم المعربين بعدم الإنتاج! [2]. ومثل هذا الرأي شاع في كتابات من جاء بعده في المرحلة التالية، ربما لتعصب أعمى أو الجهل بما كتبه العروبيون والباحثون باللغة العربية.

فمؤلفاتهم ملأت المكتبات الجزائرية والعربية وفيها بحوث مبتكرة ورائدة في مختلف العلوم الإنسانية أمثال: **عبد الله شريط – سعد الله – دودو – صالح خرفي – محمد ناصر – رابح تركي – جنيدي خليفة – سعيدوني – جمال قنان – بوعزيز – حنفي بن عيسى – أحمد بن نعمان – محمد عبد الكريم – مرتاض – صخري – الأعشب – لعساكر – عوابدي – ولد خليفة – والمرحوم محمد مصايف** وغيرهم كثيرون ممن كتبوا في التاريخ والإقتصاد والقانون والنقد والأدب وباقي العلوم الإنسانية وكذا في العلوم الدقيقة في الجامعة

---

[1] المصدر نفسه.

[2] الباحث هو مازوني وقد ورد في كتاب « الأدب الجزائري ذو التعبير الفرنسي» ص: 148.

وخارجها. أما في الإبداع الأدبي فهناك عشرات الأسماء اللامعة في مختلف ألوان الأدب، قصة ورواية وشعراً، ويصعب الإشارة إلى بعضهم فما بالك بالمجتمع... فهؤلاء باحثين ومبدعين هم الذين أسسوا لثقافة عربية أصلية وهم الذين طوروا العربية – لغة وأسلوباً ورؤى – بل هم الذين ملأوا فراغاً كبيراً في المكتبة ولولاهم لبقيت خاوية على عروشها. ويزيد من دورهم أنهم كتبوا بلغتهم القومية رغم أن معظمهم يعرف الفرنسية والإنجليزية وغيرهما كتابة وقراءة، أما كتب الدين فليتنا ألفنا فيه مثل غيرنا وبأقلام جزائرية، فهذا يضيف إلى رصيدنا جديداً مازلت تشكو منه مكتبتنا.

وفي الغالب نجد أن الفرانكوفونيين يركزون على اللغة الحية ويرون أن من لا يعرف أكثر من لغة فهو أمي فكرياً. ونحن نؤيد هذا، فهل درسوا أنفسهم لغتهم الوطنية أولاً ثم درسوا لغات أجنبية أخرى غير الفرنسية ؟؟ أتمنى أن اقرأ رأياً يجيب على هذا السؤال وأقرأ مقارنة بين العربية والإنجليزية والفرنسية في مجال واحد وأكثر وأوجه الخلاف بينهما. أما توجيه الإتهام إلى العربية وحدها بدون معرفتها فذلك يؤكد استنتاجنا ولا يخالفه إطلاقاً.

وكما الحديث عن العروبة ومهاجمة العروبيين، فإن أحاديث كثيرة وكتابات شتى تناولت العربية، نقداً أو قدحاً أو تنويهاً أو بحثاً عن سبل تطويرها واستعمالها. فرأينا شخصيات سياسية ممن أسهموا في الثورة بصورة أو بأخرى يدلون برأيهم في الموضوع وهذا من حقهم بل من واجبهم، ولكن أن يذهب البعض من هؤلاء إلى الإشادة بالفرنسية وقد كان من الثائرين على فرنسا، وإلى القول بأنه تأثر بالثورة الفرنسية التي ساعدت على محاربة الإستعمار الفرنسي وأن اللغة الفرنسية ورثناها: **«ويجب أن نستعملها كسلاح وكوسيلة دون جهل أو تناسي اللغة العربية...»** [1]. ولكنه لا يذكر أن العروبيين قاموا الإستعمار دوماً ومن غير أن يقرأوا في الجامعات الفرنسية إبتداء من الأمير عبد القادر مروراً بالثوار بعده وحتى أثناء الثورة، ولكنهم تأثروا بقيم وطنهم ودينهم وثقافتهم

[1] الشعب 10 / 11/ 1989.

وحضارة أمتهم وتاريخهم وأمجاد شعبهم. أما الذين تعلموا الفرنسية منهم فلم تصبح لديهم سوى لغة كغيرها من اللغات الأجنبية، وهذا هو الفرق الواضح الصريح بين الفرانكوفونيين والعروبيين في النظرة إلى اللغة.

ونرى مسؤولاً آخر ممن أسهم في الثورة – وهو من الفرانكوفونيين – يذهب إلى القول بأن بعض المعربين هم **«فرانكوفيل»** رغم أنهم لا يعرفون الفرنسية، ويحث على أن يتم التعريب بطرق علمية منظمة، وهو مثل من سبقه ومثل الكثيرين غيره في السلطة ماضياً وحاضراً لم يفعلوا شيئاً للعربية ونشرها وتطبيق قرارات التعريب، ولكنهم حين يتركون المسؤولية يتظاهرون بالدفاع عن اللغة الوطنية، وهذا كلامه حرفياً: **«أظن أن المسألة لا تدخل في اللغة فقط لأن هناك من تم تكوينهم بالعربية لكنهم فرانكوفيل...»** إلى أن يقول: **«إن إستعمال اللغة العربية بعد الإستقلال لم يتم بطريقة علمية، فاستعادة اللغة العربية مكانتها يتطلب برنامج عمل وخطة طويلة الأمد تمر بمراحل مدروسة، فالمسألة ليست قراراً سياسياً فقط، فإذا لم يكن هناك مؤطرون أكفاء يشرفون على العملية فلن تحقق نتائج إيجابية وستظل مجرد شعارات سياسية لا تحل المشكلة»**[1].

ألا يلحق لنا نسأله وهو يتحدث بعد سنة من أحداث أكتوبر، لماذا تم التأطير بالفرنسية ولم يتم بالعربية؟! ثم ما هو الوقت الكافي لكي يتحقق التعريب الشامل؟! ولماذا لم يحقق هذا في وزارته حين كان مسؤولاً عنها وعن المؤسسات التابعة لها؟!

إن هذه الأسئلة لا يجيب عنها لأنها تحرجه وتحرج أمثاله من الفرانكوفونيين، فهي كلمات من النوع الذي لا يثير أي إحساس في النفس لكثرة ترديدها في الأوقات التي يكثر فيها مد الجماهير وتطغى فيها الضغوط، فتنطلق الخطب لتهدئتها وإسكات غضبها.

---

[1] الشعب 8 اكتوبر 1989.

أما «**الفرانكوفيل**» من «**المعربين**» فهم مثل «**الفرانكوفيل**» من «المفرنسين» واللغة هنا لا دخل لها في الموضوع، ولكنها مرتبطة بالمصلحة والتبعية السياسية للأجنبي المحتل بالأمس ولكننا اليوم نناقش التبعية الثقافية واللغوية والفكرية [1] وما من مسؤول مر بالحكم في البلاد إلا وبرر لموقفه السلبي تجاه التعريب خاصة من الوطنيين الفرانكوفونيين، والحجج كثيرة والمبررات عديدة ولكنها في الواقع تتصل بما قررناه ووصلنا إلى حكم مما أسلفنا القول فيه.

ومن البديهي أن تتحمل الدولة الجزائرية مسؤولية في ذلك فسياستها المضطربة نحو التعريب من ناحية، وانعدام الوضوح من ناحية ثانية وتوجهها الغامض «**الأيديولوجي**» من ناحية ثالثة هو الذي أسهم في تعثر التعريب. وقد ألح إلى هذا كثير من الباحثين والمثقفين الذين اهتموا بهذه القضية تلميحاً أو تصريحاً، نقداً أو تحليلاً.

ولعل الباحث الشاب عمار بلحسن قد وضع النقاط على الحروف عندما وصف الوضع الثقافي عندنا بقوله: «**تبدو حركة الدولة لتوحيد اللغة والثقافة متعارضة مع وضعية تعدد لغوي، فوجود عربية وقبائلية وأمازيغية دارجة إضافة إلى الفرنسية يكبح ويخون إدارة ثقافة عربية وطنية ويخلق توترات مصحوبة بردود فعل مجتمعية، ذلك أن انغلاق آفاق الصعود الإجتماعي في وجه المثقفين والمجموعات الفكرية المعربة واقتصار مجال نشاطهم على القطاعات المهنية والثقافية والثانوية وسيطرة مجموعات مفرنسة على مقاليد الإقتصاد وقطاعات العلم والتقنية والتحديث يجعل من المثقفين المعربين مجموعات غير مستقرة...**».

---

[1] أما أولئك الذين تنكروا لوطنهم أو خانوه بصرف النظر عن اللغة، فإننا استبعدنا الحديث عنهم وأشرنا إلى ذلك من قبل لأن هذا موضوع يحتاج إلى دراسة أخرى بالوثائق والشواهد مما يتصل بالتاريخ السياسي والثقافي لبلادنا وهو خارج عن نطاق هذا البحث.

إلى أن يقول: «**فإحساس هؤلاء بكونهم بروليتاريا ثقافية يجعلهم موحدين للمطالبة بتعريب حازم سريع وتقليص الفئات التكنوقراطية كمجموعات مسيرة ومنظمة للعلاقات مع الغرب...**» [1].

ويضيف كاتب وأديب مبدع رأياً مشابهاً فيقول مرزاق بقطاش: «**تحس بأن هناك في السلطة من يفتح الباب أمام الفرانكوفونية، أناس اختاروا السهولة يقولون أن العربية مهزومة وهم الذين هزموها...**» [2].

وهذا هو جوهر القضية الذي لمسه بقطاش، لأن موقف السلطة هو مكمن الداء كما يقال. أما الباقي فهو تفاصيل وتوابع وفروع. فلو أنها حددت موقفها من الإستقلال وخططت ثم طبقت لما بقينا نتخبط في متاهات وتفسيرات لا نهاية لها. ويضيف بقطاش بلهجته منفعلة صادقة وهو يوجه نقده للمتعربين – كما يطلق عليهم فيقول: «**تحس أن الهجمة الفرانكوفونية قضت علينا، وأوجه نقدي هنا إلى المتعربين المعنيين الذين لا يتحركون... الذين ينامون على الشرعية... ظنوا في يوم من الأيام بأن العربية يلزمها موقف ثوري في هذا البلد وهو ما غاب عنهم وهو مع الأسف الموقف الذي لم يتخذه بومدين رحمه الله، اتخذ موقفاً ثورياً في الهجرة... البترول... التأميم... إلا في العربية فكان يتلاعب معها، ربما أدرك أن المعربين لا يساوون شيئاً أو لشيء آخر. العربية اليوم محتاجة إلى موقف ثوري... إما أن تكون معها أو لا تكون... أنصاف الحلول لم تعد ممكنة...**» [3]

نقلت هذا النص كاملاً كي أوضح موقف كاتب يؤلف بالعربية رغم أنه يحسن أكثر من لغة. وقد لمس الداء فحمل المسؤولين في السلطة وبقي

---

[1] المستقبل العربي عدد 11 - 1990.

[2] الجمهورية الأسبوعية 18- 25 اكتوبر1989 .

[3] المصدر نفسه – وانظر أيضاً مقال: هل سينقرض المثقف المعرب في الجزائر ؟ لكاتبه عبد الناصر جابي – السلام 12 / 11/ 1991.

الشعب ينظر إلى الإثنين ويقلب كفيه، ينظر يميناً وشمالاً ولا يجد من يقوده إلى ساحل النجاة.

وما عشناه من غموض تجاه ما ذكرناه لم يوضع له حد بعد هذه الأحداث المؤلمة، بل ازداد إيغالاً في الظلام وهو الآن أكثر من ذي قبل، وهو وضع ربما لم تعرفه الأقطار العربية الأخرى وإن تشابهت في بعض الملامح أو في بعض السلبيات التي صعدت إلى سطح المجتمع، ولكنها لم تؤثر على المسار العروبي والثقافة العربية كما هو الأمر في بلادنا، وقد زاده تعقيداً ظواهر أخرى أضافت إليه صعوبة إثر أخرى.

من هذه الصعوبات ظهور الدعوة إلى لغة وطنية ثانية، وتمثلت في المطالبة باعتبار اللهجة البربرية **(الأمازيغية)** لغة رسمية مثل العربية وتحتل نفس المكانة في التعليم وفي مجالات أخرى، وتاريخ الدعوة قديم يرجع إلى الأربعينات. وقد كان من القضايا التي فجرت صراعاً في حزب **«الشعب»** [1]، كذلك فإن فئة محدودة من المثقفين بالعربية والفرنسية قد تبنت هذه الفكرة وطالبت بلغة «بربرية» معترف بها ولو ثقافياً ولكنها بعد أحداث اكتوبر اتخذت منحنى آخر بحيث رفعت أحزاب سياسية هذه الدعوة وأصبحت من مطالبها ومن شعاراتها ولم يعد مجرد دفاع عن التراث الثقافي وإحدى لهجاته الوطنية.

والواقع أن الحديث عن **«لغة أمازيغية»** هو من المصطلحات الجديدة، لأن المعروف في القواميس والكتب قديماً وحديثاً كان ينصب على البربرية والبربر على إختلاف في أصلهم وانتسابهم إلى العرب أو إلى غيرهم أو أنهم جاؤا من بيئات أخرى كما يذهب إلى ذلك كثير من الباحثين – عرب وأجانب – فكل يؤيد رأيه بأدلة وافتراضات أو حجج تاريخية أو منطقية أو جغرافية. **«فالموسوعة الميسرة»** تذكر أن **«الشعب البربري»** نزح إلى شمال إفريقيا وانتشر في ربوع المغرب وجهات من الصحراء الكبرى وأطرافه من مصر واستقر ببعض جزر البحر الأبيض المتوسط وكان ذلك في العصور القديمة... [2]. وهي تشير إلى أنه سمي **«بالأمازيغ الأحرار»** نسبة إلى الجد الأول فيما يبدو، ولكن إطلاق إسمه على اللغة ونسبتها إليه هـــو من إجتهاد الجزائريين وربما الدافع إلى ذلك هو

---

[1] انظر جبهة التحرير الواقع والأسطورة – محمد حربي ص: 61- 68 ففيه تفصيل لأزمة 1949 مع مناقشة ثقافة البربر في الفصل الخامس.

[2] الموسوعة الميسرة – دار القلم بالإشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ط 1 مصر 1965 ص:342.

الإبتعاد عن أصل الكلمة [1]. أو أن الإستعمار الفرنسي شجع هذه اللهجة لأغراض معروفة أو خوفاً من التهمة بالتواطؤ مع الفرنسيين الذين أسسوا **«الأكاديمية البربرية»** في الستينات بفرنسا وحاولوا أن يضعوا قواعده لهذه اللهجة حتى تصبح لغة وكتبوها بحروف لاتينية.

وليس همي في هذا البحث أن أعرض للموضوع من حيث اللسان أو اللغة أو أصلها أو المتكلمون بها هل هم عرب أم لا، وليس همي أيضاً أن أعرض بالتفصيل إلى الكتب والمراجع القديمة والجديدة، فهذا فصلاً عن أنه يدخل في مجال بحثي فهو من التنوع والإتساع مالا تكفيه صفحات قليلة، يكفي أن أذكر أن باحثين جزائريين وتونسيين ومغاربة قد تناولوا الموضوع بالتفصيل واعتمدوا على النصوص والآثار وغيرها لكي يبينوا وجهة نظرهم في هذا الأمر. ولم يكن الحديث عن **«البربرية»** أو**«البربر»** جديداً فالقدماء العرب والأجانب تعرضوا إلى هذا بتفصيل أحياناً وبالإشارة أخرى. وربما من أكثر من عالج الموضوع من المحدثين الباحث التونسي محمد المختار العرباوي في فصل من كتابه الذي نشرته السلام مسلسلاً على صفحاتها [2]. وقد عرض للموضوع بتوسيع كبير وبأسانيد اعتمدت على المؤرخين والدارسين لما له علاقة بالبربر، فهو في بحثه هذا أخذ منهجاً آخر وطريقة مقنعة لتأكيد الأصل العربي للبربر وذلك بالعودة إلى اللغة العربية نفسها وإلى مادة **«بربر»** واستخدامها في الشعر العربي. ورد على أولئك الذين يزعمون أن أصل الكلمة يوناني لأن هذا الأم لو كان صحيحاً لما أهمل المؤرخون ذلك. وهو يرى أن البحث عنها ينبغي أن يكون في العربية لأن المفردة أصلاً عربية: **«لكن ما وجدناه للأسف هو الإعراض التام عن القيام بذلك البحث ولا نعرف أحداً قام به وما هذا الإعراض إلا جزء من**

---

[1] أنظر: لاروس – مطبعة لاروس – فرنسا 1965 مادة بربر ص: 115 . وانظر أيضاً المورد – إنجليزي عربي – مادة بربر – دار العلم للملايين – بيروت 1990 ص: 100.

[2] السلام إبتداء من 8 أوت 1991 وما بعده.

ذلك الإعراض الذي غرسته المدرية التاريخية الإستعمارية وغيرها من الوسائل الأخرى تجاه قضايانا وتراثنا وكل ما هو عربي عامة...» [1].

وقد تناول الفكرة نفسها مؤرخ جزائري عرفناه بجرأته في مناقشة القضايا الثقافية والتاريخية هو الطاهر عدواني، الذي يرجع الدعوة البربرية إلى ادعاء الفيلسوف الألماني الشهير بأن «**شمال إفريقيا أو إفريقيا البيضاء هو جزء من أوروبا...**». وكان قوله هذا في مطلع القرن الماضي، ومن يومها والمدارس الأوروبية فضلاً عن الفرنسية جيولوجية كانت أو جغرافية أو تاريخية أو أنثروبولوجية في بعديها السلالي والثقافي وفي جميع أبعادها تتنافس على تقديم المزيد من الدعم والتأكيد لهاذ الإنتماء الشمال إفريقي لأوروبا... [2].

ولعل الباحث أحمد بن نعمان ممن أفاضوا القول في هذه القضية وألف فيها كتاباً اعتمد فيه على الوثائق وألم بالموضوع من شتى جوانبه قديماً وحديثاً، ووقف ضد دعاة البربرية بعد أن أصبحت دعوة سياسية لا ثقافية كما كانت قديماً، وأدان «**الأكاديمية البربرية**» في فرنسا التي أسهمت في خلق بلبلة في الأوساط المعنية، بحيث ناقش أثر وجود أكثر من لغة وطنية في تمزق الشعب وأن تشجيع الفرنسيين لهذا يهدف إلى بث الفرقة بين أبناء الشعب الواحد وغير ذلك من القضايا التي أثارها بجرأة نادرة في هذا الموضوع الحساس [3].

---

[1] السلام 11 / 8 / 1991 .

[2] منبر أكتوبر - مجلة يصدرها حزب «الحركة من أجل الديموقراطية» مارس 1990. والمقال بعنوان «الخرافة البربرية بين التاريخ والسياسة»، ويتحدث فيه عن الأطروحة البربرية باعتبارها فكرة «كولونيالية» فاشلة جربتها فرنسا لتمزق الجبهة الداخلية للجزائر، كما يتحدث عن اللهجة القبائلية وعن ان نسبة من الفاظها عربية الأصل.

[3] أنظر كتاب: «فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر» - أحمد بن نعمان - مطبعة دحلب - الجزائر 1991 ص: 50 - 258 - 561 - 235- 271- 274 وغيرها التي ركزت على وحدة اللغة والأمة.

وكما ذكرت فإن الحديث عن البربرية لم ينقطع بعد الإستقلال، ولكنه كان يتخذ صبغة أدبية وثقافية، وهي الصبغة التي نادى بها معمري وغيره وكتب دراسات عن شاعر معروف وشاركه فيها كاتب ياسين وأمثالهما كما سبق القول. ودخل هذا الحديث في أدبيات جبهة التحرير الوطني حيث يمكن أن نعتبرها أول من نادى بالتراث الأمازيغي وتسجيله والعمل على إحيائه. وكان من أثر ذلك أن أنشئ معهد لدراسة التراث الثقافي والأدبي لهذه اللهجة. ولكن بعد أحداث أكتوبر لم يعد الأمر مجرد «**تراث**» بل أصبح «**موقفاً سياسياً**» منه ومن هذه اللهجة، وهنا ظهر الصراع العنيف ضد العربية والعروبيين إنطلاقاً من الفكر «**الإقليمي**» و«**الجوي**»، وكان التهجم على العرب والعربية والعروبية والعروبيين هو «**ملح الطعام**» اليومي للخطباء والكتّاب ورجال الإعلام من الفرانكوفونيين وأتباعهم. وهنا تتفق الفرانكوفونية – يساراً أو يميناً – مع «**الجهويين**» الذين أرادوا أن يحولوا الدعوة إلى قضية وطنية لا جهوية. وكلما أثيرت قضية «**الفرنسية**» واللغة الفرنسية يتسابق هؤلاء وأولئك إلى «**قميص عثمان**» وينصب غضبهم على العربية والعروبة والوحدة العربية.

وقد دارت معركة – وما زالت – بين العروبيين وبين الفرانكوفونيين وأتباعهم حول هذا، وحبرت مئات الصفحات، وأسهم فيها الساسة والمفكرون والمثقفون والأدباء ورجال الإعلام باللغتين العربية والفرنسية، وعقدت الندوات وأقيمت المظاهرات وألقيت المحاضرات وانطلقت التصريحات تؤيد أو تفسر أو تنفي أو ترفض أو توضح أو تسهم في القضية، بعضها مقنع هادئ وبعضها الآخر متشنج عنيف. وبدأ التحدي بين الطرفين حتى أن مثقفاً عروبياً تحدى أحد الساسة الكبار ممن يدافعون عن «**الأمازيغية**» إلى مناظرة علمية بالتلفزة ولكن هذا الأخير رفض المواجهة.

هذه هي ملامح الصراع بعد أحداث أكتوبر بقليل من الإيجاز تتفرع عنها تفاصيل صغيرة وكلها لا تخرج عن المحور الأساسي وهو: هل البربرية يمكن أن تكون لغة وطنية ثانية؟؟

على أن خصوم البربرية وجدوا «**المقتل**» الذي يصيبونها فيه، وذلك لأن نشأتها ارتبط بالفرنسيين مستشرقين وساسة لكي يبقوا على لغتهم سيدة في الجزائر، وفي الوقت نفسه يرمون سهماً يمزقون به الوحدة الوطنية. فلو انطلقت الدعوة أساساً من جزائريين وطنيين منذ البداية لما وجدت هذا الموقف المتخوف منها ومن المطالبة بترسيمها.

وقد عبر عن الصلة المتينة بين الماضي والحاضر صحافي وكاتب معروف هو محمد عباس في سلسلة من المقالات تحت عنوان: «**الأمازيغية، كثير من السياسة وقليل من الثقافة**» وهو يرى أن القضية توضع في إطار الأيديولوجية الإستعمارية المبنية على مغالطة كبرى هي أن سكان البلاد منقسمون بين عرب وبربر وبين الطائفتين صراع لا ينتهي... [1].

ويد خص هذه الفكرة لأن الصراع حول الهوية تطرحه: «**طائفة من البربر المتنصرين أو المتفرنسين جزئياً أو كلياً أي أصبحوا لا يتحدثون غير الفرنسية...**» [2]. ثم إن هذه القضية موجهة للمستعمرات السابقة أساساً وهي «**ثقافة تستهدف ضرب مقومات الوحدة الوطنية والثقافية للشعوب المستعمرة ومنها الشعب الجزائري...**» [3] ويعيد الكاتب إلى أذهاننا موقف الثورة الفرنسية حتى اللحظة من اللهجات أو الثقافات المحلية ومقاومتها في الأرض الفرنسية لأنها تعرف نتيجة ذلك فهي: «**تقاوم بشدة هذه الثقافات والنزاعات الجهوية المتولدة عنها البروطان، الكورس، الألزاس وهلم جرا...**» [4].

---

[1] انظر سلسلة المقالات في السلام بدءاً من 14 ماي 1990 وانظر مقالاً آخر له في الجريدة نفسها بتاريخ 28 أكتوبر 1991 بعنوان «إجتهاد وطني في المسألة الأمازيغية».

[2] انظر سلسلة المقالات في السلام بدءاً من 14 ماي 1990 وانظر مقالاً آخر له في الجريدة نفسها بتاريخ 28 أكتوبر 1991 بعنوان «إجتهاد وطني في المسألة الأمازيغية».

[3] انظر سلسلة المقالات في السلام بدءاً من 14 ماي 1990 وانظر مقالاً آخر له في الجريدة نفسها بتاريخ 28 أكتوبر 1991 بعنوان «إجتهاد وطني في المسألة الأمازيغية».

[4] المصدر نفسه.

ومن هنا فإن إثارة القضية الفرنسية مسيطرة على الحياة العامة في الجزائر، وعدم تحقيق التعريب بصورة حقيقية وشاملة، والدفاع المستميت عن الفرنسية في الوقت نفسه، **«يفسر عدائها المكشوف للثقافة العربية والعروبة، هذا العداء الذي نتج كذلك عن تأثر الحركة البربرية بأفكار الآباء البيض وبعض العناصر المتنصرة في صفوفها، ولا نكشف سراً إذا قلنا أن أمين مال حركة حسين آيت أحمد في وقت ما كان من رجال الدين المسيحيين وهو الأب دي فالكو وأن مستشاره الخاص على لمسيلي هو في حقيقته «أندري» وليس عليا...»** [1].

ويسترسل الكاتب في تبيان الدوافع والأغراض والعوامل التي أسهمت في إبراز هذه القضية في المرحلة المشار إليها، ولكنه يلمس مكمن الداء – كما يقال – فالصراع هنا ليس بين عرب وبربر ولكنه صراع بين عروبيين وغير عروبيين، بين العروبة وخصومها الألداء، فهو إذن بعيد عن العرقية والجنس والأصل، ولكنه ينطلق من توجهين مختلفين وهو الصراع نفسه الذي رأيناه في الفصول السابقة من هذا البحث.

والكاتب يرد على الذين يكتبون **«الأمازيغية»** بالحروف اللاتينية ويزعمون أن هذا يقربهم من العصر وحضارته، وهم في الحقيقة – كما يقول – **«يدافعون عن «أقلية محظوظة» مهيمنة تسعى لربط مصيرها ومصير الجزائر بالمجال الفرانكوفوني اللاتيني...»** [2] ويستشهد برأي آيت أحمد الذي يقول عن الحرف اللاتيني: **«الحروف اللاتينيية أنسب لأنها تضمن لنا الإنفتاح على العالم...»** [3]. ويضيف الكتاب بأن العداء هنا سببه العداء للحرف العربي وللثقافة العربية **«واختار الحركة البربرية للحرف اللاتينية يعني بإختصار وضع واقع عمره14 قرناً بين القوسين وهذا ما حاول فلاسفة الإستعمار فعله عبثاً طوال**

---

[1] المصدر نفسه وانظر كتاب بن نعمان السابق ص: 117 وإلى 309.

[2] السلام 28 / 5 / 90.

[3] المصدر نفسه.

130سنة من الإحتلال [1]**. والكاتب يدافع عن التراث الأمازيغي لأنه يعتز بأصالته وأمازيغيته ومن ثمة لا يمكن أن نتهمهم بالإنتماء إلى اللوبي الهلالي...»** [2]**.**

على أن التهجم على العربية والعروبيين بلغ قيمته في هذه الفترة، واتهم المدافعون عن أصالة الشعب الجزائري **«بالهلالية»** سخرية من **«بني هلال»**، وبالتالي من العرب وبالاتجاه الحضارة العربية الإسلامية، وكتبت المقالات التي تستنقص من **«المعربين»** وثقافتهم بصورة أعنف من ذي قبل وتمسك هؤلاء بمقولة أطلقها الشيخ الغزالي وهي: **«أنا مصري عرّبني الإسلام»** فاستبدلت كلمة **«مصري»** بـ **«جزائري»** وهذه بـ **«بربري»**، وأصبحت هي شعار الساسة والمثقفين الفرانكوفونيين والإقليميين والجهويين تردد في خطبهم وأحاديثهم وكتاباتهم وليس الغرض هو الدفاع عن الإسلام ولكن الهدف البعيد هو التأكيد على الروح الإقليمية وعلى فصل الجزائر عن هويتها العربية وانتمائها العربي [3] وما أسهل أن يعتنق هؤلاء مقولات من هذا النوع [4] وما أصعب أن يرددوا نحن عرب أنتماء وحضارة كما حدث بعد الإستقلال مباشرة. ولو كانت النظرة موضوعية للبربرية والعربية والفرنسية لوجدنا حلاً للقضية بحيث توضع كل لغة في مكانتها الصحيح والطبيعي، فالعربية لغة حضارية وهوية وانتماء، والأمازيغية لهجة وطنية عرقية في شعبنا تحتاج إلى المحافظة عليها ودراستها وإثرائها وتشجيع الإبداع بها فناً وثقافة وأدباً، ولكن بشرط أن تكتب بحروف عربية. وقد

---

[1] المصدر نفسه.

[2] المصدر نفسه

[3] هناك معروف طالب بتوحيد المغرب البربري ليكون هو الرد على القومية العربية كما جاء في مقاله بالحرف الواحد، انظر: الشعب 25 / 6 / 1989.

[4] لقد أعطى الغزالي الضوء الأخضر للإقليمية في الجزائر لكي تجسد مستنداً لها، رغم أنه ليس حجة في هذا المجال لأنه كان من خصوم عبد الناصر ومن خصوم القومية العربية المعروفين.

أوضحت رأيي في هذا الموضوع في حديث أجرته معي جريدة «العرب» في لندن [1] كما أسوق هنا رأياً للمفكر محمد عابد الجابري نشر في مجلته جسور مؤخراً نقلاً عن المستقبل العربي يقول فيه: **«نعم إن بعض المثقفين بالثقافة الفرنسية وحدها يطالبون بفسح المجال للثقافة البربرية، مطلب مشروع في حدود ظاهرة التنوع في الوطن العربي ولكن نقطة الضعف في هذا المطلب هي أن البربرية لا تتوفر على حروف للكتابة خاصة بها، والذين يتبنون هذا المطلب يجدون أنفسهم متناقضين مع قضيتهم عندما يكتبون البربرية بالحروف اللاتينية وحسب قواعد وضعها الفرنسيون وهذا ينزلق بهم إلى نوع من التغريب ويحرمهم من التعامل مع أوسع الجماهير التي تقرأ وتكتب بالعربية وحدها...»** [2]

ورأي هذا الفكر العربي هو رأي الباحثين النزهاء والدارسين الموضوعيين في المغرب العربي بدون تعصب أو تحزب أو جهوية أو عنصرية، ولا أحد ينكر ما جاء في هذا الرأي ولكن مشكلة من أشار إليهم الكاتب أنهم يتركون المجال الحيوي لهذه الثقافة وهو المجال العربي ويحاولون دمجها في الغرب، ورأي الجابري هذا يتفق مع رأيي الذي أشرت إليه آنفاً في هذه القضية.

فالقضية أساساً ليست بين ثقافة **«عربية»** وأخرى **«بربرية»**، ولكنها بين العروبة والأصالة والإنتماء والوطنية من جهة وبين ثقافة غربية لا تربطها بها سوى فترة حالكة من تاريخنا عشناها تحت الإحتلال الفرنسي من جهة أخرى. وهذه الأفكار و**«الأطروحات»** هي بقايا ثقافية التي لا تزال تعشش في عقول وأذهان البعض منا، وهي فئة فرانكوفونية نسيت أو كادت لغتها وماضيها وتاريخ وطنها وتشبثت بأوهام حسبتها حقائق، وتنكرت لأمجادها القريبة والبعيدة وحاولت أن تطمس معالمها عن وعي أو غير وعي. وتلك مأساتهم التي تدفع ثمنها

---

[1] أنظر جريدة «العرب» بتاريخ فبراير 1990 – لندن.

[2] أنظر المقال كاملاً في جسور بتاريخ 31 / 10 – 13/ 11 / 1991 نقلاً عن مجلة (المستقبل العربي) عد 13 ديسمبر 1989.

جيل جديد حاولت هذه الفئة بمختلف الأساليب تحطيم نفسيته وتمزيق شخصيته ومسخ هويته حتى يصبح صالحاً لغزوه فكرياً وثقافة ولغة وأعماقاً، وهذا ما نلمسه في الأفكار التي سادت وتسود الآن، حتى وصلنا إلى مستوى من التدهور الفكري والسياسي والثقافي يحتاج إلى عمل جديد وفكر جديد حتى نعيد له إيمانه بثوابت وطنه ونبعده عن السقوط في متاهات هو في غنى عنها.

على أن النقاش الذي استنفد كثيراً من كتابات المثقفين والسياسيين والإعلاميين بعد الأحداث الساخنة، هو ما دار حول مصطلح طفقا فوق السطح أخيراً وأصبح من الذيوع بمكان حتى إن الأطفال يرددونه مع عائلاتهم. أطلق هذا المصطلح على فئة من المدافعين عن الثقافة الفرنسية وعن العرب، وهم الفرانكوفونيون وأتباعهم ممن أطلق عليهم **«حزب فرنسا»** [1] وقام جدل على صفحات الجرائد وفي المنتديات، كل يأتي بما يؤيد الإتهام أو يدفعه، وأعتقد أن هذا نشأ عن المظاهر التي استغلها بعضهم أثناء الإنفجار الكبير الذي عم الوطن من جراء المظاهرات ورفعت أثناءها شعارات مثل: **«تحيا فرنسا»**. بل إن العلم الفرنسي رفع هنا في بلادنا من طرف الحاقدين على الثورة، وتجدد الهجوم الشرس على العرب والعروبة والعربية بلهجة حاقدة جارحة حتى بلغ الأمر ببعضهم أن يهاجم الأمة العربية والحضارة العربية الإسلامية بجهل فاضح في أجهزة الإعلام الرسمية وأمام الملأ، دون خوف أو خجل. كما ظهر ذوو **«الأقدام السوداء»** بالجزائر بعد ذلك بقليل إلى جانب ما لمسناه جميعاً من التنديد بجبهة التحرير الوطني وزعامتها في المرحلة الماضية، وهي التي دافعت عن عروبة الجزائر وإسلامها والتشكيك في ثورة نوفمبر ورموزها من مجاهدين وشهداء والقدح في ماضيهم ونضالهم. يضاف إلى ذلك كله محاولة **«تبييض»** وجه

---

[1] أنظر حديث أجرته «المساء» مع المجاهد لخضر بورقعة حول هذا الحزب جاء فيه: الأصح أن حزب فرنسا نشأ أثناء الثورة وهو الطابور الخامس. فالإستراتيجيون الفرنسيون أدركوا منذ السنوات الأولى لاندلاع الثورة أن الجزائر لا محال ستستقبل إن عاجلاً أم آجلاً فبدأوا يعدون العدة لهذه المرحلة (المساء) 31 / 10 / 1991 .

الإستعمار الفرنسي البشع وعملائه حتى بلغ الأمر أن يذكر الإستعمار دون إضافة كلمة فرنسي بحيث أصبح من يذكر الإستعمار الفرنسي يخشى على نفسه وهذا ما عبر عنه الكاتب محمد العربي ولد خليفة حرفياً: مضت سنوات طويلة كان العديد من الكتاب في الصحافة الوطنية ومن يوجهونها يتحاشون وصف الإحتلال بالفرنسي ويخجلون أو يخافون من إقتران كلمة الإستعمار بوصف **«الفرنسي»** [1] كما شاع إستعمال لقب **«السيد»** بدلاً من **«الأخ»** تقليداً لشعار الثورة

والمقال هام للغاية فهو يتناول دور الفرانكوفزنية في بذر الشعور بالنقص في نفوس الجزائريين وإطلاق قنابل الدخان حول العربية، الأمر الذي جعل الدفاع عن الدارجة الفرنسية ونسبياً لشعار حزب الشعب ثم الثورة الجزائرية وهو الذي **«اشتهرنا»** به في العالم، واستمرت هذه الموجة التي بات فيها تقليد فرنسا هو السمة البارزة لهذه الفئة ولهذه المرحلة أيضاً، مع ما يتبع ذلك من مظاهر توحي بالإستلاب الفكري والثقافي والحضاري بصورة لم تعرفها الجزائر حتى في أحرج لحظاتها أثناء الإحتلال [2].

فإذا كانت الجزائر في **«الفترة المظلمة»** قد تعرضت للمسخ، فإن الإستعمار وفئة قليلة من الفرانكوفونيين الإندماجيين رغم المحاولة أخفقوا في التأثير على المواطن والمجتمع معا، ولكنها اليوم تطورت في أساليبها وطرق تأثيرها من صحافة وإذاعة وتلفزة وأحزاب وجمعيات وأفراد وجماعات يساندهم من يجني هذه الثمرة من سكان الضفة الأخرى، لأنهم في النهاية الرابحون هم

---

[1] الشعب 17 ماي 1990،والمقال هام للغاية فهو يتناول دور الفرانكوفونية في بذر الشعور بالنقص في نفوس الجزائريين وإطلاق قنابل الدخان حول العربية الأمر الذي جعل الدفاع عن الدارجة امرا عاديا بالنسبة لبعض المثقفين والمسيرين ومساواتهم بين الفرنسية والعربية.

[2] من هذه المظاهر مثلاً رسم ألوان العلم الفرنسي في المصنوعات الجزائرية دون أن يثير ذلك إستنكار من أحد، كذلك مدح فرنسا وعظمتها أصبح أمراً عادياً وكأنها كانت طوال الإحتلال صديقة أو شقيقة !!.

ولغتهم وثقافتهم ومصالحهم. لذلك جندت فرنسا كل ما لديها من وسائل إعلامية ومن عقول وخبرات كي توجه التيار نحوها ونحو فكرها ولغتها وحضارتها.

ويبدو أن حزب فرنسا هذا ليس جديداً في تسميته ولكنه قديماً صيغة ومحتوى، فهو يعود إلى القرن الماضي وبالإسم نفسه تقريباً. فقد علمت فرنسا على تشجيع بعض الجزائريين ليكونوا قوة ضد الأمير عبد القادر في سنة1838 ، ومن المفرقات العجيبة أن يظهر هذا في أوج معارك الأمير. فقد نصح قنصل فرنسا في معسكر **«القبطان دوما» «الكولونيل مونيبزا»** في رسالة سرية مطولة، بأن يكتل الغاضبين على اختلاف مشاربهم ومصالحهم ضد الأمير عبد القادر وأن يكون منهم حزباً يعمل من أجل فرنسا، (**un parti pour la France**). وأكثر من هذا ينصحه من هذا بأن يستميل القبائل التي تدين بالطاعة للأمير، فهذا المسؤول الفرنسي فكر في إنشاء حزب من الجزائريين يساعد فرنسا على احتلال الجزائر [1].

ومما جاء في هذه الرسالة حرفياً:

«...ثم إن الإشاعة المروجة بحذق كبير والقائلة بأننا سنغادر يوماً هذا البلد يزيد في تخويفهم ويشل مبادرتهم...» [2].

وهذا الأسلوب استخدموه في الجزائر منذ احتلالهم لها حتى خروجهم منها، فأوجدوا من يدافع عنهم وعن وجودهم وبقائهم. وقد رأينا كيف أن كثيراً من هؤلاء كانوا يطالبون بالإندماج مع فرنسا منذ القرن الماضي وحتى الحرب العالمية الثانية.

---

[1] رسالة سرية مطولة (25) صفحة بتاريخ سبتمبر 1838 بعث بها القنصل فرنسا في معسكر القبطان دوما إلى الكولونيل مونبيزا فيها حديث عن الوضع السياسي والعسكري السائد حينئذ، كما تعرض فيها لشخصية الأمير عبد القادر وسلوك بعض أفراد عائلته وحكومته والرسالة سلم لي نسخة منها بخط يده الأخ محمد الصغير بناني.

[2] راجع الصفحة السابقة هامش رقم (1)

ولعل ظهور هذه الكلمة مرة أخرى – كما ذكرت – جاء على لسان الرئيس الراحل بومدين عندما أحس بالتيار المتغرب المفرنس يحكم طوقه على مجريات الأمور في الجزائر أثناء فترة حكمه، فنبه إلى الخطر وإلى المستقبل، ولكنه لم يوله الإهتمام الذي يستحقه فسرى في جسم الثورة ينهش مبادءها وقيمها حتى انفجرت أحداث أكتوبر فأعلن هذا «الحزب» عن وجوده متحدياً الماضي والحاضر.

ويؤكد هذا الرأي مجاهد كبير وقائد من قواد الثورة علي كافي الذي كان مسؤولا عن الولاية الثانية بشمال قسنطينة أيام الثورة وتحمل مسؤوليات كبيرة بعدها، أقر بوجود هذا الحزب أثناء الثورة وإن لم يرفع هذا الشعار ويحدد لذلك تاريخاً معيناً، يقول ما نصه: **«أولاً أنا لم أقل أن حزب فرنسا موجود منذ الإستقلال، وإنما قلت أن حزب فرنسا وجد منذ العام الثاني للثورة عندما حاول «سوستيل» إن ينشئ منظمة أو 1955هيئة تحت إسم الإخوة الفرنسية الإسلامية ولحسن الحظ فإن عمليات 20 أوت أنهت مهامه، ولكن هذه السياسة استمر فيها خليفة «لاكوست» الذي تخرج على يده العديد من المجموعات المعروفة الآن بإحتلالها لمراكز حساسة في هرم السلطة، ولدينا قوائم بأسمائهم وسيأتي اليوم الذي نكشف فيه هؤلاء الأشخاص...»** [1].

ومن هؤلاء مثقفون وساسة باحثون وغيرهم ممن تشبث بالثقافة الفرنسية واندمج في الفكر الفرنسي الغربي ورأى فيها حلاً لمشكلة التخلف إلى جانب من رفع السلاح ضد الوطن أو أعلن خيانته السافرة أثناء الثورة من أفراد ارتبطت مصالحهم بالمصالح الفرنسية. وأصبح هؤلاء يشكلون قوة مادية وثقافية ووظيفية وإعلامية ترفض أن تتعلم العربية عن موقف لأنها تحتقرها وتحتقر العرب والعروبة. ويصف هذا الحزب صحافي معروف في الأوساط الإعلامية والشعبية بمواقفه الوطنية دفاعاً عن الشعب والثورة والثوابت الوطنية هو **«سعد بوعقبة»** الذي يحدد ملامح هذه الفئة قبل أكتوبر بقوله: **«هو كل جزائري**

---

[1] مجلة أول نوفمبر مارس افريل 1991.

بالميلاد فرنسي التفكير والتوجه يعمل بدون هوادة على صيانة المصالح العليا الفرنسية في الجزائر ويناضل من أجل تطوير وسائل الإستلاب الفكري للمجتمع الجزائري لصالح فرنسا وحدها، غايته القصوى إنتصار فرنسا على شعب الجزائر أو إعادتها كما كانت قبل ثلث قرن ولاية فرنسية...» [1].

ثم يسوق مواصفات كثيرة لهذا الحزب بعد أكتوبر، فيرصدها بالإسم من خلال الملتقيات التي يتم فيها البحث عن الوسائل التي يغزون بها الشباب الجزائري والمواطن بوسائل كثيرة وخاصة الإعلام، أو أولئك الذين اعتبروا الجزائر استقلت في 1988 بدلاً من 1962، وهم الذين يقولون إن ثورة الجزائر كانت **«غلطة»** تاريخية وأن **«الحركي»** اليوم يساوي **«خمسة مجاهدين»** وهذا الحزب عمل على أن تلغى علاقتنا مع الخارج وأن تحصر في فرنسا وحدها، وهو نفسه يهاجم جبهة التحرير في نضالها ضد الإستعمار وغير ذلك من مواصفات هذا الحزب كما له الكتاب.

وبؤرة الصراع الأساسية في هذا كله إنما هو **«التوجه»** و**«الهوية»**. فمنطلقات العروبيين غير منطلقات الفرانكوفونيين المستلبين. ولكن الخطير في الأمر أن هؤلاء أصبحوا في موقف الهجوم بعد أن كانوا في موقف الدفاع في الماضي القريب والبعيد. وهذا هو الجديد إن صحّ أن نعتبر هذا الموقف جديداً، حتى إننا نرى باحثاً أكاديمياً جاداً ومؤسس حزب هو **«أحمد بن محمد»** يتخوف من مستقبل العربية في هذه المرحلة عندما صرّح في حديثه إلى الجريدة المساء قائلاً: **«فأنا متشائم من مستقبل لغة الضاد في الجزائر»**.

إذا كان الوزير الأول يقول في حصة مشتركة بين محطة **RTL** و**«لوموند»** بتاريخ 23 جانفي 1990 بأن: **«اللغة الفرنسية هي اللغة الوطنية الثانية في الجزائر، إلى أن يقول وهو يتحدث عمّن أطلق عليهم «الفرانكومان» هؤلاء**

---

[1] مجلة الوحدة، انظر سلسلة المقالات في الموضوع بين عامي 89 و1990. وانظر أيضاً مقاله في الوحدة بتاريخ 3 / 3 / 1988 بعنوان: «هل أصبح حب فرنسا من الإيمان ؟».

الذين يدعون إلى إعطاء اللغة الفرنسية في الجزائر حجماً أكبر من حقيقته فأنا متخوف من مكانة اللغة العربية في الجزائر وأستطيع أن أقول بأن هناك تخاذلاً لغوياً على المستوى الرسمي في الجزائر...» [1].

وفي حديث آخر له بجريدة الشعب أجراه معه الشاعر المعروف عز الدين ميهوبي يقارن بين التيارين الفرانكوفوني والتعريبي، ويعتبر الأول الذي أصبح يمثل حزب فرنسا في الجزائر وإن لم يعلن عن ذلك رسمياً وإن ظهر في بعض أفكار الأحزاب أو المنظمات أو الأشخاص **«ممن ضعف ارتباطهم بالتاريخ الإسلامي»** [2]، ويرد على الذين يزعمون أن العربية عاجزة عن مسايرة التقدم العلمي والتقني ويعتبر ذلك فرية مقصودة حتى جعلوا ميدان العلم محرماً على العربية [3].

ولا يختلف رأي الطاهر عدواني عن الأقوال التي تحدد صورة هذا **«الحزب»** فيتغير هذا مفهوماً: **«ومعلوم أن المقصود هنا بحزب فرنسا هو ذلك «اللوبي»** المرتبط ذهنياً وأيديولوجياً وسلوكياً بالماضي «الكولونيالي» والذي **يحن إلى إعادة إنتاجية بصورة أو بأخرى، وهو في حركته أو قتاله من أجل ذلك لا يخضع ولا يستمد سلطته من مرجعية سلطوية أخرى غير ذاته بمعنى أن فرنسا الرسمية والسياسية لم تصنعه ولم تخضعه وهنا وجه الخطورة...، حتى يصل إلى الحكم: واليوم وبعد أن تحقق حزب فرنسا كل ما أراد، بعد أن دمر كل البنية الإقتصادية التي قامت عليها الدولة الجزائرية، دمّر الصناعة والزراعة والإدارة والتعليم، وخرب كل المؤسسات وعلى رأسها النظام الذي حالفه وخالفه»** [4].

إن هذا التشاؤم الذي نلحظه في النصوص السابقة لدارسين جادين ومنهم جامعيون يوحي بشيء هام هو لهجة الحديث التي وصلت إلى حد اليأس. وحين

---

[1] المساء 27 / 2 / 1990.

[2] الشعب 9/ 10 / 1990.

[3] الشعب 9/ 10 / 1990

[4] الشعب 9 / 12 /1990.

يصل الأمر بالأستاذ الجامعي إلى أن يفكر بهذا الشكل، فذلك معناه أن الأوضاع انقلبت رأساً على عقب، وأن السحابة سوداء تغطي سماه الجزائر وأرضها وإنسانها، وحتى إن صحافياً كتب مقالاً بعنوان **«هل الجزائر فرنسية؟؟»** وكثر وصف مظاهر الفرنسة في الجزائر كما فعل سليم شيخاوي فقد ألمح إلى ذلك بقوله: **«الميل والحنين الثقافي الحضاري لفرنسا يمكن أن نسلمه من خلال الأرضية الخصبة التي توفرها العوامل الداخلية في المجتمع من أجهزة إدارية وعلاقات العمل في المؤسسات الإقتصادية والثقافية وغيرها»** [1].

فالخوف من المستقبل أصبح هاجس المثقفين العروبيين بعد أن أظهرت الفرانكوفونية أنيابها الجارحة، وأخذت تمزق بها كل صلة بالعرب والعروبة وماضي الشعب العريق.

وإذا رجعنا إلى التاريخ القريب نجد أن اللغة العربية لم تصبح رسمياً إجبارية إلا في عام 1965، وهذا بالطبع في التعليم فقط. أي أنها منذ الإستقلال حتى العام المذكور لم يكن التلميذ مجبراً على الإمتحان بها في السادس الإبتدائي ولا في الشهادة الإعدادية ولا في الثانوية ولا حتى في التعليم الثانوي وهو لا يعد راسباً إذا لم ينجح فيها [2]

وبعد مرور ربع قرن على هذا الظرف، نرى ردة ضد العربية. فمن موقف **«سلبي»** مغلف بالبيداغوجية والوطنية إلى موقف **«ديمقراطي»** مشوه للحقيقة. فبمجرد تقديم مشروع لتعميم إستعمال العربية رسمياً إلى **«المجلس الوطني الشعبي»** ثم المصادقة عليه، ثارت ثائرة الفرانكوفونيين ورفعت شعارات الديموقراطية والحرية وحق الإختيار، وإنهالت التصريحات من الزعماء ودبجت

---

[1] المساء **5** جوان **1990**.

[2] حتى إن المفتش العام في تلك الفترة وهو محسوب على المعربين، برز هذا بحجج عجيبة لا تقنع أحداً وهو التبرير نفسه لوزارة الإرشاد - كما كانت تسمى - وقيل في ذلك الوقت: لا يمكن التضحية بأجيال لا تعرف العربية!! (أنظر جريدة الشعب بتاريخ **20** مارس **1965** ففيه تفاصيل عن عدم اعتبار العربية مادة أساسية في الامتحان).

المقالات المسمومة في الصحف والمجلات الفرانكوفونية خاصة تلك التي عهدنا موقفها وعداءها للعربية والعروبيين [1]. وكثير ما زعموا أن العروبيين يدافعون عن العربية من أجل المصلحة وهذه مغالطة أخرى أيضاً، لأن الذي يدافع عن لغته لا يفكر في المصلحة بقدر ما يفكر في المبدأ، وكلامهم هو نوع من **«الفذلكة»** المضحكة المبكية في الوقت نفسه، فأية مصلحة للعروبيين في مجال كله مفرنس، فكراً ولغة وثقافة، ثم من يحكم البلاد؟! هل هم العروبيون حتى يتهموا بأنهم سبب التخلف؟! القضية أنهم يتهمون غيرهم كي يغطوا توجههم المريب لخدمة فرنسا والفرنسية والغرب ويغطوا فشلهم في الحكم والتسيير، فبادروا إلى الهجوم على العروبيين من مبدأ معروف هو: **«دع الآخرين في موقف الدفاع»**. في حين كان الطبيعي أن يدافعوا هم عن موقفهم الضالع في نشر الفرنسية والدفاع عن الفرانكوفونية. بل إن بعضهم وقف ضد تحويل ثانوية **«ديكارت الفرنسية»** إلى ثانوية جزائرية، ورفض أن ينقل أبناءه إلى الثانويات التابعة لوزارة التربية الوطنية، مما أثار الشعور الوطني، فكتب المثقفون تعاليق إضافية خاصة بعد أن قامت الفرنسيات وحتى بعض الجزائريات بمظاهرة ضد تحويل هذه الثانوية.

وإن الإنسان ليندهش حقاً من جرأة بعض المثقفين والإعلاميين والسياسيين في عدائهم السافر للعروبة وهجومهم على العروبيين، فبلغ الأمر ببعضهم أن اعتبر المعربين مرضاً: **«ينبغي الحذر منهم مثل الطاعون»** [2].

فهذا النوع من المقالات المسمومة التي انتشرت في هذه الفترة لا تصدر إلا عن حقد دفين لم نعثر له على أثر عند أعداء العرب والعروبة من الأجانب،

---

[1] الجزائر الأحداث 22 - 28 نوفمبر 1990 .

[2] «أفاق Horizons» - 6 جويلية 1989 – وهذا مثل أراء كثيرة ومواقف قرأناها في الصحف وأمثالها... الأمر الذي جعل باحثاً أكاديمياً عروبي الروح فرانكوفوني في اللغة وهو جمال لعبيدي يعتبرها «عنصرية» في حديثه للأسبوع La semaine رقم 33 في 9 ديسمبر 1991 .

ووجدناه لدى من يعيش بيننا ويسكن تحت سماء وطننا. ولم يقتصر الأمر على بعض المثقفين أو الإعلاميين الإنهزاميين، ولكنه صدر أيضاً عن سياسيين. فرئيس حزب من هؤلاء يقول: «**اللغة العربية الفصحى ليست لغتنا... ومن لا يؤمن بها فهو فاشي ولذلك يجب تطوير العربية وخلق لغة جديدة يفهمها الشعب كله ويتعامل بها...**» [1].

فإذا همشنا العربية فماذا يبقى لدينا؟؟ لا شيء أصلاً... ربما تبقى الدارجة التي يزعمون – كما فعل قبلهم كتّاب وأدباء من شاكلتهم – أنها صالحة لأن الشعب كله يعرفها، ويدافعون عنها كما دافع المستشرقون الفرنسيون قبلهم وهي دعوة ينسبونها إلى الشعب وهو بريء من هذه الفرية. فالشعب الجزائري طوال حياته تحت الإحتلال أو بعد الإستقلال وقف إلى جانب لغته القومية الوطنية ودافع عنها، لكن الذين طالبوا بالعامية إنما هم الفرانكوفونيون. وهذا ما يقرره باحث تشبع بالفرنسية هو جمال العبيدي في مقاله السالف الذكر عن التعريب فيؤكد: «**بأن اللهجة العامية لم تكن مطلباً شعبياً ولكنها كانت من آثار الإنتلجنسيا الفرانكوفونية...**» [2]

وهناك زعيم حزب آخر يقول: «**نحن شعب أمازيغي رغم أنف العرب ومن يقول غير ذلك فهو عنصري! كنا أمازيغ ولا نزال وأن مقولة أنا جزائري عربّي الإسلام ما هي إلا مغالطة**» [3].

فهذا التفكير ينكر المقولة التي أشرنا إليها من قبل، ولا يعترف بها لأنه يرفض حتى الإنتساب إلى غير الجهة التي يعتبرها الوطن والهوية، ويعتبر أن من يقول «**أنا جزائري عربّي الإسلام**» يغالط في هذا لأنه لا يعترف بالعرب –

---

[1] الشعب 23/ 10 / 1989.

[2] الشعب 1/ 4/ 1989 الجزائر الأحداث 29- جوان – 5 جويلية 1989 .

[3] المساء 17 ديسمبر 1989 .

على الأقل في الجزائر – ولا بعنصر عربي يسكنها ويعيش فيها منذ قرون . طويلة.

فإذا كنت هذه المقولة كما ذكرنا تعبر عن فكر إقليمي صرف، فإن مثل هذا الفرانكوفوني ينفي كل شيء ولا يعترف بأي إنتساب إلا هذا الإنتساب الذي يؤكده ليل نهار في تصريحاته.

وهذه المواقف كلها مرّت بنا ورأينا نماذج من الأقوال والأحاديث المعبرة عنها، لم ترق إلى **«الموقف الفعلي»** إلاّ بعد أن أقرّ **«المجلس الوطني الشعبي»** القانون الخاص بلغة العربية وتطبيقه على مراحل في التعليم وفي الإدارة، وحدد لذلك آجلا معينة يعاقب من يتجاهلها. هنا ثارت ثائرة بعض الفرانكوفونيين، ودعوا إلى مظاهر تمت فعلاً، ورفعت فيها لافتات تهاجم المجلس لإقراره هذا القانون. وقد كتب الشاعر الصحافي عبد العالي رزاقي مقالاً في الموضوع بعنوان **(الحوار الرفيع)** [1] كما كتب غيره تعليقاً على رأي رئيس المجلس أو نقد للذين دعوا إلى هذه المظاهرة، وقد ردّ رئيس المجلس الأخ عبد العزيز بلخادم على أولئك الذين وقفوا ضد هذا القانون بقوله عنه إنه **«مصالحة مع النفس وعودة إلى الذات»**، وانتقد أولئك الذين ينادون بالازدواجية بقوله: **«الإزدواجية لا أصالة أبقت ولا تكنولوجيا أكسبت»** [2]. ونظراً لوجود هذا المناخ الرهيب، تجرأ مسؤولون في الإدارة الجزائرية فرفضوا تطبيق هذا القانون وتحدوا التعريب، فهناك أحد الولاة عارض استعمال العربية جهاراً نهاراً متحدياً الشعور

---

[1] السلام 8 جانفي 1991 .

[2] المساء 1 جانفي 1991 (والحديث شامل يناقش قضية اللغة والشخصية والثوابت الوطنية ويحلل الشعارات التي رفعتها الفرانكوفونية منذ الإستقلال. ولم تحقق منها شيئاً رغم أنها أضعفت من الشعور بالمقومات الشخصية للوطن).

الوطني ضارباً بالقانون عرض الحائط [1]. وحدث أيضاً أن رئيس لجنة الإعلام أثناء تنظيم مباراة في كرة القدم تتصل بكأس أفريقيا، وهو مسؤول رسمي جزائري، رفض أن تكون العربية من بين اللغات الحية في الترجمة بالفرنسية والإنجليزية مما أثار غضب الوطنيين، فكتب كثير من الكتاب ورجال الإعلام مقالات تندد بهذا الموقف الذي يتحدى الشعور الوطني والتاريخ والحضارة التي ينتمي إليها هذا الشعب [2].

من مظاهر هذا المناخ أيضاً أن إنتقاد فرنسا والعنصرية فيها أصبح أمراً صعباً، فالمهاجرون هناك يلاقون الهوان ويطلق عليهم الرصاص في وضح النهار، وكل ما يحدث هو تنشر كلمات باردة تندد بالعنصرية. وبلغ الأمر بأحد المسؤولون كما قال كاتب عروبي هو الصادق بخوش، أن قال عن الأفلام الثورية الجزائرية: **«إنتاجنا من الأفلام الثورية التي تهاجم فرنسا كبير ويجب إيقافه وأن أسلوبنا في تخليد شهدائنا وإحياء أعيادنا الثورية مبالغ فيه ويحمل إستفزازاً لفرنسا...»** [3]. والكاتب يستنكر بالطبع ما قاله هذا الرسمي، فهل بعد هذا ما نضيفه عن هذا الجو الرهيب وعن هذا الإنصياع لتأثير الفرانكوفونية التي لم تتنكر للعروبة وحدها، بل تنكرت للقيم الوطنية والشهداء ولكل ما يرمز لكرامة الوطن والشعب والتاريخ العظيم لهذا الشعب.

لقد أسهم في خلق هذا الجو وهذا المناخ العام الإعلام الفرانكوفوني المرئي والمسموع والمقروء، وشنت حملة شرسة فيه على كل ما هو عربي، حتى

---

[1] الشعب 27/ 10/ 1990.

[2] المساء 4 مارس 1990 .

[3] الشعب 1/ 4/ 1989.

أن بعض الكتاب اعتبر جهاز التلفزيون **«صورة طبق الأصل للقناة الخامسة»** [1]. سواء فيما يقدم فيه من مادة إعلامية أو ترفيهية أو ثقافية أو في شكل ما يقدم من أخبار إلى جانب البرامج التي يزعم أصحابها أنها جزائرية، ففيها أحياناً غمز ولمز للهوية العربية وتصريح أحياناً أخرى بالسخرية من العربية والعرب على حد سواء، كما استخدمت الفكاهة المرة ضد التوجه العروبي وغير ذلك من الأساليب الهابطة التي لا نجد لها مثيلاً سوى في عهد الإحتلال.

أما السخرية من الإسلام فقد انتشرت كالوباء في مجالات كثيرة مما لم يحدث في تاريخ الجزائر نظراً إلى ظهور أحزاب **«إسلامية»** وأخرى **«لائكية»**، مما لم نلاحظه في أي وقت من الأوقات ولم نشاهده لا مشرقاً ولا مغرباً، حتى إنه ليصدق على هذه المرحلة ما قاله البطريرك هزيم: **«إن المسحيين العرب لا يناصبون العداء للإسلام كما يتصور البعض – بل هم أقل عداوة من بعض المسلمين الذين يخافون شعوبيتهم تحت عباءة الإسلام كي يهاجموا العروبة»**.

وهذا يصدق تماماً على هذه الفئة الشعوبية في الجزائر بعد أحداث أكتوبر، فهي تهاجم الإسلام عندما يقف ضد الفرانكوفونية والغرب، وتشيد به عندما تريد ضرب فكرة العروبة، وفي آخر الأمر فإن الهدف واحد لأن المقياس هو الموقف من الغرب ومن الثقافة الفرنسية . ومن المفارقات العجيبة هنا أن المسحيين في المشرق لايعادون الإسلام، بينما نجد عندنا بعض المسلمين يعلنون أو يخافون هذه العداوة ليس من منطلق الإلحاد ولكن من منطلق التوجه والثقافة والمذهبية والجمهورية والتغريب.

---

[1] السلام **3** ديسمبر **1990**.

ويتصل بهذا تلك الضجة التي أثارت بعد ظهور **«الأقدام السوداء»** في الجزائر، أو عودتهم في وضح النهار واستقبالهم من مسؤولين في الإدارة الرسمية والإحتفال بهم في مناسبات على رؤوس الملأ. وكان هذا استفزازاً للشعور الوطني. فهؤلاء وآباؤهم وأجدادهم هم الذين احتلوا الجزائر وعاثوا فيها فساداً وقتلوا وخربوا ودمروا ثقافة وفكراً وحضارة وغادروا الجزائر بعد الإستقلال 1962، اغتنموا فرصة البلبلة التي سادت المناخ الجزائري بعد الأحداث وتعالت أصوات تحث على نسيان الماضي وظهرت المقولة التي أعلنها عبد الحميد مهري وتنطبق على الثقافة في هذه الفترة وأسماها: **«ثقافة النسيان»** وكان بهذا أول من ندد بهذه الظاهرة بعد أن أصبح أميناً عاماً لجبهة التحرير الوطني مباشرة. وقد أطلق هذا الشعار لشعوره بالخطر مثل كافة الوطنيين في هذه المرحلة التي سبق القول فيها، ولكن ما كان أحد يتصور أن يعود أصحاب هذه **«الأقدام»** إلى الجزائر بعدما فعلوا طوال قرن وثلث قرن، الأمر الذي أحدث رعباً في الأوساط الوطنية، لأن أصحاب هذه الأقدام لا يمثلون الإستغلال فحسب، ولكن يمثلون لغة وثقافة وفكراً واحتلالاً فظيعاً. وقد ثار الشعب على ذلك وتحرر منهم بالسلاح، فكيف يعودون اليوم ومن الباب الواسع؟؟ حتى إن صحافياً يصرح قائلاً: **«أنا ابن شهيد والإستعمار الفرنسي هو الذي قتل أبي... أعيدوا لي أبي حياً ولن أتحدث بعد ذلك عن الإستعمار...»** [1].

ويكتب صحافي آخر هو بشير حمادي مقالاً مدوياً عن الموضوع يستعرض فيه تاريخ هذه الحركة في بدايات 1976، حين ألقت السلطة آنذاك القبض على أشخاص متعددي الجنسيات وعثر لديهم على وثائق كما ذكر الكاتب – جاء فيه: – عودة **«الحركة»** إلى الجزائر – عودة الأقدام السوداء

---

[1] انظر الشعب 28 نوفمبر 1989.

إلى الجزائر – تغيير نظام الحكم في الجزائر – تغيير شكل العلم الجزائري بحيث يتخذ الشكل التالي: هلال وصليب أزرق اللون ونجمة صفراء مكان تقاطع الصليب والشمس تظهر على الطرفين – اجراء استفتاء في الجزائر بعد تحقيق الأهداف السابقة [1]

ثم يتتبع تطور حركة **(الأقدام السوداء)** ومشاريعها وأعمالها وخطواتها وبياناتها واللجان التي تنشط منذ 1986، وبالطبع فالتركيز كان على الجزائر لأنها هي مفتاح الوضع في المغرب العربي، بحيث أصدرت بياناً هو عبارة عن ميثاق يحدد النظام السياسي للجزائر ويقسم ترابها إلى مناطق لكل منطقة حكومتها الخاصة ومنها منطقة خاصة بالقبائل **«يسيرها مجلس بربري ومنطقة الجزائر ويسيرها مجلس عربي إسلامي باعتبار أن هذا العنصر ما زال يشكل الأغلبية لحد الآن...»** [2] وقد اتخذوا أسماء مختلفة منها **«جمعية الأقدام السوداء للمتوسط»** أو **«الأقدام السوداء من أجل الجزائر»**. وقوي أملهم وأمل من نادى الفرنسيين **«بجبهة الجزائر الفرنسية»** أو **«الجبهة الوطنية للجزائر الفرنسية»** قوي هذا الأمل في العودة إلى الجزائر بعد أن طردوا منها سنة 1962.

وكانت إغراءاتهم لبعض المسؤولين الجزائريين وبعض الطامعين في الإستفادة من **«خبرات»** وأموال هؤلاء التي أسالت لعابهم، ففتحوا لهم الطريق تحت عناوين مختلفة سياسية أم سياحية أم إقتصادية وثقافية وغيرها، مما أغرى بفتح صفحة جديدة للعلاقات بين الجزائر وفرنسا.

---

[1] انظر الشعب 7 نوفمبر 1989.

[2] المصدر نفسه.

وتعلق مجلة الوحدة في مقالات وافتتاحيات عديدة تهاجم من استقبل هؤلاء الأغراب الأعداء في بلادنا وتعتبر هذا خيانة للوطن والشهداء [1]. وقد استمر التنديد بهذه «الشرذمة» وبمن شجعوها واستقبلوها وأتاحوا لها فرصة لم تحلم بها أبداً في أن تطأ أقدامها القذرة أرضنا الطاهرة، متناسين قرناً وثلث قرن كامل!! ومازال الحديث مستمراً لأن أصحاب هذه الأقدام لا ييأسون خاصة وأن عهد الديموقراطية و«الشفافية» يتغاضى عن وجودهم في بلادنا.

على العكس من ذلك، فإن هؤلاء لا يرحبون ليس بالعرب وحدهم بل حتى بالجزائريين الذين ولدوا وعاشوا بالمشرق العربي وخاصة في سوريا التي توجد فيها جالية جزائرية ضخمة هاجرت منذ أيام الأمير عبد وحتى قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها. وهي جالية تتصف بالعلم والثقافة والتحضير والتدين مما جعل أديباً معروفاً هو سهيل الخالدي يكتب عن هذه المفارقة العجيبة فيقول: **«في اعتقادنا أن جالية الأمير عبد القادر في المشرق أحق وأولى، فهي التي وقع عليها العذاب المباشر من قبل المستوطنين الأوروبيين والأقدام السوداء وصودرت أملاكها وأراضيها وتعرضت للتعذيب والتقتيل والنفي كباقي أفراد الشعب الجزائري وهي التي: – رفعت لواء القضية الجزائرية عربياً وإسلامياً – قادت الكفاح ضد العثمانيين والكفاح ضد الفرنسيين في سوريا – أعلنت الكفاح ضد البريطانيين والصهاينة في فلسطين – غذت الحركة الوطنية الجزائرية بمجموعات من الأبطال مثل الأمير خالد الهاشمي... أسهمت إسهاماً واسعاً في الثورة الجزائرية 1954 –1962 سياسياً ومالياً وتنظيمياً واعلامياً، ولا تزال في الفكر العربي الوثائق، وثائق الثورة تشهد بذلك – أسهمت إسهاماً ثقافياً واسعاً ولا تزال في الفكر العربي والإنساني. وقد عاد البعض من أفراد هذه**

---

[1] الوحدة 9 - 15 نوفمبر 1989 (الإفتتاحية ومقالات بالداخل).

الجالية إلى وطنهم الأم الجزائر ولم يطالبوا بأية إمتيازات سياسية رغم ماضيهم وماضي آبائهم المشرف» [1].

ولكن ما لم يقله الكاتب وهو الذي يعبر عن الحقيقة أن هذه **«الجالية»** لم تجد الرعاية والتفهم للأسباب نفسها التي ذكرها، فلو كان توجهها غربياً فرانكوفونياً لوجدت الإمتيازات والترحيب مثلما وجدته **«الأقدام السوداء»**، ولكنها جالية عربية عاشت في أرض عربية [2]. وقاومت المحتلين ووقفت مع ثورة نوفمبر بكل ما تملك وشاركت في النضال العربي وفي النهضة الثقافية للأمة العربية، وهذا هو خطؤها الوحيد الذي لا تنساه لها الفرانكوفونية ولا حمايتها في البلد الأصلي أو في الجزائر. فلو كانت جالية تدافع عن الفرانكوفونية والفكر الغربي لوجدت من يهتم بأمرها ويساعدها مادياً ومعنوياً ولكنها كما قلت – جالية عروبية ووطنية وتاريخها مشرف للعرب عامة وللجزائريين خاصة.

مما تقدم يتأكد لنا الصراع بين توجهين، **(شرق وغرب)**، ولا توسط بينهما، عروبي أو فرانكوفوني، وهذا أمر أصبح من البديهيات، ولم تكن الثقافة أو اللغة في هذا الصراع سوى الظاهر منه. أما في الحقيقة العميقة المتوارية فهي إن السياسة الفرنسية هي التي تحرك أدوات كثيرة وتستخدم وسائل متعددة للإبقاء على نفوذها، ليس في الجزائر وحدها ولكن في المغرب العربي كله.

---

[1] الشعب **1** أوت **1991** .

[2] انظر البحث المفصل لسهيل الخالدي نشر على حلقتين في جريدة الشعب **8** و**13** أوت **1991** . وقد تعرض فيه بالتفضيل إلى دور هذه الجالية في المشرق العربي وفي سوريا بالخصوص، وإلى مستوياتها الثقافية ومكانتها في الحياة السياسية والإعلامية والأدبية والعلمية والمهنية، مما يعطي صورة مشرفة للجزائريين بسوريا ويؤكد تعلقهم ببلدهم الأصلي والثاني العربي.

وهناك وثيقة سرية جريدة السلام الوطنية – وهي جريدة جادة مستقلة – كشفت فيها عن خطة فرنسية رسمية تهدف إلى السيطرة على الجزائر بصفة خاصة، وسخرت لهذا الهدف الإذاعة والتليفزيون وعمدت إلى بث الفكر اللائكي ومحاربة الفكر الأصولي – كما تسميه– في أوساط الشعب واستغلت الجانب الإقتصادي بحكم أن الأزمة الإقتصادية تحكم الخناق على الأقطار المغاربية كما استغلت ظروفاً أخرى كي تهيمن على هذه الأقطار فتبقى في فلكها ولا تخرج عن دائرة نفوذها [1].

إن عقدة الفرنسيين الأبدية هي الجزائر وثورتها واستقلالها وحريتها وخروجها من تحت سيطرتهم، وهم يعترفون بأنهم لم يستطيعوا أن **«يهضموا بعد استقلال الجزائر»** كما صرح بذلك محامي فرنسي شهير هو **«جاك فيرجيس»**، الذي دافع عن جزائريين وجزائريات أثناء الثورة حين تعرضوا للإعتقال والسجن والتعذيب، وقد قال ذلك في معرض انتقاد لشعبه مثلما فعل غيره من أحرار فرنسا ومثلما كان موقفهم أثناء الإعتداء الغاشم على العراق [2].

ويقول كاتب جزائري في هذا الصدد: **«إن فرنسا في هذه القضية لا تخفي اهتمامها وأطماعها ولا استراتيجيتها، ولا تخفي محاولاتها التي لا تتوقف عن توسيع وترسيخ دائرة الهيمنة الثقافية الفرانكوفونية...»** [3]

ثم إن هذا الموقف الفرنسي نشأ من الإحساس بالخطر على الفرنسية، ليس في المغرب العربي فحسب، ولكن في العالم كله نظراً لسيطرة الإنجليزية على مجالات العلم – كما سبق القول – فبعد أن كانت الفرانكوفونية تتستر

---

[1] السلام 4، 5 جانفي 1991 .

[2] مجلة اليوم السابع 6 نوفمبر 1989 .

[3] أنظر مقال رفيق علاء الدين – المجاهد الأسبوعي 23 مارس 1990 .

تحت غطاء الثقافية، بدت سياسة مكشوفة للعيان نتيجة المواقف الرسمية، وكذا الكتابات والتصريحات العلنية، وأخذت الإحصائيات تترى عن تراجع الفرنسية مما جعل المتشائمين منهم يدقون ناقوس الخطر.

وقد لاحظ هذا الصحافي الجزائري الذي يقيم في باريس منذ سنوات طويلة، سعدي بزيان وأحس بالمفارقة العجيبة فيقول: «**إننا نجد المتشائمين لمستقبل الفرنسية هم من الفرنسيين أنفسهم، بينما نجد الفرانكوفونيين من عرب وعجم ومن والاهم يتفاخرون بمستقبل الفرنسية في بلدانهم، هذا مسؤول جزائري وعضو اللجنة المركزية يصرح لمجلة فرنسية بأن الشباب والإطارات الجزائرية تتكلم الفرنسية بطلاقة ويا له من فخر!! في حين نجد الفرنسيين وهم يعتمدون لغة الأرقام يبدون تشاؤماً بالنسبة لمقارنة اللغة الفرنسية باللغة الإنجليزية...**» [1].

والآن بدأت الحقائق تنكشف، ويعترف بعض المسؤولين عن دور فرنسا في الأزمة الحالية بعد ما أخفوا ذلك طيلة سنوات عديدة، بحيث يصرح مسؤول كبير في الدولة بأن فرنسا تعرقل علاقتنا مع الآخرين كما فعلت منذ الإستقلال ولكننا لا نعرف ذلك بسبب الستار الذي ضرب على الشعب لتغطية فشل الفرانكوفونية الذريع في إدارة البلاد وتسييرها.

وحين نتأمل ما سبق فإننا يمكن أن نحكم حكماً قاسياً على الفرانكوفونية وعلى جناياتها على الشعب والدولة والوطن والثقافة، لأن ما وصلنا إليه في الفترة الحالكة بعد أكتوبر هو صنعها لا من صنع غيرها، ولأن العروبيين أبعدوا عن السياسة والإدارة والحكم والتسيير وهمشوا تماماً، يكفي أن نذكر هنا أن رئيس حكومة سابق رفض ملف أحد العروبيين عندما رشح له بوصفه وزيراً وعضواً في حكومته، رفضه لأنه لا يعرف الفرنسية فماذا يبقى بعد هذا من قول؟؟ وماذا بعد ما عرضنا من نهاية؟!.

---

[1] الشعب 23 جويلية 1990.

لقد لخص الموقف أستاذ جامعي هو «علي الإدريسي» في كلمات بقوله:
«علمت النخبة الفكرية إلى جانب النخبة السياسية على ربط مصير شعوبنا بأوربا ونجحت في كثير من الأحيان حيث فشل الإستعمار نفسه...» [1].

وكان يمكن أن تكون النهاية حزينة مأساوية لولا اعتداء أمريكا والغرب على العراق الشقيق واندلاع ما سمي بحزب الخليج، لقد أنقذتنا هذه الحرب من السقوط النهائي تحت كلكل فرنسا وأتباعها. وحررتنا من هيمنتها ولو جزئياً، فأحدثت وعياً جديداً في الفئات الشعبية ولدى كثير من المثقفين حتى من الفرانكوفونيين أنفسهم، لأنها أعادت لنا جميعاً روح الثورة التي حاولت الفرانكوفونية وأتباعها إفراغها من محتواها وبث روح الاستخذاء في نفوس الشباب بطرق مختلفة وأساليب رهيبة، حتى ينسى هويته وتاريخه وأمجاده وشهداءه ويرتمي في أحضان الفكر الفرنسي الغربي. وفضل هذه الحرب لا ينكر فقد أعادت للشعب وعيه فبدت ناصعة أصلية عبرت عن جوهر الشعب الجزائري العربي الذي لم تؤثر فيه هذه الزوابع وهذه الأنواء العابرة، وهب بكل فئاته وشرائحه وأفراده ليؤكد ثوريته المعهودة وعروبيته وهويته التي كافح من أجلها طوال قرن وثلث قرن وتشبث بها دائماً وأبداً.

وقد فوجئت فرنسا وفوجئ الغرب وأتباعهم بهذه الروح التي ظنوا أنهم قد قضوا عليها نهائياً، فإذا بها تبعث أكثر قوة ورسوخاً كما تجلى في المظاهرات العارمة التي عمّت المدن والقرى الجزائرية، والمساعدات السخية التي قدمت للشعب العراقي الشقيق في محنته، وكان دور المثقفين الوطنيين – عروبيين وفرانكوفنيين – فيها متألقاً ناصعاً، وذلك هو معدن الشعب الجزائري الأصيل الذي لا تؤثر فيه عوامل التغريب مهما كانت مغرية . وعلى مرّ التاريخ أثبت شعبنا عروبته وأصالته وأكدها قولاً وفعلاً، وأثبت بما لا يدع

---

[1] الشعب 28 نوفمبر 1989 .

مجالاً للشك بأنه جزء من الأمة العربية يعتز بحضارتها وثقافتها ولغتها منه وإليه.

الباب الثالث

نموذجات للتطبيق من المشرق والمغرب

اخترت نموذجين لكاتبين عربيين أحدهما من المشرق والثاني من المغرب لإبراز الأفكار السابقة وتطبيقها من خلال هذين الرجلين، لأنهما متشابهان من وجوه ومختلفان من وجوه، أما التشابه فيتجلى فيما يلي:

1 – الرجلان درسا في فرنسا وأتقنا العربية والفرنسية وكتبا بهما.

2 – عملا في الحقل السياسي، فأحدهما كان منضما إلى أحزاب مصرية والثاني إلى أحزاب جزائرية.

3 – كلاهما تقلد الوزارة، «**المعارف**» بالنسبة للأول و«**التربية الوطنية**» بالنسبة للثاني.

4 – كلاهما يؤمن بالحضارة الغربية وبالثقافة الفرنسية بصفة خاصة وبالتالي فهما «**ليبراليان**» فكرا وتوجها، وإن دافعا عن الشعب وعن الفئات المحرومة...

5 – كلاهما لا يؤمن بالعروبة ولا بالوحدة العربية.

هذه أهم السمات التي تجمع بين الرجلين، أما أوجه الإختلاف فهي كثيرة وفي عدة قضايا منها:

1 – طه حسين أغنى الثقافة العربية والأدب العربي بما لا يقل عن سبعين كتابا، بينما الأشرف ألف كتابا واحدا هو عبارة عن مجموعة مقالات كان قد نشرها وأعاد طبعها وربما يكون قد طبع آخر الآن.

2 – طه حسين خاض معارك في مختلف الجبهات وأسس للأدب العربي الحديث وللنقد وللفكر عموما وغيّر مجرى الثقافة في مصر وحتى في البلدان العربية الأخرى بأفكاره ومواقفه دفاعا عن التحديث والتطوير، كما هاجم رجال الأزهر والثقافة التقليدية من منطلق العارف الباحث المؤمن بالتطور والحضارة العالمية. أما الأشرف فمعركته الوحيدة ضد المعربين، ونقاشه وحواره حول الثقافة لم يترك أثرا يذكر في الساحة

الوطنية لأنه لم يكن هدفا بقدر ما كان موجة ضائعة في فضاء هذه الساحة ولأن كتاباته كانت بالفرنسية لا بالعربية.

3 – طه حسين تعرض للفصل من الجامعة، كما وقف ضد الحكم والملكية في قضية مجانية التعليم وغيرها وصدور كتابه المعروف **«في الأدب الجاهلي»** والقصة يعرفها الجميع. أما الأشرف فإنه لم يتعرض لشيء من هذا لا في القليل ولا في الكثير، ومواقفه مبنية على قراراته الخاصة ولكنه سجن مع وفد جبهة التحرير سنة 1956 .

4 – طه حسين لم يرتبط بالدولة ولكن بالجامعة حتى أحيل على التقاعد، وقضى حياته كلها بالداخل، بينما قضى الأشرف وقتا كبيرا من حياته في الديبلوماسية أي في الخارج بطبيعة الحال وحتى العمل بالتدريس كان أغلبه بمعاهد فرنسا ولم يعمل بالجامعة الجزائرية فيما أعرف.

5 – كذلك قام طه حسين بنشر كتاباته أو أغلبها بمصر أي ببلده بينما الأشرف نشر معظم إنتاجاته في فرنسا نفسها حتى بعد الإستقلال.

هذه بعض الملامح التي يلتقيان فيها أو يختلفان فيها ولكنها ستتضح بالتمثيل أو التحليل والمقارنة إن أمكن، لأن المقارنة هنا لا تصلح تماماً. فطه حسين كتب بالعربية والآخر بالفرنسية وإن كتب قليلا بالعربية، فالمقارنة تصلح لو كان هدفي هو هذا – لغة الكتابة أو الموضوعات أو الكثرة أو القلة في المؤلفات...الخ – ولكن هدفي هو تبيان الموقف تجاه قضايا محددة وهي الثقافة واللغة ونظرة كل منهما إلى هاتين القضيتين، مع إبداء الرأي في وجهة نظر هذا أو ذاك بلا أية نزعة تفاضلية أو تقويمية وإن لم تخل من رؤية نقدية عند الضرورة.

وفيما يتعلق بهذا الفصل فقد كان عليّ أن أعود إلى فكر طه حسين الذي يمثل قمة التأثر بالثقافة الغربية وبالفرنسية، وهو أحد رواد التنوير في الأدب والفكر والثقافة في عصرنا الحديث في الوطن العربي مشرقا ومغربا. وقد

كرس كتابا كاملا عن **«مستقبل الثقافة في مصر»** ونشره بهذا العنوان عام 1938 في أكثر من أربعمائة صفحة، وهو الكتاب الذي طبع عدة طبعات وأثار ضجة في حينه ولا زال يثير النقاش – من وقت لآخر – حول ما ورد فيه من آراء وأفكار تتصل بالثقافة في مصر وفي الوطن العربي، وبالصلة بين أقطار الأمة وبمكانة مصر في الحياة العربية والثقافية والسياسية.

ولا يتسع المجال للحديث عن الموضوع بالتفصيل وخاصة تلك التي تتصل مباشرة بمصر والإقتراحات التي تقدم بها للنهوض بالثقافة في هذا البلد الشقيق، وقد كان هذا بالطبع قبل الحرب العالمية الثانية، وخطت مصر خطوات كبيرة في هذا المضمار. وكان لفكر طه حسين وآرائه أثر في ذلك، خاصة تلك التي لها صلة بالتعليم، والتي طبقها عندما أصبح وزيرا للمعارف وقال في ذلك كلمته الخالدة حول مجانية التعليم: **«ينبغي أن يكون التعليم للجميع كالماء والهواء»**، كما أثار معارك فكرية وأدبية وسياسية ما زال صداها يرن حتى اليوم وهي التي ستبقى، أما الجزئيات والأحكام والتكهنات فهي مجرد دخان لتلك المعارك الحامية.

ومن هذه الأحكام والتكهنات إيمانه بأن مستقبل الثقافة في مصر يتعلق بالإنتماء إلى البحر الأبيض المتوسط وإلى الغرب. طبعا لم يتحقق هذا كما كان يأمل وإن بدت بعض الملامح الآن لهذا التوجه، أو فلنقل وجد من يدافع عنه سواء بعض الفرانكوفونيين في مصر أو هنا وهناك. ولعل تلك هي نوع من تحرير الفرد والمجتمع من **«عقدة الغرب»** ومن مركب النقص تجاهه، بحيث يصبح المصري هو نفسه مندمجا في هذه الثقافة وفي هذه الحضارة، لا عالة عليها أو تابعا لأصحابها. وهذه نظرة جديدة منطلقها الإحساس الوطني لا التبعية كما أتصور. وحتى لا ينظر الأوروبيون إلى المصريين نظرة استعلاء وهم يطالبون بحقهم في الإستقلال أو يسخروا منهم يقول: **«نعم أريد – كما يريد كل مصري مثقف محب لوطنه حريص على كرامته – ألا نلقى الأوروبي فنشعر بأن بيننا وبينه من**

الفروق ما يتيح له الإستعلاء علينا والإستخفاف بنا. وما يضطرنا إلى أن نزدي أنفسنا ونعترف بأنه يظلمنا فيما يظهر من والإستطالة والإستعلاء...» [1].

ومما يؤكد هذه أنه كررها مراراً وتكراراً، فهو يريد أن يتحرر من الشعور **«بالدونية»**، وهذا عندما يصبح المصري مستقلا استقلالا حقيقيا، علما وأدبا وثقافة، فهذا هو الذي يساعد على حماية الأرض والوطن وثرواته: **«وعلى إشعار الأجنبي بأننا مثله وأنداده... أن نكون شركاءه في الحياة وأعوانه عليها لا خدما ووسائله إلى هذه الحياة...»** [2]

إن هذه الدعوة تبدو في ظاهرها سليمة، ولكن المفروض أن يناقش الحرية باعتبارها قيمة إنسانية عليا أو هي حب غريزي في الإنسان، ولا حق لأحد في استبعاد الغير أو الإستعلاء عليه مهما كانت المبررات سواء كان هذا الإنسان متحضرا أم بدائيا أم غيرهما، وبصرف النظر عن الجنس والبيئة. أما الإندماج في حضارة متفوقة هروبا من الشعور بالدونية فهو سقوط في مثيلتها ولكن بطريقة أخرى. ولكن الكاتب – جريا على إيمانه بالغرب – يعبر عن فكر يعتبر المحور الأساسي في نظرته إلى الثقافة، وهي النظرة نفسها التي يشاركه فيها **«الفرانكوفونيون»** ودعاة الإتجاه إلى الغرب وحضارته سواء منهم من أحسّ بالإنبهار أمام تفوقه أم من لم يشعر بذلك، واعتبر هذا أمر مفيدا وصالحا لتطورنا وخروجنا من الأزق الثقافي والحضاري الذي تعيشه الأمة العربية.

ومن نقطة الإرتكاز هذه في تلك النظرة إلى التقدم يبدو عدم التعاطف مع التاريخ العربي والحضارة العربية الإسلامية مبررا لديهم، ومن هنا كان يجب البحث عن انتماء آخر هو الإنتماء لا إلى الحضارة الغربية فحسب، بل إلى البحر المتوسط كما نادى بذلك طه حسين. فهو يؤمن بأن الإنتماء الحقيقي إلى التاريخ القديم، إلى الفرعونية، وإن لم يصرح بذلك. ويشدد على علاقة مصر بالعصر اليوناني قديما وبالبحر المتوسط حديثا: **«إن العقل المصري منذ عصوره الأولى**

---

[1] - مستقبل الثقافة في مصر طه حسين مكتبة المعارف بمصر 1938 ص : 11.

[2] المصدر نفسه ص 44.

عقل إن تأثر بشيء فإنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنما يتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط» [1].

على أن فكر الكاتب هنا مختلف عن ذي قبل نسبيا، ويبدو هذا في مناسبات كثيرة عندما كتب عن الدين أو غيره. فهو أحيانا يؤكد الإرتباط مع الشرق بوجه عام ولا سيما الشرق الأدنى ويقصد به الأقطار القريبة من مصر، وهو ارتباط يلعب فيه الدين وكذلك اللغة دورا هاما وأساسيا، إلى جانب عوامل الجغرافيا والعلاقات والمنافع التجارية والإقتصادية وهذا ما يبدو جليا في قوله: **«وأنا أفهم في وضوح بل في بداهة أن نشعر بالقرابة المؤكدة بيننا وبين الشرق الأدنى، لا لإتحاد اللغة والدين فحسب بل للجوار الجغرافي وتقارب النشأة والتطور التاريخي، فإما أن نتجاوز هذا الشرق القريب إلى ما وراءه، فلا أفهم أن يقوم الأمر فيه على الوحدة العقلية أو على التقارب التاريخي وإنما أفهم أن يقوم على الوحدة الدينية أو على تبادل بعض المنافع المؤقتة التي تتصل بالسياسة والإقتصاد...»** [2].

فهو يرى أن هناك صلات بين مصر وما أسماه بالشرق الأدنى، ولكنه ينفي الصلة الحميمة مع ما **«وراء»** هذا الشرق الأدنى – على حد تعبيره – وإن كان الدين يجمع بينها وكذا بعض المنافع. وغرضه هو إعطاء خصوصية لمصر منذ القدم حتى الحديث، وهو الموقف نفسه للفرانكوفونيين الإقليميين عندنا الذين يلحون على الصلة القديمة بأوروبا وباللاتينية وبالبحر المتوسط، وهم متأثرون بالفكر الإستشراقي الذي يربطنا بالرومان وبالفرنسيين، ويضعونه في كفة واحدة مع التاريخ العربي الإسلامي. والقصد هو إبراز الشخصية الإقليمية تماما كما فعل طه حسين.

ولعل من الذين ألحوا على فكرة البحر الأبيض المتوسط **«حسين مؤنس»** كما جاء في كتابه **(مصر ورسالتها)**، الذي يرى فيه أن حياة مصر **«لا**

---

[1] المصدر نفسه ص: 16.

[2] المصدر نفسه ص: 19.

تستقيم إلا إذا كانت على صلة بالبحر الأبيض المتوسط» [1]. ويؤكد هذا الموقف بالنظر إلى هذا البحر على أنه **«العنصر الأساسي في تاريخ هذا البلد»** [2] وهي الفكرة نفسها التي يعتنقها الفرانكوفونيون في المغرب العربي من غير العروبيين بسبب تأثرهم بما أخذوا عن المفكرين الفرنسيين أثناء تكوينهم في جامعات ومعاهد فرنسا، ذلك لأن الفرنسيين أكثر علماء الغرب تركيزا عليها وغرضهم يشير إليه المفكر القومي **«عبد الرحمان البزاز»** في قوله: **«هم أسبق الدعاة لفكرة حضارة حوض البحر الأبيض المتوسط وكانوا يهدفون من وراء ذلك أن يثبطوا عزائهم عرب شمال أفريقيا والجزائر خاصة ويشعرونهم بأنهم والفرنسيون سواء في كونهم ورثة حضارة ما أسموها «حضارة البحر الأبيض المتوسط»، وهم يريدون أن يصرفوا أنظارهم عن أبناء الأمة العربية في المشرق العربي، ويضعفوا بذلك روح المقاومة فيهم ويمهدوا آخر الأمر لعملية التمثيل والإنصهار في الكيان الفرنسي تحت غطاء حضارة البحر الأبيض المتوسط...»** [3].

وهذه الفكرة ما زالت تسيطر على المثقفين والساسة من الفرانكوفونيون غير العروبيين مشرقا ومغربا، ومنشؤها هو هذه الإقليمية التي تفصل كل قطر من الأقطار في المشرق أو المغرب عن الأمة العربية تحت غطاء هذه الإنتماءات والأفكار التي تساعد على إدماج البلدان في حضارة الغرب، سواء بإسم التاريخ القديم المشترك أو الجغرافيا أو الثقافة أو غير ذلك من الشعارات التي تتضمن روح السيطرة من ناحية، وتهدف إلى فصل هذه الأقطار عن المجال الحيوي والقومي والحضاري للسكان، وبالتالي تمزيق الأمة العربية إلى أمم ومناطق متضاربة متنافرة تحقق في الأخير أغراض الفرنسيين بخاصة والغرب بعامة، فهم بالنسبة للغة والقومية يعتنقونهما ويدافعون عنهما لأنهما

---

[1] المصدر نفسه ص: **19**.

[2] «هذه قوميتنا» - عبد الرحمن البزاز - دار القلم - القاهرة **1964** ص: **148**، **149**.

[3] المصدر نفسه ص: **151**.

يحققان وجودهم، ولكنهم يرفضونها حين يتصل الأمر بالعرب وخاصة عنصر الدين، وقد جاراهم كثير من الباحثين الذين تأثروا بهذه الأفكار.

والحقيقة أني لا أريد أن أعرض إلى نشأة الأمم كما وردت في آراء **«طه حسين»** ودور اللغة والدين فيهما، وفكرة ظهور القوميات في أوروبا وقد تحدث عنها بالتفصيل، فهذا يخرجنا عما رسمناه لهذا البحث، ولكن نشير إلى هذه القضايا لأنها متصلة بموضوعنا. فرفض القومية ينطلق من أن **«طه حسين»** مثل غيره من الفرانكوفونيين يرفض الدولة التي تقوم على الدين وعلى اللغة، وهو يقول هذا عن قناعة خاصة: **«ومن المحقق أن تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسا للوحدة السياسية ولا قواما لتكوين الدول...»** [1]. وقد ناقشه في هذه الآراء باحثون كثيرون منهم **«مصطفي عبد الغني»** [2]، فقد رد على كثير من أطروحاته في الموضوع، ولعل من أوائل من رد على الكاتب هو **«ساطع الحصري»** المفكر القومي المعروف، فقد تصدى لطه حسين وفند آراءه التي ترفض الدين واللغة في بناء الدول وفي الوحدة السياسية، لأن اللغة لا تنفصل عن السياسة وأن **«المنافع الزمانية»** في سياسة الدول لا تفصل المسائل الأخرى كاللغة مثلا. والخلاف منشؤه أصلا أن **«الحصري»** يؤمن بأمة عربية أما طه حسين فينكرها [3]. ولكن باحثا آخر هو **«سامح كريم»** يرى أن طه حسين قد عدّل من رأيه فيما يتعلق بالقومية العربية والثقافية الذي أعلن عنه في كتابه السالف الذكر [4]. وهو لا يرفض الرابطة العربية ولكنها مثل غيرها من الصلات، لذلك يقف ضد دعاة **«الفرعونية»** أو كما يسميهم: **«أصحاب الفرعونية الذين أنكروا العنصر العربي في تاريخ مصر**

---

[1] المصدر نفسه ص: **19**.

[2] طه حسين والسياسة - مصطفى عبد الغني - دار المستقبل العربي بيروت**1986** .

[3] مختارات ساطع الحصري - جـ **2** دار القدس بيروت بدون تاريخ ص: **82** - **83** - **84**.

[4] طه حسين يتكلم - سامح كريم - دار المعارف مصر **1978** ص: **23** وما بعدها.

وحضارته...»[1] وإذا كانت العناصر المكونة للشخصية المصرية ثلاثة فإن: «**العنصر العربي الذي يأتي من اللغة العربية ومن الدين ومن الحضارة وقد امتزج بهذه الحياة المصرية امتزاجا مكونا لها مقوما لشخصيتها...»**[2]. وهو يرد على «**توفيق الحكيم**» الذي هاجم العرب بقوله: «**تظلمون العرب ظلما شديداً وتقفون في أمرهم بغير الحق...»**[3]. ولكنه رغم هذا يبقى إقليميا مصريا، فإذا كان يؤمن بوحدة ثقافية واقتصادية فإنه يرفض الوحدة السياسية، لأن فكرة القومية هنا لا تتعدى «**المصرية**» وهي تقبل القومية «**العربية**» وهي الفكرة نفسها – كما سبق القول – لدى الفرانكوفونيين في الجزائر وفي أقطار المغرب العربي الأخرى.

أما الدفاع عن العرب فإن طه حسين قد رأى تهجما ظالما متجنيا عليهم، وليس لإيمانه بالعروبة. فهو يرى أن «**مصر اليوم هي مصر بالأمس أي مصر الفراعنة**»[4]. وكان هذا مدعاة لسخط «**ساطع الحصري**» عليه حين فند مزاعمه في توجهه الإقليمي وانتمائه الفرعوني. وقد ثار الجدل بين الإثنين، فكتب الحصري سلسلة من المقالات في «**الرسالة**» يفند هذه الدعوة المتعصبة[5].

ومن الباحثين القوميين الذين ناقشوا أيضا طه حسين في توجهه إلى البحر الأبيض المتوسط المفكر العروبي الذي سبق ذكره وهو «**البزاز**» الذي ناقشه بلهجة هادئة تختلف عن لهجة الحصري فيقول: «**دعونا نفكر بعمق وبموضوعية وتجرد، ودعونا نسائل أنفسنا: ما الذي يجمع بين «المصري والإيطالي واليوناني» مثلا على الرغم من سكانهم جميعا حول سواحل البحر الأبيض المتوسط، ما الذي يجمع حقيقة بينهم بالرغم من هذا التصور البراق**

---

[1] طه حسين والسياسة - ص: **212** .

[2] المصدر نفسه ص: **212**.

[3] المصدر نفسه ص: **212**.

[4] المصدر نفسه ص: **214**.

[5] ساطع الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة - تعريب فكتور سحاب - دار الوحدة لبنان **1983** .

الذي حاول الأديب الكبير أن يبهرجه بأسلوبه المحبب؟ أهي اللغة الواحدة؟ أم هو التاريخ والتراث الفكري الواحد؟ أو لا هذا ولا ذاك وإنما هي الآداب المشتركة؟ أهي التقاليد والعادات الواحدة أم العقيدة الدينية أو المذهبية الواحدة...؟» [1].

فإذا كان هناك ما يفرق بين سكان حوض البحر الأبيض المتوسط من الأوروبيين، فماذا يجمع مصر بهؤلاء وهي تختلف عنهم من وجوه كثيرة. وعميد الأدب العربي ليس وحده في هذا ولكن يشاركه فرانكوفونيون مشرقا ومغربا أمثال «**حسين مؤنس**»، الذي ذهب إلى أخطر من ذلك حين أدمج مصر في الغرب وفي أوروبا، بل جعل الحضارة الغربية هي الحضارة المصرية وتجاهل التاريخ العربي الإسلامي تجاهلاً كاملاً بحيث يصبح «**طه حسين**» في موقفه أرحم منه وأقل تعصباً، إذ أنه يبقى فقط على حكم الأتراك ويعتبر ما عداه «**موجات آسيوية يلي بعضها بعضا**» [2]، فتصبح رابطة «**الماء**» أقوى من رابطة اللغة والثقافة وتمحي الجغرافيا لتكون مصر «**جزءا من أوروبا**» [3].

ويذكرنا «**حسين مؤنس**» بأمثلة له عندنا، فالدفاع عن الأتراك كان أيضاً موقف مؤرخين في الجزائر وتونس ممن يرى فيهم منقذا وحاميا للإسلام، وليس هذا حبا فيهم بل تقليلا لدور العرب وثقافتهم وحضارتهم ومن ثمة إعطاء الأتراك مكانة مرموقة في المنطقة.

والتأثر بالغرب – ثقة وفكراً – انسحب على تفكير طه حسين والفرانكوفونيين هنا وهناك وعلى المنحى الليبرالي لديهم، فهم ينظرون إلى العدل والمساواة من هذه الزاوية الغربية التي تدعو إلى الإصلاح الإجتماعي وإلى فصل الدين عن الدولة تأثرا بأفكار الثورة الفرنسية، ويبقى طه حسين متقدما

---

[1] هذه قوميتنا - ص: 146 و147 .

[2] المصدر نفسه ص: 151 .

[3] مستقبل الثقافة في مصر ص: 27 .

وتعلق طه حسين بالغرب يبدو في أحكامه التي تأخذ بالمظهر، فهو يرى أن ذلك يبدو في سلوك **«الطبقات الراقية»** كما يسميها وحتى في غيرها. وهذا تقليد في الحقيقة وليس فيه هضم للحضارة أو اندماج فيها، إنه تعلق **«بالسطحي من أثر تقليد المغلوب للغالب»** كما قال إبن خلدون. أما استخدام الأدوات والوسائل وما له صلة بالحياة فهذا ما لا ينهض دليلا على أنه لا فرق بين مصر والغرب، ولو سايرنا هذا المنطق لقلنا أن الغرب استفاد من العرب وقلدهم وأخذ عنهم فهل أصبح عربيا أو حاول أن يكون جزءا منهم كما ينادي هذا الأديب؟ والفكرة نفسها أشار إليها الأشرف، والحقيقة أننا حين أخذنا عن أوروبا اختراعاتها وابتكاراتها فهذا يؤكد استعدادنا للتطور لا قبولنا للذوبان، والفرق بين الإثنين لا يحتاج إلى تبيان.

وهو يشتط حين يؤول معاهدة الإستقلال بين مصر وأنجلترا بأن هذا التزام أمام العالم: **«بأننا سنسير سيرة الأوروبيين في الحكم والإدارة والتشريع...»** [1]. فانبهاره بالغرب وفرنسا أساساً جعله ينظر إلى الحضارة الغربية وكأنها مدار الكون، وهي نظرة أمثاله من الفرانكوفونيين في المغرب العربي، وتلك غلطتهم التي باعدت بينهم وبين أعماق الشعب ومثله وقيمه، فأسندوا الى الجماهير ما يحسون هم به، ولم يفكروا فيما يقوله الشعب أو يشعر به أو ينادي به وهذا يدل على ابتعادهم عنه وعن أحلامه وتطلعاته وانتمائه الذي لم يتخل عنه طوال كفاحه المرير.

وإذا كان طه حسين قد ناقش فكرة **«الإنتماء»** والحضارة الغربية وصلة مصر بها، وناقش تكوين الأمم، فقد عرض إلى التعليم باعتباره الدعامة الأساسية في التربية والتكوين والتقدم، ويوجه نقده إلى المناهج والبرامج. وما زالت آراؤه صالحة إلى الآن في جوانب عديدة، ولكن بعضها الآخر أصبح من التاريخ لأنه يعبر عن مرحلة قديمة، ولأن التطور هو سنة الحياة. ولكن رأيه في

---

[1] مستقبل الثقافة ص: 35 .

الهدف من التربية مازال صحيحاً وملائماً وسيبقى التعليم هو وسيلتنا إلى التقدم واللحاق بركب الحضارة.

ولا يكون للتعليم قيمة أو آثر في المجتمع إذا لم يكن فيه عدل ومساواة ولم تسده روح الديمقراطية، فإنه يصبح سبيلاً إلى **«الطبقية»** وأداة لتحكم البعض في البعض الآخر، وهذا يتنافى مع أبسط حقوق المواطنة ومع حقوق الإنسان كما نقول اليوم، لذلك ينبغي أن يكون موجها لكل الطبقات ويعم كافة الأشخاص، لأنه من **«الديمقراطية الصحيحة إذا فرضت المساواة بين الشعب في الحقوق والوجبات فهي لا تقبل أن يفرق بينهم في حرية التعليم وأن يقتصر لون من ألوان هذا التعليم على جماعة من أبناء الشعب يخرج منهم القادة والسادة والمديرون...»** [1]. فهو يخشى من التعليم الطبقي الذي يعطي مكانة خاصة لأصحابه على حساب أفراد الشعب الذي فتتحكم فيه وفي مقدراته وفي مصيره وتسخيره لمصالحها وأهوائها وأغراضها دون أن تحسب حساباً له ومصالحه، وتتركه يرزح تحت وطأة الجهل والأمية والتخلف والبطالة.

ولن يتحقق العدل إلا بإصلاح النظام الإجتماعي نفسه فالتعليم هنا متصل بالإجتماع وليس مجرد قناة للمعرفة، ولكنه دعامة من دعامات العدل حتى يمكن أن يعيش الناس فوق أرض الوطن سواسية **«لا أن يعيش بعضهم على حساب بعض ولا أن يتكلف بعضهم الجد والكد وألوان العناء لينعم بعضهم الآخر بالبطالة والكسل والفراغ، ولا أن يذوق بعضهم البؤس الذي ليس بعده بؤس ويشقى بعضهم بالضنك الذي بعده ضنك ليستمتع بعضهم الآخر بهذا التعليم الآثم البغيض الذي يبدد فيه المال وتمتهن فيه الكرامة وتبتذل فيه الفضيلة ويستحيل فيه الإنسان إلى حيوان...»** [2].

---

[1] مستقبل الثقافة ص: 116.

[2] المصدر نفسه ص: 117 .

إن الذي يتحدث هنا ليس طه حسين الليبرالي الغربي التفكير ولكنه **«المصري الفلاح»** الذي شاهد البؤس والفقر والتخلف في وطنه خاصة في أوساط الفلاحين، لأن الجهل هو سبب الفقر والمرض فنادى بالمساواة والعدل في التعليم، ولشعوره الحاد بمأساة الفرد الأمي لأنه مظلوم يرى أنه لايرفع عنه الظلم السياسي والإجتماعي والثقافي إلاّ بالعلم: **«يجب أن يتعلم الشعب إلى أقصى حدود التعليم ففي ذلك وحده الوسيلة إلى أن يعرف الشعب موضع الظلم وإلى أن يحاسب الشعب هؤلاء الذين يظلمونه ويذلونه ويستأثرون بثمرات عمله وكده فيردهم إلى الإنصاف والعدل ويضطرهم إلى أن يؤمنوا بالمساواة قولا وعملاً وإلى أن يحققوا المساواة في سيرتهم لا في هذه الألفاظ الجوفاء التي يضللون الناس بها** تضليلاّ...» [1].

فآراؤه مازالت تصلح لنا اليوم وما زال أيمانه بالعلم والتعليم هو الطريق لمعرفة الحق ودرء الظلم عن الناس والضعفاء. فالتعليم عنده ليس زينة أو ترفاً أو حلية أو مظهراً أو مجالاً للتفاخر كما يفهمه البعض، ولكنه سبيل إلى الفهم والوعي بالحياة وبلورة الشخصية للفرد والشعب جميعاً، وهو الذي يساعد على رفع الظلم والطغيان عن الطبقيات المحرومة، فهو ينظر إذن على التعليم نظرة متكاملة لا جزئية كما يفعل بعض الفرانكوفونيين في المغرب العربي فالتعليم عنده لا ينفصل عن العدل الإجتماعي وليس غرضه القضاء على الجهل فحسب بل ترقية الإنسان مادياً ومعنوياً. أمل تلك النظرة التي تحصر التعليم في ميدان خاص كأن تنادي بالتقنية بلا عدل أو مساواة فهي مثل التي تنادي بمحو الأمية بصرف النظر عن الجانب الإجتماعي.

ولعل دمج الوسيلة والغرض الإجتماعي في مقولة واحدة هو في نظرية طه حسين في التعليم، وحتى في كتاباته نراه يرفض الظلم ويدعو إلى المساواة. فهناك قصص كثيرة تعبر عن توجهه هذا، فهو يقرن العلم بالتطبيق، الثقافة بالفعل، المساواة بالعدالة، هذه خطوط عامة لرؤية لا ينفصل بعضها عن بعض

---

[1] المصدر نفسه ص: 117 – 118.

حتى أنه يمكن أن نقرر بأن كتابة هذا إنما هو حديث عن التعليم أساساً أما باقي الموضوعات والآراء فهي فروع له أو روافد ولن ندخل في التفاصيل الكثيرة للكتاب لأنه يتحدث عن المعلم، المناهج، المواد، الطرق البيداغوجية، معاملة المعلمين، التفتيش، التلميذ، الامتحانات، النتائج، المكفآت... وغير ذلك كثير مما له صلة مباشرة بالتربية والتعليم وكذلك الأخلاق فضلاً عن السياسة والثقافة بمفهومها الشامل. وهو ينتقد تصرف الوزراء الذين تعاقبوا على وزارة **«المعارف»** المصرية ورؤساء ومديري الجامعات والمعاهد وكل من لهم علاقة بالموضوع، كما يحلل الظروف والملابسات ويحدد مواضع الداء ويقدم الدواء ويطالب بالإصلاح في مراحل التعليم المختلفة وفي الأزهر بوجه خاص، وهو كما قلت ينظر نظرة متكاملة ويوجه ويلاحظ ويقنّن وكأنه في مختبر يبحث عن العناصر التي تتكون منها المادة ثم يقوم بتحليلها تركيبها من جديد كي تصبح دواء مفيدا نافعا. فالمؤلف هنا طبيب ماهر وإن كان في مجال آخر...

وهو يناقش نظرة الدولة في وظيفة التعليم فهو ليس **«غذاء الشعب»** كما تفهمه ولكنه: **«ضرورة لازمة لتمكين الشعب من أن يكون إنسانا ممتازا عن هذه الحيوانات مسيطرا عليها وعلى غيرها من عناصر الطبيعة في البر والجو والسماء أيضاً...»** [1].

لذلك يهاجم أولئك الذين ينظرون باحتقار واستهزاء إلى الشعب لأنهم في مرتبة أسمى منه وأعلى بحكم ظروفهم المادية والثقافية فيقول: **«وإذاً فلا بد من أن تزول من نفوس السادة والقادة والرؤساء والمسيطرين على عواطف الإستعلاء على الشعب وعواطف الإحسان إلى الشعب لأن الإحسان على هذا النحو مظهر من مظاهر الإستعلاء ولا بد أن تقوم مقام هذه العواطف عواطف الإيمان بالمساواة والعدل بين أبناء الشعب...»**.

ووظيفة التعليم عنده هي تحقيق الوحدة الوطنية: **«هذه الوحدة التي نفهمها ولا نحققها إلا إذا اعتمدت على استقلالنا الخارجي وعلى حريتنا**

---

[1] المصدر نفسه ص: **185** .

الخارجية...» [1]. فمعرفة القراءة والكتابة وفهم الواقع والسيطرة على الطبيعة، كل هذا من أجل أن يكون المواطن صالحا لوطنه مؤمنا به، بماضيه وحاضره ومستقبله، لا مجرد حامل شهادة يتعالى بها على الناس أو يردد معلومات حفظها عن ظهر قلب دون أن ترقّي ذوقه وحسّه وشعوره ودون أن تعمق وعيه ونظرته للحياة والكون والإنسان.

ثم أنه يدخل في صميم الثقافة عندما يعرض إلى العلوم الانسانية والدقيقة معا، وينقد الذين ينظرون إلى التعليم **«النظري»** نظرة ازدراء ويضيقون به كما يقول: **«يخلقون لأنفسهم صورا غريبة غامضة ولكنها مناقضة كل المناقضة للصورة التي عرضناها آنفاً. فهم يريدون من التعليم العالي أن يكون وسيلة سريعة مضمونة للإنتاج الملموس في الحياة العلمية، وهم من أجل ذلك يضيقون بالتعليم العالي في الأدب والفلسفة والتاريخ والحقوق ويعجبون إلى غير حد بالكيمياء والعلوم الزراعية والإقتصادية وما يشبهها من هذه العلوم التي تتصل بالحياة المادية القريبة اتصالا ظاهرا...»** [2]

ويضرب أمثلة من الواقع فيذكر أن بعضهم حين يأتي الحديث عن الأدب يبدي ضيقا وتأففا، وفي نفس الوقت ينقد الطائفة التي ترى في العلوم الإنسانية زينة أو ترفا، وإذا جاء الحديث عن العلوم التجريبية: **«تحدثوا عنها في شيء من الإكبار والإجلال، فإذا تحدثوا عن العلوم الأدبية سبقت حديثهم إلى شفاههم ابتسامة حلوة فيها شيء من العطف وفيها شيء كبير من التسامح والإشفاق»** [3].

والمؤلف صدم في الجميع سواء من ينوهون بالعلوم الإنسانية على حساب العلوم الدقيقة أم العكس، ويفضل على تصور الفئتين التي يفهمها رجل الشارع

---

[1] المصدر نفسه ص: 187 - 188.

[2] المصدر نفسه ص: 311 (رايه هذه ينطبق تماما على الفكرة التي سادت في الجزائر بعد الإستقلال وما زال أصحابها يرددونها ويزعمون أن العلوم الدقيقة والتقنية هي التي تخرجها من التخلف ونسوا أن العلوم الإنسانية هي التي تبث الوعي بها وبقيمتها).

[3] المصدر نفسه ص: 312.

لأنها قريبة إلى تصور المثل الأعلى للتعليم الجامعي والعالي، ولذلك يرفض فكرة البحث العلمي الخالص الذي لا يهدف إلى **«منفعة قريبة أو بعيدة»**. فشعار العلم للعلم لا يوم نبه طه حسين، عكس كثير من الفرانكوفونيين الذين يتحدثون عن العلم لذاته لا لفائدته. فالمهم – عنده – هو الإنسان وتنشئته وثقافته وتعليمه وتربيته من شتى النواحي المادية والأدبية لأنه في آخر الأمر قلب وعاطفة وجسم وعقل، فلا يعيش بالفكر وحده ولا بالمادة وحدها، والحضارة لا تبنى على أساس واحد ولكن تقوم على تكامل في العلوم والمعرفة والثقافة وغيرها من العناصر المختلفة.

ولما كانت الجامعة هي المؤسسة الكبرى لإنتاج العلم والمعرفة والثقافة، فقد أولاها عناية خاصة في حديثه ورسم لها صورة مثالية إن غيرت من أسلوبها وطريقة تعليمها حتى تصبح: **«بيئة لا يتكون فيها العالم وحده، وإنما يتكون فيها الرجل المثقف المتحضر الذي لا يكفيه أن يكون مثقفا بل يعنيه أن يكون مصدرا للثقافة، ولا يكفيه أن يكون متحضرا بل أن يكون منمياً للحضارة. فإذا قصرت الجامعة في تحقيق خصلة من هاتين الخصلتين فليست خليقة أن تكون جامعة...»**[1]. هذا هو دور الجامعة في التثقيف وفي الحضارة والتنمية الإجتماعية والثقافية والإقتصادية، وهو رأي سليم بمختلف المقاييس. وهولا يوافق على المفهوم الذي يرى في الجامعة مجرد بناء لتخريج متخصصين أو موظفين وإطارات لا تملك ثقافة عميقة وتملك مهارة معينة فحسب، فإذا خرجت عن هذه الدائرة وقفت عاجزة عن بناء الإنسان المثقف المتحضر، ويضرب أمثلة لمستوى الطلاب من هذا القبيل: **«وآية ذلك أنك تستطيع أن تتحدث إلى من شئت من الشباب الجامعيين فترى ثقافته سطحية ضيقة أشد الضيق، تحدث إلى المتخرج في كلية الآداب أو الحقوق فتراه حسن الحديث إلى حد متواضع في فنه الذي تخصص فيه فإذا تجاوزت به هذا الفن فستراه كغيره من رجال الشارع...»**[2].

---

[1] المصدر نفسه ص: **312** .

[2] المصدر نفسه ص: **330** .

وهو يرجع هذه السطحية إلى ضعف التعليم الثانوي وإلى مناخ الجامعة وبرامجها وأقسامها والتخصصات التي أحدثت فيها، ويحلل ما أوجز من هدف التعليم والثقافة والجامعة فيشير إلى مفهوم استقلال الجامعة وإلى أساتذتها وأنواعهم وتكوينهم ويرفض الإعتداء على استقلالية الجامعة العلمي الصحيح. ويحمل الدولة مسؤولية ما يحدث في الجامعة والمشاكل التي تتخبط فيها بيداغوجية كانت أو مالية أو علمية أو إدارية مما يعوق الجامعة عن إداء وظيفتها على أفضل وجه، ويبسط رأيه في الإصلاح والتقويم بشكل مستفيض.

وإذا كان قد تناول التعليم **«المدني العام»** بالنقد والتوجيه، فإنه خصص جزاءا كبيراً للتعليم في الأزهر وما فيه من برامج ومناهج وطرق وتكوين تربوي وعلمي لأنه يمثل أساساً آخر من أسس الثقافة في مصر بل هو أساس في الثقافة العربية الإسلامية. ويهاجم الجمود في هذه الميادين كلها خاصة وأن الأزهر يهدف إلى خدمة الإسلام ولكن ليس على حساب الفكر الحديث، فالبقاء في القديم نظرة وأسلوبا يعوق التطور، في حين أن الإسلام دين يؤمن بالعقل والفطرة والتطور. ويطالب بإصلاح الأزهر – نظما وقوانين ولوائح وغيرها مما يعوق تقدمه وملاءمته للعصر والحداثة ويمنعه من تحقيق رسالته السامية على أحس وجه...

على أن المؤلف يواصل القول في مجالات أخرى تساعد على تنمية الثقافة مثل **«المجمع اللغوي»** ومجامع أخرى أو جمعيات متنوعة لخدمة العلم والثقافة في مصر، فيتحدث عن دور الدولة في مساعدتها وتموينها ولكنها مقصرة في حق غيرها. ويطالب بإنشاء هيئات عديدة مثل: **«هيئة اللغة والأدب»** وثانية للعلوم وأخرى للطب ورابعة للعلوم السياسية والفقهية والإقتصادية وخامسة للفنون الجميلة، وكلها تجمع تحت قبة مجمع علمي واحد، لأن المجامع التي أنشئت في مصر في القرن الماضي كانت مشتتة وفقيرة في مواردها. ولكن آراء طه حسين تحققت فيما بعد حين تأسس **«المجمع العلمي العربي»** في مصر.

كما تحدث المؤلف عن الترجمة ودورها في الثقافة مما سنعرض له في الفصل الثالي لأنه يتصل باللغة. كما اهتم بالإنتاج العقلي وحث على تشجيع المنتجين والمثقفين كما فعلت بلدان كثيرة استفادت من أوروبا وثقافتها وعلمها وأدبها ويدافع عن المثقفين المصريين، علماء وأدباء فيقول: **«والواقع إنني معجب بهؤلاء المثقفين من المصريين، فهم قد بذلوا من الجهد واحتملوا من العناء ما لا يشعر به المعاصرون لهم وما سيقدره التاريخ لهم حق قدره. نشأوا في بيئة معادية للثقافة أشد العداء، ممانعة لها أشنع الممانعة وقد بدأوا بأنفسهم فحرروها من كثير من التقاليد الثقيلة الفادحة حتى عدتهم بيئتهم شذاذا وقاومتهم ألوانا من المقاومة فلم يهنوا ولم يضعفوا وإنما مضوا أمامهم لا يلوون على شيء حتى كتب لهم النصر»** [1].

ويسهب في الحديث عن دور المثقفين في بلده وبيان ما قدموه للشعب والوطن رغم العراقيل والصعوبات التي جابهتهم وهي كثيرة، ولكنهم صمموا على مواقفهم فحققوا ذوتهم كما حققوا هدفهم من خدمة الثقافة . فهو يعترف بهم ويقدر جهودهم الضخمة في بناء صرح ثقافة وطنية شامخة: **«قاومهم الشعب لأنه لم يفهم عنهم، وقاومهم السلطان الظاهر لأنه أشفق منهم، وقاومهم السلطان الخفي لأنه رأى فيهم قادة الحرية والهداة إلى الإستقلال. فثبتوا لهذا كله وانتصروا على هذا كله وخرجوا من المعركة ظافرين...»** [2].

ويستطرد في وصف ما لاقاه المثقفون من معاناة وفقر وحاجة وما تحملوه من عنت وضيق: **«فمنهم من اضطر إلى الجوع ومنهم من عرف الفاقه ومنهم من ذاق حياة السجن ومنهم من تعرض لألوان من الخطر قد تكون أشد من هذا كله وأسوأ عقبى...»** [3].

---

[1] المصدر نفسه ص: **374** .

[2] المصدر نفسه ص: **374** .

[3] المصدر نفسه ص: **375**.

هذا كلامه في أواخر الثلاثينات عن الثقافة والمثقفين وكأنه يقال اليوم على وضع المثقفين – عندنا في وفي البلاد العربية – فما زالوا مضطهدين بل هاربين مهاجرين من الفاقة والظلم والاضطهاد والسجون ومن «**الحكام**» الذين لا يقدرون الثقافة حق قدرها ولا المثقفين الذين يرفضون الإغراء للعيش تحت جناح السلطة وفي كنفها، فهو يتحدث عن الجيل الذي عاش معه وعما قدمته السلطة له من معونة والتي لا تساوي شيئاً: «**كل هذا قد احتمله الجيل الحديث من الأدباء والمثقفين فثبتوا له وظهروا عليه. فإذا سألت بعد ذلك عما لقي هؤلاء المحدثون من معونة الدولة وتأييد الشعب، لم تجد شيئاً ولم تكد تجد شيئاً..**»[1].

والحديث عن الثقافة يستتبع الحديث عن الموظفين والدولة وفي الوقت نفسه لا ينفصل عن المتلقين لهذه الثقافة، والكاتب يعتبر أن القارئ في مصر – في عصره – يمثل عشرة في المائة من الشعب وأن أغلبهم يميل إلى الكسل الفكري والثقافي، لأن التعليم لم «**يزين في قلوبهم حب القراءة**» ويستغرقهم العمل من أجل العيش، وإذا قرأوا فإنهم يقرأون صحفاً أو مجلات وحاجتهم إلى السرعة وعجزهم عن التأمل والتفكر: «**فالأدباء إذا ألّفوا أو ترجموا فإنما يبلغون عدداً قليلاً جداً من القراء، ومن القراء الذين يمنون عليهم بقراءة آثارهم وأكثرهم لا يشتري هذه الآثار وإنما يستعيرها من هذا أو ذاك ويلتقطها من هنا أو هناك**»[2].

ثم أنه يتابع عرض الظروف التي يحيا فيها الأدباء والمثقفون ويستنتج نتائج محققة في حالتي التشجيع أو عدمه، ففي الحالة الأولى يتحقق الغرض من الإنتاج أما في الثانية فإن الكتّاب سينتجون في الظروف الملائمة ثم يتوقفون أو

---

[1] المصدر نفسه ص: 375- 376 .

[2] **المصدر نفسه ص: 376 والجدير بالملاحظة أن طه حسين في تحليله لوضع الإنتاج والقراء في مصر وكأنه يتحدث عنا فالحكم ينطبق علينا تماماً ونحن الآن في عام يفصلنا عما قاله ب 45 عاما!! والمفارقة الثانية إن مصر استقلت بعد حديثة هذا بعام واحد بينما استقلت منذ ثلاثين عاما!!**

ينتجون حسب استعدادهم والفراغ الذي يجدونه ولا يصبحون ملزمين به وإذن: **«فلن يكون الإنتاج الأدبي في هذه الحال إلا نافلة وشيئاً إضافيا وقد لا يجيء...»** [1].

ويستعرض مختلف الجوانب والظروف التي تحيط بالإنتاج الأدبي والثقافي، ويقارن بين الوضع في مصر وبينها في الدول الراقية التي تؤمن بالثقافة ودورها ووظيفتها في تهذيب النفوس وترقية المشاعر ونهضة الشعوب. ومع أنه يحث الدولة والقراء والشعب على تشجيع الأدب والأدباء فإنه يطلب شيئاً أسمى من هذا التشجيع بالمال، إنه يلح على الحرية، حرية الأديب والمثقف، فبدونها لا يتحقق إنتاج أو يظهر أدباء أو مفكرون وعباقرة. خاصة إذا وجدوا تضييقاً عليهم وعلى الميادين التي يكتبون فيها وعنها. وهو يلقي باللائمة على الذين يمنعون الأديب من الاتصال المباشر بالشعب ويقول: دعوهم. ثم احكموا عليهم فالتشجيع وحده لا يكفي: **«بل هناك شيء آخر لعله أعظم خطراً من المال وهو الحرية فالأدباء عندنا ليسوا أحرارا لا بالقياس إلى الدولة ولا بالقياس إلى القراء وما أكبر النبوغ الذي يضيع ويذهب هدراً لأنه يكظم نفسه ويكرهها على الإعراض عن الإنتاج خوفاً من الدولة أو خوفاً من القراء فليس كل موضوع يعرض للأديب عندنا تسيغه القوانين ويحتمله النظام ويرضى عنه ذوق الجمهور...»** [2].

---

[1] المصدر نفسه ص: 377 .

[2] المصدر نفسه ص: 380 (أليس هذا أيضاً ما نراه في أقطار عربية كثيرة تكبت حريات الشعوب والأدباء والمفكرين والمثقفين وتمنع عنهم موضوعات معينة هي بمثابة المحرمات، ومن يقترب منها يحترق فعلاً أو مجازاً، والمحظوظ من فرّ بجلده ونجا بعقله ولجأ إلى بيئة أخرى يستطيع أن يعبر فيها بحرية وديموقراطية حتى ولو كانت أجنبية عنه وعن بلاده وحضارته).

ثم يناقش من يتهم الأدباء بأنهم لا يكتبون للشعب ولا يقتربون منه أو يحاولون أن يصلوا إلى أعماقه ويكشفوا عن أحلامه، فاللّوم لا يقع عليهم ولا على أقلامهم ولكن يقع على الذين يقفون بينهم وبين ما يريدون أو يحولون بينهم وبين الحقيقة التي يبحثون عنها في وعي الشعب وأعماقه وطموحاته وأحاسيسه، فهؤلاء الذين يتحكمون في مصير الأدب والشعب على السواء هم الذين يقفون في طريق الأدب والأدباء، فلو أعطوا الحرية لهم وحققوا لهم الكرامة لتغيرت صورة الأدب ولتغير موقف الأدباء ومن يتحدى الجميع يتعرض لما تعرض له **«طه حسين»** حين هز العقل العربي بكتاباته ومقالاته ومناهج أبحاثه ورفضه للمسلمات، فلو تركم الأدباء يقولون الحقيقة: **«دعهم يفعلوا ذلك ثم انتظر ما يصب عليهم الجمهور ورجال الدين وإدارة الأمن العام والنيابة من المكروه...»** [1]. وهو يفضل الحرية على الكبت حتى ولو جلبت معها الشر، لأنها في النهاية ستزيل الرواسب والمخلفات وستطهر النفوس مما علق بها من أهواء وأدوار لأن مصادرة الحرية هو **«حماية للرذيلة»**.

وطه حسين كما يطالب بالحرية يطالب بتقييدها بعض الشيء في مجالات مختلفة مثل الصحافة والسينما والإذاعة، ولكن ليس استنقاصاً من حرية أصحابها لأنه من المؤمنين بها وبدورها في الثقافة وبفائدتها للشعب، وهو أيضاً لا يقبل أن يدخل فيها إلاّ من يستحق ذلك ولكنه يسند للمثقفين ورجال الصحافة والفن الدور الذي يناط بها فينظمها ويشرف عليها: **«هيئات من المثقفين ولكنه إشراف من بعيد على حياة هذه الأدوات الثلاث وواضح أن هذه الهيئات لن تكون غريبة عن هذه الأدوات...»** [2].

---

[1] المصدر نفسه ص: 380.

[2] المصدر نفسه ص: 381 - 383.

وانطلاقاً من نظرته الوطنية والإقليمية فإنه يلوم أولئك الذين لا ينشرون الثقافة المصرية في الأقطار العربية. ولكن هذه الدعوة تقوم على «**الحب والمودة والإخاء**» كما يدعو إلى تيسير الحياة «**لطلاب الأقطار العربية**» الذين يدرسون في مصر وهو يعتبر هذا: «**أداء للحق ونهوضاً بالواجب ووفاء للأصدقاء وصرفا لهؤلاء الأصدقاء عن المرحلة إلى أقطار الغرب إن وجدوا في هذه المرحلة مشقة أو عناء**»[1]. كم يلح على إنشاء «**مدارس مصرية في الأقطار العربية**» تدعيما للتعاون بين البلدان العربية ومصر: «**وحسب مصر أنها تعيش على ذلك وتشارك فيه وتؤدي م عليها من الحق لجيرانها وشركائها في اللغة والدين والإقتصاد...**»[2].

فطه حسين – رغم إقليميته الواضحة – يحث الساسة والدولة في مصر على أن تسهل التواصل بين مصر والأقطار العربية أو ما يسميهم بـ«**الشركاء في اللغة والدين والإقتصاد**»، وهو في ذكره للأقطار العربية إنما يشير إلى المشرق العربي، أما المغرب العربي فلم يلتفت إليه لأنه تحت الإحتلال الفرنسي، وهو لا يريد أن يغضب الفرنسيين الذين درس في جامعاتهم، وهو ينطلق من مصلحة مصر ومن الدور الثقافي الذي يراه مسؤولية في عنقها لجيرانها.

وفي نهاية حديثه عن الثقافة يسأل: «**أتوجد ثقافة مصرية؟؟ وما عسى أن تكون؟؟**». وإجابته تؤكد السؤالين. فهي موجودة في الواقع وأوصافها معروفة وهو يعدد خصالها وملامحها وصفاتها، وكلها صفات ترسم صورة لهذه الثقافة المحلية الخاصة فتميزها عن غيرها من الثقافات الأخرى، شرقية كانت أم غربية، وهي كما كانت عبرت في الماضي عن خصوصية معينة ستعبر عنها في المستقبل وعناصرها هي: «**التراث المصري الفني القديم، وهي التراث العربي**

---

[1] المصدر نفسه ص: 393 .

[2] المصدر نفسه ص: 386.

الإسلامي وهي ما كسبته مصر وتكسبه كل يوم من خير ما أثمرت الحياة الأوروبية الحديثة» [1].

وكما يؤمن بالخصوصية في الثقافة فإنه يؤمن بعموميتها وبإنسانيتها وبشمولها، فهي **«وطنية إنسانية معا»** وهو يعتز بهذه الثقافة وبشخصيتها المتميزة. ومع إقليمية طه حسين وحبه لوطنه وتعصبه للثقافة المصرية، فإنه كان وطنيا يحب بلاده وثقافتها وتاريخها وأمجادها، قوتها وضعفها، ماضيها وحاضرها ويؤمن بمستقبلها، وإذا كانت آراؤه الكثيرة في التربية والتعليم وفي الثقافة قد تحققت فإن تكهناته بمستقبلها قد جانبها التوفيق، لأن شعب مصر شعب عربي وثقافته هي ثقافة أمة هو جزء منها، وإن **«القومية»** التي لم يؤمن بها وكذلك **«الوحدة»** حققتهما **«مصر عبد الناصر»** وإن أخفقت في التطبيق، ولكنها أعادت للشعب المصري عروبته وريادته الأدبية والثقافية، وأسهم في هذه الشجرة الضخمة وتفيأ مع أشقائه ظلالها الوارفة التي يعتبر هو والشعوب الأخرى فروعاً لها، وتبقى العربية هي ترجمانها.

والخلاصة أن طه حسين ألمّ بالجوانب المختلفة للثقافة العربية في مصر وكان منظرا مصلحا مفكرا وأديبا، ونظرته شاملة لمفهوم الثقافة والتطور عكس من تحدث عنها في المغرب العربي وفي الجزائر بوجه بوجه خاص كما سنوضح ذلك في الفصل الخاص بالموضوع، حتى ندرك الفرق بين فهم طه حسين للثقافة وفهم غيره لها، وليس غرضنا هو غرض آرائه كلها بالتفصيل في موضوع واسع عريض.

---

[1] المصدر نفسه ص: 388.

الفصل الثاني: طه حسين واللغة

رأينا أن طه حسين قد قام بتحليل العناصر التي تتكون منها الثقافة وخاصة في مصر، وأن منطلقه كان نظرته الإقليمية إلى الإنتماء مصر وإلى مستقبل الثقافة في بلده. وقد أولى عناية خاصة للغة شأنه شأن كبار المثقفين في بلده وفي الأقطار العربية الأخرى بل وفي العالم كله. فالثقافة تحققها اللغة أساساً على اختلاف رموزها ومفاهيمها ومضامينها وعلومها وآدابها المختلفة الألوان والأساليب والغايات والوظائف. فاللغة ليست مجرد وعاء أو قالب تصب فيه الخواطر والعواطف، ولكنها فكر وعقل ورأي ومضمون وروح أصحابها الذين يكتبون أو يبحثون أو ينشئون بها ويبدعون بكلماتها وجملها وقواعدها ومن هنا كان اعتزاز الشعوب والأمم بلغتها وبثقافتها وبإبداعها، وهذه ميزة الإنسان على الحيوان لأن له لغة محددة لا أصواتا مرددة بلا فكر أو فهم. ومن هنا أيضاً صبغت اللغات شعوبها بصبغتها الخاصة وطبعتها بطابعها المميز. فحين يذكر الإنجليزي يذهب فكرنا مباشرة إلى الشعب الإنجليزي ومثله الفرنسي والألماني والصيني والإسباني والروسي وهلم جرا. وطبعا حين تذكر الأمة العربية تكون اللغة العربية هي عنوان هذه الأمة، تحدد ملامحها، حضارتها ثقافتها، تاريخها بل وجودها نفسه الذي يتحدد من خلالها ومن أساليبها ومن من نطقها وحروفها، فنقول عنها إنها لغة الفصاحة والبيان، لغة الخطابة والبلاغة، لغة القرآن وغير ذلك من الصفات التي نسبغها على هذه اللغة وعلى أصحابها الناطقين بها. فكيف نظر طه حسين إلى العربية؟ وكيف أحس بها وفهم دورها ووظيفتها؟؟

إن الإجابة تتطلب تحليلاً لآرائه في العربية ولفكره نفسه ولاتجاهه الثقافي والسياسي، فهو يطبق هذا كله في كتاباته وآرائه في الثقافة والأدب. فإذا كانت الثقافة بمفهومها الخاص عنده **«مصرية»**، فكذلك الأدب نفسه فهو **«مصري»** بمعنى ما. ومن هذا المنظور فإن العربية نفسها تصبح مصرية بحيث

يتماشى هذا كله مع رؤيته الخاصة لمصر ولموقعها وثقافتها وتميزها الجغرافي وانتمائها الحضاري، فهي عنده لغة مصرية **«صميمية»** وتمثل العنصر الأساسي في الثقافة الوطنية وبغيرها لا تكون ثقافة، لا مصرية ولا غير مصرية. وفهمه هذا جعله يدافع عنها بحماس كبير ويطبقها قولاً وكتابة ومحاضرة ولا يتسامح أبداً مع من ينقص من قدرها وقيمتها أو يدعو إلى عامية أو دارجة أو فرعونية أو غيرها، وهذه هي ميزته عن أمثاله من الإقليميين الفرانكوفونيين – مشرقا ومغربا. فهو مغرم بالعربية وببيانها وجمالها ونقده لبعض الكتاب في أساليبهم أمثال الرافعي والمنفلوطي وغيرهما ينصب على فهمهم لطريقة الكتابة والتعبير، ولاستخدام لغة بعيدة عن العصر وروحه وتزمتهم في التشبث بطرق القدماء في الكتابة، فالزمن تغير والحياة تعقدت، فأصبح من الضروري أن تتطور اللغة أسلوبا وتعبيرا ومفردات أيضا بحيث تبتعد عن الخشونة والقاموسية وتنحو نحو السهولة واليسر والمرونة، وبهذا تتطور وتستطيع أن تكون لغة الحياة لا لغة فئة من الناس أو لغة القدماء، بل يريدها أن تكون لغة الشعب قادرة، يسيرة، مبسطة، واضحة تستطيع أن تساير وتنافس أرقى اللغات الحية في العالم.

وهو يقرن المزاج المصري الذي يميل إلى الإعتدال باللغة العربية التي عبرت عنه لأنها نابعة منه ومن وجوده وحياته ويصبغها بالروح المصرية فيقول وهو يتحدث عن مصر: «...**وقد اتخذت اللغة العربية المصرية لها أداة مرنة أنيقة رشيقة لا تنبو عن الذوق ولا تتجافى عن الطبع ولا تكلف قارئها مشقة وجهدا ولا تقل أنّ العربية مشتركة بين مصر وغيرها من البلاد العربية، فهذا حق، ولكن لمصر مذهبها الخاص في التعبير كما أن لها مذهبها الخاص في التفكير...**» [1].

فالعربية هنا أخذت روحا مصرية لا عربية قومية، فهي جزء من شخصية البلاد وبغيرها لا تكون مصر شعبا أو دولة أو وطنا عكس الذين ينظرون إليها وكأنها لغة فرضت عليهم فرضا من الخارج! فإقليمية طه حسين لم تمنعه من أن يتحرر من ذاتية الخاصة ويحكم على اللغة حكما موضوعيا من خلال الواقع

---

[1] مستقبل الثقافة ص: 392 . _

والتاريخ، كما أنه يختلف عن أولئك الذين رفضوا الإنتماء العربي مثله ولكنهم رجعوا إلى عصر **«الفراعنة»** فوجدوا فيه **«هويتهم»**، فهو ينكر هذا ويرى أن هويته هي **«مصرية»** لا هوية أخرى. وذلك هو ما ميزه – كما قلت – عن كثير من الفرانكوفونيين الذين توقف وعيهم عند مرحلة معينة من التاريخ ولم يستطيعوا أن يتجاوزها إلى العصر الحاضر أو الحديث على الأقل. وأعتقد أن طه حسين متفرد في هذا الرأي ومتميز به كما ذكرت، وهذه من جملة الأساليب التي جعلتني أختاره نموذجا للتطبيق في هذه الدراسة دون سواه من معاصريه أو ممن جاءوا بعده، وتفرده هذا ربما يعود إلى وطنيته التي يعتز بها دائما وإلى حبه لتراث بلده أيا كان مصدره ومنشؤه وإيمانه بتاريخ بلاده، الأمر الذي جعله يعتز بالعربية لغة بلاده.

وربما أيضا لثقافته الأساسية وتكوينه الأول بها، وإن كان هذا يشاركه غيره فيه، ومع ذلك فلعل لأسرته دخل في ذلك بينما غيره لم يعش جوا ريفيا مثله بل تربى في بيئة طبقية، وغالبا ما تكون هذه البيئة **(الأرستقراطية مثلا)** مترخصة في قضية اللغة متساهلة في الحديث والنطق، فتحاول تقليد الأجنبي في ذلك فلا ينشأ الطفل على حب اللغة وتقديسها والفخر بها، وهذا ما نلحظه في أبناء الطبقة المماثلة عندنا في الجزائر الذين تربوا في مثل هذه البيئة متأثرين بالأجنبي مظهرا وسلوكا وثقافة، فقلدته في لغة أيضا وحتى في طريقة النطق وفي مظاهر أخرى كثيرة. وأعتقد أنه إلى جانب هذين العاملين عامل آخر هام وهو أن الكاتب يشعر في أعماقه أنه لا يختلف عن الأوروبيين الأجانب – كما عبر عن هذا صراحة – وأن إحساسه هذا دفعه إلى الإعتزاز بلغته كما يعتز الفرنسيون والإنجليز والألمان وغيرهم بلغاتهم. فهو إذن لا يختلف عن هؤلاء، وشعبه لا يختلف عن تلك الشعوب من حيث الرقي الفكري والحضاري، وفي كتاباته المختلفة نلحظ هذه الكبرياء الواضحة في الإشادة بتراث مصر وبثقافتها وبامتيازها. كما أن حديثه عن اللغة العربية مثل حديثه عن اللغات الأجنبية ليس

فيه إشادة بها أكثر مما تستحق ولا استنقاص للعربية لأنها لم تبلغ ما بلغته تلك اللغات من رقي وتطور ودقة.

وفي رده على خصومه ممن بالغوا في وصف ما اعتبروه انحرافا لأنه دافع عن انتماء مصر للغرب وتحرشوا به ونسبوا إليه أشياء تتصل بالدين وباللغة، وهو فيما ذكر بعيد عن هذا كله، في رده هذا يقول: **«فهل ندعو إلى أن تفنى مصر في أوربا إذا دعوناها إلى أن تحتفظ بهذا الدين وتلائم بينه وبين مقتضيات الحياة كما لاءم أسلافنا بينه وبين مقتضيات الحياة؟ وتشخصها لغتها العربية وتراثها الفني والأدبي، فهل ندعو إلى فنائها في أوربا إذا دعوناها إلى أن تحتفظ بهذه اللغة وهذا التراث وتنميهما حتى يسعا ما سمعته اللغات الأوروبية وألوان التراث الأوروبي وحتى لا يكون للغة آخرى ولا لتراث آخر عليهما فضل؟»** [1].

فالمؤلف ينقد وضع اللغة العربية المحدود في عصره ويسعى إلى أن تكون لغة عالمية تستوعب التراث الإنساني، وهذا ما لا يرفضه وطني أو عروبي، وهو يناقش قضية اللغة من زاوية ليست محلية أو إقليمية أو بنظرة ضيقة ولكن من منطلق حبه لها وإيمانه بمستقبلها، ولذا ينادي بأن تكون لسانا يسع كافة العلوم والفلسفيات والتجارب الإنسانية الغنية المتنوعة. فهو لا يتهمها بالعجز والقصور – كما يفعل غيره من الفرانكوفونيين – ولكنه يسعى ويطمح إلى أن تزاحم اللغات الأجنبية الأخرى في بلاده وخارجها. وهذا موقف وطني بلا شك يستحق التنويه به لا نقده والتهجم على صاحبه.

وموقف طه حسين من الدفاع عن العربية قديم يسبق هذا الكتاب بكثير، إذ يعود إلى الفترة التي بدأ يكتب فيها مقالاته في بداية العقد الثاني من هذا القرن وبالضبط سنة **1911** حين كتب ينافخ عن العربية ويرفض الدارجة كلغة للكتابة. فليس دفاعه عن العربية جديدا ولا نتيجة دراسته في الجامعة داخل مصر أو فرنسا، ولم يكن وعيه بهذا نتيجة تثقيف حين أصبح أستاذ

---

[1] المصدر نفسه ص: **55**.

بالجامعة [1]، ومما يؤيد هذا أنه عبر عن موقفه بعد ذلك حين ألف كتابه الذائع الصيت **«في الأدب الجاهلي»** بحيث ألحّ على التدريس بالعربية الفصحى ونقد المناهج التي تدرس بها هذه اللغة مما يؤكد غيرته عليها، وقد وجه اللوم لأولئك الذين لا يبذلون جهدا يجعل العربية ليست لغة تعليم!! وما أكثر ما نضيق ذرعاً باضطرارنا إلى اصطناع اللغات الأجنبية في التعليم العالي!! وما لكن ما أقل ما نبذل من الجهد لنجعل اللغة العربية لغة التعليم بل نحن لا نبذل في هذا جهدا ما!! فاللغة العربية لا تدرس في مدارسنا وإنما يدرس في هذه المدارس شيء غريب لا صلة بينه وبين الحياة، لا صلة بينه وبين عقل التلميذ وشعوره وعاطفته... [2].

إذن فهو يلوم الناطقين بالعربية والمدرسين والمشرفين عليها وواضعي برامجها لتعليمية وكل من هو مسؤول عن مقدراتها، فليس القصور فيها ولكن في أصحابها.

والنقطة التي يبدأ منها طه حسين في هذا – إلى جانب ما ذكرنا – أنه يرى في اللغة مقوما بديهيا للشخصية الوطنية. هي ركن بارز قوي في تكوين الشعب والأمة إلى جانب ما تقوم به من مهام أخرى في حياة الأفراد مثل التعامل فيما بينهم أو بين غيرهم. لذلك يحمل الدولة مسؤولية نشر هذه اللغة بين المواطنين بتعليمهم لغة آبائهم وأجدادهم وتثقيف عقولهم بها: **«ما أظن أحدا يخالفني في أن من حق الدولة ومن الحق عليها أن تكفل لأبناء الشعب لغة الشعب وإتقانها لأن هذه اللغة هي وسيلة التعامل والحياة بين أبناء الوطن الواحد...»** [3].

---

[1] أنظر كتاب: «طه حسين وزوال المجتمع التقليدي» - عبد العزيز شرف – الهيئة المصرية للكتاب **1977** ص: **278** (ويعلق صاحب الكتاب عن موقفه طه حسين وآرائه المثيرة بقوله: (وهي التي تكتشف عن اتخاذ الجانب المؤيد للفصحى إلى حد كبير.).

[2] في الأدب الجاهلي – طه حسين – دار المعارف – مصر ط**12**، **1977** ص:**13** .

[3] مستقبل الثقافة ص: **67** .

فالعربية لدى طه حسين هي لغة مصر إذن مؤثر قوي في حياتهم ومعيشتها، كما أنها هي التي تعبر عنها وبها عن تراثها ومشاعرها، والاعتناء بها من واجب الشعب كله بجمع فئاته وطبقاته وشرائحه مهما تعددت مشارب الناس وأهوائهم وتجاربهم لأنها عنوانهم جميعا، والدولة أيضا مسؤولة عن هذه اللغة. ورأي طه حسين هذا في اللغة لا يختلف عن رأي مفكري الغرب في جميع أنحاء العالم، فهو ليس بدعا بينهم ولكنه بدع بين الفرانكوفونيين **«المتزمتين»** المحليين الذين ضعفت روابطهم بلغة الآباء والأجداد وأصبحوا ينظرون إلى اللغة بوصفها أداة لا أكثر ولا أقل، في حين أنه وهو **«الفرانكوفوني»** العريق والعالم المثقف والأديب الدارس يقف هذا الموقف الرائع من اللغة العربية لأنها اللغة التي: **«تمكن أفرادها من أن يفهم بعضهم بعضا، ويفضي بعضهم إلى بعض بذات نفسه ودخيلة ضميره وبأيسر حاجاته وأعسرها. فلا بد إذن أن يتعلم الفرد لغته ويتقنها ليحقق هذه الفكرة اليسيرة الأولية وهي أنه حيوان إجتماعي ناطق...»** [1].

ففي النص السابق اعتبرها لغة الشعب لا لغة طبقية أو جماعة أو عنصر معين، وفي النص الثاني اعتبرها لغة الأمة، وسواء يعني الأمة **«العربية»** أو الأمة **«المصرية»** نظراً لأنه من دعاة الإقليمية، فإنه مؤمن بها إيمانه بوطنه، وهذا الحب العميق للعربية من النادر أن تجده لدى الفرانكوفونيين الإقليميين ولكننا نجده عند الوطنيين الحقيقيين ولدى العروبيين في شتى أنحاء الوطن العربي.

وفهمه لوظيفة اللغة فهم واسع، فهو لا يراها أداة اتصال أو وسيلة تفاهم **«محايدة»**، بل إن فهمه لدورها ونظرته إليها هي النظرة العلمية الدقيقة والوطنية في الوقت نفسه. فهي إلى جانب أنها تساعد الناس على التعامل والتفاهم: **«أداة للتفكير والحس والشعور بالقياس إلى الأفراد من حيث هم أفراد أيضاً. وإذا كان هذا حقا فنحن نتعلم اللغة العربية ونعلمها لأنها ضرورة من ضروريات حياتنا الفردية والإجتماعية إلى أن يقول وإذن فنحن لا نتعلم اللغة العربية ولا نعلمها لأنها لغة الدين فحسب وإنما نتعلمها لأنها أوسع من ذلك وأشمل وأعم، لا**

---

[1] المصدر نفسه ص: 82- 83 .

نتعلم اللغة العربية ونعلمها لأنها لغة القدماء من العرب والمستعربين وإنما نتعلمها ونعلمها لأنها لغتنا ولأنها لغة الأجيال المقبلة أيضا ولأننا نريد أن تظل لغة هذه الأجيال...» [1].

والحقيقة أنني – لولا معرفتي بأفكار طه حسين الإقليمية ولولا أسلوبه السلس الجميل لقلت إن هذا الحديث لكبار العروبيين القوميين الوحدويين في المشرق أو في المغرب العربيين. فهو ينظر إلى اللغة – إلى جانب الميزات الوطنية والقومية والدينية – على أنها أيضا لغة الأجداد من جهة ولغة الأجيال القادمة من جهة أخرى. فهو يؤمن بها كلغة القادمين مستقبلاً وهذا الإيمان بالغد بالنسبة للعربية لا يقول به بعض المتشككين من الفرانكوفونيين في تطور اللغة العربية وقدرتها على مواكبة العصر، بل يرونه حلما بعيد التحقيق مثل الوحدة تماماً التي يرون أنها من أحلام الطوباويين!! فهل كان طه حسين قوميا عروبياً؟؟ إن هذا السؤال وجيه في مثل هذا الوضع وهذا الموقف، فالفرانكوفونيون مشرقا ومغربا لا يؤمنون بهذا التحليل أو هذا الحكم، وحتى إذا لم يكن قوميا فهو هنا لا يختلف عنهم في موقفه من اللغة العربية، ودفاعه عنها مثل دفاع العروبيين عنها وإن اختلفت النظرة لمفهوم القومية، ويظهر هذا في الحاحه الدائم على الجانب الفكري في اللغة، ففيما سبق كان قد أشار إلى هذا ولكنه في موضع آخر يطنب فيه القول، فاللغة العربية ينبغي أن تعلم لأنها بكلمة واحدة هي لغتنا الوطنية **«فنحن نتعلمها ونعلمها لأنها جزء مقوم لوطنيتنا ولشخصيتنا القومية...»** [2]. كما أنها تنقل لنا تراث الأجيال السابقة وهم آباؤنا وأجدادنا، وفي الوقت نفسه تنقل لغيرنا ممن سيأتي بعدنا تراثنا وثقافتنا وهي ثقافتهم عدا أنها وسيلتنا للتفاهم والتعاون وتحقيق المصالح للفرد والمجتمع فضلا عما أشار إليه من التعبير بها عن الإحساس والشعور والأهواء والميول والعواطف.

---

[1] المصدر نفسه ص: 229 .

[2] المصدر نفسه ص: 228 .

فهذه هي وظيفة اللغة الجوهرية والعلمية والفطرية والأدبية والقومية. ولكن تبقى المهمة الأخرى هي إنها تحمل فكراً معيناً، فهي والفكر شيء واحد: [1] «**ومعنى ذلك أننا لا نفهم أنفسنا إلاّ بالتفكير ونحن لا نفكر في الهواء ولا نستطيع أن نعرض الأشياء على أنفسنا إلاّ مصورة في هذه الألفاظ التي نقدرها وندبرها في رؤوسنا ونظهر منها للناس ما نريد ونحتفظ منها لأنفسنا بما نريد. فنحن إذن نفكر بهذه اللغة ونحن إذا لا نغلو إن قلنا إنها ليست أداة للتعامل والتعاون الإجتماعيين فحسب وإنما هي أداة للتفكير والحس والشعور بالقياس إلى الأفراد من حيث هم أفراد أيضاً**» [2]

ويذهب إلى أبعد من هذا في نظرته إلى العربية، فهي ليست لغة رجال الدين والحياة وحدهما ولشعب أو أمة من الأمم، ولكنها لغة عالمية هي لغة من يتكلم بها وله الحق في الحديث عنها وفي التصرف فيها لأنها إرث مشترك بين أصحابها، وربما هذه ميزتها الكبرى في أنها غير منطوية على نفسها كالعبرية مثلاً، لأن الرسول (ص) عندما قال: «**من تكلم العربية فهو عربي بقطع النظر عن جنسه وأرومته وانتمائه كان يعني أن العربية ستصبح في الواقع لغة حضارة شامخة كاملة شاركت فيها أجناس وأمم شتى ولكن بريادة العرب المسلمين لأنهم أصحابها الأصلاء، الذين حملوا رسالة الإسلام وأعلوا شأنها. ولعل هذا ما كان يدور بخلد طه حسين وهو يقر ويؤكد أن العربية ليست ملكا لرجال**

---

[1] انظر كتابي: عروبة الفكر والثقافة ص: 31 (حين كتبت هذا المقال منذ خمسة عشر عاماً قبل صدوره في الكتاب فوجيء الناس برأيي ولم أكن قد اطلعت على رأي طه حسين بعد واستنكر بعضهم هذا الراي في محاضرة أمام لأن التعريب كان وما يزال يركز على الجانب اللغوي من البحث وينكر ربط اللغة بالفكر العربي القومي).

[2] مستقبل الثقافة ص: 229 .

الدين يؤمنون وحدهم عليها ويقومون وحدهم من دونها ويتصرفون وحدهم فيها ولكنها ملك للذين يتكلمونها جميعاً من الأمم والأجيال. وكل فرد من هؤلاء الناس حر في أن يتصرف في هذه اللغة تصرف المالك متى استوفى الشروط التي تبيح له هذا التصرف...» [1].

وكأنه يرد سؤال قد طرأ على الذهن، فما هي اللغة التي يتحدث عنها؟ إنه يرد على الذين لم يفهموا قصيدة من رجال الأزهر وعلى دعاة العامية في الوقت نفسه، فقد انتشرت هذه الفكرة منذ سنوات خاصة بعد الدعوة التي تقول **«مصر للمصريين»** والمطالبة بأدب مصري خاص، كما كثر الحديث عن مصر **«الفرعونية»**. وبدأت الكتابات التي تنادي بالعامية المصرية – كما أشرنا – ولكن طه حسين إذا كان منذ القديم وقبل الثلاثينات يرفض هذه الدعوة فإنه لم يفعل ذلك لأنه ذهب إلى الغرب وقرأ عن اللغة ودورها وأهميتها– كما أسلفنا – ولكنه موقف قديم ينم عن قناعة لديه لم تتغير، دعاه إلى أن يفند مقولة أدب مصري إقليمي خاص، وإلى أن يرفض الدعوة إلى الكتابة بالعامية رغم أنها لأستاذه لطفي السيد.

أما معاركه مع غيره تجاه هؤلاء وأولئك فإنها دارت حول جمود اللغة والتجديد فيها، فهو من أصحاب الرأي الأخير. وليس هذا مقصورا على اللغة وحدها ولكنه رؤية للحياة والأدب، فهو يرى في الجمود موتا للغة ولغيرها ولكنه أيضاً يقف عنيدا أمام من يطالب بالإندماج في الثقافات أو اللغات الأجنبية أو يتخلى عن حضارته وشخصيته تماما، فالذي يؤمن **«بشخصية مصر الباقية الخالدة»** لا يقبل أن تذوب وشخصيته في بوتقة الآخرين حتى ولو كانوا أصحاب

---

[1] المصدر نفسه ص: **230** .

حضارة قوية عالمية شاملة، فهاجس التجديد كان هو دافعه إلى دراسة التراث الأدبي والثقافي في الأدب العربي [1].

فهو هنا لا يتساهل إطلاقا لأنه يعرف أن اللغة مثل أية قيمة وأي عنصر من العناصر المكونة للأمة إذا تنازل عنها الناس فلا يبقى لهم شيء، كما أنه لا ينبغي أن يكون الفن والأدب مدعاة إلى الكتابة بالعامية سواء بإسم الواقعية أم بإسم الشعب. ففي الحالة الأولى فإن الواقع تعبر عنه أية لغة فما بالك بالعربية الفصحى، أما في الحالة الثانية فإن الشعب الأمي لا يقرأ هذه ولا تلك. لذلك هو يلح على التعلم – كما رأينا آنفا – وهو يدرك عن معايشه أن **«المستشرقين»** و**«المستغربين»** الذين علموا على نشر العامية غرضهم الأساسي هو تحطيم العربية التي لا يرضى بها بديلاً أو تحريفاً أو مساً بقواعدها، وهو يدافع عن العربية من مبدأ أنها لغة الشعب المصري بغض النظر عن موقفه من القومية العربية.

فطه حسين يختلف تماماً عن الفرانكوفونيين مشرقا ومغربا الذين يفصلون بين اللغة والفكر حتى يمكنهم الفصل بين العربية والعروبة، وتصبح اللغة – كما رأينا – مجرد وسيلة آلية لا تحمل شعورا قوميا. ولعل تأثرهم بالإستشراق كان هو العامل الرئيسي في هذا الفهم. فهؤلاء ومعهم غيرهم يجزئون الموضوع بغرض التأثير في الآخرين فلا يفرقون بين اللغة الوطنية وبين اللغة الفرنسية، بينما بالنسبة للفرنسيين عندما يتصل الأمر بلغتهم فإنها تكون هي الوطن وهي الجنسية والتاريخ والوجود كله. وموقفه من العامية يمتاز عن الفرانكوفونيين في المغرب العربي والمشرق العربي. فهؤلاء يرون إمكانية الأدب بها لأنها أقرب إلى روح الشعب في نظرهم، ولكنه – كما رأينا – يرد عليهم

---

[1] المصدر نفسه ص: 160 وما بعدها.

بحجة دامغة وهي أن الجماهير تسيطر عليها الأمية ولأن العامية مهما بلغت من مرونة وسهولة فإنها لا ترقى إلى مستوى اللغات الأجنبية الحية، في حين أن العربية تمتاز بكل صفات هذه اللغات الحية.

والمؤلف يدين التعصب الشوفيني ضد العربية ويهاجم دعاة اللهجة الدارجة أو العامية لأنه لا يعتبرها لغة ويلح على إيمانه بالفصحى مرة أخرى في قوله: **«فاللغة العربية الفصحى لا غيرها هي لغة القرآن الكريم والحديث الشريف، وهي لغة ما أورثنا القدماء من شعر ونثر ومن علم وأدب وفلسفة...»** [1]. وهذا رد على من ينتقد رأيه في تحسين اللغة وقواعدها، وفي الوقت نفسه يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك على عدم موافقة في أن تكون لغة علم وفن وأدب لأنها قاصرة بحكم أنها لهجة لا ترقى إلى مستوى اللغات الحية، فهو كما ذكر أنه: **«من أشد الناس ازورارا عن الذين يفكرون في اللغة العامية على أنها تصلح أداة للفهم والتفاهم، ووسيلة إلى تحقيق الأغراض المختلفة لحياتنا العقلية. قاومت ذلك منذ الصبا ما وسعتني المقاومة، ولعلي أكون قد وفقت في هذه المقاومة إلى حد بعيد وسأقاوم ذلك فيما بقي لي من الحياة ما وسعتني المقاومة لأني لا أستطيع أن أتصور التفريط – ولو كان يسيراً – في هذا التراث العظيم الذي حفظته لنا اللغة العربية الفصحى...»** [2].

وهو يقاوم هذا الإتجاه ليس لأن تراث العربية الذي هو تراث مصر في قناعة طه حسين، ولكن لأن العامية لهجة لا أكثر ولا أقل، وهي قد انحدرت من العربية بعد أن «فسدت» في شكلها وطريقة التعبير بها، وهي في الوقت نفسه صالحة لأن تعود إلى العربية من جديد إذا قدر للشعب أن يتعلم ويتثقف ويتحرر من الجهل والأمية بحيث تصبح العربية لغة الإدارة والحياة. فطه حسين ينظر إلى العربية نظرة متكاملة فلا يجعلها لغة الأدب والعلم وحدهما ولكن لغة الحياة

---

[1] المصدر نفسه ص: 230 .

[2] المصدر نفسه ص: 236 .

الخاصة والعامة للشعب وللأفراد. وهو عكس من ينادي بها قراءة وكتابة لأنها لا تصلح لذلك، وغير الفرانكوفونيين أيضاً– مشرقاً ومغرياً – حين ينظرون إلى الفصحى نظرة المستشرقين الذين يفرقون بينها – باعتبارها **«كلاسيكية»** – وبين العامية التي يعتبرونها **«عصرية»** جريا على المقارنة مع اللغة اللاتينية. إنه يقف موقف الوطني من اللغة ولا يتأثر بآراء العربية وخصومها – أجانب كانوا أم عربا أم إقليميين متعصبين – لذلك يقول: **«ولأني لم أؤمن قط ولن أستطيع أن أؤمن بأن للغة العامية من الخصائص والمميزات ما يجعلها خليقة بأن تسمى لغة، وإنما رأيتها وسأراها دائما لهجة من اللهجات قد أدركها الفساد في كثير من أوضاعها وأشكالها وهي لغة خليقة أن تفنى في اللغة، العربية إذا نحن منحناها ما يحب لها من العناية فارتفعنا بالشعب من طريق التعليم والتثقيف وهبطنا بها هي من طريق التيسير والإصلاح إلى حيث يلتقيان في غير مشقة ولا جهد ولا فساد»** [1].

واللغة التي لا تستخدم في الحياة تتجمد وتفنى، هذا أمر يعرفه طه حسين ويدركه جيداً، ومن هنا فإنه لا يلح على تعلم اللغة العربية فحسب – كما يقول بذلك بعض الفرانكوفونيين – ولكنه يدعو إلى أن تكون لغة بأتم معنى الكلمة، يتعامل بها الناس في كل شيء مثل أية لغة في العالم. أما وضعها في مصر آنذاك فهو يشبه وضع لغة أجنبية في رأيه: **«فاللغة العربية في مصر لغة إن لم تكن أجنبية فهي قريبة من الأجنبية، لا يتكلمها الناس في الأندية ولا يتكلمها الناس في المدارس ولا يتكلمونها في الأزهر نفسه...»** [2].

---

[1] المصدر نفسه ص: 236 .

[2] المصدر نفسه ص: 237 .

وهو لا يجامل الأدباء ولا رجال الدين، فالأولون نادوا بالعامية والآخرون تشبثوا ببقائها جامدة ولم يطوروا فيها. وقد لام حسين فوزي وتيمور خيري وإبراهيم مصري وغيرهم ممن حملوا لواء الإقليمية في الأدب والدفاع عن العامية، لا مهم لوما عنيفا.

وقد شارك هؤلاء أمثالهم في المغرب العربي وخاصة في تونس قبل الإستقلال وحتى بعده تحت عناوين قديمة جديدة مثلما فعل المصريون الإقليميون، وتجمعهم كلهم فكرة أدب محلي إقليمي أو فكرة «**الفن والأدب الشعبي**»، حتى أن كاتبا تونسيا هو محمد الهادي المطوي يقول عن اللغة العربية في بلده: «**فقد وجدت بعد الإستقلال عقوقا من بعض أبنائها الذين لم يتنكروا لحضارة الغرب واللغة الفرنسية بعد الإستقلال مقدار تنكرهم للغتهم بإسم التفتح تارة وعجز العربية علميا تارة أخرى... إلى أن يقول: كما أن مبدأ التعريب وهو ما كان شعاراً وطنيا قبل الإستقلال وقد وقع التراجع فيه بعد الإستقلال**»[1].

ولسوء حظ الفرانكوفونيين الذين يحاربون العربية في المغرب العربي أن طه حسين لم يكن من رأيهم، ولو فعل لما توقفوا عن الإشادة به بمناسبة وبغير مناسبة، ولكنه كان عنيدا في الدفاع عن الفصحى ولم يترك ثغرة لمن يريد الهجوم على العربية أو النيل منها.

وهو لا يكتفي بتشخيص الداء أو التنديد بدعاة العامية ولكنه يصف العلاج، لأنه أحسن بالخطر على العربية في عصره الذي كتب فيه الآراء، فيلوم المتقاعسين عن إصلاحها من رجال الدين أو العلم أو السياسة. ويضرب أمثلة من الماضي للعلماء العرب الذين لم يترقبوا الأمر أو الإجماع على تطوير العربية وعلومها ولم يبحثوا عن المال والظروف الملائمة كي يؤلفوا ويكتبوا ويبدعوا.

---

[1] مجلة المسار التونسية – عدد **2** شتاء **1989** .

وحبه لهذه اللغة وإيمانه بمستقبلها دفعه إلى تشخيص الداء والبحث عن الدواء، أي إصلاح اللغة وقواعدها وآراؤه مازالت حية وصالحة حتى اليوم ولا زال كل قطر يقوم بتجارب في هذا المضمار بصورة منفردة نظرا لحب الزعامة والظهور بمظهر الدفاع عن العربية في القطر الخاص أو تبعا لمصلحة

معينة أو تفكير خاص أو سياسة خاصة، بينما طه حسين يدق ناقوس الخطر: «**فالخطر الذي أنذر به إذا لم نتدارك اللغة وعلومها بالإصلاح والتيسير إن لم يكن واقعاً بالفعل فهو قريب الوقوع، وتبعته هذا كله إنما تقع على الذين يمانعون في الإصلاح والتيسير، يحتجون بالدين مرة، ويحتجون بحق الشعوب العربية كلها في أن تشارك في هذا الإصلاح والتيسير مرة أخرى وينسون أو يتناسون أن الله عزوجل قد أنزل القرآن وشرع الدين قبل أن تنشأ علوم اللغة وأن الذين أنشأوا هذه العلوم إنما أنشأوها لأسباب منها حماية هذه اللغة من أن تفسد أو تضيع كما أننا نحن نريد أن نصلحها ونسيرها لنحميها من أن تفسد أو تضيع...**» [1].

فإذا كان الكاتب يصف العربية في الثلاثينات من قرننا الحالي فماذا نقول نحن عنها اليوم، وقد طغت وسائل الإعلام وسيطرت على المناخ العام في الأقطار العربية واشتد الصراع بين العروبيين وبين دعاة الفرنسية في المغرب العربي؟؟. إننا نستطيع في كل لحظة أن نسمع أية لغة أجنبية بمجرد تحريك مفتاح «**التلفزيون**» أو الإستماع إلى المذياع، إلى جانب تقارب الشعوب ببعضها من بعض وهيمنة السياحة وتشتت الجهود في الأقطار العربية بل وتمزقها أكثر من ذي قبل، ناهيك عن الضغط الرهيب على الأمة العربية وعلى الأمة من أعدائها في الداخل والخارج وطغيان العامية في مجالات كثيرة فضلا عن خصوم جدد له يكونوا في الماضي وكذا أساليب ومؤامرات وشعارات بادية للعيان!!

---

[1] مستقبل الثقافة ص: **238** .

وهو يفند كل الحجج التي يلجأ إليها المسؤولون والمعنيون باللغة ويحيلهم إلى الماضي، إلى عصور العربية وعلومها والقائمين عليها، فهم- كما سبقت الإشارة – لم يشاوروا ملوكا أو خلفاء ولم يخشوا من الصراعات والمذاهب التي عمت البلاد العربية حول اللغة وعلومها ولم يعقدوا المؤتمرات أو الندوات كي يبحثوا ويناقشوا ما له علاقة بالعربية. ومن حق القادرين بل من واجبهم أن يقوموا بواجبهم، فيبدون رأيهم كما فعل القدماء في هذا التراث المشترك، ولنا في مواقفهم وسننهم ما يساعدنا على تطوير لغتنا، أما الذين لا يبادرون فهم: **«يجهلون أو يتجاهلون أن الذين أنشأوا علوم اللغة العربية ودونوها والذين نموها وأنضجوها من علماء العراق لم يشاوروا في ذلك أهل مصر والشام وإفريقية والأندلس من العرب قبل أن يقوموا على إنشاء ما أنشأوا من العلم وتأليف ما ألفوا من الكتب، ليسمح لنا هؤلاء السادة بالضحك فإن حججهم مضحكة حقاً...»** [1].

ولعل الكاتب هو الوحيد الذي يرى أن العربية لغة الشعب المصري مسلماً ومسيحياً فلا يميز بين دين ودين آخر فيما يتصل باللغة لأنها لغة **«مصرية»**، وما دام الأقباط مصريين فعليهم أن يتعلموا لغتهم العربية: **«فليست اللغة العربية لغة المسلمين ولكنها لغة الذين يتكلمونها مهما تختلف أديانهم، وما دام الأقباط مصريين وما دامت اللغة العربية مقوما من مقومات الوحدة المصرية والوطن المصري فلا بد من أن يتثقف بها رجال الدين من الأقباط كما يتثقف بها رجال الدين من المسلمين»** [2]. فأي دفاع حار عن العربية أشد من هذا الدفاع؟؟ إن المؤلف تبعا لنظرته الوطنية لا يفرق بين مصري وآخر بسبب الدين أو نزعة طائفية بل اللغة لغة الجميع، لأنه وطني والوطنية تتمثل في خصائص ومقاييس معينة تتحقق بها، ومن دونها تبقى مجرد كلمة تلوكها الألسن، لذلك فالعربية هي لغة الجميع فهي: **«اللغة الوطنية لمصر فيجب أن يكون حظ الأقباط من إجادتها**

---

[1] المصدر نفسه ص: 238.

[2] المصدر نفسه ص: 361.

وإتقان العلم والقدرة على استعمالها كخط غيرهم من المصريين» [1]. ومن ثمة فإن الجميع مطالب بإتقانها والعمل على نشرها وإجادتها وعلى تيسيرها للآخرين.

وهنا يشرح رأيه في التيسير والإصلاح، فيتناول مختلف المجالات ويحدد العناصر التي تسهم في تطوير هذه اللغة وإذاعتها ويحدد الميادين التي ينبغي أن يتناولها هذا الإصلاح الذي يقترحه.

هذه بعض آرائه الكثيرة عن العربية وإصلاحها تجسد رؤيته لها وتقديره لمكانتها الوطنية والأدبية والثقافية، ولكن هناك جزئيات كثيرة متناثرة في ثنايا الكتاب تأتي بمناسبات مختلفة وإشارات عابرة أو غير عابرة مما يحتاج إلى تفصيل وإطناب ليس هذا مجاله، فاهتمامي في هذا البحث منصب على بيان المواقف والتوجه والفهم، ونترك غير ذلك لمن يرغب في متابعة البحث والدراسة ليقارن بين طه حسين وموقفه من اللغة وبين أمثاله من الفرانكوفونيين في المغرب العربي فسيجد موضوعا خصبا حقا.

على أن طه حسين لم يكتف بهذا القدر من الحديث عن العربية، ولكنه أثار قضايا تتصل بها وبالتعليم فناقش قضية اللغة الأجنبية والتعليم الأجنبي والترجمة لأنها ذات علاقة باللغة الأم وبالحياة وبالمصلحة العامة والعصر والسياسة والثقافة. وهو في ذلك يعبر عن موقف وطني أيضاً، فإذا كان يؤمن بالغرب وثقافته وحضارته بانتماء مصر إلى الغرب كما أسلفنا القول فإنه في الوقت نفسه يحافظ على كيان بلاده وثقافتها وشخصيتها المستقلة المتميزة، ومن هنا فإن فتح المدارس الأجنبية في بلاده والتي تشرف عليها دول أجنبية يراه خطراً ويخشى من تأثيرها في شباب مصر فيتعاطف مع هذه الثقافات وينصرف إليها ويترك ثقافته الوطنية فهناك تعليم فرنسي ديني وهناك تعليم فرنسي مدني وهناك تعليم إيطالي وآخر يوناني وآخر إنجليزي وآخر أمريكي وآخر ألماني،

---

[1] المصدر نفسه ص: 361.

وكل هذه الأنواع من التعليم لا تفكر في مصر ولا تحفل بها وإنما تفكر في فرنسا وإيطاليا وفي إنجلترا وأمريكا، وفي اليونان وألمانيا... [1].

إنه يخاف من أنواع هذا التعليم على الشباب المصري لأنه يبعده عن تاريخ بلاده وحضارتها ولغتها وثقافتها، فيتأثر بالفكر الأجنبي وينساق وراءه وينتج عن ذلك: «**أن الشباب الذين يخرجون من هذه المعاهد الأجنبية مهما يكن حبهم لمصر وإيثارهم لها فإنهم هم يفكرون على نحو يخالف النحو الذي يفكر عليه الذين يخرجون من المعاهد المصرية بل هم يفكرونعلى أنحاء مختلفة وتظهر نتائج هذا التفكير المختلف في حياتهم العملية اليومية وفي تقديرهم للأشياء وحكمهم عليها**» [2].

هذا الكلام قاله منذ نصف قرن تقريباً ومازال صالحاً بتفاصيله، فإذا كانت المدارس الخاصة مفيدة من ناحية فهي مضرة من نواحي عديدة، لذلك لا بد من قيد عليها حتى لا تصبح عنصراً سلبياً في تفكير الشباب، لأنه يؤمن – كما لاحظنا – بارتباط اللغة بالفكر. فهو إذن لا ينظر إلى الجانب التربوي البيداغوجي وحده ولكن إلى الناحية الوطنية، أي إلى تأثير هذه اللغات في الناشئة الصغيرة وعقولها، ذلك أن التربية الوطنية أمر متكامل فلا ينفصل العنصر الأول عن الثاني ولا يمكن التفريق بين وحدة الفكر والوطن ومصلحة الشعب، لأنه من السذاجة أن نطلب من الأجانب أن يحترموا لغتنا وشخصيتنا بينما نحن لا نفعل ذلك فهؤلاء الأجانب يخدمون لغتهم ووطنهم وهم على حق في ذلك، أما أن نترقب منهم أن يكونوا – مثلما يقال – «**ملكيين أكثر من الملك**» فهذه بساطة متناهية في التفكير والتدبير قد يصل إلى حد الغباء الذي لا تفسير له سوى أمر واحد من ثلاثة: ضعف الحس الوطني أو انعدام الحس القومي العروبي أو الإنبهار بالغرب إلى درجة تنسينا أنفسنا وأصالتنا وتاريخنا. فطه

---

[1] المصدر نفسه ص: 62 .

[2] المصدر نفسه ص: 63 (تأمل هذا وقارن بما يجري في المغرب العربي وانظر إلى تلك المعاهد التي ينتشر فيها تعليم هذه اللغات الأجنبية بلا رقيب أو حسيب).

حسين يصدر في تحليله لدور هذه المدارس عن وطنية صادقة لا تتأثر بالخارج أو المصلحة الآنية لفئة وحتى للدولة نفسها. ويعتبر أن مراقبة هذه المدارس **«واجب وطني»** ويحمل الدولة والبرلمان مسؤولية التقصير في هذا، ويذهب إلى أبعد من ذلك فهو يعتبر هذا من السيادة والإستقلال الوطنيين وحماية لهما في الآن نفسه: **«هو أن تراقب هذه المدارس مراقبة دقيقة تكفل محافظتها على مقدار من التعليم يلائم حقوق الوطنية المصرية وواجباتها ولأكن واضحاً في هذا فأصله بعض التفصيل»** [1]. ثم أنه فعلاً يزيد الأمر إيضاحاً فيفصل القول فيه وفي مسؤولية الدولة تجاه النشء والوطن ويكرر القول ولا يمل بأن العربية هي التي ينبغي أن تكون السيدة في وطنها.

إنه يلح على الدولة إذا وافقت على فتح مدرسة أجنبية أن تشترط عليها تعليم التاريخ القومي ويكون أساساً في برامجها، كذلك أن تدرس فيها جغرافية مصر واللغة المصرية وهي بالطبع العربية. وأكثر من هذا وذاك من مواقف طه حسين التي نقف أمامها مشدوهين فإنه يهتم بالتعليم **«الديني»** في هذه المدارس، فهو يطلب التثبت من أن هذه المدارس الأجنبية: **«لا تنحرف بالتلاميذ عن دين آبائهم ولا تتخذهم موضوعا للدعوة والتبشير، هذه مسألة مفروغ منها تضمنها القوانين ويجب أن يضمنها العمل أيضاً...»** [2].

قلت قد ندهش من هذا الموقف لأن طه حسين هوجم من هذه الناحية ولأن ليبرالي غربي، وأمثاله لا يهتمون – عندنا – بهذا الجانب كثيراً كما ألمحنا مراراً وتكراراً يدافع عن الدين لأنه عنصر من عناصر الشخصية الوطنية وهو لا يخفي هذا بل يجهر به: **«فنحن من غير شك نعتمد على أن الدين مقوم خطير من مقومات الوطنية المصرية»** [3].

---

[1] المصدر نفسه ص: 67 .

[2] المصدر نفسه ص: 68 .

[3] المصدر نفسه ص: 69 .

والأساس في فكرة دائماً هو وحدة الفكر للموطن المصري فهو لا يفتأ يكررها، وأي عنصر من مكوناتها هو بمثابة الحصن للشباب المصري: **«وإذن فلا ينبغي أن يكون هناك مصريون يخرجون من المدارس المصرية وقد تعلموا الدين القومي واللغة القومية والتاريخ القومي وآخرون من المدارس الأجنبية وليس لهم من التعليم الديني حظ ما»** [1]. وطه حسين عظيم في هذا وعظيم في إحساسه الوطني ودفاعه عن بلده وإيمانه بوحدتها فكراً وثقافةً وأرضاً، فهو يطالب بتوحيد العقلية المصرية كما يطالب بالوحدة بالوطنية، وهذا لا يتم إلاّ بتوحيد البرامج الدراسية سواء في المدارس الوطنية أم في الأجنبية: **«فإذا قبلت مصر أن تقوم في أرضها هذه المدارس فيجب أن نطمئن إلى أنها لن تكون مصدر شر لها أو خطر على عقلية أبنائها»** [2]. وهو يلح على أن تتقيد هذه المدارس بتعليم العربية وحتى **«لا يكون هذا التعليم أقرب إلى الهزل منه إلى الجد وإلى الخداع منه إلى النصح»** [3].

تلك بعض الآراء التي نادى بها طه حسين في موضوع تعليم اللغات الأجنبية والتي يقوم بها أجانب وفي معاهد أجنبية على أرض مصر، نبّه فيها الدولة والمثقفين والمواطنين إلى خطر هذه المعاهد وما تقدمه للنشء خوفاً عليه من الإندماج في الغرب وحضارته والإبتعاد عن حضارته وثقافته الوطنية الأصلية والتخلي عن قيمه وأخلاقه وتقاليده.

وفي آخر المطاف في حديثه عن العربية والمعاهد الأجنبية، يصل إلى اللغة الأجنبية في المدارس المصرية. ففي الوقت الذي يعالج فيه هذا الموضوع كانت تدرس لغة أجنبية واحدة في التعليم الإبتدائي الذي يعد المرحلة الأولى للتعليم العام. وهو لا يوافق أصلاً على ذلك، إنه يرفض قطعاً تعليم طفل مازال لم يستوعب لغته الوطنية فيجد نفسه يدرس أخرى بعيدة عن بيئته وثقافته ومحيطه

---

[1] المصدر نفسه ص: 69 .

[2] المصدر نفسه ص: 70 .

[3] المصدر نفسه ص: 67 .

وتاريخه فيشعر بالتمزق منذ تكوينه الأول: **«أما نحن فجوابنا في ذلك قاطع صريح وهو أن اللغة الأجنبية لا ينبغي أن تدرس في هذا القسم من التعليم العام»** [1] وحكمه هذا مؤسس على جانب هام هو: **«أن تخلص نفس الصبي لوطنه وأن تشتد الصلة بينهما وبين هذا الوطن»** [2].

ولا أحد يتهم طه حسين في إيمانه باللغات الأجنبية وفائدتها الخاصة والعامة ومبرراته في التركيز على اللغة الوطنية ربما لأنه بدأ الدراسة بها فحافظ على انتمائه لوطنه ربما لأنه رأى من أسرف في تعليم اللغات الأجنبية في المرحلة الإبتدائية قد أوجد تنافرا بين اللغة الوطنية واللغة الأجنبية، فوق أن هذا يسهم في بلبلة الطفل الذي يحتاج إلى تكوين وطني صرف لتكتمل شخصيته القومية، وربما لأن المؤلف من تجربته الخاصة يعرف أن تعلم اللغة الأجنبية ممكن بعد هذا السن وحتى في الكبر، وهو نفسه تعلم الفرنسية وهو أستاذ بالجامعة وأتقنها وألف بها أطروحة للدكتوراه، ثم أنه يعرف أن هذا الطفل كما قال: **«سيتجاوز الوطن في الثقافة إلى أوطان أخرى مختلفة بعد زمن قصير وسيشتد اتصاله بهذه الأوطان على نحو غير مألوف في البلاد الأخرى كما سترى. فلا أقل من أن نحتفظ بهذا الطور من أطوار نشأته للثقافة الوطنية نخصه بها ونقصره عليها»** [3]. ثم يعلل بأمور أخرى منها أن الجهد الذي يبذل لتعلم اللغة الأجنبية تكون على حساب اللغة القومية التي تتطلب الجهد كله لإتقانها وأن اللغة الأجنبية لا يحتاج إليها التلميذ في الإبتدائي، ولكنه يحتاج إليها فيما بعد حين يكبر وعيه ويقوى ويحتاج إلى عناصر أخرى لتوسيع ثقافته. وهذا لا يتحقق إلا إذا نما عقله وجسمه وملكاته، فحينئذ يستطيع أن يجمع

---

[1] المصدر نفسه ص: **194** .

[2] المصدر نفسه ص: **194** .

[3] المصدر نفسه ص: **194** - 195.

بين لغتين. وأنه ليعجب أن تبقى هذه اللغة الأجنبية بعد الإستقلال، فإذا كانت أيام الإنجليز مفروضة بالقوة فما هو المبرر لأن تبقى في هذه المرحلة من التعليم بعد أن تحررت مصر من الإحتلال الأجنبي؟ إنه يعتبر هذا استمراراً لما كان وإهمالاً لما ينبغي من إصلاح – على حد قوله.

وإذا كان المؤلف يجد مبرراً لأطفال الأوروبيين في تعلم لغات أجنبية أخرى غير الوطنية بأن يعود إلى تقارب هذه اللغات بعضها من بعض، بينما لا يوجد هذا بينهما وبين العربية لا في المادة ولا في النطق. فالشرط الأول لدى طه حسين هو أن يتمكن التلميذ من لغته الأصلية قبل أية لغة أخرى حتى **«لا تفنى شخصيته اللغوية والأدبية الناشئة في هذه اللغة الأجنبية»**[1].

فطه حسين في تحليله لهذه القضية يستخدم المنطق والحجة والمصلحة الوطنية ويستعين بعلوم كثيرة لتدعيم فكرته، ومنها علم النفس وعلم البلاغة – إن صحّ التعبير – وهو الأستاذ المربي والعالم المجرب. إنه يخاف على الصبي في هذه المرحلة المبكرة من التعليم أن تضطرب لغته وتضعف بعد أن يتقدم به العمر فلا يقدر على الإبانة والتعبير بلغته العربية: **«فلا تواتيه ولا تستجيب له لأن الإلف لم يتحقق بينه وبينها أثناء الصبا ولأنه شغل وأكره على ألا يمنحها من نفسه إلا جزاء يسيرا»**[2].

فهذه ملاحظة دقيقة يمكن أن نلمسها لدى أي شخص لم يتقن لغته في الإبتدائي حين نتأمل حديثه ونطقه. إذ لا يكاد يفصح أو يبين – حتى لو كان أستاذاً في الجامعة – لأن الجمل في ذهنه والتعابير لا تنطلق من مكان واحد أو كلمة واحدة، ولكنها تنطلق من مكانين مختلفين أو من كلمة مشتتة بسبب

---

[1] المصدر نفسه ص: **197** .

[2] المصدر نفسه ص: **198** .

مزاحمة إحدى اللغات الأجنبية للغته الوطنية أثناء تعليمه في الصغر، ولذلك قد نجده يستعين بهذه اللغة الأجنبية لتسعفه وتسعاده على إتمام حديثه. بل أنه قد يصاب بعجمة فيها ركاكة محسوسة نطقا وكتابة، حتى أنه يمكن معرفة هذا من خلال جمل قليلة ولا أقول مقالات كثيرة. فإذا أضفنا إلى هذا سيطرة العامية في المنزل والشارع والمحيط فماذا يبقى للعربية في تلك المرحلة التعليمية التي يتحدث عنها طه حسين؟؟! [1]

ويستعرض بعد ذلك أوضاع اللغتين الفرنسية والإنجليزية في مصر. كيف كانت الأولى في البداية ثم كانت الإنجليزية بعد ذلك مع بقاء الفرنسية في بعض المدارس مما أحدث اضطرابا وبلبلة في تعلم اللغة الأجنبية التي فرضت على المجتمع بحكم الظروف الخارجية.

لكنه يخلص بعد ذلك إلى أنه بعد تجارب في تعليم اللغتين اكتشف المصريون الهدف من تعلمها، فأصحابها لهم مراد آخر غير مراد المصريين، وإذا كان لا يوضح هذا «المراد» أو الغرض فإنه يوحي به ويرمز إليه بما لا يحتاج إلى عناء كبير لمعرفته وفهمه.

وتحرره من الإنبهار بالغرب وإصراره على أن تكون لمصر مكانتها في العالم بثقافتها ولغتها وشخصيتها، يجعله يدعو إلى تعلم اللغات الأجنبية ويعتبر أن هذا مهم لبلده وثقافته ولكنه لا ينظر إليها باستخذاء أو تطامن ولا يعطيها أكثر مما تستحق. ثم أنه لا ينظر إلى الفرنسية أو الإنجليزية على اعتبار أنهما اللغتان الوحيدتان في العالم بل ينظر إلى غيرهما النظرة ذاتها والحاجة على

---

[1] قارن بين ما يقوله طه حسين وبين ما يجري في المدارس بالمغرب العربي حيث ما تزال الفرنسية تتحدى العربية أوقاتاً وتدريساً وتزاحمها في الأوقات والبرامج وتؤثر على الطفل في هذه السن المبكرة بل تحدث له تشويشاً ذهنياً في ملكته اللغوية فلا يتقن لغته العربية ولا الفرنسية.

اللغات الحية هو الحاجة إليها لا لشيء آخر: **«حاجتنا إلى اللغات الأجنبية شديدة إذن ولكن اللغات الأجنبية ليست مقصورة على الإنجليزية والفرنسية، كما أن العلم والفن والأدب والفلسفة وكل موارد الثقافة والمعرفة ليست مقصورة على الإنجليز والفرنسيين بل هناك لغات أوروبية حية ليست أقل رقيا وامتيازا من هاتين اللغتين»** [1].

يقول هذا الكلام بعد عام واحد من استقلال مصر وأن من حق بلده أن يأخذ العلم من أي كان بلا مجاملة لأحد أو لبلد أو خوف من آخر. تلك هي كبرياء الوطني الذي استقلت بلاده استقلالا ذاتيا قبل طبع هذا الكتاب بعام واحد، ولكنه لا يساوم في سيادة بلده واللغة جزء من هذه السيادة، اللغة جزء من حرية الوطن فلا حرية حقيقة إذا فرضت لغة أجنبية على الوطن أو شعب وهو يريد أن تكون بلده حرة مستقلة في قرارها: **«وأظن أننا أحرار في أن نتعلم من اللغات الأوروبية ما نشاء وفي أن نستمد العلم الأوروبي والثقافة الأوروبية من حيث نشاء»** [2]. حتى أنه يعتبر تدريس لغة معينة بتأثير من الخارج هو عبودية مهما كانت العلاقة الخاصة بهذه الدولة أو تلك، فيدعو وزارة المعارف المصرية إلى التحرر: **«من هذا الرق وتلغي هذا الإحتكار إلغاء وتبيح في مدارسها لغات أخرى غير هاتين اللغتين»**.

إن إحساسه الخاص باللغة الوطنية، وبالشخصية الوطنية، وبالكبرياء الوطني جعله لا يتسامح مع من يريد الهيمنة الثقافية على بلده لأنه **«رق»** من نوع آخر، وهو لا يفرق بين العبودية الفكرية واللغوية والثقافية، وهذا منتهى ما يمكن أن يقوله طه حسين الثائر على الظلم الإجتماعي والسياسي والثقافي. ثم

---

[1] المصدر نفسه ص: 200 .

[2] المصدر نفسه ص: 201 .

يخوض في حديث طويل عن اللغات الأجنبية وتدريسها والمفيد منها والغير مفيد وصلتها بالبحث العلمي وماذا تحتاج البلاد منها، ويركز على الجامعة ومستوى تدريس اللغات فيها والتخصصات المختلفة علمية بحتة أو إنسانياً خالصة، وما هي اللغات التي يجبر الطالب على دراستها والأخرى التي يعطى له الخيار في امتلاكها ومعرفتها.

أما رأيه بالنسبة للثانوي فيما يتعلق باللغة الأجنبية فإنه يرفض – تدريسها كما عرفنا – في الإبتدائي أما بعده فاللغة الأجنبية تقرر على من يتجه اتجاها رياضيا علميا، أما اللغات القديمة فلمن يتجه إلى الدراسات الأدبية والثقافة العامة، في حين أن الذي يدرس الأدب العربي فإنه مجبر على التبحر في العربية والتركيز عليها. ومن الصعب علينا في هذا البحث أن نعرض لآرائه بالتفصيل في تدريس اللغات وفي المستويات المطلوبة وما تقوم به من وظائف لخدمة الثقافة في مصر، ولكننا نشير فقط إلى أنه ينظر من زاوية وطنية وإنسانية وحضارية إلى هذه اللغات وأنه يرفض أن يقال عن المصري أنه قاصر فكراً ولغة وحضارة، فهو يؤمن بالتفتح على العالم وعلى الثقافات الأخرى وبالتعاون بين الشعوب في شتى الميادين، ولكن ليس على حساب الثقافة الوطنية ولا على حساب اللغة القومية.

ويتصل بوضع العربية واللغات الأجنبية دور الترجمة في الحياة الفكرية والثقافية والأدبية، فهي عنصر أساسي في النهضة وفي تحقيق تقدم علمي ومعرفي للفرد وللشعب معا، وقد أعطاها مكانة عالية رفيعة في حديثه عن الثقافة لأنه يعرف الدور البارز في تنمية الوعي وتعميق الإطلاع على ثمرات العقول والأفكار الأخرى في العالم. وقد مارسها هو نفسه بالتعليق أو عرض المذهب والمناهج والأفكار التي اطلع عليها وحاول أن يقربها إلى المتلقين والمتخصصين على حد سواه.

ويلوم الذين يفخرون بالترجمة قديما وما قدمته الثقافة العربية عن طريقها للحضارة الغربية وللعالم دون أن يعملوا هم أنفسهم شيئاً لترجمة أمهات الأدب والفكر في الغرب، ويكون لونه للمثقفين المصريين والعرب الذين

يشيدون بالعربية ولكن لا يترجمون إليها أو منها. ويلح على التنوع كما وكيفما في الترجمة من شتى لغات العالم وآداب وعلوم الأمم بلا تحديد أو تخصيص. ويضرب أمثلة من الأمم الراقية التي ترجمت فأفادت ثقافتها ومواطنيها ويقول بأنها ليست: **«أرقى من جوهرنا أو امتازت بملكات لم نظفر منها بنصيب وإنما أتيحت لها ظروف لم تتح لنا»** [1].

ولن يكون للترجمة تأثير إلاّ إذا أصبحت جزء اً من الخطة الثقافية وهدفا من الأهداف الحضارية لا رفاهية أو تباهياً أو استهلاكاً، بحيث تكون رافداً لتنمية الثقافة لا يقل عن التأليف والإبتكار . هذه ناحية أولى أما الثانية فهي تغني العربية وتساعد على مرونتها وثالثا ترضي الكبرياء القومي، فدور المترجم للآثار الإنسانية إنما هو: **«لإغناء اللغة نفسها ومنحها ما تحتاج إليه من المرونة ولإرضاء الكرامة القومية»** [2].

وهذا لا يتحقق في الواقع إلا بتشجيع المترجمين بشتى السبل ملديا ومعنويا.

وصيحة طه حسين هذه التي مرت عليها عشرات السنين وأمثاله من الأدباء العرب في المشرق العربي هي التي حثت المثقفين على العناية بالترجمة، فرأينا أمهات الكتب من الروايات والقصص القصيرة وتأليف الحضارة والمدارس الأدبية والنقدية والمصادر الثقافية والسياسية والعلمية والمعجم والموسوعات وغيرها من ركائز النهضة العربية والمعاصرة التي وضعت الأسس الأولى لنهضة ثقافية رائعة يفخر بها العربي – مشرقاً ومغرباً – فأين دور هذه الترجمة في بناء صرح ثقافة عربية أصلية في المغرب العربي؟؟ وهل أفادنا الإحتكاك بالغرب واستفدنا من ثقافته؟

---

[1] المصدر نفسه ص:372.

[2] المصدر نفسه ص:371.

أترك جواب هذين السؤالين لمن يقوم بدراسة موضوعية وميدانية ويضع دور الترجمة في مكانه الصحيح من حياتنا الثقافية. أما هدفي من عرض آراء طه حسين وتحليلها أو التعليق عليها فهو منصب على جانب محدد له علاقة بالثقافة واللغة وصلة ذلك بموقفه منهما، وهو الفرانكوفوني الرائد، ولكني أحيل القارئ الكريم إلى المكتبات في الجزائر فماذا يجد من كتب ترجمها هؤلاء الذين يدافعون عن الثنائية؟وقد حاولت أن أكون موضوعياً في تحليل أرائه والحكم عليها أحياناً دون أن أتأثر بمن وقف معه أو ضده وبقطع النظر عن رأيي فيه وفي روايته لقضايا تتصل بالقومية والوحدة . ولم أفكر في المفاضلة أو المقارنة بينه وبين أمثاله من الفرانكوفونيين أو بينه وبين العروبيين ودور الجميع في خدمة الثقافة العربية، ولكن قصدت إلى تحليل المؤثرات والدوافع والمواقف انطلاقاً من مفاهيم أصلية أو مستعارة، صحيحة أم غيرها، وطنية أم قومية أم إنسانية. فإذا كنت أتعاطف معه في بعض هذه المواقف فإنني في أخرى لا أحبذها أو أوافق عليها بل أشجبها تماما وأرفضها شكلاً ومحتوى خاصة إقليميته المعروفة.

على أن طه حسين يبقى علما ورائدا من رواد ثقافتنا الأدبية العربية وأحد بناة صرحها السامق وأحد المجددين فيها فكرا ومنهجاً ورؤى وذوقاً وتأليفاً وإبداعاً، ويكفيه أنه تعلق بالعربية وبأدبها وأحبها وكان وفياً لها بل أوقف حياته على إغنائها وإذاعتها بين الناس.

في هذا الفصل نحاول أن نستشف رأي الأشرف في مفهوم الثقافة وما يعني بها عندما يتحدث عنها في مقالاته أو في أحاديثه ومناقشاته وكيف ينظر إليها؟؟

وفي هذا النطاق فإنني اعتمدت على بعض مقالاته في المجلات أو على أرائه في بعض الندوات الأدبية التي ناقش فيها الموضوع، ولكنني اعتمدت إيضاً على كتابه «**الجزائر أمة ومجتمعا**»[1].

هذه إذن المراجع التي عدت إليها بدون فكرة مسبقة، ولكن للأسباب التي أشرت إليها عندما اخترته نموذجاً للتطبيق مع طه حسين في نظرتهما إلى الثقافة واللغة. وقد يتبادر إلى الذهن سؤالا: ألا يوجد من يمكن أن يصلح مثالا للتطبيق في الجزائر غير هذا الكاتب؟؟

والسؤال منطقي ومعقول، وأنا لا أنفي أن هناك كتّابا ومثقفين جزائريين كتبوا باللغتين وأنتجوا بهما مع ندرتهم الواضحة، ولكن بعضهم يمكن أن يدرج في التيار العروبي أو الإسلامي أما التيار الوطني الإقليمي الفرانكوفوني الذي يشبه طه حسين فهو ينطبق على الأشرف – على الأقل – في الإيمان بالغرب وبالثقافة الفرنسية أساساً مع الفارق الكبير في النظرة بين طه حسين والأشرف في القضيتين معاً إلى جانب التشابه في مواطن كثيرة كما أسلفت الحديث في بداية هذا الباب.

---

[1] الجزائر أمة والمجتمع- تعريب حنفي بن عيسى- المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر**1938**والعنوان الأصلي للكتاب بالفرنسية هو: **ALGERHE: Nation et societé** فتكون ترجمته إذن «الجزائر امة ومجتمعاً» أما تعريبة بالتعريف فهو من المترجم على ما يبدو ولست أدري لماذا فعل ذلك وهو معروف بدقته في الترجمة ، ولعله أراد أن يجعل من الجزائر أمة مستقلة فعلاً عن الأمة العربية بتوسيع دائرة مفهوم الأمة بحيث لا يبقى التعبير بالنكرة قابلاً للنقاش والتفسير!!

وقبل الكلام عن آراء الكاتب فإنني أوضح شيئاً لا بد منه وهو أنني لم ألتق بالأخ الأشرف ولا عملت معه أو حضرت له ندوة أو مناسبة سواء قبل الثورة أو أثناء ها أم بعد الإستقلال، والمرة الوحيدة التي رأيته فيها عن قرب كانت في الملتقى الثقافي الذي أشرف عليه الأخ المرحوم محمد الصديق بن يحيى يوم كان وزيراً مسؤولاً للإعلام، والذي انعقد بقصر الأمم عام 1967، وألقى فيه الكاتب محاضرة عن الثقافة. وفيما أذكر كان التركيز فيها على الثقافة الشعبية وعلى اللهجة الدارجة، لذلك فإن أحكامي على آرائه هنا في الثقافة واللغة مثل شبيهتها عن طه حسين الذي لم ألتق به إطلاقاً وإن درست وطالعت العديد من مؤلفاته كما درست على تلاميذه الكرام وتتلمذت على سهير القلماوي يوم أن كنت طالباً بجامعة القاهرة.

وكنت أتمنى لو أتيحت لي الفرصة لأعرف آراء الأشرف عن قرب وأن تكون لدي معلومات تساعدني أكثر على فهم آرائه في موضوع هام وخطير. فأنا أعرف أنه تعلم بالجزائر ثم بباريس ومارس التدريس بمستغانم ثم بباريس بثانوية لويس لاقران **LUIS LE GRAND**، كما أنه ناضل في صفوف حزب الشعب وانتصار الحريات الديموقراطية، ثم انخرط في صفوف جبهة التحرير وأشرف على جريدة «**المجاهد**» أيام الثورة، كما كان ديبلوماسياً لفترة طويلة، فضلاً عن أنه كان وزيرا ًللتربية الوطنية فترة محددة من 1977إلى1979 إلى جانب أنه اهتم بالأدب فكتب مسرحية بالعربية لم أطلع عليها وأخيراً أصدر كتاباً آخرا بعد كتابه السالف الذكر.

ومع معرفتي بهذه المعلومات العامة فإنني كنت أود أن أعرف معلومات أخرى – خاصة وعامة – كما عرفنا ذلك عن طه حسين مما كتبه هو نفسه أوكتبه غيره، عن حياته العائلية، وعن ثقافته، عن معاركه في السياسة والثقافة والأدب والحياة عامة، وهذا يساعد الباحثين على تناول مواقفه وأفكاره وأعماله المطبوعة، بينما كاتبنا لا نعرف عنه إلاّ النزر اليسير، ورغم ذلك ورغم قلة المعلومات عنه فإن هذا لا ينقص من احترامنا له مهما اختلفنا معه

في نظرته أو قناعته أو رؤيته للأمور، وأنا أعتبر أنه أغنى الفكر السياسي بمقالاته في هذا المجال وإن لم يغن حياتنا الأدبية لأنه كاتب سياسي في الدرجة الأولى.

ويمكن أن نعمم حكمنا هذا – الجهل بمثقفينا – على غيره من الكتّاب الجزائريين، فعادة يتجنبون البوح بمكنونات نفوسهم أو ترجمة حياتهم أو الكتابة عن تجاربهم الأدبية والثقافية والفكرية، كما أن غيرهم يتحرج في الحديث عن هذا حين يعمد إلى دراسة آثارهم وأفكارهم. ولعل هذا **«مزاج»** جزائري خاص عرف بالجدية والتواضع وقلة الحديث عن النفس والخوف من النقد، حتى أصبح سمة يشترك فيها المثقفون وغيرهم باستثناء القليل النادر. وحتى حين يكتب أحدهم عن الآخر يتجنب النقد والتعمق في التحليل الذي يمس نفسية الكاتب أو تكوينه التربوي والعائلي وحتى الثقافي أحياناً. وهذه قضية أخرى تحتاج إلى من يهتم بها جدياً ويدرسها من شتى النواحي.

وقد حاولت أن أتتبع أفكار وأراء الأشرف في الثقافة وفي اللغة فيما عثرت عليه من مراجع، وأغلبها يعود إلى الستينات، وإن كتب قبل ذلك بعض المقالات في موضوعات تاريخية وثقافية وسياسية، ثم أن هذه المقالات قد تتناول أشياء تتصل بموضوع البحث وقد تكون خارجة عنه، ولكنني عنيت بما نذرت نفسي له وهو مناقشة آراء الكاتب في القضيتين المنوه بهما انفاً. وسأبدأ بالمعارك التي تفجرت بعد الإستقلال والتي أثارها الكاتب وأسهم فيه كتّاب آخرون ومثقفون ومناضلون وقد دامت فترة ليست بالقصيرة. وهذه المعارك هي امتداد لسابقاتها – على قلتها – من القرن الماضي مروراً بالعشرينات وحتى ما بعد الحرب الثانية [1]. فإذا كانت قد توقفت بسبب الثورة فإنها قد عادت من جديد بعد أن تحررت الجزائر، وأصبح النقاش يدور حول مفهوم الثقافة وعن

---

[1]أنظر:«تطور النثر الجزائري الحديث»- عبد الله ركيبي- المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر- 1983- ص:241 وما بعدها.

لغتها وأهدافها ووسائلها وعن الأدب ودوره وغير ذلك من الأمور التي وجدت في حياتنا بعد الإستقلال.

وفيما يظهر فإن البدايات قد انطلقت من المقال الذي كتبه الأشرف في مجلة **«الأزمنة الحديثة»** بفرنسا. فهو الذي فجر هذه المعارك التي شارك فيه كثيرون – كما أسلفنا – وكان عنوانه: **«مستقبل الثقافة في الجزائر»**[1]. وكان الكاتب بوربون من بين من ناقش الكاتب في رأيه وقد علق في مقدمة مقاله على حكم المجلة الفرنسية التي مدحت الأشرف وتنبأت له بمستقبل مرموق في الجزائر بعد الإستقلال، وتعجب من هذه المجلة التي توزع **«الشهادة النضالية»** على أمثال الكاتب الذي نقد رواية بوربون **«الصاعدون إلى الجبل»** باللغة الفرنسية، تحدثنا عن هذا في مكانه من هذه الدراسة.

وقد وجه هذا الأديب اللوم إلى صاحب المقال لأنه نشره خارج الجزائر بدلاً من توجيهه مباشرة إلى الجمهور الجزائري: **«فإنه من الأخلاق الثورية لدى الكاتب الجزائري هو أن يتوجه اليوم قبل كل شيء إلى جمهوره وإلى وطنه عن طريق صحافته الوطنية ودور النشر الوطنية وذلك ليستطيع الشعب الجزائري أن يحكم بنفسه على المؤلفات الفكرية التي تدعي أنها تبلوره...»**[2].

وهنا تدخل المعركة الثقافية في ناحية تتصل بالكاتب نفسه فيطرأ هذ السؤال: هل المثقف الوطني مطالب بأن يعيش في بلده ويكتب عن قرب أ يمكنه أن يمارس ذلك وهو في الخارج؟ وهي قضية أثيرت ومازالت تثار حتى الآن، وجهات النظر فيها مختلفة ولكن بوربون يرفض أن يبقى المثقفون الجزائريون في فرنسا التي حاربها الشعب ويكتبون عنه من هناك خاصة حين

---

[1] نشر المقال أولاً بمجلة «الأزمنة الحديثة» LES Temps modernes بالفرنسية عد **1963** ثم ترجمته المجاهد الأسبوعية إلى العربية ونشر على حلقتين بتاريخ **16** و**23** جانفي **1964** بعد أن نشرته «الثورة الأفريقية بالفرنسية التي أصدرتها جبهة التحرير بعد الإستقلال.

[2] المجاهد الأسبوعي بالعربية **16 /1/1964** و**23 /1/ 1964** ملحوظة: هذه النصوص ننقلها حرفياً كما وردت في «المجاهد» رغم اضطراب الترجمة.

يتحدثون عن الثقافة وهم **«يجلسون على كرسي مريح»** وفي **«مقهى مريح بباريس»** وهم – في رأيه – مثل الماركسين الذين يهمهم أن يعيشوا في نيويورك، ثم أن أمثال هؤلاء الكتّاب الذين يكتبون من الضفة الأخرى عن الثقافة الجزائرية: **«يكافحون ضد حريق الجهل والأمية والجوع بقاذفات اللهب مصوبة على مسافة ألفي كيلومتر...»** [1]. وهو يسخر من هؤلاء **«فمن هذا البعد وهذه المسافة يتفحصون بالمكتب مستقبل الثقافة الجزائرية ويفكرون ويحددون ويصدرون أحكامهم ويفصلون. أما الذين بقوا في الجزائر ليتقاسموا خبز إخوانهم اليوم وأملهم صرحوا بما يفكرون. إن هؤلاء باعوا أنفسهم، مشبوه فيهم، مخدوعون خاضعون...»** [2].

ومراد بوربون يلوم هؤلاء المثقفين على موقفهم هذا، فيرى فيه أنانية مسرفة لأنهم يترقبون أن تتحسن الأوضاع في الجزائر، ثم يعودون ولسان حلهم يقول: **«نحن نرفض البقاء في هذا الوضع، سنعود إلى الوطن حين تعود «الوحدة الوطنية» وحين توجد جنسية حقيقية وحين يكون لدينا الإمكانية للتعبير...»** [3]. فهو يرفض أن ينفي هؤلاء أنفسهم بمحض إرادتهم ويختارون فرنسا. وهم مستعدون إلى العودة حين يصفو الجو وحين ننتصر على البورجوازية **«وحين لا يبقى أميّون وحين يكثر جمهور كبير ليقرأ لهم وحين تكون الديموقراطية الإشتراكية حقيقية حينئذ، لا يبقى لنا سوى أن نبعث لهم تذكرة الطائرة فيسرعون بالمجيء...»** [4].

ولما كان المقال الذي أثار هذه القضية التي تتصل بالمثقف ودوره وبالثقافة ومفهومها هو للأشرف، فإن بوربون يرد على هذا الأخير الذي استشهد بآراء لينين كما في الثقافة ويعتبر أن هذا ليس في محله وأن ما نقل هو تحريف

---

[1] المصدر نفسه.

[2] المصدر نفسه.

[3] المجاهد 1964/01/16 -1964/01/23.

[4] المجاهد 1964/01/16 -1964/01/23.

لآراء لينين كما وردت في البرافدا سنة 1920، ويرى في الأشرف أنه: **«مراقب، أستاذ، متخصص مفكر، منعزل غير منحاز للجزائر الحاضرة»**، ثم أن لينين – على حد قوله – **«قد ربط تطور الثقافة البروليتارية بالعمل وبالكفاح من أجل التغيير»** [1]. والتحريف جاء من حذف هذه الجملة، لأنها لا تتناسب مع وضعه وهو بعيد عن الأرض الوطن وأن التجربة والفعل لا يعوضه الإدعاء بالتخصص في الثقافة أو التعالي عن الواقع، **«لذلك فإن شواهد من لينين لا تؤيد رأيه لأنه أعلم فيها تغييراً وتبديلاً...»** [2].

وبوربون يستشهد بآراء فرانز فانون في الثقافة فإنه طالب ويعلق عليها ثم يعود إلى آراء الأشرف فيها حين سئل عن توجيه الثقافة فإنه طالب بتحديد مفهوم الثقافة والربط بينها وبين الواقع وإعادة التفكير في توجيهها، ولكن بوربون يتأسف لأن الإجابة كانت غامضة ولم تكن صريحة وواضحة ولم يحدد موقفه ومفهومه لها وميدانها التي أشار إليها الأشرف باستثناء حديثه عن العربية واللهجة الدراجة واللغة الفرنسية ويستنكر أن يعتبر الأشرف كتاباً فرنسيين – يذكرهم بالأسماء – قد أسهموا في الثقافة الجزائرية. ويتسائل: هل يمكن اعتبار **«كيلينج»** الذي تغنى بالإمبراطورية الإنجليزية من الثقافة الهندية!

ويرد الأشرف على بوربون في مقال بعنوان **«النقد المطلوب ليس هو النقد المسموح»**، وفيه يبين رأيه في الرواية وفي أسلوب بوربون ويتهمه بأنه يقلّد كاتب ياسين، بل ويزور طريقته في الكتابة ويعتبر أن المناقشة قد ابتعدت عن الموضوع لأن بوربون احتمي **«بالمؤسسة الرسمية»**، ثم بوضح نقلة لنص لينين ويطيل فيما وصفته به **«الأزمنة الحديثة»** التي أطلقت عليه صفات ليس هو قائلها. وفيما يتعلق ببقائه في فرنسا فإنه يعتبر نقد بوربون له **«محزناً وسخيفاً»**. ثم إن الأشرف يدلي برأي خطير للغاية وهو يرد بهذه العبارات: **«وبعد، من المحزن حقاً أن رجال الثقافة وفنانين جزائريين يستطيعون أن يصلوا إلى هذا ويتعلقوا بالرمز السخيف**

---

[1] المجاهد 1964/01/16 - 1964/01/23.

[2] المجاهد 64/2/6.

للحضور في البلد وهم يعلمون أن المثل الأعلى للكاتب وعلمه الخلّاق ووطنيته ووفاءه لأهله لا يمكن أن تحصر بحدود مبنية على اعتبارات قليلة الإقناع والمنطقية». وهذا يثير فنياً سؤلاً هاماً وهو: هل البقاء في الوطن أفضل للكاتب أم الهجرة منه؟

ويواصل رده على من يلومه على البقاء بالخارج والكتابة في الصحافة الأجنبية قبل الثورة وأثناءها وبعدها ويتهم من يسميهم بالرجال الجدد، من يكتبون بالعربية أو الفرنسية، يتهمهم، بالشوفينية، خاصة إذا اتصل الأمر بالحديث بالعربية الشعبية [1].

وقد شارك في هذه المناقشة كتاب آخرون أمثال بشير حاج علي الذي لم يعن بقضية الثقافة ولكنه اهتم بمسائل نظرية في توجيه الثقافة ومفهومها، وعن الأيديولوجية لأنه كاتب تقدمي يعنيه هذا أكثر من الحديث عن اللغة، فاهتم بالتاريخ السياسي للجزائر وبالأدب الشفوي. ويرجع الصراع الذي حدث إلى التمزق في الفكر السياسي وإلى أن التناقضات في المجتمع الجزائري أثناء الإحتلال أدّت إلى هذا الصراع وهي أمور تتصل بالنضال السياسي والثقافي والفكري وما يتصل بالخلق والإبتكار وصلتها بالأيديولوجية وينبه إلى خطأ الإعتماد وحدها [2]

ويتواصل الحوار حول الثقافة فيكتب بوربون مقالاً آخر [3] يرد فيه على الأشرف بعد أن اتهمه هذا الأخير بأنه **«جيدانوف الصغير وبالتعصّب الجزائري»**، ويعتبر أن هذا استفزازاً له وللثقافة الجزائرية، ولكن الذي أثار

---

[1] المصدر نفسه .

[2] أنظر آراءه بالتفصيل في المجاهد 20 /3 /63 .

[3] المجاهد 27 /3 /64.

حنق بوربون إلى جانب هذا أن الأشرف – كما سبق القول– يتوق أن يرى برتراند وأمثاله من الكتّاب الفرنسيين يأخذون مكانتهم **«في النصوص الجزائرية، فهو يتمنى أن يراهم يوماً من الأيام في الكتب المدرسية بصفة شرعية»** [1] وهذا الرأي أغضب بوربون حقاً لأنه صادر عن كاتب وطني جزائري واعتبر موقفه مفزعاً حقاً، لأن هذا الكاتب الذي ذكره الأشرف وأمثاله من الفرنسيين كانوا عنصريين مناهضين لآمال الجزائريين ويقول عنه: **«ولكن لويس برتراند المفكر الرسمي للمعمرين المتطرفين بين سنة 1925 – 1930، والسلف المباشر للمنظمة الفاشية (لواس) الذي لم يكن يرى في الشعب الجزائري سوى «حيوان يحمل عليه الأثاث»، إنه نفسه الذي كان يقول منذ سنة 1911 إنّ الجزائر أرض عدوة...»** [2].

على أن بوربون يناقش قضايا تتصل بالثقافة والأدب ويرى أن موضوع التبادل الثقافي لا يكون له قيمة إلاّ بوجود ثقافة وطنية ذاتية وإلاّ أصبح تبعية للفرد والمجتمع.

فالمهم هو تأسيس ثقافة نابعة من أصالتنا معبرة عن شخصيتنا وأسلوبنا الخاص... [3].

---

[1] المصدر نفسه.

[2] **مجلة «لوموند» العالمية الصادرة أول ديسمبر 1911، نقل عنها بوربون هذا النص وتتمته هي: « فهذا الكاتب الفرنسي هو الذي كان يرى أن القمع الذي سلط على الشعب التونسي غير كاف كما رمى العرب بالوحشية وأن المثل الأعلى له هو «الكاردينال لا فيجري» المستعمر أكثر من أي ضابط آخر ورواياته تنضج بالحقد الأعمى على الجزائريين.» والنص طويل في المجاهد 27 / 2 / 1964**

[3] **المصدر نفسه.**

ويناقش الأشرف في العديد من القضايا المتصلة بالثقافة كما رآها فانون أو الثقافة الوطنية، ويفرق بين الثقافة الرأسمالية والشعبية، أما الثقافة الشفوية فهي شيء آخر ولا يبقى سوى الثقافة المكتوبة [1]

وهناك كتاب آخرون شاركوا في هذه المعارك ومنهم كتاب عرب آخرون [2] واعتبروا أن هجوم الأشرف على المعلمين العرب الذين يتهمهم بعدم الكفاءة غير مبرر فهو يقول لقد تجلى أن كثيرا من المعلمين العرب الذين جاؤوا إلى الجزائر غير أكفاء في ميدان المناهج البيداغوجية الأولية وفي ميدان العلاقات المدرسية والإنسانية إلى درجة أنه يمكن من الآن اعتبار ما يقدمونه من عمل يساوي الصفر... [3]

وفي المناسبة نفسها يكتب الأديب الراحل مالك حداد مقالات تحت عنوان «**المقصود من النقاش**» يرى فيه أنه كون هذه المناقشة كلمة حول مستقبل الثقافة الجزائرية لأنه تحول في نظره إلى مخاصمة ومحاكمة بدلا من الحوار وإقامة الحجة يقول مالك «**إن كون هذه المناقشة قد وقعت باللغة الفرنسية هو حدث جدير بأن يعطينا درساً مخزياً وجدير بأن يجعلنا نضع المشكل في أبعاده العادلة...**» [4].

وقد صدم مالك في هذا الحوار «**الصامت**» أو غير المجدي، لأنه لم يناقش القضايا الجوهرية التي تمس الثقافة مفهوماً وإنتاجاً وتوجهاً ولغةً، ولكنه انصب على قضايا أخرى جزئية، كما أحزنه أن يدور هذا النقاش باللغة الفرنسية

---

[1] المصدر نفسه.

[2] المجاد 1964/3/8.

[3] المصدر نفسه (إن رأي الأشرف هذا استمر معه حتى وهو وزير للتربية الوطنية مما يؤكد أنه يصدر فيه عن عاطفة لا عن الإدراك للواقع، لأن التعاون العربي كان في بدايته آنذاك، وقد ظهرت نتائجه الإيجابية من بعدها ساعدنا على تعريب التعليم في كافة مراحله حتى الجامعية والعالية.

[4] المصدر نفسه.

بوصفه كاتباً عروبياً. والحكم نفسه وصلت إليه مجلة «**الثورة الأفريقية**» حين علقت بأن المناقشة خرجت من النطاق العام إلى الخاص. ويضرب صاحب المقال مثلاً من بلد عربي استطاع أن يتواصل إلى الفكر الإلكتروني مقروناً بالتعريب.

وتتعدد الندوات لمناقشة الجزائرية ومستقبل هذه الثقافة وحاضرها وماضيها مثل تلك التي نشرتها «**المجاهد**» اليومية سنة 1963 وشارك فيها كل من: معمري، آسيا جبار، بوربون، ساحلي، بوديا وسناك وأدارها محمد الصديق بن يحي [1] ودار فيها الحوار حول التعريب واللغة الفرنسية واللغة العربية ومستقبل الأدب الجزائري، ودارت هذه المناقشات بدورها في حلقة مفرغة كما لاحظ مالك حداد، حتى أن بعضهم يقول كلاماً غائماً لا نخرج منه بنتيجة، والبعض الآخر يراها موجودة في القرى والبوادي ويدعو إلى الكف عن التفكير فيها «**علينا إذن أن نكف التفكير، علينا أن ننتظر وستدهشنا حيويتها**» [2]

ويختتم مقاله بهذا التساؤل العجيب: «**علينا إذن ألاّ نطرح السؤال لمعرفة من نكون ولكن لمعرفة من سنكون؟**» [3] وهو يرى أن الجزائريين يتحدثون بالفرنسية وأن مظهرهم مع أوربا ولا داعي لمناقشة الموضوع الثقافي: «**كل واحد له رأيه الخاص والحوار في هذا الموضوع مستحيل** [4]. **وقد تشعب الحديث بعد ذلك، كل ينظر من زاويته الخاصة، ولكن باختصار كان مدار الحوار حول اللغة والتعريب، وقد أسهم محمد حربي في النقاش بمقال تحت عنوان «الجزائر**

---

[1] أنظر الندوة في المجاهد اليومية، يناير 1963. ونشرتها المجاهد الأسبوعية بالعربية في 12 و19 مارس 1964.

[2] المجاهد الأسبوعية 2 أفريل 1964 .

[3] المصدر نفسه.

[4] المصدر نفسه.

وحقائقها»[1]. وهناك مقالات أخرى مثل«الثورة والتعريب»[2]، و«الأدب الجزائري ذو التعبير الفرنسي»[3].

ومهما نعرض لهذه المحاورات فإنه من غير الممكن أن نلمّ بها في الحديث في هذا البحث، لأن هناك ندوات ومناقشات أسهم فيها العروبيون وذوي الثقافة العربية بالقدر نفسه وأكثر ودارت حول الموضوعات التي لخصناها والقضايا الثقافية التي أثيرت في الساحة الوطنية بعد الإستقلال. أحياناً تكون بين شخصين وأحياناً تكون بين تيارين أو توجهين وأحياناً ثالثة بين كتلتين أو فئتين، وهي نابغة من صراعات فكرية وأيديولوجية وأدبية وثقافية وتحتاج إلى دراسة مفصلة مستقلة فيها من التناقض أو التعارض أو الإتفاق يعبر عن المرحلة. كما أنها تعطينا صورة لمستوى النقاش وجوهره والقضايا التي دار حولها، وأن بعضها قد أصبح من التاريخ، بينما بعضها الآخر مازال حيا بيننا مستمر فينا وسيبقى مع الأجيال، خاصة إذا كان يتصل بوجودنا وشخصيتنا ومستقبل ثقافتنا القومية.

وقد يبدو أنني أطلت في عرض هذا المناخ الثقافي الذي ساد فترة الستينات بينما الموضوع هو عرض آراء الأشرف في القضيتين المشار إليهما. ولكن إذا دققنا النظر فسنجد أن خلاصة ما قدمناه يتصل إتصالاً وثيقاً بموضوعنا، لأن الكاتب خاض صراعاً مع كثير من معاصريه، ولأن آراءه بقيت دون تغيير تقريباً منذ أن نشر مقالاته في الموضوع والجزائر في ثورتها العارمة ضد الإستعمار، واستمر الكاتب على هذا بعد الإستقلالية ثم وهو وزير للتربية. ولعل هذا الموقف

---

[1] المجاهد الأسبوعية، 20 ماي 1965 .

[2] المجاهد الأسبوعية، 27 ماي 1965 .

[3] المجاهد الأسبوعية 27 ماي 1976.

الذي يعبر عن قناعة لم يتراجع عنه مطلقاً، وكان السبب في خلافه مع معاصريه من الكتاب والمثقفين الجزائريين سواء فيما يتعلق باللغة أم بالثقافة أم بالأدب أم بالتعليم وغيرها من المجالات التي خاض فيها ولا يزال كثير من الكتاب العروبيين والفرانكوفونيين على حد سواء.

إن الحكم على فكر الكتاب ومذهبه أو توجهه يبدأ من المسلمات عنده أو من اعتناقه لمفاهيم معينة، والأشرف له قناعات محددة فيما يتصل بالثقافة وهي تتماشى مع فكرة السياسي، فمفتاح شخصيته وأيديولوجيته يتجلى في هذا كله، فمادام يؤمن بثقافة جزائرية خاصة وبوطن وشعب هو أمة فإنه لا يتناقض مع نفسه أو موقفه ومثله في ذلك طه حسين أي في النظرة الإقليمية مع فارق كبير كما لاحظنا كذلك التوجه إلى الغرب هو نابع من إيمانه بأن الجزائر أمة لها قوميتها الخاصة ولا يمثل جزءاً من الأمة العربية. وربما لا يرتبط بها بأية روابط ماعدا التاريخ، فأنا لم أجد في كتاباته أية إشارة إلى الارتباط بالعرب أو التنويه بهم كأمة، ماعدا تفوقهم في العلوم أثناء ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، وإنما يتحدث عنهم بشكل عام لا يدل على اقتناع بالوحدة العربية التي لم يذكرها قط فيما أعلم وفيما قرأت له مرة واحدة. فإذا كان يدعو إلى ثقافة جزائرية تتجه إلى الغرب فكيف يدعو إلى ارتباط بالشرق، فالجزائر أمة لا تجد لها بالضرورة مكاناً في أمة أخرى !! وهذا ينطبق عليه وعلى غيره من الفرانكوفونيين الإقليمين الذين أشرنا إليهم من قبل.

إن عنوان كتابه «**الجزائر أمة ومجتمع**» يعبر عن هذه الحقيقة، وربما تأثره هذا كان نتيجة لتكوينه السياسي في المراحل السابقة ومن دراسته وثقافته ومن الأفكار التي استوعبها من الغرب وفرنسا بالذات في رفض «**القومية**» في العصر الحديث، بعد أن أصبحت «**الوطنية**» هي المحرك للشعوب. لذلك فهو مثلاً حين يتحدث عن الوطنية في الأوساط الشعبية الجزائرية يراها تركزت في الريف ولدى الفلاحين ضد «**المعمرين**»، بينما «**القومية**»، حسب

فهمه، التي نشأت في المدن فقد كانت ضد الإستعمار، وفي هذا غموض وخلط واضح بين مفهومي «**الوطنية**» و«**القومية**» كما عرفا لدى الباحثين، وكذلك فإن التفريق بين الريف والمدن فيه تعسف، فالشعور الوطني واحد في الريف أو المدينة وإن اختلفت درجاته، كما أن إطلاقه صفة «**القومية**» على بعض الأحزاب مثل حزب «**الشعب**» هو نتيجة هذا الفهم. وحين يصل إلى «**جمعية العلماء**» فإنه – ونتيجة لتوجهه هذا – ينفي عنها صفة النضال السياسي ويحصر عملها في التربية والتعليم و«**نشر اللغة العربية**» و« **محاربة العقلية الخرافية التي يروجها المرابطون والمطالبة بفصل الدين عن الدولة**»[1]. وبقطع النظر عن أن جمعية العلماء عنيت فعلاً بما ذكر فإن فكرها السياسي كان الدفاع عن العروبة والإسلام وإن شعار بن باديس المعروف فيه ما يوحي بالوحدة وبالإيمان بالعروبة. إلاّ أن الكاتب يتهرب من مناقشة قضية العروبة والوحدة بالنسبة للجزائر ويتجاهل كتابات باديس والإبراهيمي ودفاعهما الحار عن العروبة والإسلام وعن الوحدة العربية.

وحين يناقش الكاتب «**مشكلة الجنسية الجزائرية**» فإنه لا يفعل ذلك انطلاقاً من الإنتماء العربي، ولكن يهمه الجانب الرسمي الوطني فيها في حين أن الفرنسيين أنفسهم عندما حاربوا الأمير عبد القادر فإنهم خافوا من دفاعه عن «**الإستقلال للجنسية العربية التي نحاربها**» كما جاء على لسان الماريشال فالي[2] وربما كانت الإشارة الوحيدة إلى القومية بمفهومها المعروف ما جاء في عنوان فرعي بالكتاب هو: «**أثر القومية الشرقية في الثقافة**»، وذلك عند الحديث عن تأثر حزب «**الشعب**» بهذه الأفكار في «**أول عهده يوم أن كان في المنفى بباريس**»، وصلة مصالي بالأمير شكيب أرسلان فاستفاد الحزب من هذا الوعي

---

[1] الجزائر الأمة والمجتمع ص:77.

[2] المصدر نفسه ص: 316 – 317 (والجدير بالملاحظة أن موقفه هذا كان إبان الثورة التحريرية العظيمة عام1960، وكان المد الثوري قد اجتاح الوطن العربي من محيطه إلى خليجه، وكانت الجزائر في نظر العروبيين قمة النضال ضد الإستعمار ومن أجل العروبة. ومع ذلك كله لا نجد في الكتاب إشارة لهذا الإنتماء ولا إلى نضال الأمة العربية في تلك الفترة).

الجديد الذي عمّ **«أرجاء العالم العربي»**. ومع هذا فإنه يرى فيها **«قومية عاطفية ممزوجة بالدين»** وليست أدري ما دخل هذا في موضوع يناقش تأثّر الحركة الوطنية بالفكر العروبي وأن يذكره بهذه الصيغة ثم إنه يعتبرها **«قومية شرقية»** أي غير مغربية وغير جزائرية فهي إذن خارجة عن بيئة المجتمع [1].

ورغم أن فصلاً كاملاً كتب عن الثقافة واللغة والتعليم وصلة هذا كله بالمجتمع، فإنني لم أعثر فيه على تعريف للثقافة ولو بإيجاز. وقد لاحظنا ذلك في حواره مع المثقفين بحيث يمكن أن نعتبر مفهومه للثقافة هو ما ذكرنا من مساجلات بينه وبينهم ولكن تركيزه على الثقافة الشعبية واهتمامه بها يدل على رفضه للثقافة الرسمية كما تنعت أحياناً. ففي هذا الفصل يبدأ الحديث عن اللغة الأجنبية وحتى في آخر ما كتب فإنه يهتم بالتعليم والتربية كما سنبين ذلك في محله من هذه الدراسة.

والمؤلف يعرض إلى الصراع الثقافي الذي يجري بين الشرق والغرب بالنسبة للدول المغلوبة على أمرها ومنها الجزائر، فإن المثقفين **«الحائرين بين الإتجاه إلى الشرق أو إلى الغرب»** مرد حيرتهم إلى فكرة الأصالة والمعاصرة. ويقارن بين الثقافة الأجنبية في الجزائر وبين الثقافة الوطنية، ومنها الشعبية منذ الإحتلال حتى تاريخ كتابه مقاله بنظرة تاريخية فيها أحكام جيدة عن الوضع الثقافي للجزائر تحت الإحتلال الفرنسي. وبدلاً من أن يناقش مفهوم الثقافة – كما هو معروف – ثم يفصل القول في أنواعها وألوانها وأدواتها، فإنه ركز على ما أسماه **«بالثقافة السياسية في أدبيات الحركة الوطنية وهي ثقافة تهتم بالنضال السياسي ضد الإستعمار وربما لأنه لم يجد هذه الثقافة التي تتمثل في الإنتاج الفكري والأدبي فاضطر إلى الخوض في الجانب السياسي حتى أنه**

---

[1] المصدر نفسه ص: 448 .

يعتبر أن الثقافة السياسية هي التي تكشف الأبعاد الحقيقية للثقافة الملتزمة أو الثقافة بمعناها المتعارف عليه» [1] ويكون هذا الحكم صحيحاً إذا كانت هذه الثقافة قد اتسعت وشملت مجالات كثيرة ثم تطورت، ولكن هذا لم يتحقق في ظل الإحتلال الفرنسي الذي حاول القضاء عليها، ومن يعود إلى تاريخ الثقافة الوطنية عندنا سيجد أنه بعد قرن ونصف قرن تقريباً ولغاية 1977 لم يطبع من الكتب الأدبية باللغة العربية أكثر من 96 كتاباً [2]، فأين إذن مجال القول في ثقافة شاملة ذات محتوى ملتزم إلاّ إذا سلمنا بأن الثقافة السياسية هي المرتكز لها، وهذه نفسها لا وجود لنصوص ومؤلفات مطبوعة لها إبان عهد الإحتلال ومن غير نصوص وبحوث ودراسات تبقى مجرد بدايات «جنينية» لثقافة غير مكتوبة.

وحتى باللغة الفرنسية فأين هذا الإنتاج قبل الإستقلال ورغم أن الفرنسية كانت هي السائدة؟ فالمؤلف – وهو صادق – يرفض التقليد في الثقافة كما يرفض الثقافة «المظهرية» أو «الشكلية» وله الحق في ذلك، وهو يهاجم الذي يراه ألّم «**بقسط من الثقافة الأجنبية ذات الطابع السياسي كما أنه يتمثل في الحرص على تقليد أمة أجنبية في أفكارها وأذواقها وأخلاقها وطرقها في القول والعمل ولغتها، بل قد تسول له نفسه أن يقلد الطبقة المحظوظة من تلك الأمة»** [3].

---

[1] المصدر نفسه ص: **443** .

[2] لقد قمنا بمسح شامل لكل ما طبع في الجزائر من قصص وروايات ودواوين ومسرحيات ودراسات أدبية حتى التاريخ المذكور فوجدنا 96 كتابا من هذه الأنواع كلها وقد قام بهذا المسح مجموعة من الباحثين منهم المرحوم محمد مصايف ناصر ليلى قريش محمد سعيدي وغيرهم هذه البيبليوغرافيا موجودة لمن يريد الإطلاع عليها وقد كان لي شرف رئاستها .

[3] المصدر نفسه ص: **420** .

والثقافة الوطنية هي التي تحمي الفرد والمجتمع من الذوبان في الغير وتعصمه من التقليد الذي يعوق نمو الشخصية الوطنية والوعي الوطني. وهو يقر بوجود: **«ثلة من المثقفين السياسيين الذين كانوا بحكم المرتبة الإجتماعية والوسط الذي عاشوا فيه والمثل العليا التي اعتنقوها، كانوا معرفين بانحيازهم للغة الفرنسية وما فيها من قيم وأفكار، كذلك ما فيها من أحاسيس ونظريات تاريخية في التعبير»** [1].

غير أن الوطنية الجزائرية النابعة من الشعب – متمثلاً في الكادحين – **«قد استماتت في الدفاع عن الثقافة الوطنية حين أحست بالخوف من الذوبان في البوتقة الفرنسية»** [2].

ثم ينتقل إلى مقارنة الثقافة العربية في ماضيها الزاهر وبما وبين ما تعاني منه في الحاضر، فيشيد بماضيها وبما قدمته للإنسانية من علم وفكر وفلسفة ويستشهد بعلماء بارزين أثروا في الثقافة الإنسانية وفي الحضارة الأوروبية رغم أنه يعتبر تأثير العرب في إسبانيا ووجودهم فيها احتلالا: **«فإسبانيا التي عاشت تحت الإحتلال العربي منذ مدة طويلة ما كادت تسترد الحكم حتى أخذت – عن طريق الترجمة والتبسيط – تنهل من تيار العلوم العربية والفكر العربي وتعمل على نشرها في أنحاء شبه الجزيرة الإيبيرية وأوربا الغربية** [3] **ألا يذكرنا هذا بأحكام المستشرقين على فتح العربي سواء للمغرب العربي أم لإسبانيا؟!».**

---

[1] المصدر نفسه ص: 220 .

[2] المصدر نفسه ص: 220 - 226 .

[3] المصدر نفسه ص: 437.

ويعني الأشرف بالثقافة من حيث الفئات أو الطبقات، بعبارة أخرى يعنيه الجانب الأيديولوجي فيها ولمن توجه أو من يمثلها، فالنقص أو الضعف الثقافي سببه: «**ما تتميز به العقلية البورجوازية الصغيرة من خصائص تلك العقلية التي كانت تسير الحركة «القومية» عندما آل أمرها إلى الإنحلال قبيل اندلاع الثورة حتى يقول: فهذه الحركة استعاضت منذ البداية عن اتجاهها العمالي الصرف بأفكار وشعارات مستمدة من الحركة القومية الشرقية...**»[1] فما يهمه دائماً هي هذه الثقافة السياسية الأيديولوجية سواء عبرت عن العمال أم عن البرجوازية الصغيرة التي تأثرت «**بالشرق المصري**».

ونحن نسأل: لو أنها تأثرت بالشرق «**الماركسي**» أو الغرب الأوربي البورجوازي، هل كان صورة الثقافة ستتغير؟؟ يمكن أن يحدث هذا لو أن ظروف الجزائر كانت مختلفة أثناء الإحتلال ولم يكن استعمارا استيطانيا اعتبر الجزائر جزءاً من بلده. ولكن الواقع أن الثقافة الوطنية – طبعاً العربية – كادت أن تتحطم نهائيا بفعل هذا الإستعمار وليس بفعل البرجوازية الصغيرة سياسة كانت أم أدبية أم علمية – وحتى بعد الإستقلال، فإن هذه الطبقة التي يتحدث عنها لم تهتم بالثقافة كقيمة لأنها كانت فرانكوفونية لغة وثقافة وتوجهاً، وهذا السبب الحقيقي في جمود الثقافة الوطنية، لأنه من المستحيل أن ننمي ثقافة قومية عن طريق لغة أجنبية وبواسطة تصورات وأذواق وأفكار وجدت في بيئة غير بيئتنا. ثم إنه يقول هذا الكلام بعد عامين من الإستقلال، وكنت أطمح أن أرى برنامجاً محدداً للنهوض بالثقافة، يضعه الكاتب بخبرته وتجربته التي قد يستلهمها المشرفون على الثقافة فتعينهم على تصور واضح لها ولأهدافها، ولكنه كتب ما كتب انطلاقاً من كونه رجل السياسة لا رجل الثقافة وهذا هو الفرق بينه وبين طه حسين.

---

[1] المصدر نفسه ص: 447.

وقد كنت أتمنى أن أراه قد تطور في نظريته إلى الثقافة بعد الستينات حين كتب مقاله «**مشكلات التربية والتعليم**»[1]، ولكنه في هذه المرة عنى بالتربية والتعليم وبالحديث عن «**المعربين**» و«**المفرنسين**» وباللغة العربية والفرنسية وكرر آراءه نفسها عن الثقافة بدون تحديد ولا مفهوم معين.

فمنذ البداية يهاجم «المعربين» الذين يعتبر دفاعهم عن التعريب إنما هو مجرد كلام بلا أي جهد يفيد التعريب والعربية وتناسوا واجبهم: «**ومن بينهم هؤلاء يجدر بنا أن نذكر بكل أسف بعض مؤيدي التعريب ومسيريه الذين راحوا يقتنعون بالشعارات وبما قرر نهائياً في صالح اللغة الوطنية والرفع من مكانتها وتعميم استعمالها وتناسوا أو تجاهلوا ضرورة إصلاحها والنهوض بنوعية تعليمها وتناولها المستمر بشتى الوسائل والأساليب التربوية الناجعة**»[2].

ومن المنطقي أن يربط بين التعليم والثقافة، لأنه لا ثقافة حقيقية من دون تعليم جدير بهذا الوضع، ويعيد إلى الأذهان فكرة الثقافة ومنتجيها ومتلقيها والطبقات التي تشرف عليها، ويهاجم الذين يريدون أن يستعيدوا ثقافة عميقة بإسم الأصالة، وأن البرجوازية التي سيرت الشؤون التربوية أهملت الجانب البيداغوجي في التعليم. ولم نعرف بدقة رأيه فيما هو مطلوب من التعليم وخاصة ما له صلة بالفئات المحرومة من الثقافة ويكرر رأيه في الأشقاء الذين أرادوا أن يساعدونا فلم يستطيعوا ذلك. وهو لا يتصور سوى طريقين إما «**أن نعتمد على ثقافة بائدة واهنة ضعيفة، وإن كانت غنية إجمالاً، فننقلها للناشئة بواسطة تعليم منظم ولكنه عميق على غير غرار الثقافة نفسه، وأما أن نعتمد على تربية مدرسية حديثة تتميزٌ بالدقة والعقلانية، وهذه التربية هي التربية التي سوف تخلق على المدى المتوسط أو البعيد ثقافة جديدة**»[3].

---

[1] أنظر: مجلة «الثقافة» الجزائر أكتوبر، نوفمبر 1977 – ترجمة حنفي بن عيسى.

[2] المصدر نفسه – ولكن النص هنا من المقدمة التي كتبها الأشرف باللغة العربية للمقال المترجم.

[3] المصدر نـ ـه.

لم نعرف بعد ماهية هذه الثقافة وما لونها وما شكلها وكيف يمكن أن ننفذها من المحنة التي تتخبط فيها؟؟

إن الكاتب تهمه الأحكام العامة ووصف الداء لا وصف العلاج، فالخطاب دائماً سياسي تربوي علمي موضوعي يهدف إلى اقتراح حلول ومناهج معينة لتطوير هذه الثقافة المنشودة. وقد رأينا إنه قد تولّى وزارة التربية بعد ذلك فماذا فعل ؟؟ لقد أقصى العناصر المعربة من الوزارة وحملهم مسؤولية ضعف التربية والتعليم وكأنهم المسؤولون عن ذلك، بينما المسؤول الأول هو الظروف القديمة أثناء الإحتلال، ثم إسناد المسؤولية إلى غير المؤهلين لها خاصة من الفرانكوفونيين الذين احتكروا الإدارة والتسيير في الوزارة وفي المؤسسات التابعة لها وسنعرض لهذا في الفصل القادم. ولكن يمكن أن نختم هذا الفصل بالقول، إن الكاتب اهتم بالجانب السياسي لذلك فهو يستشهد في مقاله السابق بنصوص من الميثاق الوطني سنة 1976 في تحديد توجه الثقافة والتربية والتعليم والهدف منهما وهوية وأيديولوجية الدولة في تلك المرحلة.

ونحن نعرف أن النصوص مهما كانت جميلة ودقيقة وبلاغية وعلمية فلن تخلق تربية ولا تعليماً ولا ثقافة. الإعتماد على النصوص والإستشهاد بها وترك محتواه وتطبيق ما جاء فيه هو سبب أزمة التربية والتعليم والثقافة عندنا، لأننا حتى هذه اللحظة ما زلنا نأخذ ونعيد في هذه الثقافة، وكل يتصورها حسب تجربته الخاصة، وبذلك وقعنا في المحظور وفي الديماغوجية التي تحدث عنها الكاتب. ولكن هذه الديموغجية سببها الفرانكوفونية والسياسة لا المثقفون العروبيون أو المعربون كما يحلو له ترديد ذلك وتحميلهم مسؤولية ما حل بالثقافة والتربية. فلو عكس القضية ونظر للأمر بغير عاطفة للمس بؤرة الداء وعرف الحقيقة التي تجلّت الآن بعد أحداث أكتوبر 1988 ولو وضع هو نفسه لبنة لتعريب حقيقي في المجال التربية والإدارة لجنبنا كثيراً من المآسي التي تحدث عنها، ولكنه دخل الوزارة وخرج منها ولم يترك أي أثر إيجابي يمكن أن نذكره، كما فعل طه حسين مثلاً حين تولى الوزارة فأحدث ثورة في

التربية والتعليم وما زال الناس يذكرونها ويرددون كلماته وعباراته ويشيدون بمواقفه ونضاله من أجل ثقافة عربية أصيلة.

والخلاصة، أن الأشرف رغم جهوده في خدمة الثقافة فإنه بقي منظراً سياسياً أكثر من أستاذاً في المجالات التي تناولها بالبحث والتحليل، ويكيفه أنّه نبه الأذهان إلى الخطر، حسبه هذا وإن لم يحقق هو نفسه شيئاً عملياً لهذه الثقافة التي نتحمل جميعاً المسؤولية تجاهها وتجاه الأجيال الجديدة في المستقبل. وقد كان الأشرف شجاعاً في التعبير عن آرائه في هذه القضية وهذا نقوده له سواء اختلفنا معه أو اتفقنا. ولكن لا يتم رصد آرائه في الثقافة إلاّ بالحديث عن العربية والتعريب مما نفرد له الفصل الرابع.

أعتقد أن الآراء التي أجلى بها الأشرف عن اللغة ودورها في تكوين تربية سليمة وثقافة متطورة هي الأوضح في كتاباته القديمة والحديثة، وأن رأيه في التعريب خاصة من الجانب النظري يكمل نظرته للتربية والتعليم، وأن مواقفه الفكرية والثقافية والأيديولوجية تتضح أكثر فيما كتب من مقالات وتعليقات وخاض من صراعات ثقافية كتابا أم مسؤولاً.

والحقيقة أن الجيل الذي عاش الثورة – مثلنا – يتأثر وينفعل بكتابات الذين يدافعون عن الهوية العربية أو يهاجمونها، يساندون التعريب أو يعارضونه، لأننا عرفنا الإستعمار ومحاربته لهويتنا ولأصالتنا ولحريتنا. لذلك فإن استجابتنا لما يدور حول هذه القضايا إنما يرجع إلى الوضع الذي عشناه تحت نيْر الإستعمار الفرنسي كما عاشته ثقافتنا التي حرمنا منها كما حرمنا من لغتنا القومية.

فعندما تهاجم العربية – سواء عن نية طيبة أم سيئة – فإننا ننفعل ونتأثر خوفاً عليها من المنتسبين إليها كما خفنا عليها من غيرهم، كما أن الهجوم على هويتنا العربية الإسلامية يكون بالقدر نفسه والشعور ذاته. وهذا ما يفسر انفعالنا يوم أن نشر الأخ الأشرف مقاله الذي أشرنا إليه في الفصل السابق وأحدث ضجّة في الأوساط **«العروبية»** وما زلنا نذكر هذا وسنبقى لأنه صدر عن كاتب نحترم نضاله وثقافته، ولكنه صدم أعماقنا وليته حقق شيئاً مما قال فيه، لكنّا قد وجدنا مبرراً لموقفه تجاه العربية والمعربين والعروبيين، ولكنه للأسف لم يزد على رمى حجره في بحيرة متفجرة أو زاد حطبة جديدة في نار قديمة فأحرق أطرافنا ولم يشعل نار المعرفة في النفوس فكان ذلك المقال سلبياً، ولم يبق منه للتاريخ شيء يذكر سوى ما فيه من غمز ولمز وإحباط للنفوس إن كان هذا مما يبقى في التاريخ، وبقي التعريب وبقيت العربية يعانيان من موقفه حتى الآن رغم مرور ما يقرب من عقد ونصف عقد من الزمن.

وبمجرد صدور المقال، سارع كاتب جزائري للتعليق عليه هو عبد الله شريط في سلسلة من المقالات عرض فيها بالتفصيل إلى الأفكار التي أثارها الأشرف فيما يتعلق بالعربية والفرنسية، بالتعريب والتربية والتعليم [1] وبعد سبع سنوات من هذا التاريخ يكتب أديب روائي هو خلاصي جيلالي مقالا يعود فيه إلى النقاش الذي دار حول مقال الأشرف ووضع العربية والتعريب [2] ولكن ما نـ يناقش بصورة مستفيضة هو ما ورد فيه من أحكام وآراء مثقلة بالتحامل عن المعربين، كما أن حديثه عن العربية كان كحديث الملاحظ من بعيد أو التفرج على ما يجري وليس من همه أن يغير الوضع المقلوب فيجعل العربية سيدة على الأقل في وزارته ولا نقول في غيرها!! لكن الأمر كان عكس هذا تماما لماذا؟؟

علينا أن نعود إلى رأي الكاتب وقناعته وبؤرة تفكيره وتوجهه، وتفسير هذا يكمن في إيمانه **«بالإزدواجية»** أو **«الثنائية»** اللغوية، فهذا هو مربط الفرس كما يقال. وهو يلح دائماً على أهمية التقاليد في الإتجاهين الثقافيين معا: الفرنسي والعربي. وإذا تحدث عن هذين المجالين فإنه يعتبر الثقافة الجزائرية ذات لسانين كما جاء في حديثه عن الثنائية منذ القديم فحكمه ينصب: **«على واقع الثقافة الجزائرية العربية اللسان بالمقارنة مع الثقافة الجزائرية الفرنسية اللسان...»** [3]. وحين يتسامح في هذه الإزدواجية فإنه ينظر إليها بإعتبارها ضرورة فرضتها الظروف لا اختياراً حتمياً **«ولهذا فربما كانت الضرورة لا الإختيار والتصميم هي التي تفرض اليوم نوعاً من الإزدواجية اللغوية المؤقتة وذلك من**

---

[1] انظر: الشعب ابتداء من 29 / 8 / 1977 إلى 6 / 9 / 1977.

[2] الشعب 22 ماي 1984 وفي المقال تحليل لوضع العربية والثقافة أثناء الإحتلال والصراع الثقافي الذي تعيشه الجزائر وانتشار الفرنسية بعد الإستقلال والكتابة بها أكثر من ذي قبل وفيه أحصائيات دقيقة عن الكتب التي تقدم للمؤسسة الوطنية للكتاب باللغتين والمفارقة العجيبة في هذا الأمر خاصة وقد كان الكاتب مديراً للنشر بالمؤسسة.

[3] الجزائر الأمة والمجتمع ص: 441 وانظر ايضا الجزائر ثقافات وثورة ص: 183

أجل تجميع ما تحتاجه من الوسائل العقلانية والمستحدثات التربوية التي يجب أن تستوعب في المستقبل»[1] ورغم أننا نشكك في هذه الضرورة فإننا لكي نساير رأيه نسأل: كيف يمكن الخروج من هذه الثنائية المفروضة؟؟ لقد خرجنا منها في المدرسة الأساسية نسبيا، ولكنها مع ذلك ما زالت في الإبتدائية حتى الثانوي، ونحاول اليوم أن نخرج منها في تعليم العلوم الدقيقة. ولكنه لا يشير إلى الإدارة أو إلى المناخ العام والمحيط الذي يحيط بالمدرسة والعائلة وغيرها وهذا، مما يجعل الإزدواجية هنا غير دقيقة، لأن العربية تعاني من هذا كله وتعاني من عدم وجود خطة واضحة دقيقة كالتي يؤمن بها الكاتب ونحن معه ولكن أين هذه الخطة؟؟ إنه لا يعير اهتماماً لا بالنسبة للحياة العامة ولا بالنسبة للإعلام أو غيرهما، فقط يهتم بالتعليم وهذا جزء من كل بطبيعة الحال. وعلى كل فإن طه حسين يرفض **«الإزدواجية»** شكلاً ومحتوى كما رأينا في حديثه عنها وعن أثرها في التربية وتكوين الشخصية الوطنية.

وفي تقديري فإن موقف الأشرف من الإزدواجية يتصل بنظرته إلى اللغة ووظيفتها فهو يعتبرها **«أداة محايدة»** لا تحمل فكراً أو لا تتأثر بفكر أصحابها والمتكلمين بها، وهذه قضية ناقشها وعرفنا أنها فكرة أصبحت من الماضي الذي يسوّي بين اللغات ومن ثمة فإن وظيفة اللغة ليست التعبير عن الشخصية والقومية ولكن لنقل العلم والمعرفة والقضاء على الأمية، وهذا الفهم هو الذي نراه لدى الأشرف وهو يتناقض مع نفسه حين يعتبرها مقوماً من مقومات الأمة والمجتمع على السواء **«فاللغة بهذا الإعتبار ليست من مقومات الأمة فحسب بل هي كذلك – وبالدرجة الأولى – من مقومات المجتمع النشيط الذي لا يريد أن يضمحل... إلى أن يقول: واللغة تعد من خصائص الأمة والمجتمع معاً باعتبار أنها – كقيمة من القيم الخصوصية والمحايدة في نفس الوقت – تحتوي على**

---

[1] مجلة الثقافة أكتوبر، نوفمبر1977.

العنصرين: المعنوي والحسي بنفس المقدار وإن كان ارتباطهما بالمجتمع أوكد من ارتباطهما بالأمة إذ توجد أمة لها ثقافة مزدهرة مثل الهند مع أن لغتها الرسمية هي لغة أجنبية» [1].

كما أنه في مقاله يعتبرها: **«أداة وظيفية ومحايدة»** وقد سبق أن عبّر عن هذا الرأي وكرره في الكتاب وفي مناسبات مختلفة، فكيف تكون **«محايدة»** وفي الوقت نفسه **«عنصراً جوهرياً»** في تحديد الشخصية الوطنية والقومية؟؟!

فالفرنسيون أنفسهم لا ينظرون إلى لغتهم هذه النظرة وإلاّ لما اعتبروها وطناً وجنسية وثقافة ومقوماً بارزاً لشخصيتهم وخاصية متميزة لقوميتهم التي تختلف عن بقية القوميات الأوروبية، ولما قضوا على اللهجات الخاصة في بلادهم منذ قيام ثورتهم سنة 1789 . وإذن فإن الشعوب تتميز بلغتها أساساً لا بشيء آخر. هناك عناصر أخرى تسهم في بلورة هذه الشخصية وتحديدها ولكن تبقى اللغة العنوان الأكثر بروزاً في تمييز أمة عن أخرى وشعب عن آخر، فعندما يذكر شعب من الشعوب يتبادر إلى الذهن فوراً اللغة التي يتحدث بها أبناؤه بل ينتسب بها إليها، فالإسباني هو الذي يتكلم الإسبانية والإنجليزي هو الذي يتكلم الإنجليزية والألماني والفرنسي والروسي وهكذا كما سبق لي أن ذكرت في مرة سابقة.

وأعتقد أن الذي ذكره الكاتب من أن اللغة **«تحتوي على عنصرين: الحسي والمعنوي»** هو بالضبط الميزة التي تنفرد بها لغة على أخرى، فالحسي هو هذه الحروف المعينة والكلمات والمصطلحات والقواعد والأساليب والبيان فيها، أما المعنوي فهو تفكير أصحابها وتاريخهم وثقافتهم وعقلهم وتراثهم. وهذا التميز لا التمايز هو منشأ الفروق بين الأمم وهذا ما أفهمه من قوله.

---

[1] الجزائر الأمة والمجتمع ص: **416**.

وليس صحيحاً ما قاله من أن اللغة تعبر عن المجتمع لا عن الأمة وضرب المثل بالهند فاللغة هي التي تعبر عن الأمة من حيث الإنتماء وهذا من أسباب إختلاف الشعوب وتميزها عن بعضها البعض، وفي الوقت نفسه تعبر عن المجتمع الذي يتكلمها ويعمل بواسطتها، أما أمثال الهند فهو موضوع آخر لأنه تعبير عن وضع شاذ يتصل بالثقافة لا باللغة من حيث أنها جنسية أو تعبير عن قومية معينة، ولهذا استخدمت الهند اللغة الإنجليزية لتعداد لغتها بل ولهجاتها التي تعد بالعشرات نظراً لتعداد الأعراق فيها، ثم إنها تعمل على بلورة لغة حيّة، والدليل أن الذين استخدموا **«الأردية»** في الهند أو في الباكستان واستخدموا الحروف العربية أصبحوا بها قادرين على التأليف والكتابة والتعبير عن أحاسيسهم ومشاعرهم وأفكارهم.

فالعوامل الخارجية قد تقوم بدور مثبط أو مضر باللغة بل قد تقضي على لغة أقوام، وهناك مثل ساطع هو الفيليبين البلد الذي فقد لغته المكتوبة تماماً واتخذ من الإنجليزية لغة للحديث والتأليف والمعاملات اليومية ونسي لغته الأصلية، بحكم أن الإستعمار الأمريكي فرض لغته عليه حتى أصبحت لغة رسمية في كل شيء، ولم يبق منها سوى لهجات لا تأثير لها في حياة المجتمع الفيليبيني، وهو اليوم يحاول أن يستعيد لغته وتراثه ويبحث عن الطرق التي تساعده على استرجاع هذا المقوم الهام والخطير في شخصيته الوطنية.

ولماذا نذهب بعيداً؟! إن الجزائر مثل حي على وضع اللغة فقد حاول الإستعمار الفرنسي القضاء على لغتنا بالقانون والقرار والإضطهاد والمصادرة والتعليم الإجباري القسري وغيرها من وسائل نعرفها جميعاً، مما جعلها تضعف إلى حد التجمد في القرن الماضي وطغت العامية على الحياة وانزوت العربية في مواطن نائية، ولولا بعض المثقفين في ذلك القرن ثم قيام **«جمعية العلماء المسلمين الجزائريين»** في القرن الحالي لما بقي من هذه اللغة إلا شبح ضئيل. ولكن لحسن الحظ أن إيمان الشعب بلغته عقيدة وقومية وقيام الثورة وتحقيق الإستقلال كل هذا رد لها الإعتبار كلغة قومية، الأمر الذي جعلنا الآن نبحث عن الطرق التي

تؤدي إلى تطورها وتساعدها على أن تكون لغة علم وتقنية بعد أن عبرنا بها فناً وأدباً وعلوماً إنسانية مختلفة، لولا ذلك لأصبحنا في وضع لا نحسد عليه!!

كما أنه ليس صحيحاً أيضاً قول الأشرف أن الجزائريين اضطروا لتعلم الفرنسية لأن الحاجة دفعتهم إلى ذلك دفعاً، فهو ينفي أن يكون الإستعمار الفرنسي قد فرض عليهم تعلم لغته [1]. والحقيقة هي هذه أن الإستعمار بمحاربته للعربية أجبر الجزائريين على تعلم لغته، ثم من الذي تعلم هذه اللغة؟؟

في القرن الماضي، هناك فئة محظوظة قليلة، وهي التي ارتبطت مصالحها بمصالح فرنسا تعلمت هذه اللغة ترهيباً أو ترغيباً أو تطوعاً، لأنها كانت تراعي مصلحتها أولاً وأخيراً، أما باقي الشعب فقد رفض هذه اللغة والنصوص التي تؤكد هذا كثيرة ومعروفة كتبها جزائريون وفرنسيون ولا تحتاج منا إلى تعليق.

وكذلك يمكن أن نقول عن القرن الحالي، فإن هناك فئة أخرى استخدمتها وخاصة أولئك الذين استخدموها في الكفاح السياسي أو اضطروا إليها بحكم ضرورة الحياة، وهذه فئة أيضاً لا تقوم حجة على وضع اللغة العربية والفرنسية معاً. والإحصائيات موجودة، ويكفي أن نذكر أنه عند قيام الثورة لم يكن لنا في الجامعة ألف طالب! وهناك مثل آخر وهو أن المؤلفات بهذه اللغة في الأدب والعلوم الإنسانية قبل الثورة وحتى الإستقلال لا تتجاوز عدد أصابع اليد كما يقال، فضلاً عن التأليف في العلوم الدقيقة. وطبعاً فإن المحافظة على البقاء ليست – كما يقول الكاتب – هي التي دفعت الجزائريين إلى استعمال هذه اللغة لأنه: لو أن هذا التعليم كان بلغة «البنتاغون» أو لغة «الزولو» لرحّب به الناس نظراً للحاجة الماسة إليه وهذا الأمر يدل على أن الشعب العريق في الثقافة لا يتحمل الفراغ الثقافي ولكي يشبع هذه الحاجة فهو لا يرى مانعاً من استعارة لغة أخرى بدلاً من لغته التي أصبحت محرمة عليه كأداة للتعبير في المدارس [2].

---

[1] المصدر نفسه ص: **413** .

[2] المصدر نفسه ص: 416.

فهذا حكم فيه قسوة على مشاعر الشعب الجزائري بل فيه اجحاف واضح في حق الوطنية، وفي تقديري أن الشعب الجزائري الذي أحس بالفراغ الثقافي حقيقة – بعد أن حوربت لغته– لم يعمد إلى الفرنسية لملء هذا الفراغ بل عمد إلى اللهجة الدارجة، لجأ إلى أدبها وثقافتها وتراثها وما بقي من العربية الفصحى، هذا هو الذي ملأ حياته الروحية والثقافية لا الفرنسية، لسبب بسيط أنها ليست لغته القومية ولا تحقق ذاته أو وجوده، وهو لم يتنازل عن لغته ولم يستعر لغة المحتل عن اختيار بل كافح من أجل العربية طوال عشرات السنين بمختلف الأساليب والوسائل المتاحة له وتعرض للسجن من أجل هذا. يكفي أن نعود إلى صحافة جمعية العلماء لنرى كيف كان المعلمون وحفظة القرآن الكريم يتعرضون للنفي والسجن والعقاب من السلطات الفرنسية. إذن فإن الجزائريين لم يفرطوا في لغتهم إطلاقاً ولم يستعيروا الفرنسية وإلا أصبحوا أهل الفيليبين الذين تحدثت عنهم منذ قليل، وهذا يتناقض مع الواقع والتاريخ والحقيقة التي غابت عن المؤلف.

أما بعد الإستقلال فإن الظروف الداخلية والخارجية هي التي فرضت الفرنسية على الشعب ونشرتها بصورة لم يتوقعها، وقد اعترف بهذا باحثون في المشرق والمغرب، لأن الحكم في أقطار المغرب العربي بعد التحرر هو الذي مكّن للفرنسية في هذه الأقطار بصورة لم تعهدها من قبل!.

إن التبرير بالفراغ غير منطقي، ولو عممنا الحكم قد لا نجد من يكافح من أجل تطوير لغته في البلدان التي ابتليت باحتلال الأجنبي لها. فالشعب الجزائري لم يتعلم الفرنسية كي يعوض بها عن **«ثقافته البائدة الفاسدة بثقافة أخرى يتوصل إليها عن طريق لغة أجنبية غير متاحة للجميع»**[1]. فهذا حكم لا ينطبق على الجزائر لأنها لم تختر الفرنسية قبل الإستقلال أو بعده كلغة ضرورية، ولم ترفض ثقافتها «البائدة الفاسدة». كما أن شعبنا لم يتذبذب أيضاً في موقفه من اللغة بين الماضي والحاضر. ففي الصورتين اللتين تحدث عنهما

---

[1] المصدر نفسه ص: 420 .

المؤلف بالقياس إلى «الغالب والمغلوب» لا ينطبق الأمر على الجزائر لأن نضال الشعب الجزائري كان من أجل حريته بما يتضمنه هذا من دفاع عن المقومات الأساسية لشخصيته: أرضاً ولغة وعقيدة وتاريخاً وإنساناً.

غير أن القول بأن الشعب الجزائري قد اضطرته الظروف إلى المقارنة بين **«لغة الدنيا ولغة الآخرة»** وأنه بعد أن فقدت العربية **«مكانتها الأولى»** أخذ الناس **«يقارنون بين اللغتين ولكن بدون تفضيل أو اختيار لهذا أو تلك، فبدا للبعض منهم أن الفصحى فقدت مكانتها في مجالات كثيرة وعلى الأخص مجال التعليم الإجتماعي وأخذوا بعد ذلك يفكرون على مضض في البداية ثم بحذر متناقض في تعليم أبنائهم تعليماً فرنسياً، مما سوغ لهم هذا الحل أن الواقع فرض الفرنسية وأنهم على أية حال ما زالوا متمسكين باللغة القومية وما لبث الشعب أن أخذ يعتبر الفرنسية لغة الدنيا على عكس العربية التي أصبحت لغة السمو الروحي في الآخرة»** [1].

فهذا القول يجافي الحقيقة أيضاً، أولاً: لأن الذين تعلموا الفرنسية يبقون أقلية، شريحة محدود – كما أسلفنا – بالقياس إلى مجموع الشعب. ثانيا: أنه لغة الآخرة هذا مفهوم ليس خاصاً بالجزائريين بل لدى العرب والمسلمين كافة. لأن القرآن الكريم نزل بهذه اللغة ولأن الأحاديث الكثيرة التي جاءت عنه رسخت هذه الفكرة، فلسنا بدعاً في ذلك ولا هي فكرة مستحدثة بعد الإستعمار. ثالثا: أن لغة الدنيا – وهي الفرنسية كما يقول الأشرف – فكرة عمل على ترسيخها الفرنسيون وهي إحدى وسائلهم لنشر لغتهم ومحاربة العربية من ناحية وفرضها من ناحية أخرى، لأن كل شيء كان **«مفرنساً»**. والذين تعلموا الفرنسية بحكم ضرورة الحياة يحتاجون إلى عمل وهذا لا يتحقق إلا بالفرنسية، فالمصلحة هنا تلعب دورها في التعليم والوظيفة معاً. أما التثقيف فهو يأتي بعد ذلك، فالجانب العملي هو المستهدف من تعلم الفرنسية بالنسبة

---

[1] المصدر نفسه ص: 430 .

للجزائريين لا الجانب الثقافي الروحي والفكري، ثم إن الذين ثقفوا بهذه اللغة اتجهوا إلى الأعمال الحرة – كما هو معروف – وإذن فوظيفة اللغة هنا هي وظيفة محددة ومحصورة في هذه الناحية في المقام الأول، أما بقيت الأهداف والوظائف فهي تابعة لذلك.

ومثلنا دائما من الجزائر، فبعد الإستقلال وحتى اليوم نجد الفرنسية هي المسيطرة في الإدارة وفي الوظائف على اختلاف مستوياتها باستثناء التعليم إلى حد ما، ولما كان من دوافع الناس إلى التعليم الفائدة، ويأتي التثقيف بعد ذلك، فقد اتجه كثيرون إلى الفرنسية أو إلى الفرع الذي سمي **«مزدوجا»**، والقليل اتجه إلى انفرع الذي سمي **«معربا»** قبل المدرسة الأساسية لماذا؟ لأن الإنسان فطر على حب المصلحة وعلى حب العمل وهذان يتحققان للفرد **(بعد الإستقلال)** بالفرنسية فواظب على تعلمها وإن كانت عواطفه مع العربية، وهذا هو الفرق بين وضع اللغة الفرنسية قبل الإستقلال وبعده. فالجزائريون رفضوها بداية لأنها لغة «الكفار» وتعلمتها فئة من أجل المصلحة، ثم تعلموها للدفاع عن المصلحة الوطنية في مرحلة تالية، ثم بعد الإستقلال لأن الدولة الجزائرية فرضتها فرضاً وكان عليهم أن يتعلموا وأن يعلموا وأن يتثقفوا. وهذه كلها ظروف خارجية، أي خارجة عن إدارة المواطن الجزائري وهذا يتناقض مع ما يتصل بالشخصية والهوية والوطنية. فالدفاع عن هذا شيء واستخدام لغة أجنبية – كالفرنسية – لإغناء الثقافة وتطوير العربية والإستفادة من علوم العصر، شيء آخر بطبيعة الحال.

هذه المفاهيم التي يعتنقها الكاتب في تحليلاته للغة ووضعها واستخدام الناس وحاجتهم إليها ووظيفتها تجعله يصل إلى نتائج جد خطيرة، لأنه يبني أحكامه على مسلمات خاطئة وسنرى في النهاية أن اللغة ستكون مجرد **«وعاء»** لا أكثر ولا أقل.

فالتعريب في مفهومه هو مجرد **«شكل»** ولكن لا بد من تحقيقه، وهو يفصل بينه وبين التعليم لأنه المهم: **«فإن هذا يعني أن الشكل «التعريب» لا بد أن يتحقق باعتباره من الأولويات ومن المستلزمات لا باعتباره مجرد اختيار من**

الإختيارات، نظراً إلى أن التعريب هو الأساس الذي يبنى عليه استردادنا لثقافتنا ولشخصيتنا الوطنية ومع ذلك فلا ينبغي بأي حال من الأحوال وحرصاً على مصلحة الجميع أن يتخذ هذا «الشكل» ذريعة لنسيان جوهر المشكلة ألا وهو التعليم» [1]. ويكرر هذا التعبير (**الشكل**) في تحليله لموضوع اللغة والتعليم مرات عديدة ويصل إلى حكم بأن الطفل بعد أن تتطور العربية: **«سوف يقبل من تلقاء ذاته على تعلم لغة عربية وظيفية لأنه سوف يدرك بأن تعلمه إياها لن يضيره في شيء...»** [2].

وهذه من التناقضات في الواقع حين يكون الحديث عن اللغة بوصفها مقوماً ضرورياً للشخصية الوطنية، فالتعريب ليس شكلاً بل هو الجوهر وإلا لماذا نعمل على تحقيقه، شعباً ودولة، والمحتوى هنا هو الشكل، فاللغة العربية والعروبة والتعريب شيء واحد، ولكن الفصل بين هذه الأشياء هو الذي يجعل الأمر مختلفاً تماماً، فالإقليميون ينادون بتعريب لغوي شكلي والعروبيون ينادون بتعريب فكري، وفكرة **«الشكل»** هذه التي يلح عليها الكاتب دفعته إلى القول بأن **«التلميذ الجزائري»** حين يتعلم العربية فلن يضيره شيء، وكأن المسألة هي مجرد مصلحة أو أن تعلم العربية مفيداً له بعد أن تكون اللغة قد تحررت من شوائب كثيرة . طبعاً هذا ينسجم مع فكر من يعتبر **«الإزدواجية»** ضربة لازب وأن اللغة محايدة، أما الذي يرفض هذه الفكرة فإنه يطالب التلميذ بأن يتعلم لغة آبائه وأجداده إجبارياً كما تفعل كافة الشعوب التي تحترم نفسها وشخصيتها وأصالتها وتعتز بهذا كله، فلا حرية ولا إختيار بين اللغة القومية واللغة الأجنبية.

صحيح أن هذا الكاتب يبريء العربية من العيوب ومن الجمود الإجرامي الذي آلت إليه بسبب جمود أبنائها فليست هي المتخلفة عن المركب بل هم الذين جعلوها تتخلف وأبقوها في حالة من القصور واتخذوها وسيلة للمساومات النيئة

---

[1] مجلة الثقافة – أكتوبر، نوفمبر1977.

[2] المصدر نفسه.

وأداة للتهديد والضغط على الضمائر [1]. والمشكلة هنا ليست الجمود بل هي هذا الحكم العام الذي يقدمه بلا دليل، فالعربية في أقطار عربية كثيرة قد تطورت تطوراً محسوساً في شتى مجالات الحياة الثقافية والعلمية والفنية والأدبية، بل أن بعض البلدان الآن قد طفرت طفرات كبيرة في الميدان العلمي والتكنولوجي بالعربية مثل العراق فضلاً عن سوريا التي عربت كافة ميادين العلم والتعليم منذ عشرات السنين. ثم ما هي العربية التي يعنيها؟؟إذا كان يعني القوالب الجامدة في بعض الصيغ والتعابير أو يعني بعض الأشخاص ممن لم يعملوا على تطوير هذه اللغة الغنية العريقة فالسؤال هو: ماذا فعل لها من يؤمن بتطويرها مثل الكاتب نفسه يوم أن أصبح وزيراً ومسؤولاً هو أو سواه؟؟ فإذا كان هناك **«شكليون»** تعالوا على هذه اللغة أو **«رجعيون»** أسهموا في جمودها فهي إذن ضحية الفئتين في الجزائر، فماذا فعل لها **«المستنيرون»** و**«التقدميون»** و**«العصريون»** و**«العلميون»**؟؟!.

أما رأيه في أنها استخدمت للإرهاب والمساومات والتهديد فهذا لم نشهده إطلاقاً، اللهم إلاّ إذا كان الدفاع عنها والمطالبة باحترامها والعمل على نشرها يعتبر من هذا القبيل!! والعكس هو الصحيح، فالضغط على الضمائر –على حد قوله– صدر من أولئك الذين يهاجمون العربية والمدافعين عنها لمصلحة اللغة الأخرى!!.

واعتبار اللغة محايدة أو التعريب **«شكلاً»** جعل الكاتب ينظر إلى العامية باعتبارها «لغة»، فالجزائر في نظره احتفظت **«بلغاتها الدارجة التي لا تعتبر مجرد لهجات بل كثيراً ما تستعمل في نوع من الثنائية اللغوية المفيدة في أغراض التعامل والتفاهم»** [2]. وبدون الدخول في مناقشة مفهوم اللغة وهل الدارجة لهجة أم لغة، لأن هذا أصبح من البديهيات التي تحدث عنها العام والخاص ويفرق بين اللغة التي لها قواعد وصيغ ومصطلحات وتاريخ ثقافي عريق وبين اللهجات التي لا تتمتع بهذه الخصائص، فإن اعتبار الدارجة الجزائرية **«لغات»** لأن الناس

---

[1] المصدر نفسه.

[2] الجزائر الأمة والمجتمع ص: 416.

يستخدمونها في حياتهم لا يعطيها صفة اللغة ولا صفة التمييز عن اللهجات الأخرى في البلاد العربية أو حتى في العالم بصرف النظر عن جوانب خاصة فيها، وقد سبق لنا أن ناقشنا هذا فيما يتصل بالأدب وهو نفسه فيما يتعلق باللغة والثقافة.

ربما يكون التذكير برأي طه حسين في هذا المجال – مفيداً للتفريق بين مثقفين فرانكوفونيين في هذه القضية، فقد رفض طه حسين إطلاق «لغة» على الدارجة واعتبرها مجرد لهجة وأنها انفصلت عن العربية، ولكي تعود إليها لا بد من نشر التعليم والقضاء على الأمية، في حين أن الأشرف يدعو إلى المحافظة على هذه «**اللغات**» ويرى في البحث عن دمج العامية بالفصحى لتصبحا لغة واحدة هو ضرب من المستحيل، وهو يتأسف: «**على كون هذه «اللغات» الشعبية قد أخذت تتعرض للفساد في بعض المناطق (غير البوادي) فلم تعد تخضع لضوابط الإستعمال وما يقتضيه البيان والتبيين من قواعد... إلى أن يقول: ونظراً إلى افتقارنا للغة طيعة قادرة على نقل الأفكار وعلى توعية الجماهير الغفيرة من الشعب سياسياً واجتماعياً فإننا نتصور العقبة الكأداء المتمثلة في صعوبة نقل الأيديولوجية للجماهير**»[1].

فهذا كلام في السياسة ومن سياسي، لا كلام بحث يناقش قضية اللهجة الدارجة من زاوية لغوية وثقافية وقومية ووطنية. فالفساد الذي طرأ على هذه اللهجة طرأ على مفردتها وصيغتها وكلماتها لا على قواعدها، فليست لها قواعد أصلاً، ولكن السبب في هذا لا يذكره المؤلف، فهو راجع إلى الأمية من ناحية وإلى انتشار الفرنسية بوسائل كثيرة منها التعليم والإعلام والسياسة. «**فالإزدواجية**» في التعليم وفي الإعلام والخطاب السياسي بالفرنسية، هذه كلها أفسدت لا الدارجة ولكن حتى الفصحى، بحيث أصبح الفرد أياً كان مستواه من التعليم لا يجد مفراً من المزج بين الفرنسية والعامية في خطابه، حواراً كان

---

[1] المصدر نفسه ص: 432.

أو كلاماً عادياً أو موجهاً للآخرين. ومقارنة بسيطة بين السبعينات والثمانينات تؤكد حكمنا هذا تماماً. فإذا كان المتحدث في الماضي يعتذر للجمهور حين يبدأ الكلام بالفرنسية فإنه يتحدى هذا الجمهور ويتحدث أو يخطب بها فيؤثر على ذوق الناس ومستواهم اللغوي، وتفسد الدارجة بدورها، فتمزج الجماهير بين لهجتها العامية وبين الفرنسية. هذه هي المشكلة. أما توصيل الأيديولوجية فهذه قضية أخرى. والظاهرة المشار إليها لا تحتاج منا إلى مناقشتها لأنها من البديهيات التي يلحظها الرجل العادي فضلاً عن المثقف المهتم بالموضوع.

والمفروض أن يناقش قضية اللغة الوطنية وتأخرها وعوامل هذا التأخير والضعف ومن كان وراءه، أما الإحتماء بالأيديولوجية وكيف تصل إلى الجماهير فإن هذا عمل مؤقت. والحديث عن اللغة ليس حديثاً عابراً، فهو مثلاً يلح على اللغة بوصفها عامل تفاهم وتبادل بين الناس. فإنه يرى أن الجزائر مادامت لم تتوفر على «**لغة واحدة**» للتكلم والكتابة مثل شعوب أخرى، فعلينا أن نستخدم هذه «**اللغات الشعبية**» لتوصيل ما نريد أن نقوله للجماهير في انتظار وسيلة أخرى هي أنجع وأفيد وعلى أية حال فللضرورة أحكام [1] ولم يقل لنا ما هي الوسيلة الأنجع؟ هل هي العربية أم الفرنسية أم غيرهما؟!! إنه يتهرب من اتخاذ موقف صارم ضد من يروج للفرنسية وينشرها ويستميت في الدفاع عنها!.

ولما كان الكاتب من المدافعين عن الفرنسية فإنه في حديثه عن «**اللغات الشعبية**» لا يسلم بتأثير الفرنسية فيها وعليها إلاّ قليلاً وهو يصرح بذلك بقوله: **«ولنا رأي واضح بخصوص أثر الفرنسية في اللهجات، فهذا الأثر طفيف أو معدوم بالنسبة للأميين الذين كانوا مدركين تمام الإدراك بأن اللغة التي يتكلمونها لغة دارجة كاملة غير ناقصة وإذا كان للفرنسية من أثر عليها ففي مجال معدات الحضارة عندما تكون الألفاظ الدالة عليها مفقودة في الدارجة أو أن الكلمات الفرنسية المعبرة عنها لا تقبل التعريب...»** [2].

---

[1] المصدر نفسه ص: 432.

[2] المصدر نفسه ص: 434.

لا أحب أن أكرر ما قلته آنفاً، لأن الواقع يخالف ما ذكره الكاتب تماماً. وبقدر بسيط من التأمل لحديث الناس نرى كيف أن الفرنسية هي التي أفسدت العامية في المغرب العربي كما أفسدت اللغة الإنجليزية اللهجة العامية في بلدان عربية أخرى ابتليت بالإستعمار الإنجليزي إلاّ في القليل النادر وهذا ليس حكم الواقع والتاريخ والدراسة والبحث والمشاهدة اليومية.

والشطط في الحكم يبلغ منتهاه حين تأتي المقارنة بين الفصحى والعامية، بين المكتوبة والشفوية من حيث الضعف والانحطاط: **«فإن انحطاط اللغات الشعبية أقل وضوحاً وبروزاً من انحطاط اللغة المكتوبة مما جعل الناس لا يهتمون به كثيراً»** [1]. فلو كان هذا الحكم منصباً على فترة ما قبل الإستقلال لربما كان فيه نظر أو مجال للمناقشة، أما الآن وبعد الإستقلال وبعد هذا الإنتاج الغزير نسبياً بالعربية فكيف تكون منحطة أكثر من الدارجة، هذا نتركه للمقارنة في الواقع وهي لا تحتاج إلى تعليق أيضاً!

ولست أدري من أين استقى الكاتب معلوماته وأين رأى المتعلمين بالفصحى يحترقون اللهجات الدارجة؟! إنها أحكام عامة راسخة في ذهنه لا يجب أن تصدر عن أستاذ يتحرى الدقة في الحكم والتاريخ أو التنظير في قضايا جدية خطيرة، فيتهمهم بالعجز والقصور حين يكتبون بالفصحى ويفسر دفاعهم عن العربية تفسيراً لم يخطر ببال أحد، وهو يعتبر ذلك من باب الإهتمام بالشكل لا بالمحتوى، بل إنه يرى أنهم يؤمنون بالفن للفن وهذا حكم أدبي نقدي لا صلة له بالحديث عن اللغة بوصفها تعبيراً عن الهوية أو أداة للتثقيف والتعليم والتبليغ يقول الأشرف ما نصه: **«ومن الغريب أن المتعلمين بالفصحى الذين يحتقرون اللغات الشعبية إنما ذلك لأنهم غير واثقين من أنفسهم ولأنهم لا يملكون زمام الفصحى ولا يكتبونها بطريقة عفوية بل لا يعتبرونها أداة للعمل والبحث والتبادل في الأفكار لأن هذا الأمر في نظرهم أقل أهمية من الإجتهاد للإحاطة بها والتبحر في ميدانها. والسبب في ذلك أن تعلم الفصحى مازال أحياناً**

---

[1] المصدر نفسه ص: 434.

مصبوغاً في الجزائر بالمهارات الفلسفية والمسجلات في الفصاحة والبيان. فهذا التعليم بسيط ومقصور على معرفة اللغة في حد ذاتها وكفاية لذاتها ومن هنا تمسكهم بالشكل واقتصارهم على المبنى دون المعنى وإيمانهم بالفن للفن...» [1].

لقد نقلت هذا النص رغم طوله لكي لا أجزئه وابتسر المعنى أو أحذف منه ما قد يؤول تأويلاً آخراً، أما مناقشة الرأي والحكم فإنني ذكرت بأنني لا أعرف من يحتقر الدارجة من المتعلمين بالفصحى، [2] وهم الفئة الضخمة في المجتمع، ولم أقرأ حتى الآن لواحد منهم من يهاجمها إلاّ إذا كانت الدعوة إلى طغيانها على الألسن وربما الحوار والكتابة على حساب الفصحى إذا كان هذا يعتبر استنقاصاً منها فهذا ما لا يقول به أحد. كذلك إذا أثيرت الدارجة بالنسبة للمسرح أو القصة والحوار فيهما أو كتابة السرد أحياناً بها فإن هذه قضية أدبية نقدية مثلها مثل نظرية الفن للفن أو الواقع للواقع أو الإلتزام وما إلى هذا من قضايا تتصل بنظرية الأدب أكثر مما تتصل بقضية اللغة بوصفها عنصر هوية.

والمفروض أن نفصل بين قضية أدبية وأخرى قومية سياسية تربوية علمية حضارية وإلاّ فإن الحديث يصبح كلاماً لا يفيد ولا يثير إلاّ التساؤل الذي يبحث عن الدوافع لمثل تلك الأحكام؟ وما هي فائدتها في الخدمة العربية حين نربطها بالأشخاص أياً كانت اللغة التي يتكلمونها أو يكتبون بها؟؟

ومن الحقائق المقلوبة حقاً عند الكاتب أن يتهم المثقفين العروبيين – ضمن اتهاماته العديدة المكررة لهم – بأنهم بثوا دعاية في المشرق العربي حتى قرّ في أذهان إخواننا العرب هناك أن الجزائر فقدت لهجتها الدارجة!! وهنا سأضطر مرة أخرى إلى نقل النص حرفياً لنرى التجني المقصود على المثقفين العروبيين والمعربين. يقول الأشرف: **«إن بعض أصحاب الثقافة العربية من الجزائريين**

---

[1] المصدر نفسه ص: 436.

[2] **لقد كنا أول من فتح باب الأدب الشعبي الجزائري في معهد اللغة والأدب العربي بجامعة الجزائر، وقدم الطلاب أطروحات في القصة الشعبية والشعر الملحون ونالوا بها شهادات عليا، فكيف يمكن القول بأنا نحتقر هذه اللهجة والأدب الصادر عنها؟!**

المغتربين في المشرق انتهزوا ما آلت إليه الأمور من اضطراب وفساد فعملوا على إيهام رجال الفكر في تلك البلدان الشقيقة بأن الإستعمار الفرنسي أفقد الجزائر كل شيء وحرمها من استعمال لغتها الدارجة...» [1]

هذا ما قاله الكاتب فهل كان هؤلاء المثقفون الجزائريون الذين (تغربوا) في المشرق العربي قد ذكروا أن الإستعمار حرم الجزائر من اللهجة الدارجة؟؟ أعتقد أنه لا أحد يصدق هذا الكلام الغريب؟؟ لأن الحديث عن اللغة لا يكون عن الدارجة سواء صدر عن العروبيين أم عن الفرانكوفونيين فالجميع حرم من لغته القومية تحت الإحتلال . وكان الأجدر أن ينقد الكاتب أولئك **«الفرانكوفونيين»** الذين يذهبون إلى الشرق العربي – سياسيين أو إداريين أو مبعوثين رسميين – ويستخدمون الفرنسية أمام الملأ حتى حكم علينا هؤلاء المشارقة بأننا ضيعنا العربية الفصحى لا الدارجة، ولو سوّى بين هؤلاء وأولئك لقلنا أن حكماً كهذا قد يكون موضوعياً!!

ونواصل الحديث عن حملته على العروبيين والمعربين، وليس هذا فيما ذكره في الكتاب أو عندنا كان وزيراً، ولكنه يرقى إلى المناقشات التي أشرنا إليها فيما سبق بينه وبين المثقفين والكتاب، فهو يبالغ إلى حد أنه يشكك في وطنيتهم وهذا رأي في منتهى الخطورة والتجاوز لمستوى النقد، ويتهمهم بأنهم **«تأثروا بأفكار في المنفى»**، ولكي يعودوا إلى **«أصلهم»** عليهم أن يكيفوا أذواقهم وتجاربهم مع واقع البلاد فهم في نظره قد فقدوا **«جزائريتهم»** وهذا ما يقوله بالحرف الواحد: **«ويجب أن نلاحظ أيضاً أنه في المدة الأخيرة عاد شبان جزائريون من بلدان الشرق العربي حيث تابعوا دراسات غير متساوية ولم يصلوا إلى التخلص عقلياً من مختلف المذاهب الثقافية والتربوية التي تأثروا بها في المنفى ليكفوا أذواقهم وتجاربهم مع واقع وحاجات الشعب الجزائري بيد أنهم**

---

[1] المصدر نفسه ص: 430.

يستطيعون أن يكونوا مفيدين إذا أرادوا بكل تواضع خدمة للثقافة الجزائرية بأن يستعيدوا جزائريتهم هم أنفسهم» [1].

ولكنه حين يتحدث عن الفرانكوفونيين لا يرى أية مشكلة لديهم لأنهم واعون: «**كثير أو قليلاً بحاجات البلاد في هذا الميدان**» [2]، وهو يقصد الميدان الثقافي وإن وجه إليهم نقداً فلأنهم يحتقرون لغتهم من دون أن يعرفوها حق المعرفة.

ومن غير الممكن أن نعلق بشيء على رأي الكاتب السابق في المثقفين بالعربية حين يتهمهم في أعز شيء لديهم وهي «**جزائريتهم**»، فماذا يبقى من حديث مع كاتب يزعم أنه ينظّر للثقافة الجزائرية ويعالج ضعف العربية ويبحث عن حلول لمشكلاتها. وهل من الحكمة لكاتب أيا كان موقفه ورأيه وقناعة أن يشمل بحكمه فئة من الطلبة الذين درسوا في الجامعات العربية، ويطلق حكمه هكذا جزافاً بلا تبصّر أو حس تاريخي وأن يدعي أنه يحلل عوامله ومعطياته وظروف العربية فيه؟! إنه يتجنى بفكر مسبق على وطنيين أثبتوا في الميدان أيام الثورة وبعد الإستقلال أنهم يضحّون من أجل الوطن وهويته دون أن يستفيدوا شيئاً بينما غيرهم هو الذي حقق الجاه والمنصب والمال والرفاهية والسلطة أيضاً!!

ولنفرض أننا وجهنا له سؤالاً كالتالي: هل هؤلاء الطلبة إذ أتيح لهم أن يدرسوا في فرنسا هل سيصبحون «**جزائريون**» آلياً لأن تلك الجامعات تربي فيهم الإرتباط بالجزائر وثقافتها؟! وهل إذا «**تغربوا**» اختيار أو نفوا أنفسهم في باريس هناك يحققون جزائريتهم؟!

والكاتب يتابع هجومه هذا فيتهم هؤلاء الأشخاص بأنهم مصابون «**بعقدة البؤس والشقاء صاروا يقومون بدعاية منافية للمعقول ويوهمون الأجانب**

---

[1] مجلة الثقافة أكتوبر – نوفمبر 1977.

[2] المصدر نفسه.

بأننا شعب مستلب تخلى عن الإرادة المثلى المعبرة عن شخصية ونعني بها اللغة الدارجة» [1].

مرة أخرى يكرر هذا في معرض عمن وصفهم بأصحاب الثقافة العربية من **«الجزائريين المغتربين»** ولم تثر أية قضية من هذا القبيل فيما له صلة بالإغتراب الثقافي ولكن أثيرت بالقياس إلى من يكتب بالفرنسية من الجزائريين. وقد رأينا في الفصل الخاص بالأدب والثقافة الفرانكوفونية أن بعضا من الكتاب ومنهم مالك حداد وغيره قد عبّر عن هذا الإغتراب للأسباب المعروفة . أما الحديث عن اغتراب خاص بالدارجة فهو من بنات أفكار الكاتب وحده، لأنه لا أحد يعتبرها لهجة أجنبية من ناحية ولأنها جزء من تراثنا الثقافي هي والأمازيغية أو البربرية من ناحية أخرى، ولكن الإستلاب الثقافي والفكري واللغوي منشأه الفرنسية وسيطرتها على الثقافة والفكر وعلى شريحة من الجزائريين الذين يدافعون عنها بحماسة حيناً وبالعنف في أحيان ليست قليلة. والقضية أساساً هي رفض التبعية مهما كان شكلها، فإذا كان الشعب الجزائري قد رفض التبعية السياسية والإقتصادية فهو يرفض التبعية اللغوية والثقافية . وقد عبر عن هذا الموقف محمد حربي حين ردّ على الكاتب في محاورة بينهما حول هذا الموضوع حين ذكر حربي بأن المجال الفرنسي موجود لكنه كمجال للثقافة الجزائرية التابعة التي أوجدها الإستعمار وهدف الثورة هو القضاء على هذه التبعية [2] وتبدو المبالغة أكثر حين يسوّي بين العربية والفرنسية في القضاء على الأمية عندنا يقر بأن: **«محو الأمية في الجزائر هو أكثر من محو الأمية سواء تعلق الأمر بالعربية الفصحى أو الفرنسية»** [3].

هذه باختصار كبير أفكار الأشرف في الثقافة واللغة، وتتفرع عنها آراء وأفكار تتصل بالدين وبالأصالة والمعاصرة وقضايا أخرى لا تدخل في سياق هذه

---

[1] الجزائر الأمة والمجتمع ص: 430 – 431.

[2] الجزائر ثقافات وثورة ص: 184 .

[3] المجاهد الأسبوعي 23 جانفي 1964.

الدراسة. ولكن هناك قضية تمس ما نحن فيه وهو الجانب القومي أو التوجه القومي الذي هو حجر الزاوية في هذا البحث وهو أقرب إلى السياسة منه إلى الفكر والثقافة واللغة، لأن الكاتب يتناول فيه دور الحركة الوطنية أو القومية فهو – على كل حال – يرفض أن تبقى هذه الأفكار التي حركت الجماهير في الماضي. فعلى هذه الحركة **«أن تتخلى عن أغراضها»** ولكن ليس من السهولة بمكان أن يتم ذلك: **«ولكن الشحنة العاطفية الهوجاء التي تحملها الحركة القومية شحنة لا تزول بسهولة بل تستمر وتبقى صامدة باعتبار أنها تشكل – وهذا أمر لا بد من الإقرار به رغم كل اعتراض – العقبة الأساسية للتقارب العالمي الذي ينبغي أن يظهر في ميادين الثقافة والحياة الإجتماعية والإقتصادية والسلوك المدني»** [1].

وبهذا التمهيد يصل إلى حكم آخر وهو أن الجيل الجديد لا تهمه كثيراً هذه **«الأفكار التي ترتبط بالماضي والحنين إلى الماضي البائد»** وأن إصرار **«الرعيل الأول من المناضلين على ما بهم من فقر أخلاقي وعقائدي»** أن يلقنوا الشبيبة **«تلك الأفكار البائدة»** فإنها ستبقى متعطشة إلى أفكار جديدة ثم إن **«التشدد القائم على الوطنية الزائفة والديماغوجية المسيطرة من القمة إلى القاعدة من طرف جماعة من المشعوذين الذين ينادون بمزيد من التشدد في الأخلاق والتزمت في الدين والتشيع لطائفة معينة والتحيز الضيق للوطن فهذا يؤدي إلى الإنحراف والتنكر للقيم الإنسانية»** [2].

هذه هي خلاصة رأيه في الوطنية والقومية قبل الإستقلال وبعده وهو يدعو إلى ثقافة إنسانية، فهو قد تجاوز **«الشوفينية»** التي ما زال يتعلق بها **«الرواد»** وأصبح يفكر تفكيراً عالمياً. ولكن المشكلة هي هل العالمية تتنافى مع خصوصيتنا الوطنية والعروبية؟ وحتى بالمقياس الإشتراكي هل يمكن أن نحقق العالمية بالتخلي عن ذاتيتها؟

---

[1] الجزائر الأمة والمجتمع ص: 442.

[2] المصدر نفسه، والجمل بين قوسين هي من تعابير المؤلف وهي من صفحات 442، 445.

لو أن الكتاب كان عروبياً ثم تطور إلى أن أصبح إنسانياً لقلنا إنه تدرج في سلم الوعي الطبيعي، أما أن ينقلنا من الوطنية فجأة إلى العالمية بلا تمهيد فإن هذا يصعب على شعب مازال يلمام جراحه ويبني ذاته ولم يسترد أنفاسه بعد!!

وكان المفروض أن يناقش القضايا التي تخرج ثقافتنا من أزمتها وأن يبين لنا الطريق الذي نخرج به من التخلف ومن التبعية الثقافية، ثم كيف نقضي على الأفكار التي تركها الإستعمار وكره وثقافته في بيئتنا. ولقد ذكر هذا البزاز الذي يؤمن كما نؤمن بأنه **«لا بد من كفاح طويل ليس أقل مرارة أو أقل ضراوة من الكفاح السياسي الذي قام به أبطال الجزائر واستحقوا بسببه إعجاب العالم وتقديره، لا بد لصيرورة الجزائر عربية بكل معنى الكلمة من أن تعود إليها لغة الضاد قوية»** [1]

وقد تحقق بعض ما تنبأ به هذا المفكر العروبي، وها هي العربية تخطو خطواتها الأكيدة لتسترد مكانتها في أرضها وتترسخ جذورها وترتفع رايتها رغم المعوقات الكثيرة، لأن التاريخ لا يرجع إلى الوراء ولأن الشعب الجزائري ضحّى من أجل أن تبقى الجزائر عربية الجزائر عربية مسلمة.

ومهما يكن من رأينا في مصطفى الأشرف وفي أحكامه وآرائه فإنه قد أثار فينا شهوة الكتابة تماماً كما فعل طه حسين، وسيبقى ما كتباه معاً من التاريخ ويبقى منه ما هو صالح ويذهب الباقي أدراج الرياح...

---

[1] هذه قوميتنا ص: 119 .

خاتمة

حاولت في هذه الدراسة أن أرسم صورة لمسار الفرانكوفونية مشرقاً ومغرباً، ماضياً وحاضراً، أما المستقبل فهو متروك للوعي الوطني ولدور الثقافة القومية في أن تكون هي البداية والنهاية. أما الثقافات الأخرى فهي روافد لها، تغذيها ولا تحتل مكانتها، تطورها ولا تجتثها من أصولها، تندمج فيها ولا تقودها أو تهيمن عليها.

ويمكن أن نسجل نتائج نستخلصها من هذا البحث وهي كالتالي:

أولاً: إن الفرانكوفونية في المشرق العربي كانت عاملاً إيجابياً نسبياً فيما يتصل بتطوير الثقافة العربية والأدب العربي، أسهمت في تطورها شكلاً ومحتوى. فالمثقفون العرب هناك ألّفوا بالفرنسية أو ترجموا عنها أو عرضوا للفكر الفرنسي أو العالمي من خلال هذه اللغة، فإذا كانوا قد تأثروا بها وبثقافتها فإنهم أخضعوها للواقع الوطني والقومي واستفادوا منها تجربةً وفكراً ومنهجاً وإبداعاً وان اختلفت نظرتهم وتأثير الفرانكوفونية فيهم: فبعضهم كان عروبياً – فكراً وتوجهاً، وبعضهم الآخر كان إقليميا فزاده انطواء على الذات وتنكراً للعروبة والوحدة، وهذا هو الجانب السلبي في الفرانكوفونية مشرقاً.

أما العروبيون من الفرانكوفونيين فقد نظروا إليها بوصفها ثقافة إنسانية تمكننا من معرفة الآخر دون خضوع أو شعور بالنقص، فهي عامل إيجابي نسبياً، وهي النظرة نفسها التي انطلق منها أصحاب الثقافة الأنجلوسكسونية من العروبيين الذين أسهموا بوافر إنتاجهم وبحوثهم وابداعاتهم في الأدب العرب والثقافة العربية والفكر العربي الحديث المعاصر عكس الإقليميين منهم – مثل الفرانكوفونيين – فقد انبهروا أيضاً بهذه الثقافة وبالغرب وفكره وحضارته فغرقوا فيها حتى الآذان وتنكروا للعروبة وللوحدة، وإن أفادوا العربية وأدبها وثقافتها وأضافوا إليها الجديد والمفيد.

ثانياً: أما الفرانكوفونية في المغرب العربي فكانت على العكس من ذلك – عامة– ذلك أن أصحابها لم يغنوا الثقافة العربية ولا الأدب العربي لأن أغلبهم كتب بالفرنسية وتأثر بثقافتهم فاحتوته وأصبحت الفرنسية لغتة الأولى بدلاً عن العربية لدى طائفة وأصبحت العربية هي الثانية لدى طائفة أخرى. وكان للوضع الثقافي في المغرب العربي أثره في هذه الظاهرة اللسانية، فالاستعمار الفرنسي وسيطرته على الحياة المادية والفكرية والثقافية جعلت الأدباء والمثقفين الفرانكوفونيين في هذه المنطقة يستوعبون الفرنسية ربما إثباتا، للوجود أو سلاحاً يستخدمونه ضد المحتل أو تعبيراً عن التحدي للفرنسي المتسلط. ولكن بدلاً من أن يتعاملوا مع هذه اللغة في هذا النطاق بعد الإستقلال نراهم قد اندمجوا فيها ودافعوا عن بقائها ولم يحاولوا – باستثناء القلة – أن يتقنوا لغتهم القومية.

وزاد من المشكلة أن الجغرافيا كانت عاملاً مؤثراً بسبب القرب من أوروبا وفرنسا بالذات، فوق أنهم انبهروا بالغرب إلى جانب ضعف الإحساس بالعروبة والوحدة.

فهذه كلها كانت عائقاً أمام جهودهم في الإسهام في تطوير الثقافة والأدب في المغرب العربي.

ومن نتائج هذا الوضع ظهور الدعوات إلى «**الثنائية**» و«**الأمازيغية**» والدفاع عن العامية دفاعاً مستميتاً نتيجة العجز من ناحية والفكر الإقليمي من ناحية ثانية والتأثر بالفكر الفرنسي والثقافة الفرنسية من ناحية ثالثة.

على أن هناك شريحة قليلة من الفرانكوفونيين في هذه الأقطار وقفت إلى جانب العروبة والوحدة ودافعت عنهما كما دافعت عن العروبة والحضارة العربية الإسلامية وعن الهوية القومية مثلها مثل العروبيين ذوي الثقافة القومية، ولو أن تأثير الجميع ضعيف إلى حد ما نظرا إلى المناخ العام وإلى الظروف المختلفة، سياسية كانت أم اقتصادية أم اجتماعية أم ثقافية أم حضارية. ومع ذلك كله فإنها بدأت الآن تجد صدى لمواقفها وفكرها ورؤيتها رغم التجارب

الوحدوية الفاشلة ورغم الإخفاق الذي عانى منه الفكر العروبي ورغم التشتت الذي تعيشه الأمة العربية مشرقاً ومغرباً ودور الحكام والاستعمار في استمراره أطول مدة ممكنة.

ثالثاً: سيطر الاتجاه الديني في الثقافة العربية في المغرب العربي، وهذا أضعف من الحس القومي الوحدوي وأن اعتبر المسلم عربياً والعكس صحيح لأن الإسلام هو دين الأقطار الخمسة وليست هناك ديانة أخرى تزاحمه، ولكنه أفاد من ناحية أخرى وهي الإبقاء على ملامح الثقافة العربية الإسلامية التي تعرضت للتدمير والمسخ أيام الإحتلال الفرنسي والإيطالي للمنطقة.

على أن الوضع الثقافي – بعد الإستقلال – في تونس، الجزائر، المغرب وموريطانيا لم يتغير كثيراً نظراً إلى أن الإطارات الحاكمة في مجملها من خريجي المدرسة الفرنسية قبل الإستقلال، أو خريجي المدارس الوطنية التي كانت الفرنسية فيها صاحبة الحول والطول بعده. وفي المرحلتين إزدهر الفكر الفرانكوفوني وانتعشت الفرانكوفونية وتشبعت بها هذه الفئة الحاكمة ورسختها في الإدارة والتعليم والحياة بشكل عام ما عاد بؤرة هنا وأخرى هناك تم فيها التعريب بجهود مؤمنين به ويستحقون مناكل إشادة وتقدير وتنويه بجهودهم. وقد ضاعف هذا من حدة الصراع بين العربية والفرنسية وبين المثقفين بهذه وبتلك وربما يطول أمد هذا الصراع ما لم يتغير الوضع الثقافي برمته ويحتل الفكر العروبي مكانته في البيئة.

رابعاً: تتميز الجزائر بطابع خاص عن غيرها – لا على نطاق المغرب العربي فحسب بل على نطاق الوطن العربي كله – فالفرنسية فيها موغلة في القدم نوعاً ما لأن الجزائر كما هو معروف احتلت سنة 1930 قبل غيرها من الأقطار العربية التي استعمرتها فرنسا، بحيث ظهرت فئة **«مفرنسة»** فيها مبكراً أي منذ القرن الماضي وقويت شوكتها مع امتداد الزمن، فتحكمت في المجتمع مادياً واجتماعياً وثقافياً في الماضي، وهي الآن تصارع من أجل أن تبقى

الفرنسية – لغة وثقافة – مهيمنة على حياة حفاظاً على المحصلة الخاصة من ناحية وإبعاداً للفكر العروبي الوحدوي عن الساحة من ناحية ثانية.

وما ذكرناه عن الثقافة ينطبق على الأدب والإبداع في شتى ألوانه وأشكاله، فالأداة هي الفرنسية وهي في الوقت نفسه ترسم القوالب والتصورات، فهي المنبع والمصب.

والنموذج هو ما يأتي من فرنسا ومن الغرب بصورة عامة وإذا كان بعض الفرانكوفونيين من الأدباء يلتقي مع العروبيين ذوي الثقافة العربية فإن بعضهم الآخر إقليمي مثل بعض «المعربين»، وهناك من ينزع نزعة إسلامية بحتة خاصة في المرحلة التي تمر بها الجزائر الآن على أن العربية اليوم – في الجزائر – بدأت تسترد مكانتها **(وفي أقطار المغرب العربي الأخرى أيضاً)** وظهر جيل جديد يبدع بها ويؤمن بها وليست لديه **«عقدة اللغات»** لأنه يتقن لغات متعددة منها الفرنسية. وهذا الجيل الجديد سيغير من مجرى الثقافة العربية والأدب العربي في هذه المنطقة ويعيد لهما إشراقتهما وأصالتهما العريقة في هذه البيئة.

خامساً: بالرغم من أن هذا الأدب وهذه الثقافة في المغرب العربي قد استخدم أصحابها لغة أجنبية فإن نظرتهم كانت وطنية وإن لم تكن عروبية في غالب الأمر، ولكن سيبقى ما كتبوه هو أدب فرانكوفوني لأن اللغة التي عبر بها هؤلاء هي أجنبية وليست اللغة القومية بطبيعة الحال.

على أننا نسجل أن الصراع اللغوي والثقافي في المغرب العربي– وخاصة في الجزائر – قد خلق انقساماً حاداً في صفوف المثقفين، فهناك ذوو الثقافة العربية واللغة العربية التي هي اللغة الوطنية، وذوو اللغة الفرنسية التي هي لغة عدو الأمس الذي احتل المنطقة وأوجد تمايزاً لسانياً بين الفئتين، ومما غذّى هذا الصراع وجود الفكر الإنعزالي والروح الإقليمية والجهل بالتراث العربي وباللغة العربية وآدابها وثقافتها، مما أوجد هوة سحيقة بين الفئتين لا تزول إلا بزوال جيل متأثر باللغة الفرنسية متشبث بها وبوجودها.

ويخشى أعداء العروبة من الجزائر التي انتصرت في ثورة نوفمبر المجيدة بالأمس أن تنتصر فيها الديموقراطية اليوم، فتؤثر في المحيط القريب والبعيد وتكون مثلاً آخر جديداً لمقاومة النفوذ الفرنسي. وإذا كان هذا الصراع لا يشتد في تونس والمغرب لأن الحكومتين فيهما دخلتا رسمياً **«مظلة»** الفرانكوفونية، فإن الجزائر التي لم تدخلها رسميا يمكن أن تسهم مستقبلا في إعادة الإعتبار للثقافة القومية.

ومهما يكن، فإن هذه الدراسة حاول صاحبها أن يرصد ملامح الفكر الفرانكوفوني كما ظهر في السياسة والأدب والثقافة، وصاحبها لا يرفض الفرانكوفونية جملة وتفصيلا ولكنه يرفض هيمنتها على العقول وعلى المناخ الثقافي عندنا، فهو يدرك حاجتنا إلى تنوع الثقافة وتنوع مصادرها وألوانها وتعدد مناهجها وتجاربها، ولكنه يؤمن أولاً بالهوية العربية ونحن منها، يؤمن بالحضارة العربية الإسلامية ولا يفصل بين العروبة والإسلام، يؤمن بالعروبة الحضارة وبالوحدة التي تقوي ولا تضعف، توحد ولا تشتت، تؤمن بالإنسان وبالمستقبل وتعتز بالأمجاد ولا تتنكر للآخر وتعمل على ازدهار الحاضر وتناضل من أجل الغد الأفضل.

د. عبد الله ركيبي

المراجع

أولاً: مراجع عربية

- أحمد بن نعمان – التعريب بين المبدأ والتطبيق – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر 1981 .
  – فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر – منشورات دحلب الجزائر 1991 .
- أدونيس – مقدمة للشعر العربي – دار العودة – بيروت ط3 1979 .
- الدار العربية للكتاب – الأنتلجنسيا العربية – تونس – ليبيا 1987 .
- المنصف وناس – الدولة والمسألة الثقافية في الجزائر – دار أليف للنشر – تونس بلا تاريخ.
- المهدي المنجرة – الحرب الحضارية الأولى – مطبعة الشباب – الجزائر 1991 .
- أنور الجندي – الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا – الدار القومية للطباعة
- والنشر – مصر 1965 .
- جان فونتان – الأدب التونسي المعاصر – الدار التونسية للنشر – تونس 1989.
- حسن حنفي، محمد الجابري – حوار المشرق والمغرب – دار توبقال للنشر– المغرب ط 1 1990.
- دار القدس – مختارات ساطع الحصري – جـ 2 بيروت بلا تاريخ .
- رجاء النقاش – أدباء ومواقف – المكتبة العصرية – صيدا – بيروت بلا تاريخ .
- سامح كريم – طه حسين يتكلم – دار المعارف – مصر 1978 .
- سعاد محمد خضر– الأدب الجزائري المعاصر – المكتبة العصرية– صيدا – بيروت
- سعدي بزيان– أحاديث ممتعة– الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر 1981.
- صلاح العقاد – المغرب العربي– مكتبة الأنجلو المصرية – مصر 1962 .
- طه حسين – في الأدب الجاهلي – دار المعارف – مصر ط 12 1977 .
  – مستقبل الثقافة في مصر – مكتبة المعارف – مصر 1938.
- عايدة أديب بامية – تطور الأدب القصصي الجزائري – ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر 1982 .
- عباس الجزائري – الثقافة في معركة التغيير– دار النشر المغربية – الدار البيضاء 1972.
- عباس محمود العقاد – ساعات بين الكتب – دار الفكر – القاهرة 1978.

- عبد الرحمن البراز – هذه قوميتنا – دار القلم القاهرة – 1964.
- عبد الرحمن بن العقون – الكفاح القومي السياسي– جـ 2 المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائري 1984 .
- عبد العزيز شرف – طه حسين وزوال المجتمع التقليدي – الهيئة المصرية للكتاب – مصر 1977 .
- عبد الكريم غلاب – في الثقافة والأدب – مطبعة الأضلي الدار البيضاء 1964
- عبد الله ركيبي – أحاديث في الأدب والثقافة – دار الكتاب العربي – مصر 1966.

– القصة القصيرة – المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر – والدار العربية للكتاب ليبيا، تونس ط3 1983 .

– تطور النثر الجزائري الحديث – المؤسسة الوطنية للكتاب– الجزائر 1983.

– عروبة الفكر والثقافة – المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر 1986 .

- عبد المجيد النجار – صراع الهوية في تونس – شركة ديبيتال للنشر والطباعة – تونس 1990 .
- فرحان صالح – هموم الثقافة العربية – دار الحداثة – بيروت ط1 1988 .
- محمد العربي الزبيري – مذكرات أحمد باي وحمدان خوخة وبوضربة – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر 1973 .
- محمد هشام بو قمرة – القضية اللغوية في تونس – الشركة التونسية للتوزيع – تونس 1985 .
- مصطفى عبد الغني – طه حسين والسياسة – دار المستقبل العربي – بيروت 1986 .
- مهدي مبروك – هل نحن أمة ؟ – دار البراق للنشر – تونس 1989 .
- مخائيل نعيمة – الغربال – دار صادر – بيروت 1964 .

ثانياً: مراجع مترجمة إلى العربية

- محمد حربي – جبهة التحرير الوطني – الأسطورة والواقع – ترجمة: كميل قيصر داغر – دار الكلمة – بيروت 1983 .
- مصطفى الأشرف – الجزائر الأمة والمجتمع – ترجمة: حنفي بن عيسى – المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر 1983 .

❖ وليام ل. كليفلاند – ساطع الحصري من الفكرة العلمانية إلى العربية – ترجمة: فكتور سحاب – دار الوحدة للطباعة والنشر – بيروت ط1 1983 .

ثالثاً: دوريات عربية

❖ مجلة « أول نوفمبر» – الجزائر، مارس – أفريل 1991 .
❖ مجلة «الثقافة» – الجزائر، أكتوبر – نوفمبر 1977 .
❖ مجلة«الحوار» باريس، جانفي – ديسمبر 1989 .
❖ مجلة « الرواية» الجزائر جانفي 1990 .
❖ مجلة «الفكر العربي المعاصر» – لبنان – عدد 37 ديسمبر – جانفي 1985 – 1986 .
❖ مجلة «المسار التونسية» – تونس – عدد 2، شتاء 1989 .
❖ مجلة «المستقبل العربي» – مركز دراسات الوحدة العربية– بيروت – أعداد 141 نوفمبر 1990– 142 ديسمبر 1990– 144 فيفري 1991 .
❖ مجلة«الوحدة»– الجزائر – أعداد: من 30 ماي إلى 6 جوان 1990 – 3مارس 1988 – 9، 15 نوفمبر 1989.
❖ مجلة «اليوم السابع» – باريس 6 نوفمبر 1989 .
❖ مجلة «كل العرب» – باريس 29 جانفي 1990 .
❖ مجلة «منبر أكتوبر» – حزب الحركة من أجل الديموقراطية – الجزائر مارس 1990 .
❖ جريدة «أضواء» (أسبوعية) – الجزائر 1ديسمبر 1983 .
❖ جريدة «الجمهورية» (العدد الأسبوعي) الجزائر 18 أكتوبر 1989 .
❖ جريدة «السلام يومية» – الجزائر 14، 28 ماي 1990 – 3 ديسمبر 1990 – 4، 5، 8 جانفي 1991 – 27 جوان 1991 – 4، 8، 15، 20 جويلية 1991 – من 8 إلى 11 أوت 1991 – 28 أكتوبر 1991 – 12 نوفمبر 1991.
❖ جريدة «الشعب»(يومية) – الجزائر 20 مارس 1965 – من 29 أوت إلى 6 سبتمبر 1977 – 2 ماي 1984 – 25 جوان 1986 – 25 ماي 1988 – 20 أفريل – 18 ماي – 5 جوان – 29 سبتمبر – 8، 23 أكتوبر – 7، 10، 21، 28 نوفمبر 1989 – 17، 26، 27 فيفري 1990 – 17 ماي 1990 – 23، 24 جويلية

1990 – 9 أكتوبر، 27 أكتوبر 1990 – 1 ديسمبر 1990 – 8، 10، 13 ...
. 1991

- جريدة «الصح آفة» (أسبوعية) – الجزائر 6 نوفمبر 1991
- جريدة «العرب» (يومية) – لندن 6 فيفري 1990 .
- جريدة «المجاهد» (أسبوعية) – الجزاءر 16، 23 جانفي 1964 – 6، 27 فيفري 1964 – 12، 19 مارس 1964 – 2 أفريل 1964 – 28 جانفي – 1، 8 أفريل – 20، 27 ماي وأعداد شهر جويلية 1965 – 8 جانفي 1988 – 23 مارس 1990
- جريدة «المساء» (يومية) – الجزائر 17 ديسمبر 1989 – 27 فيفري 1990 – 4 مارس، 5 جوان 1990 – 6 جانفي وما بعده 1991 – 10، 11 ماي – 21، 22 جوان – 31 أكتوبر 1991 .
- جريدة «المسار المغاربي» (أسبوعية) – الجزائر 14 جانفي 1991 .
- جريدة «جسور» (أسبوعية – الجزائر 31 أكتوبر– 14 نوفمبر 1991.

رابعاً: نشرات وقواميس

- الميثاق الوطني – المعهد التربوي الوطني – الجزائر 1976 .
- ميثاق الجزائر – (نصوص المؤتمر الأول لحزب جبهة التحرير الوطني أفريل 1964 : المذيعة الوطنية الجزائرية ط1 – بلا تاريخ .
- المورد – قاموس انجليزي – عربي – دار العلم للملايين – بيروت 1990 .
- الموسوعة الميسرة – دار القلم بالإشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر – مصر ط1 1965 .
- لاروس – قاموس عربي فرنسي – مطبعة لاروس – فرنسا 1965 .

خامساً: مراجع باللغة الأجنبية

- **BEN Youcef Ben Khedda. LES origins du 1er Novembre 1954.**
- **Bachir Boumaaza. Ni Ayatollah. paris 1984.**
- **Brun Etienne. L'Algérie Culturs et Révolution. Seuil Paris 1977.**
- **Gafaiti Hafid . Kateb Yacine– La Phomie Alger 1986.**

❖Ghani Merad. La litterature Algérainne D'éxpression Francaise. P. J. OSUWALD Paris 1976.
❖Gilbert Grand Guillaume. Arabisation Politique Linguistique au Maghreb Maisonneuve et larose – Paris1983.
❖Guy Perville , les Etudiants Algeriens deL'université F – 1880–1962. E. N. R. S–Paris 1984.
❖Jen Déjeux–littérature Maghribine de la Langue Française, Edition Naama de Sherbrouk Québec– Canada 2émeEd. 1978.
❖Jean leca–Jean claude Vatin ,L' Algérie Politique Institutions et Régime. Presse de la Fondation des Sciences Politiques Paris 1975.
❖L'Ahjomri Abdeljlil,L'Image du Maroc dans lalitteratureFrançaise(de loti à montherlant). S. N. E. D. Alger 1973.
❖Luis jean Calvet. Linguistique ColonialismeP. B. P–Paris 1974.
❖Xavier Deniau. La Francophonie(Que sais–je ?). Presses Universitaires de France. Lére Edition–Paris 1983.

سادساً: دوريات باللغة الأجنبية

❖1–Alger Actualité–29–06/05–07–1989 ,–22–28/11–1990.
❖2–Confluent–Revue mensuelle N^{0}47–janv–Fev–Mars–Paris 1965.
❖3–Horizon–Alger–06–07–1989.
❖4–La Révolution Africaine–Alger 03–11–1989.

الفهرس



الدكتور عبد الله ركيبي. علامة بارزة في صرح الثقافة والإبداع الجزائري، بما أسداه من أعمال نقدية و أدبية كانت معالم في درب الثقافة والإبداع الجزائري، وبما قدمه من جهود عميقة لإعلاء صرح جزائر الحرية والمجد فقد كان إرادة خيرة وبانية لأسس الانبعاث الفكري والثقافي وانبعاث الوطن الجزائري، فلم يكن الكاتب الكبير عبد الله ركيبي كاتبا وفقط يبحث عن الشهرة والخلود، بل كان قلبا كبيرا حمل هم الوطن وهم الوطن العربي الكبير، وناضل ثقافيا وباستمرار لانتصار قيم البقاء في كيان الأمة العربية الكبرى، وكان جهده بعيد المدى وعميق الأداء فكان إرادة قوية في الدفاع عن اللغة العربية ومقومات الجزائر والعروبة السمحاء بمفهومها الواسع الأصيل المنحدر من اللغة العربية ومقوم الأمة الأكبر، إسلام الحب والسلام والوحدة والحرية.

ويعد الكاتب الكبير عبد الله ركيبي، من جيل بناة مجد الجزائر فلم يفته أساس من أسس بناء مجد حاضر الجزائر الثقافي والفكري والوطني إلا وبذل فيه الجهد الراسخ ليظل شاهدا على مجد كاتب أحب الجزائر من كل القلب، فأحبه أبناء الجزائر حب الأبناء للآباء.

ISBN : 9947 833 61 2

9789947833612

دار الكتاب العربي

للطباعة، النشر، التوزيع والترجمة

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة